المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة الملك سعود
كلية التربية
قسم الدراسات الإسلامية

بحوث

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

The International Conference on Mercy in Islam

الجزء الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

اسباب الرحمة وأثرها
في إصلاح الفرد والمجتمع
من خلال آيات القرآن الكريم

إعداد:
خالد أحمد بركات

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين. وبعد:

إن من المواضيع البالغة الأهمية للبحث (خلق الرحمة)، فلا يكاد القارئ لكتاب الله يمر على آية من آياته، إلا ويجد فيها ذكر الرحمة صريحًا أو إشارةً، كيف لا والرحمة هي الغاية التي أرسل بها محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

أهمية البحث:

إن موضوع خلق الرحمة في غاية الأهمية الإنسانية، وإن الإنسانية جمعاء بحاجة في كل زمان ومكان إلى خلق الرحمة في جميع جوانب حياتها الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والتعليمية، والتربوية؛ ولهذا كان موضوع هذا البحث: (أسباب الرحمة وأثرها في إصلاح الفرد والمجتمع من خلال آيات القرآن الكريم) ضمن المحور الأول (تأصيل خلق الرحمة في الإسلام) من محاور المؤتمر الدولي (الرحمة في الإسلام).

أهداف البحث:

- التعرف على أسباب الرحمة وأثرها في إصلاح الفرد والمجتمع.
- حث المسلمين على التحلي بصفة الرحمة، واتخاذ القرآن هدى ورحمة للتراحم فيما بينهم، واتباعهم نبيهم (الرحمة المهداة)، وتخلقهم بخلقه ﷺ.
- التأكيد على أن الإسلام الذي ارتضاه الله للناس هو دين الرحمة والسلام، وليس دين إرهاب وسفك للدماء.

مشكلة البحث:

- التأكيد على دعوة القرآن للتراحم والتعاطف في زمن باتت البشرية تعيش فيه معيشة الضنك والبغضاء والبغي.
- تصحيح مفهوم كثير من المسلمين، واجتناب ظنهم أن الإسلام دين غلظة وشدة، وأن المسلم ينبغي أن يكون شديدًا في معاملته مع الآخرين، فكان هذا البحث توضيحًا لعدم التناقض بين رسالة الرحمة والتخلق بها، وبين التزام الإنسان بها وتمسكه بدينه.

منهج البحث:

اتبعت في منهج هذا البحث الخطوات التالية:

١. استقراء لبعض الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضع (أسباب الرحمة وأثرها في إصلاح الفرد والمجتمع)، اقتصارًا والتزامًا بعدد صفحات البحث المشروط.

٢. توثيق المعلومات وعزوها إلى مصادرها ومراجعها.

٣. تخريج الأحاديث ذات الصلة بموضوع البحث.

وقد قمت بتقسيم البحث إلى مقدمة، وتمهيد، وعشرة مباحث، وخاتمة.

التمهيد: وتكلمت فيه عن مفهوم الرحمة في اللغة والاصطلاح.

المبحث الأول: الإيمان، وتحته مطلبان:

المطلب الأول: الإيمان وصلته بالرحمة.

المطلب الثاني: أثر الإيمان في إصلاح الفرد والمجتمع

المبحث الثاني: التقوى، وتحته مطلبان:

المطلب الأول: التقوى وعلاقتها بالرحمة.

المطلب الثاني: أثر التقوى في إصلاح الفرد والمجتمع.

المبحث الثالث: القرآن الكريم وصلته بالرحمة.

المبحث الرابع: الدعاء، وتحته مطلبان:

المطلب الأول: الدعاء وصلته بالرحمة.

المطلب الثاني: الدعاء وأثره في إصلاح الفرد والمجتمع.

المبحث الخامس: الاستغفار.

المبحث السادس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحته مطلبان:

المطلب الأول: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلته بالرحمة.

المطلب الثاني: أثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في إصلاح الفرد والمجتمع.

المبحث السابع: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأثرهما في إصلاح الفرد والمجتمع، وتحته مطلبان:

المطلب الأول: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصلتها بالرحمة.

المطلب الثاني: أثر إقام الصلاة وإيتاء الزكاة في إصلاح الفرد والمجتمع.

المبحث الثامن: طاعة الله ورسوله ﷺ وأثرها في إصلاح الفرد والمجتمع.

المبحث التاسع: الهجرة في سبيل الله وأثرها في إصلاح الفرد والمجتمع.

المبحث العاشر: الجهاد في سبيل الله، وتحته مطلبان:

المطلب الأول: الجهاد في سبيل الله وصلته بالرحمة.

المطلب الثاني: الجهاد في سبيل الله وأثره في إصلاح الفرد والمجتمع.

الخاتمة وفيها: ملخص البحث، والتوصيات، والفهارس، والمصادر والمراجع.

التمهيد
مفهوم الرحمة في اللغة

من خلال البحث عن معنى الرحمة في كتب اللغة تجد أنها تتفق على معنى الرقة والعطف[١]، والرحم والرحمة بمعنى واحد[٢]، والعلاقة بين الرحم والرحمة وطيدة، فالرحم في اللغة: «علاقة القرابة، ثم سميت رحم الأنثى رحمًا من هذا، لأن منها ما يكون ما يراحم ويرق له من ولد»[٣]، فالرحم والرحمة مشتق بعضها من بعض[٤]، لقوله ﷺ: (قال الله تعالى: أنا الرحمن وهي الرحم، شققتُ لها اسمًا مِن اسمِي، مَنْ وَصَلها وَصَلتُه، ومَنْ قَطَعَها بتتُّه)[٥]. فالرحم مشتقة من اسم الرحمن، والرحمن والرحم مشتقان من الرحمة، وأما الرحيم فالصواب -والله أعلم- أن الرحمن والرحيم وإن اشتقا من الرحمة إلا أنهما متغايران في الدلالة، فالرحمن اسم مختص بالله ﷻ، لايجوز أن يسمى به غيره[٦]، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ

(١) لسان العرب، لابن منظور، أبي الفضل، جمال الدين بن مكرم، دار لسان العرب، بروت (١/١١٤٣).
(٢) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، دار الفكر العربي، ط: سنة ١٩٧٨م، ت: عبدالسلام هارون، (٢/٤٩٨).
(٣) المصدر السابق، (٢/٤٩٨).
(٤) مقدمة جامع التفاسير، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، دار الدعوة، الكويت، ت: أحمد حسن فرحات، ط: الأولى سنة ١٩٨٤م، ص ١١٤.
(٥) سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني، دار الرسالة العالمية، ط: الأولى ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، ت: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، (٣/١١٩)، ح(١٦٩٤). قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح إسناد رجاله ثقات ثقات.
(٦) المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، دار المعرفة، بيروت، ت: محمد سيد كيلاني، ص١٩٢.

ﵟٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰﵞ [الإسراء:١١٠]، فكما أن (الله) اسم ليس لأحد فيه شركة، كذلك الرحمن[١]، والرحمن أيضًا «صيغة مبالغة من الرحمة، معناها أنه انتهى إلى غاية الرحمة، وهي أبلغ من (فعيل)، و(فعيل) أبلغ من (فاعل)، لأن راحمًا يقال لمن رحم ولو مرة واحدة، ورحيمًا لمن كثر منه ذلك، والرحمن النهاية في الرحمة»[٢].

وأما الرحيم فيستعمل في غير الله ﷻ، لمن كثرت منه الرحمة، وقد وصف رسولنا الكريم بالرحيم ﷺ في قوله تعالى: ﵟلَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞﵞ [التوبة:١٢٨][٣].

مفهوم الرحمة في الاصطلاح:

للرحمة في الاصطلاح تعاريف عدة، منها قول الآلوسي: "فلأن كون الرحمة في اللغة رقة القلب إنما هو فينا، وهذا لا يستلزم ارتكاب التجوز عند إثباتها لله ﷻ، لأنها حينئذ صفة لائقة بكمال ذاته كسائر صفاته"[٤]، وعرفها ابن القيم فقال: "إن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه وشقت عليه، فهذه هي الرحمة الحقيقية"[٥].

وقد وردت مادة (ر ح م) في القرآن الكريم بصيغ متعددة، إضافة إلى

(١) جمهرة اللغة، لأبي بكر محمد بن الحسن، المعروف بابن دريد، دار العلم، بيروت، ت: د. رمزي منير بعلبكي، مادة (رحم)، (٥٢٤/١).
(٢) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، لأبي زيد عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف، المعروف بالثعالبي، مؤسسة الأعلى، بيروت، (٢١/١).
(٣) المفردات، للراغب الأصفهاني، مادة (رحم)، ص١٩٢.
(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني الألوسي، دار الكتب العلمية، بيروت ت: علي عطية، ط: الأولى، سنة ١٤١٥ هـ.
(٥) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن قيم الجوزية، مكتبة المعارف، الرياض، ت: محمد الفقي، (١٧٤/٢).

البسملة في سورة الفاتحة ثلاث مائة وتسع وتسعين مرة[١]. فالرحمة الإلهية وسعت كل شيء، وسعت القريب والبعيد، والكبير والصغير، والكافر والمؤمن، والإنسان والحيوان والطير، كما قال ﷺ: «إِنَّ لِلَّه مِائَةَ رَحْمَة أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْس وَالْبَهَائِم وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَة»[٢]، والرحمة صفة لائقة بكمال ذات الله سبحانه وتعالى كسائر صفاته، وصف بها نفسه، وكتبها على نفسه الكريمة تفضلًا منه وإحسانًا، وغلبت رحمته غضبه، وأودعها في قلوب جميع مخلوقاته ليتراحموا بها فيما بينهم.

ومن خلال استقراء الآيات التي وردت فيها الرحمة، والرجوع إلى كتب التفسير، يتبين أن المعاني التي ورد عليها لفظ الرحمة في القرآن الكريم ثلاثة عشر وجهًا، وهي: النبوة، والمطر، والقرآن، والجنة، والرزق، والعصمة، والسعة، والتوفيق، والمودة، والرحمة بما يقابل كشف الضر، والشفاعة، والشفقة والرقة، والرحمة صفة لله سبحانه وتعالى. وقد اعتمدت صفة الرحمة لله سبحانه وتعالى وأسبابها عنوانًا للبحث.

---

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ص٣٠٦.

(٢) صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج، أبو الحسن القشيري النيسابوري، ت: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: ٢، سنة ١٩٧٢، (٢٠١٨/٤)، ح(١٩).

المبحث الأول
الإيمان

المطلب الأول
الإيمان وصلته بالرحمة

إن من أعظم نعم الله على بني الإنسان الإيمان، والإيمان هو أول أسباب رحمة الله، ولذا قال عن المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:٢١٨]، وبشرهم بالرحمة بعد أن ناداهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٣]، قال الآلوسي: "دل على أن المراد بالصلاة الرحمة"[(١)]. فنالوا جنته برحمته وفضله ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:١٧٥].

المطلب الثاني
أثر الإيمان في إصلاح الفرد والمجتمع

لقد ورد كثير من الآيات القرآنية التي تبين أثر الإيمان في إصلاح الفرد والمجتمع، ومن هذه الآثار:

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي، دار الفكر، بيروت، (٨/٤٣).

- **محتوى الإيمان:**

فالإيمان بالله يجعل كل فرد في المجتمع يشعر بمراقبة الله لأفعاله، والإيمان بالملائكة يجعله يستحيي من مخالفة أمره لعلمه أن الملائكة الحافظين الكاتبين تحصي عليه ما يفعل، والإيمان بالكتب يجعله يعتز بكلام الله المنزل ويتقرب إليه بتلاوته والعمل به، والإيمان بالرسل يجعله يأنس بسِيرهم فيتأسى ويقتدي بهم، والإيمان باليوم الآخر ينمي فيه حب الخير رجاء ثوابه في الجنة، وكره الشر خشية عقابه في النار، والإيمان بالقدر خيره وشره يوطن نفسه للرضا والصبر والتصبر.

- **الإيمان والسعادة:**

الإيمان هو السبيل إلى الحياة السعيدة الطيبة لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]، وفقدان السعادة يعني حلول القلق والاضطراب النفسي والهم والحزن. والإيمان هو المؤدي إلى الطمأنينة والسكينة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:٤]، وأهم ما يميز المجتمع المؤمن عن المجتمع الغربي غير المتدين عقيدة الإيمان بالله وما تقدمه من الأمن والطمأنينة للنفس البشرية، وتدفع عنها عوامل الأمراض النفسية المؤدية إلى اليأس والانتحار، وكلما ازداد إيمان الإنسان كلما ابتعد عن هواجس اليأس والقلق وما تسببه من أمراض.

- **الإيمان والصبر:**

الإيمان له ارتباط وثيق بالصبر، ونزول الرحمة، وقد نادى الله سبحانه وتعالى

عباده المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣]، فبالصبر تنال كل فضيلة، وبالصلاة ينهى عن كل رذيلة، ثم خاطبهم فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧]، أي: أولئك الموصوفون بما ذكر، لهم ثناء الله ورحمته، والهداية إلى طريق السعادة. يقول صاحب تفسير المنار: «وأما الرحمة فهي ما يكون لهم في نفس المصيبة من حسن العزاء، وبرد الرضا، والتسليم للقضاء، فهي رحمة خاصة يحسد الملحدون عليها المؤمنين، فإن الكافر المحروم من هذه الرحمة في المصيبة تضيق عليه الدنيا بما رحبت، حتى أنه ليبخع نفسه إذا لم يعد له رجاء في الأسباب التي يعرفها، وينتحر بيده ويكون من الهالكين»(١).

فاليأس من أخطر الأمراض التي تعصف بالنفس، وقد توردها المهالك، والمؤمن يعلم أن مصائب الحياة ما هي إلا ابتلاء من الله يعرف بها المؤمن الصابر من الكافر القانط، فكيف يقنط المؤمن من رحمة ربه وهو يقرأ قوله ﷻ على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦]، وقوله ﷻ على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، فالقنوط مقرون بالضلال، واليأس بالكفر، كما أن الإيمان مقرون بالصبر، والصبر بالتقوى والإحسان، والرحمة قريبة من المحسنين.

- **الإيمان والأخلاق:**

الدين والأخلاق عنصران متلازمان، فالأخلاق مرتبطة بالإيمان،

(١) تفسير المنار، لرضا محمد رشيد، مطبعة المنار، مصر، ط: الأولى، سنة ١٣٤٦هـ، (٤١/٢).

وأعلى شعبة من شعب الإيمان شهادة أن لا إله إلا اللّه، وهي التي لا يكون الإنسان مسلمًا إلا بها، وأدنى شعب الإيمان إماطة الأذى عن الطريق، وعليه فإن فلاح المؤمن مرتبط بدمج الجانب التعبدي مع الجانب الأخلاقي في الإسلام.

- **الإيمان والعمل والإصلاح:**

إن الدافع إلى العمل هو الإيمان باللّه، فالمؤمن يعمل بدافع الإيمان، لا بسوط يسوقه من الخارج، فهو يعلم أن مهمته هي عمارة الأرض، ويوقن أن السعادة في الآخرة والنجاح في الدنيا موقوف على العمل، لأن الجنة ليست جزاء للكسالى بل للعاملين ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف:٧٢]. وإن الباعث على الإصلاح هو الإيمان باللّه ﷻ، فلا صلاح ولا إصلاح لأحوال الخلق أجمعين إلا بالإيمان بخالق الخلق والعالم بما يصلح شؤونهم، والمتأمل في آيات القرآن الكريم يجد الرابط بين الإيمان والعمل والصلاح والإصلاح، ولا يمكن أن يكون إصلاح بغير المنطلق الإيماني.

- **الإيمان والأمن:**

العلاقة بين الإيمان والأمن تتضح من نفس حروف مادة (أ م ن)، وهذه المادة يشتق منها الإيمان، وتدل عليه كما تدل على الأمن، فهي متقاربة في الاشتقاق، في اللفظ والمعنى والدلالة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]، ويؤيده قوله ﷺ: (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ)[1]. الأمن نعمة

(١) سنن الترمذي، باب ما جاء في أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، ١٧/٥، (٢٦٢٧)، =

كبرى لايعرف فضلها إلا من حرمها، وهي ثمرة من ثمرات الإيمان، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًا﴾ [النور:٥٥]، إن النفس تطمئن بالإيمان، وتستقر حياة المؤمن بالأمن، في حين أن الخوف يساور المرء عندما يبتعد عن الله ويكفر بنعمائه، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]، وفي ضرب الأمثال، وذكر الأمم السابقة عبرة وعظة، فصاحب النفس المطمئنة يجد عزاه بإيمانه، فتقوى روحه على الدنيا وما فيها، قال ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»(١).

إن العالم اليوم يعيش التقدم المادي، وإن الأمم الكبرى تعيش في قمة التطور المذهل في كافة مجالات الحياة، لكنها تفقد الأمن والأمان بفقد الإيمان، فيسيطر عليها الخوف والجزع، وما أشبهها بحال الأمم قبل بعثة النبي ﷺ المرسل رحمة للعالمين، وما تزال رسالته التي تحقق الرحمة للعالمين بين أيدينا، وما زلنا نحن حملة هذه الأمانة التي يجب أن نؤديها إلى أنفسنا أولًا قبل العالم كله، وأعظم أمانة أعطيها الإنسان وكلف بها هي الإيمان بالله، ولا يتحقق الأمن في المجتمع من غير تحقق سلوك المؤمنين في عهد النبي ﷺ الذين تحقق بهم ذلك الأمن. فالسجون في أمريكا وغيرها تفتح

= وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه، باب حرمة دم المؤمن وماله، ٥/٨٦، (٣٩٣٤)، ومسند الإمام أحمد، للإمام أحمد بن حنبل الشيباني، ط: الرسالة (١٤/٤٩٩)، ح(٨٩٣١).

(١) سنن الترمذي، للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، ط: الثانية، مصطفى البابي الحلبي/ مصر، سنة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، (٤/٥٧٤)، ح(٢٣٤٦)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث مروان بن معاوية»، وأخرجه ابن ماجه في السنن، باب القناعة، ٥/٥٣، (٤١٤١)، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: «حديث حسن بمجموع شواهده».

أبوابها لمن يدعو إلى الإسلام وسائر الأديان للتخلي والكف عن الإجرام بسبب خلو الإيمان، وكل ما تعيشه البلاد المؤمنة من أمن ورخاء، ومن تدني نسب الجريمة فهو نتيجة بقاء بقايا الإيمان فيها، وبقدر ما يتكدر صفو الأمن فيها يجب عليها مراجعة النفس، ولتعلم أن ما أصابها فبما كسبت أيديها، وبقدر عدم تحقيق الإيمان يكون الخلل في الأمن.

المبحث الثاني
التقوى

المطلب الأول
التقوى وصلتها بالرحمة

من ثمار التقوى وآثارها نيل رحمة الله في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، ولذا أمر الله ﷻ عباده المؤمنين بالتقوى، ووصّى بها الأولين والآخرين، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء:١٣١]، وعاب على المشركين إعراضهم عن الإيمان بعد أن ذكرهم بآثار رحمته فقال: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس:٤٤-٤٥]، فحذرهم مما حل بمن سبقهم وما وراءهم من عذاب الآخرة لكي يرحموا، وجعلها ميزانًا للتفاضل بين العباد في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، وجعل لباس التقوى خير ما يتزين به المرء فقال: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٢٦]. إن أصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين الله ﷻ وقاية تقيه من عذاب الله وسخطه، فالتقوى كلمة جامعة مانعة، شاملة لكل ما جاء به الإسلام من عقيدة وعبادة ومعاملة وأخلاق، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ

وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٧].

والتقوى تشمل جميع جوانب الحياة، وهي أساس الأعمال، وبها تصلح الأحوال:

ففي العبادات قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣]، وفي المعاملات قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة:٢٧٨]، وقال ﷺ: «إِنَّ التُّجَّارَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فُجَّارًا، إِلَّا مَنْ اتَّقَى اللَّهَ، وَبَرَّ، وَصَدَقَ»[١]، وفي العلاقات الاجتماعية قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ [الطلاق:١]. وفي الحدود والجنايات قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٩]. وفي الوصية قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:١٨٠].

المطلب الثاني
أثر التقوى في إصلاح الفرد والمجتمع

للتقوى آثار في إصلاح الفرد والمجتمع منها:

- أنها تجعل الناس يلتزمون بالقوانين التي تضمن لهم سعادتهم وراحتهم وسلامتهم، وإذا غابت التقوى من حياة الناس فلن تنفع كل قوانين العالم في تنظيم الحياة واستقرارها.
- تيسير أمور الإنسان قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق:٤].

(١) سنن الترمذي، (٣/٥٠٧)، ح(١٢١٠). قال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، وضعفه الألباني رحمه الله.

- الخروج من الأزمات وسعة الرزق قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣].
- الحفظ من كيد الأعداء قال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ [آل عمران:١٢٠].
- صلاح الأحوال والأعمال قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].
- سبيل الحياة الآمنة المطمئنة قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الأعراف:٣٥].
- نجاة المجتمع من عذاب الدنيا قال تعالى: ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [النمل:٥٣].
- البعد عن الانحراف الفكري والعقدي، والعيش في مجتمع آمن من ظلمات الغي، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد:٢٨].
- تهذب النفوس، وتقوم الأخلاق، وتضبط السلوك، قال رسول الله ﷺ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»(١).

فهي جماع كل خير، ووقاية من كل شر، قال أحد الصالحين: "التقوى العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء رحمة الله، والتقوى ترك معاصي الله على نور من الله مخافة عذاب الله"(٢).

(١) مسند الإمام أحمد، (٢٨٤/٣٥)، ح(٢١٣٥٤).
(٢) الزهد الكبير، للإمام أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، ت: عامر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط: الثالثة، سنة ١٩٩٦م، ص: ٣٥١.

المبحث الثالث
القرآن الكريم

المطلب الأول
القرآن الكريم وصلته بالرحمة

إن من آثار رحمة الله ﷻ إرسال الرسل، وإنزال الكتب هدى ورحمة كما قال ﷻ عن توراة موسى عليه السلام: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤]، وأخبر عن عيسى عليه السلام فقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٤٦]، وإن قراءة القرآن الكريم، والاستماع له والإنصات، ومدارسته، من أسباب الرحمة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤]، ويقول النبي ﷺ في جزء من حديثه: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِم السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»[(١)]، وقراءته لا تنحصر بتلاوة الحروف والكلمات، وإنما يضاف إليها قراءة التدبر والتفكر، قال تعالى: مبيناً سبب نزول القرآن، والغاية منه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، يقول سيد قطب: "إن العكوف على هذا القرآن في وعي وتدبر لا مجرد التلاوة والترنم، لينشئ في القلب والعقل من الرؤية الواضحة البعيدة المدى، ومن المعرفة

(١) صحيح مسلم، (٤/٢٠٧٤)، ح(٣٨ - ٢٦٩٩).

المطمئنة المستيقنة، ومن الحرارة والحيوية والانطلاق، ومن الإيجابية والعزم والتصميم ما لا تدانيه رياضة أخرى أو معرفة أو تجريب...، وهذا كله أرجى إلى رحمة الله"[١].

المطلب الثاني
أثر القرآن الكريم في إصلاح الفرد والمجتمع

لذلك يجب اتباعه وجعله دستورًا للحياة، ونبراسًا لإصلاح المجتمع، فيحل حلاله، ويحرم حرامه، ويعمل بأحكامه، وتجتنب نواهيه، ويكون سببًا للرحمة، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥]، كيف لا؛ وهو حبل الله المتين، وصراطه المستقيم، وهو الضياء والنور، من تمسك به نجا ورُحِم، ومن تنكبه هلك، فهو الشفاء للصدور، والرحمة للقلوب[٢]، فالإيمان والتقوى من أسباب الرحمة، كذلك القرآن الكريم ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]، ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٥٢]، وقد خاطب الله الناس فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٧-٥٨]، أي: فليفرحوا بما جاءهم من القرآن، فإنه أولى ما يفرح به، وخير مما يجمع من حطام الدنيا، فهو (كتاب جامع لهذه الفوائد العظيمة من الموعظة، والتنبيه على التوحيد، ودواء الصدور من العقائد الفاسدة، ودعاء إلى الحق، ورحمة لمن آمن به منكم)[٣].

(١) في ظلال القرآن، للسيد إبراهيم قطب، دار الشروق، بيروت، ط: ١٣، سنة ١٩٨٧م، ٣/١٤٢٦).
(٢) ينظر: موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، لمحمد جمال الدين القاسمي الدمشقي، دار الفكر، بيروت، (١/٧٩).
(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله ابن عامر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الثالثة، سنة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، (٢/٣٥٣).

والإنسانية المعذبة، والأنظمة المضطربة، والمجتمعات المتداعية، لا عاصم لها من التردي في الهاوية، إلا القرآن الكريم قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤-١٢٥]، فالقرآن يعالج المشكلات الإنسانية كلها، الروحية والعقلية والبدنية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وهو صالح لكل زمان ومكان، كيف لا وهو ﴿كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١].

المبحث الرابع
الدعاء

المطلب الأول
الدعاء وصلته بالرحمة

الدعاء من أسباب الرحمة، وفيه اعتراف من العبد بالفقر إلى غنى رحمة الله الغني الحميد، ولقد أخبر الله ﷻ عن نبيه أيوب ﵇ فقال: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣-٨٤]، فاستجاب له بعد صبره ودعائه. وأخبر ﷻ عن أصحاب الكهف حين آووا إلى كهفهم وجأروا إلى الله بالدعاء: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف:١٠]، وكان ذلك بعد أمر الله تعالى لهم: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف:١٦]، لذلك كان الدعاء سبيلًا إلى رحمة الله، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ فُتِحَ لَهُ مِنْكُمْ بَابُ الدُّعَاءِ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ، وَمَا سُئِلَ اللَّهُ شَيْئًا يَعْنِي أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ العَافِيَةَ»[1].

(١) سنن الترمذي، (٥/٥٥٢)، ح(٣٥٤٨)، وأخرجه الحاكم في المستدرك وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، (١/٦٧٥).

المطلب الثاني
أثر الدعاء في إصلاح الفرد والمجتمع

للدعاء آثار عظيمة جمة منها:

تفريج الكربات وحل الأزمات، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٦٢]، ولذا شرع ما يسمى بقنوت النوازل، وهو مستحب في جميع الصلوات، لرفع ما نزل من البلاء في المجتمعات.

ولكنّ أثر الدعاء في إصلاح المجتمع يتطلب:

١. تجنب الظلم وردع الظالم، وهو من أقوى الأسلحة التي يستنصر بها على الظلمة لقوله ﷺ: «اتق دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين اللّه حجاب»[(١)]، وفيه دلالة على منع الظلم لحلول الأمن في المجتمع، فكل ظالم ليس في مأمن من دعوة المظلوم، ما لم يتب ويرد المظالم إلى أهلها.

٢. الترفع عن المحرمات، فالمأكل والمشرب والملبس الحرام يحجب الدعاء، كما أخبر النبي ﷺ: «... ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟»[(٢)]. وقد ابتلى اللّه المجتمع بأكل الحرام من الربا والرشوة والغش وأكل أموال الناس بالباطل وبغير حق، وكثير من الناس لا يبالي من أين يكتسب ماله، وهو يعلم أن اللّه سيسأله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟

(١) صحيح البخاري، (١٢٩/٣)، ح(٢٤٤٨).
(٢) صحيح مسلم، (٧٠٣/٢)، ح(١٠١٥).

١. الإفساد في الأرض، قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٥-٥٦].

أمر الله أن ندعوه تذللًا وسرًا، ونهى عن الاعتداء في الدعاء، والإفساد في الأرض بعد إصلاحها ببعثة المرسلين، ثم كرر الأمر بدعائه خوفًا من عذابه، وطمعًا في رحمته، فرحمته ﷻ قريبة من المحسنين المطيعين، ومن آثار الإحسان استحقاق رحمة الله، والرحمة هي الإحسان إلى النفس بالقيام بأمر الله، والإحسان إلى الخلق بفعل أنواع الخير الذي ينفع العباد ويصلح البلاد.

٢. عدم قطع الأرحام، لقد مدح الله ﷻ الذين يصلون الأرحام التي أمر الله بوصلها، ويخشونه ويخافون سوء الحساب، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرعد:٢١]، وذم الذين يقطعون الأرحام التي أمر الله بوصلها، ويفسدون في الأرض فاستحقوا اللعنة والبعد من رحمته، والطرد من جنته، فقال عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٥]، فقرن الله ﷻ صلة الأرحام بالخشية والخوف منه، وقطعها بالإفساد في الأرض، فاستحق قاطعها اللعنة والبعد من رحمته، كما قال تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ [محمد:٢٢-٢٣]، أي: فلعلكم إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية، من الإفساد في الأرض بالمعاصي، وقطع الأرحام!! قال قتادة: "كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام؟ ويقطعوا الأرحام؟

ويعصوا الرحمن؟! قال أبو حيان: يريد ما جرى من الفترة بعد زمان الرسول ﷺ"[1]. وقرأ رويس "تُوُلِيتم" بضم التاء والواو، وكسر اللام، على البناء للمفعول، بمعنى: إن وليتم أمور الناس أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم، أو: إن ولي عليكم ولاة، فالنهي شامل لمن تولى وولي[2]. قال القرطبي: "أخبر سبحانه وتعالى أن من فعل ذلك حقت عليه اللعنة، وسلبه الانتفاع بسمعه وبصره، حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه، فجعله كالبهيمة التي لا تعقل"[3]. وهذا حال مجتمعات اليوم، فالإفساد في الأرض بشتى صوره، وقطع الأرحام، وما استفحلت هذه الصفات في أمة إلا أدت إلى شتاتها وهلاكها، فالإنسان وجد في الأرض واستخلف فيها ليعمرها، لا ليفسد فيها ويسفك الدماء، وقد خاطب الله الناس جميعًا فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]، فقرن الله سبحانه وتعالى بين التقوى وصلة الرحم ليدل على أهمية هذه الرابطة الإنسانية، فالناس جميعًا من أصل واحد، وهم إخوة في الإنسانية والنسب، ولو أدرك الناس هذا لعاشوا في سعادة وأمان، ولما كانت هناك حروب طاحنة مدمرة تلتهب الأخضر واليابس، وتقضي على الكهل والواليد[4].

٤. ثم خاطب جميع البشر فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ

(١) البحر المحيط، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، دار الفكر، بيروت، ط: الثانية، سنة ١٤٠٢هـ – ١٩٨٣م، (٨/٨٢).
(٢) ينظر: المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة، لسالم محيسن، دار الجيل، بيروت، ط: الثانية، سنة ١٤٠٨هـ – ١٩٨٩م، (٣/٢٤٩).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة ١٤٠٥هـ، (١٦/٢٤٦).
(٤) صفوة التفاسير، لمحمد علي الصابوني، دار القلم، بيروت، ط: الخامسة، (١/٢٥٨).

وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ [الحجرات:١٣]، فالقصد من جعل الشعوب شتى، والقبائل متعددة، ليحصل التعارف والتآلف، لا التناحر والتخالف، فكيف يرجى ما عند الله من رحمة في مجتمع يدعو إلى قطيعة الرحم؟!

وقد قال عبدالرحمن بن عوف: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَالَ اللَّهُ: أَنَا الرَّحْمَنُ وَهِيَ الرَّحِمُ، شَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنَ اسْمِي، مَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ»[(١)]، وقد بين النبي ﷺ أن الله لا يستجيب دعاء من يدعو بدعوة فيها إثم أو قطيعة رحم، فكيف بمن يدعو إليها؟ قال ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ، وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا «قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: اللَّهُ أَكْثَرُ»[(٢)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) مسند الإمام أحمد، (٢١٣/١٧)، ح(١١١٣٣)، وإسناده جيد، وللحديث طرق عدة، وأخرجه الترمذي في السنن من حديث عبادة بن الصامت، بلفظ: (مَا عَلَى الأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللَّهَ بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ)، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: (اللَّهُ أَكْثَرُ)، قال الترمذي: «وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ»، قال الألباني: «حديث حسن صحيح».

المبحث الخامس
الاستغفار

لاشك أن الاستغفار مدعاة لنيل رحمة الله ﷻ، وهو سنة الأنبياء عليهم السلام، فآدم عليه السلام طلب من ربه الرحمة والمغفرة له ولزوجه فقال: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، ودعا صالح عليه السلام قومه فقال: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل:٤٦]، واستغفر موسى لنفسه ولأخيه هارون عليهما السلام فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف:١٥١]، وقبله قومه الذين ندموا على عبادتهم العجل فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٩].

وفوائد الاستغفار عديدة منها:

- صمام أمان من العذاب، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣].
- يجلب الرزق والبركة فيه، قال ﷻ مخبرًا عن قول نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح:،١٠-١١-١٢].
- موجب للقنوت، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٩].

- مانع للقنوط، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

- يحمل العبد على رحمة الخلق، ولين الجانب لهم، والتجاوز عنهم، فلا يليق بالمستغفر الذي يطلب الرحمة والتجاوز من الله أن يؤاخذ من أخطأ في حقه ولا يعفو عنه، وقد خاطب الله تعالى محمدًا ﷺ نبي الرحمة فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩].

المبحث السادس
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

المطلب الأول
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلته بالرحمة

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو سبيل الفلاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]، الفائزون برحمة الله، قال تعالى: ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٧]، أي: ففي الجنة ،لأنها مكان تنزل رحمة الله، ثم بين سبحانه وتعالى أن أمة محمد خير الأمم؛ لأنها أنفع الناس للناس، أخرجت لأجلهم ولمصلحتهم، للأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر، فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]، والذين تنالهم الرحمة هم الذين يتبعون محمداً ﷺ ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الأعراف:١٥٧]، ووصفوا في آخر الآية ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، كما وصف به الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر من أمة محمد ﷺ في آخر الآية ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]، أي: الفائزون برحمة الله كما قال سبحانه وتعالى في الآية السابقة: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾

[الأعراف:١٥٦]، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب لنيل رحمة الله ﷻ، قال الله تعالى عن المؤمنين: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة:٧١-٧٢].

المطلب الثاني
أثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في إصلاح الفرد والمجتمع

لقد وصف الله ﷻ كثيرًا من اليهود بأنهم يسابقون في المعاصي والظلم، وأكلهم الحرام، فقال: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة:٦٢]، ثم حض علماءهم وأحبارهم موبخًا ﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [المائدة:٦٣]، قال أبو حيان: «تضمنت هذه الآية توبيخ العلماء والعبَّاد على سكوتهم عن النهي عن معاصي الله»[١]. وأخبر الله عن الذين لعنوا من بني إسرائيل بسبب عصيانهم واعتدائهم فقال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [المائدة:٧٨]، ثم بين الله حالهم الشنيع فقال: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٩]، قال الزمخشري: "للتعجيب من سوء فعلهم، مؤكد بالقسم، فيا حسرة على المسلمين في إعراضهم عن باب التناهي عن المنكر، وهذا حال كثير من

(١) البحر المحيط، لأبي حيان، (٣/٥٢٢).

مجتمعات اليوم، وهي مفسدة ومدمرة لها، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقي المجتمع من العقائد الفاسدة، والطباع المعوجة، والسلوكيات المنحرفة".

ومهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تتطلب الصبر، وقد أمر الله ﷻ محمدًا ﷺ أن يصبر على تبليغ أمره، كما صبر نوح عليه السلام فقال: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩]، والصبر والتقوى من أسباب الرحمة.

وقرن الله بين التقوى وإصلاح ذات البين، فقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ [الأنفال:١]، وكلاهما سبب لنيل رحمة الله، فلقد منّ الله على المؤمنين، أن جعلهم أمة واحدة متراحمة، كالجسد الواحد، كما قال ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»(١)، وقد حث الله ﷻ على الصلح بين المؤمنين إن جنحوا إلى القتال، وقتال الفئة الباغية حتى تقلع عن البغي والعدوان، فقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩]، ثم بين أن ليس المؤمنون إلا أخوة، فلا ينبغي أن تكون بينهم عداوة أو بغضاء، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات:١٠] أي: بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

(١) صحيح مسلم، (٤/١٩٩٩)، ح(٢٥٨٩).

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

المبحث السابع
إقام الصلاة وإيتاء الزكاة

المطلب الأول
إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصلتهما بالرحمة

إن من صفات المؤمن السابق ذكرها في مبحث -الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وهما من أسباب الرحمة.

فالصلاة تقوي صلة العبد بربه، وتقربه من رحمته، وتعينه على ضبط الوقت، وتنهاه عن سوء القول والعمل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء:١٠٣]، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، ففي الصلاة يشعر المسلم بأنه جزء من مجتمع إخوانه، وفي صلاة الجماعة تتوحد الأمة، ويحصل التراحم، والمساواة بين أفراد المجتمع الواحد، ويُقضى على جميع الفوارق بين بني الإنسان، فربهم واحد، وقبلتهم واحدة، ودستورهم واحد، ونبيهم واحد ﷺ.

والزكاة ليست ضريبة تؤخذ، أو جزية تعطى، بل هي لعلاج النفس من مرض الشح والأثرة، وطهارة المال وزكاته، وغرس مشاعر الرأفة والرحمة وتوثيق الألفة بين القلوب، وطبقات المجتمع كافة، قال الله سبحانه وتعالى آمرًا محمدًا ﷺ: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١٠٣-١٠٤]، فزكاة الأموال مدعاة لزكاة النفوس، وطمأنينة دعاء واستغفار النبي ﷺ، والمغفرة والرحمة.

المطلب الثاني
أثر إقام الصلاة وإيتاء الزكاة في إصلاح الفرد والمجتمع

والإنسان يحب ما يسره، ويفر مما يكرهه، وتعبده ربه بإنفاق ما يحب، والصبر على ما يكره، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج:١٩-٢٥]، فاستثنى الله ﷻ المواظبين على أداء الصلاة، والذين فرضت عليهم الزكاة من الموصوفين بالهلع.

وليست الزكاة للسائل والمحروم فحسب، وإنما للأصناف الثمانية التي سماها الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠]، عليم بما يصلح الفرد والمجتمع، حكيم بأمره وما تقتضيه حكمته، فلولا فريضة الزكاة لما قامت شعائر الإسلام كالجهاد، وبناء المساجد، والمدارس، والمعاهد، والجامعات، والمستشفيات، وسائر مؤسسات المجتمع، إضافة إلى بناء الفرد بناء كاملًا، يشمل الجانب العقدي، والعبادي، والسلوكي، ولقد ذكر لنا النبي ﷺ نموذجًا للصدقة وأثرها في إصلاح الفرد والمجتمع حيث قال: «قال رجل: لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تصدق على سارق، فقال: اللهم لك الحمد، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها

في يدي زانية، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على زانية، فقال: اللهم لك الحمد، على زانية؟ لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يدي غني، فأصبحوا يتحدثون: تصدق على غني، فقال: اللهم لك الحمد، على سارق وعلى زانية وعلى غني، فأتي فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله»[1].

فلو أنفق الذين في أموالهم حق معلوم، لاستعف كل سارق عن سرقته، وكل زانية عن زناها، واستغنى كل فقير، وقضي على ذريعة الفقر لارتكاب كل إثم ورذيلة، فللزكاة آثار حسنة على سلوك الأفراد والمجتمعات، تتمثل في تزكية النفس، ونشر الخير والفضيلة، ومنع الرذيلة بين الناس، وفي تكوين المجتمع الصالح، الذي عجزت كل الفلسفات والقوانين والآداب عن إصلاحه، وما زمن الخليفة الصالح عمر بن عبدالعزيز ونهجه في إثراء بيت مال المسلمين، وغناهم واستغنائهم، عنا ببعيد.

(١) صحيح البخاري (٢/١١٠)، ح(١٤٢١).

المبحث الثامن
طاعة الله ورسوله وصلتها بالرحمة

إن من آثار رحمة الله إرسال الرسل مبشرين ومنذرين، ورحمة وهداية للخلق أجمعين، والحكمة من إرسالهم طاعتهم واتباعهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٦٤].

ومن صفات المؤمن السابق ذكرها أيضًا في مبحث -الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر-، طاعة الله ورسوله، وكل منهما سبب للرحمة، وقد قرن الله ﷻ بين طاعته وطاعة رسوله، وجعل طاعة رسوله ﷺ طاعة له ﷻ، فقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، ولذا أمر عباده المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء:٥٩]، ثم بين مكانة الطائع الرفيعة فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء:٦٩-٧٠]، ولا ينال الطائع هذا الفضل، والفوز بجنة الله ﷻ إلا برحمته، ولذا حثهم على الطاعة رجاء الرحمة، حيث قال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٢]، وقد وردت هذه الآية في سياق النهي عن أكل الربا الذي يهدد المجتمعات، وينذر

بعواقبه وآثاره الوخيمة، ومن رحمة الله بالمؤمنين أن جمع بين النهي عن أكل أموال الناس بكل طريق غير مباح، كالسرقة والخيانة والغصب والربا والميسر وغيره، وبين قتل النفس، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء:٢٩]، فالربا يؤدي إلى تفشي الطبقية والأحقاد والشحناء والبغضاء بين الناس، خلاف الزكاة إذ هي علاج لمرض الشح والبخل، وطهارة المال من أكل أموال الناس بالباطل والإثم بغير حق، وتوثيق الألفة بين القلوب، وطبقات المجتمع، قال ﷻ محذرًا في الآيات السابقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣٠-١٣١]، ويعقب الأمر بطاعة الله ورسوله، الحث على المسارعة إلى المغفرة والجنة، فقال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤-١٣٥]، وقد سبق القول أن التقوى، والزكاة، والصبر، والإحسان، والدعاء، والاستغفار، من أسباب الرحمة كما قرن بين التقوى، وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله، وأيضًا بين الأمر بطاعته وطاعة رسوله، والنهي عن النزاع المورث للضعف المذهب للقوة والبأس، فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]، أي: بالنصر والعون في الجهاد والقتال.

المبحث التاسع
الهجرة في سبيل الله وصلتها بالرحمة

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [البقرة:٢١٨].

لم تكن هجرة النبي ﷺ وأصحابه سياحة ومتعة، فقد كانت بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وكانت مغادرة ومفارقة للأهل والوطن، لنيل رحمة الله سبحانه وتعالى. وللهجرة آثار عديدة منها:

- الهجرة درس في الصبر، والتدرج في البناء والإعداد الإيماني، قال الله سبحانه وتعالى مبينًا ذلك: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٖ ﴾ [الزمر:١٠]، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل:٤١-٤٢]، ثم أكد جزاء الهجرة في السورة نفسها، فقال: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النحل:١١٠]، أي: إن ربك من بعد الهجرة والجهاد والصبر سيغفر لهم ويرحمهم.

- الهجرة درس في الولاء والبراء، فالأوطان من غير الإسلام مجرد أرض، وإذا تعذر تحقيق الغاية من خلق الإنسان -العبادة- فوق

أرض ما، فلا بد من البحث عن أرض أخرى صالحة للعيش بالإسلام، والتمكن من عرضه على الناس، وهذا هو الهدف من هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، حيث سعى لإيجاد موطئ قدم لدعوته لكي تنعم بالأمن والاستقرار، وتبني نفسها من الداخل، ثم تحقق أهدافها في الخارج، وقد كان للهجرة أيضًا أثر عظيم على المجتمع الناشئ الذي تحول من مجتمع جاهلي قائم على النسب والأرض، إلى مجتمع يحمل أعظم رسالة لجميع أهل الأرض.

- وقد ضمن الله سبحانه وتعالى الرزق والأجر والرحمة لمن يخرج ويهاجر في سبيله، فقال: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١٠٠].

ومن معاني الهجرة الدائمة الصالحة لكل زمان ومكان:

الانتقال بالنفوس من أرض إلى أرض، ومن وسيلة إلى وسيلة، ومن أسلوب إلى أسلوب، ومن حال إلى حال، ومن القلة إلى الكثرة، ومن الضعف إلى القوة، ومن العزلة إلى الحركة، ومن الذلة إلى العزة، ومن الفرقة إلى الجماعة، ومن الحرام إلى الحلال، ومن المعصية إلى الطاعة، وصدق رسول الله ﷺ في قوله: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[١].

(١) صحيح البخاري، (١/١١)، ح(١٠).

المبحث العاشر
الجهاد في سبيل الله

المطلب الأول
الجهاد في سبيل الله وصلته بالرحمة

لقد قرن الله ﷻ بين ذكر الجهاد والهجرة في سبيله، وجعلهما سببًا لنيل رحمته، كما في قوله ﷻ السابق ذكره في مبحث –الهجرة في سبيل الله–: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة:٢١٨]، والمؤمنون بمكة أمروا بالصلاة والزكاة والصبر على أذى المشركين، وكانوا يتمنون لو أمروا بقتال أعدائهم، فلما فرض عليهم القتال في المدينة، إذا جماعة من المنافقين يخشون الموت كخشيتهم من عذاب الله أو أشد، قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٧٧]، والجهاد في سبيل الله لا يتعارض مع حرية الاعتقاد واختيار الدين، ولا إكراه الناس على الدخول في الإسلام، قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦]، فالإسلام

لم ينشر ويبلغ بحد السيف، كما يدعي أعداؤه، وإنما بالرحمة والخلق الحسن.

ومعنى ذكر الإرهاب في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٦٠]، أي: من عاد الله وعاداكم، وردع المعتدي حق المعتدى عليه ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤]، فهذه الآيات وغيرها من آيات الجهاد والقتال ضد الكفار المحاربين ومن على شاكلتهم، دفاعًا عن الدين والنفس وغيرها، وأما غير المحاربين -المسالمين- فقد أمرنا الله ﷻ بالإحسان والعدل والبر لهم، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨]، وقال أيضًا ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة:٢]، والبر هو كل خير، ولأهميته قرن بالتقوى كما قرن الإثم بالعدوان.

إن مصطلح الإرهاب والتطرف الإسلامي، مصطلح جديد دخيل على الإسلام، ونسبة من يوصف به لا تزيد على واحد من مليار ونصف مسلم كحد أدنى، وأعمارهم في العشرين أو أقل من ذلك أو أكثر، ومع ذلك يستخدم الإعلام لفظ (الإسلام الإرهابي) أو (المسلمون المتطرفون)، فلا يلام الإسلام والمسلمون عامة، وإنما يلام من أساء للإسلام والمسلمين.

قبل أكثر من ألف سنة على اتفاقية جنيف، كان محمد ﷺ والخلفاء من بعده يوصون المسلمين في الحروب أن لا يقتلوا طفلًا أو امرأة أو شيخًا طاعنًا في السن، ولا يقطعوا شجرةً ولا يهدموا بيتًا، ولا يؤذوا راهبًا ولا يمسوا كنيسة، كيف لا؛ وهم يرددون تكرارًا ومرارًا، صغارًا وكبارًا، سرًا وجهرًا

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:١-٢]، وتحيتهم تحية السلام «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فالله هو الرحمن الرحيم، وهو رب العالمين، رب الناس أجمعين، ومحمد ﷺ مرسل للناس كافة، ورحمة للعالمين، فالإسلام وسائر الأديان جاءت لحماية الإنسان، كيف لا وهو أكرم مخلوق، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكة قدسه، واستخلفه في أرضه، وفضله على كثير من خلقه، ولزوال الدنيا أهون على الله من قتل المؤمن وسفك دمه، وذكر قتل ابني آدم في القرآن فقال: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢]، من قتل نفسًا واحدة أيًا كان لونها أو جنسها أو لسانها أو دينها، فإنما إثم قتلها كمثل من قتل الناس أجمعين، وكذا ثواب من أحياها كثواب إحياء الناس جميعًا، ولهذا شرع القصاص حتى لا يستهان بدم الإنسان، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٧٨ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٨-١٧٩]، ففي القصاص يزول القتل، وفي زواله حياة الكل. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن إقامة الحد من العبادات، كالجهاد في سبيل الله، فينبغي أن يعرف أن إقامة الحدود رحمة من الله بعباده، فيكون الوالي شديدًا في إقامة الحد لا تأخذه رأفة في دين الله فيعطله، ويكون قصده رحمة الخلق بكف الناس عن المنكرات، لا شفاء لغيظه وإرادة العلو على الخلق، بمنزلة الوالد إذا أدب ولده، فإنه لو كف عن تأديب ولده كما تشير به أمه -رقة ورأفة- لفسد الولد، وإنما يؤدبه رحمة به وصلاحًا لحاله»(١).

(١) السياسة الشريعة في إصلاح الراعي والرعية، لتقي الدين أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، =

وليس ذلك محصورًا في النفس البشرية، بل تعدى إلى الحيوان، قبل أن يسمع بحقوق الإنسان قبل حقوق الحيوان، فالله ﷻ أدخل امرأة الجنة بكلب سقته ماء من بئر فأحيته بعد أن كاد يموت من الظمأ، وأدخل امرأة النار بهرة حبستها، لا هي أطعمتها ولا تركتها تخرج تأكل فماتت.

المطلب الثاني
أثر الجهاد في إصلاح الفرد والمجتمع

إن الإسلام جاء لينشئ مجتمعًا خاليًا من الجريمة والإرهاب بشتى أنواعه -النفسي والمالي والاجتماعي- وليحافظ مع سائر الملل على الضروريات ولمقاصد الخمس التي عليها مدار الدنيا والدين وصلاحهما، وهي «النفس، والدين، والمال، والعقل، والنسل». وللجهاد منافع كثيرة منها:

- أثره على المجتمع وإصلاحه، فالجهاد شرع للدفاع عن الدين، والمحافظة عليه ونشره، وترك الحرية للناس في اختيار الدين الذي يرتضونه دون إكراه أو فتنة، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٩٣]، وقال قبلها: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة:١٩١-١٩٢].

- دفع الظلم: أذن الله للمؤمنين في القتال بسبب أنهم ظلموا، حيث قال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ

= دار الكتاب العربي، مصر، ط: الرابعة، سنة ١٩٩٩م، ص٩٧.

ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج:٣٩-٤١]، قرأ نافع، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر (يقاتَلون) بفتح التاء، على أنه مضارع مبني للمجهول، وقرأ الباقون (يقاتِلون) بكسر التاء، على أنه مضارع مبني للمعلوم، فهم يقاتِلون، لأنهم يقاتَلون(١)، وهذه أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهي عنه في أكثر من سبعين آية، ولولا ما شرعه الله من الجهاد لاستولى أهل الشرك على أهل الأديان، وتعطلت الشرائع، وهدمت معابد الرهبان، وكنائس النصارى واليهود، ومساجد المسلمين، فكفّ الله ﷻ المشركين بالمسلمين، وإذنه بمجاهدة الكافرين، فهؤلاء الذين يستحقون نصرة الله هم الذين إن مكنوا في الأرض، حافظوا على الصلاة وأداء الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وهذه الصفات سبق الحديث عنها في المباحث السابقة، أنها سبب للرحمة.

- الاستخلاف والتمكين في الأرض، وتبديل الخوف أمنًا: قال المفسرون: «لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، رمتهم العرب عن قوس واحدة، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح، ولا يصبحون إلا في لامتهم -أي: سلاحهم- فقالوا: أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله ﷻ!! فنزلت الآية»(٢). قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٥٥]، ثم قرن الله بين إقامة الصلاة وإيتاء

(١) ينظر: المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة، لسالم محيسن، (٣/٥٤).
(٢) زاد المسير في علم التفسير، لعبدالرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط: الثالثة، سنة ١٤٠٤هـ، (٦/٥٧).

الزكاة وطاعة الرسول رجاء رحمته فقال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦].

- حماية المستضعفين: حث الله المؤمنين وحضهم على الجهاد في سبيله، وفي سبيل خلاص المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين صدهم المشركين عن الهجرة، واستذلوهم واستضعفوهم، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء:٧٥]، وحماية المستضعفين ودفع الظلم عنهم واجب في كل زمان ومكان.

- كف بأس الكافرين: وهذا وعد من الله محقق، ولذا أمر نبيه محمدًا ﷺ أن يقاتل ويشجع المؤمنين على القتال فقال تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء:٨٤]، ثم بين لهم أنه لا يتساوى القاعد عن الجهاد من غير عذر، والمجاهد في سبيل الله، وفضل المجاهد على القاعد بعذر درجة، وعلى القاعد بغير عذر درجات ومغفرة ورحمة، فقال: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٥-٩٦].

- وحدة المسلمين: إن وحدة المسلمين لها أثر كبير في نصر الدين، لما فيها من رعب للأعداء الذين يسعون لتمزيق وتفتيت هذه الوحدة، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف:٤]، وأمرهم الله بإعداد جميع أسباب

القوة لقتال أعدائهم، ونبههم على أن النصر لا يأتي في كل زمان من غير استعداد فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٦٠]، أي: وما تنفقوا في الجهاد وغيره من وجوه الخير، ثم أمر في الآية التي تليها نبيه ﷺ بالسلم إذا وجد السبيل إليه، لأن القتال ضرورة اقتضتها الظروف لرد العدوان، وحرية الأديان، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان، فقال: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال:٦١]، ثم بين المراد بالصلح فقال: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٢-٦٣]، قال القرطبي: "وكان تأليف القلوب مع العصبية الشديدة في العرب من آيات النبي ﷺ ومعجزاته؛ لأن أحدهم كان يُلطم اللطمة فيقاتل عليها، وكانوا أشد خلق الله حمية، فألف الله بينهم بالإيمان، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين"(١).

لقد اقتتلت عبس وذبيان في الجاهلية أربعين سنة، في حرب داحس والغبراء -فرسان للسباق- بسبب اختلافهم أيُّ الفرسين سبق؟ وفي الجاهلية الحديثة، اقتتلت دول العالم، فبلغ عدد قتلى الحرب العالمية الأولى والثانية عشرات الملايين، إضافة إلى المجازر الوحشية، والدماء التي تسفك كل يوم على أيدي الجبابرة والطواغيت، الذين يريدون علوًا في الأرض وفسادًا، فطغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، وجعلوا أهلها شيعًا، بعضها يستضعف وبعضها يُذبح.

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (٨/٥٣).

لقد تحقق الأمن والسلام على يد رسول الرحمة والإسلام محمد ﷺ بأقل عدد من قتلى الأعداء، في جميع الحروب والغزوات التي خاضها النبي ﷺ، فلم يزد عدد القتلى على ألف حسب إحصاء بعض مؤلفي السيرة النبوية، ولم يقتل بيده إلا رجلًا واحدًا في غزوة أحد -أبي بن خلف-، وفتح مكة شاهد لذلك، فقد آمن الناس ودخلوا في دين اللّٰه أفواجًا، وتجلت رحمته ﷺ بالكفار والأعداء الذين حاربوه وتآمروا عليه حينما أعلنها صريحة بعد ما سمع قولة بعض أصحابه: اليوم يوم الملحمة، فقال ﷺ: «اليوم يوم المرحمة»، وقال: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت. فقال ﷺ: «إني أقول لكم كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم، اليوم يغفر اللّٰه لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء»(١).

يقول الشاعر الإسلامي وليد الأعظمي متمثلًا هذا الموقف(٢):

دخلت مكة والرايات خافقة ... لو شئت أسلمتها للحرق والعدم
عفوت لما رأيت العين دامعة ... أخ كريم وأذروا عبرة الندم
يا منقذ الكون من جهل أحاط به ... لولا الهداية ما ثرنا على صنم
اليوم جئتُ إلى التاريخ أسأله ... ما كان منه حديثًا أو بذي قدم
فما وجدت لكم يا سيدي شبهًا ... هم في السفوح وأنتم في ذرى القمم

ويقول في قصيدة -شريعة اللّٰه للإصلاح عنوان-:

تاريخنا من رسول اللّٰه مبدؤه ... وما عداه فلا عز ولا شان
محمد أنقذ الدنيا بدعوته ... ومن هداه لنا روح وريحان
لولاه ظل أبو جهل يضللنا ... وتستبيح الدما عبس وذبيان

---

(١) ينظر: السيرة النبوية، لعبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي، دار إحياء الثراث العربي، بيروت، لبنان، (٤١٢/٢). وأخرجه أبو عبيد في كتاب الأموال (١٤٣/١) بإسناد ضعيف.

(٢) ديوان وليد الأعظمي -الأعمال الشعرية الكاملة-، دار القلم، دمشق، ط: الثالثة، سنة ٢٠٠٤م.

هذا هو الإسلام الذي يصوب إليه الإعلام، ويُرمى بالسهام، إنه دين الرحمة والسلام وإن عم الكون الظلام، وسيشرق نوره ويظهر ليضيء كل الأنام.

وصلى الله على سيدنا محمد نبي الرحمة، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه، ودعى بدعوته إلى يوم الدين.

الخاتمة

بعد الاستقراء لبعض آيات الرحمة وأسبابها وأثرها في إصلاح الفرد والمجتمع، يمكن ذكر النتائج التالية:

- الرحمة صفة لله ﷻ، وصف بها نفسه، وكتبها على نفسه تفضلًا من وإحسانًا.
- الرحمة وسعت كل شيء، وأودعها في قلوب جميع مخلوقاته ليتراحموا بها.
- الرحمة هي الغاية التي أرسل بها محمد ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].
- الإنسانية جمعاء بحاجة في كل زمان ومكان إلى خلق الرحمة في حياتها الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والتعليمية، والتربوية.
- أسباب الرحمة وأثرها في إصلاح الفرد والمجتمع كما هو مبين في مباحث هذا البحث.

وأوصي بما يلي:

- حث المسلمين على التحلي بصفة الرحمة، واتخاذ القرآن هدى

للرحمة والتراحم فيما بينهم، واتباعهم لنبي الرحمة ﷺ، والتخلق بخلقه.

- التأكيد على أن الإسلام هو دين الرحمة والسلام، ودفع الشبهات التي أثيرت حول الإسلام بأنه دين إرهاب، وسفك للدماء، والتعرف على خلق الرحمة وأثرها في إصلاح الفرد والمجتمع، وذلك من خلال انعقاد المؤتمرات، والندوات، والمحاضرات.

وختامًا فإنني أحمد الله ﷻ أن وفقت لكتابة هذا البحث المتواضع، فما كان من صواب فمن الله، وما كان من خطأ فمن نفسي، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خير البريات.

فهرس المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمود مرسي عبدالحميد، ومحمد عوض هيكل، دار السلام، مصر، الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٣. إغاثة اللهفان من كصائد الشيطان، لابن قيم الجوزية، مكتبة المعارف، الرياض، تحقيق: محمد الفقي.

٤. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، المكتبة العلمية، بيروت، تحقيق: محمد النجار.

٥. تفسير المنار، لرضا محمد رشيد، مطبعة المنار، مصر، الطبعة الأولى، سنة ١٣٤٦هـ.

٦. التفسير الكبير، لأبي عبدالله محمد بن عمر فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية.

٧. جمهرة اللغة، لأبي بكر محمد بن الحسن، المعروف بابن دريد، دار العلم، بيروت، تحقيق: د. رمزي منير بعلبكي.

٨. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، لأبي زيد عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف، المعروف بالثعالبي، مؤسسة الأعلى، بيروت.

٩. ديوان وليد الأعظمي -الأعمال الشعرية الكاملة-، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، سنة ٢٠٠٤م.

١٠. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي، دار الفكر، بيروت.

١١. سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، تحقيق: شعَيب الأرناؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي.

١٢. زاد المسير في علم التفسير، لعبدالرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٠٤هـ.
١٣. سنن الترمذي، للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، الطبعة الثانية، مصطفى البابي الحلبي، مصر، سنة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
١٤. السيرة النبوية، لعبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي، دار إحياء الثراث العربي، بيروت، لبنان.
١٥. صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج، أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٩٧٢.
١٦. لسان العرب، لابن منظور، أبي الفضل، جمال الدين بن مكرم، دار لسان العرب، بيروت.
١٧. مسند أحمد، للإمام أحمد بن حنبل الشيباني، طبعة دار الرسالة.
١٨. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، لبنان.
١٩. معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، دار الفكر العربي، طبعة: سنة ١٩٧٨م، تحقيق: عبدالسلام هارون.
٢٠. المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: محمد سيد كيلاني.
٢١. مقدمة جامع التفاسير، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، دار الدعوة، الكويت، تحقيق: أحمد حسن فرحات، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤.

رحمة الرحمن الرحيم
معناها وآثارها

إعداد:
منيرة العقلا

المقدمة

«إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الاحزاب:٧١-٧٢] له الحمد أنعم على المؤمنين ببعثة الرسول محمد ﷺ، وأنزل الكتاب، وجعله سنة الرسول ﷺ المرجع لأمورهم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ﴾ [النور:٦٢] قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الاعراف:١٨٠] الله سبحانه وتعالى أسماؤه كلها حسنى ليس فيها اسم سوء، وأوصافه كلها كمال ليس فيها صفة نقص، وأعظم العلم هو العلم به سبحانه وتعالى وبأسمائه وصفاته.

ذكر ابن تيمية أن المراد بالعلم به سبحانه وتعالى هو العلم به نفسه، وبما هو متصف به من نعوت الجلال والإكرام، وما دلت عليه أسماؤه الحسنى، وهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله لامحالة.

وشرف العلم من شرف المعلوم، قال ابن القيم: "شرف العلم تابع لشرف المعلوم، ولا ريب أن أجل معلوم وأعظمه وأكبره فهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين، وقيوم السماوات والأرضيين، الملك الحق المبين، الموصوف بالكمال كله، المنزه عن كل عيب ونقص، وعن كل تمثيل وتشبيه في كماله، ولا ريب أن العلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجل العلوم، وأفضلها، ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات، وكما أن العلم به أجل العلوم وأشرفها فهو أصلها كلها"(١).

وفي هذا البحث صفة الرحمة لله سبحانه وتعالى وتعالى، معناها وآثارها، وسأتناول ما يتعلق بالعلم بها والإيمان بها وإثباتها، وآثار هذه الصفة في الخلق والشرع، وثمار الإيمان بها في حياة العباد.

أهداف البحث:

١-بيان معنى اسمي الله الرحمن والرحيم، والفرق بينهما.

٢-التعرف على أنواع الرحمة.

٣-إثبات صفة الرحمة لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله بالأدلة، والرد على المبتدعة في ذلك.

٤-توضيح آثار الإيمان برحمة الله على علم العباد وسلوكهم.

(١) مفتاح دار السعادة ٣١٢

منهج البحث:

سأسير في البحث -بإذن الله- وفق المنهج الاستقرائي الاستدلالي، وسأتبع فيه ما يلي:

الاعتماد على أمهات المصادر والمراجع الأصلية في التخريج والتحرير والتوثيق والجمع.

التركيز على موضوع البحث وتجنب الاستطراد.

ترقيم الآيات وبيان سورها.

تخريج الأحاديث وبيان ما ذكره أهل الشأن في درجتها إن لم تكن في الصحيحين أو أحدهما، فإن كانت كذلك فأكتفي حينئذ بتخريجهما.

العناية بقواعد اللغة العربية والإملاء وعلامات الترقيم.

تكون الخاتمة عبارة عن ملخص البحث يعطي فكرة واضحة عن ما تضمنه البحث، مع إبراز أهم النتائج.

خطة البحث (المباحث والمطالب):

المقدمة.

المبحث الأول: اسما الله الرحمن الرحيم، وتحته أربعة مطالب:

المطلب الأول: معنى الرحمن، والرحيم.

المطلب الثاني: الفرق بين الرحمن والرحيم.

المطلب الثالث: أسماء الله الحسنى المتعلقة والمقترنة بهاذين الاسمين.

المطلب الرابع: إثبات صفة الرحمة لله.

المبحث الثاني: أنواع الرحمة.

المبحث الثالث: آثار رحمة الله ﷻ، وتحته مطلبان:

المطلب الأول: آثار رحمة الله ﷻ في الخلق.

المطلب الثاني: آثار رحمة الله ﷻ في الشرع.

المبحث الرابع: ثمار الإيمان برحمة الله.

الخاتمة.

المبحث الأول
اسما الله الرحمن الرحيم

وتحته أربعة مطالب:

المطلب الأول
معنى الرحمن والرحيم

الرحمن والرحيم اسمان مشتقان من الرحمة، والرحمة مصدر رحم يرحم رحمة ومرحمة، الراء والحاء والميم أصل واحد يدل على الرقة والعطف والرأفة(١)، فالرحمة: الرقة والتعطف، وتأتي بمعنى المغفرة، وتأتي بمعنى الرزق(٢).

قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾[هود:٩] رخاء وسعة في الرزق والعيش(٣).

وقال ﷻ: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ [يونس:١١] راحة ورخاء من بعد شدة وبلاء.وقيل: القطر بعد

(١) مقاييس اللغة ٢/ ٤٩٨.
(٢) لسان العرب ١٢/ ٢٣٠، تاج العروس ٣٢/ ٢٣٣.
(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٢٥٥.

القحط[1]. وهذه المعاني، الرزق الرخاء المطر، من آثار رحمته ﷻ.

قال ابن الأثير: «الرحمن والرحيم من أبنية المبالغة، ورحمان أبلغ من رحيم وهو خاص لله لا يسمى به غيره ولا يوصف»[2].

الرحمة شرعًا: صفة كمال لله ﷻ كما يليق بذاته وسبحانه كسائر صفاته، ومن آثارها أنها تقتضى إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها. وهذا معنى الرحمة الحقيقية فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك[3].

والرحمن والرحيم، اسمان من أسماء الله بنيت الصفة الأولى على فعلان الذي يدل على الامتلاء؛ لأن معناه الكثرة، وبنيت الصفة الثانية على فعيل، وكلاهما مشتق من الرحمة.

المطلب الثاني
الفرق بين الرحمن والرحيم

الكلام على الفرق بينهما من وجوه:

الوجه الأول: من ناحية الدلالة اللغوية: الرحمن أكثر مبالغةً.

الوجه الثاني: من ناحية جواز التسمي بهما: الرحمن اسم مختص بالله، لا يجوز أن يسمى به غيره، بخلاف الرحيم. فالرحمن معادل ومساو لاسم الله، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الاحزاب:٤٣].

(١) تفسير البغوي ٢/ ٤١٥.
(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٢١٠.
(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ٢/ ١٧٦.

الوجه الثالث: في الفرق بين معنيهما: الرحمن يدل على سعة رحمة الله، والرحيم يدل على إيصالها لخلقه، فالرحمن: ذو الرحمة الواسعة، والرحيم: ذو الرحمة الواصلة.

فالمعنى في الرحمن يكون صفة لازمة ذاتية قائمة به سبحانه وتعالى على الوجه الذي يليق به، وفي الرحيم يدل على الفعل المتعدي إلى المخلوق.

ولعل هذا أوجه قول في هذه المسألة. قال ابن القيم: «الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه وتعالى، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل، فالأول دال أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا، فتأمل قوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧]

ولم يجيء قط رحمن بهم فعلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة ورحيم هو الراحم برحمته»(٤).

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «الرحمن: هو ذو الرحمة الواسعة؛ لأن فَعْلان في اللغة العربية تدل على السعة والامتلاء، كما يقال: رجل غضبان، إذا امتلأ غضبًا. والرحيم: اسم يدل على الفعل؛ لأنه فعيل بمعنى فاعل، فهو دال على الفعل، فيجتمع من الرحمن الرحيم أن رحمة الله واسعة، وتؤخذ من الرحمن، وأنها واصلة إلى الخلق، وتؤخذ من الرحيم، وهذا ما رمى إليه بعضهم بقوله: الرحمن رحمة عامة، والرحيم رحمة خاصة بالمؤمنين»(٥).

وبعض العلماء يفرق بين الرحمن والرحيم من جهة سعة الرحمة

(٤) بدائع الفوائد ١/ ٢٤.
(٥) شرح العقيدة الواسطية للعثيمين ٢٢/١

وخصوصها، وهي إما في الدنيا أو في الآخرة، أو للمؤمنين أو لغير المؤمنين، فالرحمن ذو الرحمة الشاملة للخلائق في الدنيا وللمؤمنين في الآخرة، والرحيم خاص بالمؤمنين.

وهذا عند التأمل فيه إشكال؛ فقد ورد اسم الرحيم عامًا للمؤمنين ولغيرهم، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣] وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الاسراء:٦٦].

المطلب الثالث
أسماء الله الحسنى
المتعلقة والمقترنة بهذين الاسمين

ورد اسم الرحمن جل جلاله في القرآن الكريم في سبعة وخمسين موضعا، وورد اسم الرحيم جل جلاله في القرآن الكريم في مائة وثلاثة وعشرين موضعا، واقترن هذين الاسمين في القرآن الكريم في ستة مواضع، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ [الفاتحة]، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة:١٤٣] وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

[فصلت:٢]، ولم يقترن اسم الرحمن إلا بالرحيم وذكر ابن القيم في تأمل رائع أن اسم الرحمن اقترن بالاستواء على العرش، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ [القرقان:٥٩] فاستوى على عرشه باسم الرحمن؛ لأن العرش محيط بالمخلوقات، قد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[الأعراف:١٥٦].

قال ابن القيم: "الرحمن اسمه ﷻ ووصفه، لا تنافي اسميته وصفيته، فمن حيث هو صفة جرى تابعًا على اسم الله، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع، بل ورود الاسم العلم، ولما كان هذا الاسم مختصًا به ﷻ حسن مجيئه مفردًا غير تابع، كمجيء اسم الله كذلك، وهذا لا ينافي دلالته على صفة الرحمن كاسم الله ﷻ، فإنه دال على صفة الألوهية، ولم يجئ قط تابعًا لغيره، بل متبوعًا، وهذا بخلاف العليم والقدير والسميع والبصير ونحوها، ولهذا لا تجيء هذه مفردة بل تابعة"(١).

واقترن اسم الرحيم ﷻ ببعض أسماء الله، وهي:

١. الرحمن:

اقترن اسم الرحيم بالرحمن كما في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ [الفاتحة:٢-٣] وجاء هذا الاقتران في ستة مواضع من القرآن.

قال ابن القيم: «وأما الجمع بين الرحمن الرحيم، ففيه معنى هو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به ﷻ، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل، فالأول دال أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿لَّقَد

(١) بدائع الفوائد ١/ ٢٤

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة:١١٧] ولم يجئ قط رحمن بهم، فعلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة ورحيم هو الراحم برحمته، وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم تنجل لك صورتها"(١).

٢. الغفور:

اقترن اسم الرحيم باسم الغفور في خمسة وسبعين موضعًا في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف:٩٨]. عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم إي رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته»(٢).

فاقتران هذين الاسمين يدل على أن مغفرة الله سبحانه وتعالى من آثار رحمته التي كتبها على نفسه، فالمغفرة تسقط الذنوب وتقي العبد العقوبة.

٣. العزيز:

اقترن اسم الرحيم جل جلاله باسم العزيز في ثلاثة عشر موضعًا في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء١٠٦] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:٩]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء:٢١٧] فرحمته سبحانه وتعالى عن عزة وغلبة وقوة لا عن ضعف وعجز سبحانه وتعالى الله عن ذلك، فجاء اقتران الاسمين لبيان أنه سبحانه وتعالى مع كونه عزيزًا قويًا قاهرًا، فإنه كذلك رحيم بر محسن.

(١) بدائع الفوائد ١/ ٢٤

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب قول الله تعالى: (ألا لعنة الله على الظالمين)، ٣/ ١٢

٤. التواب:

اقترن اسم الرحيم جل جلاله باسم التواب، في تسعة مواضع من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١٦]. والتوبة من آثار رحمته سبحانه وتعالى، إذا وفق العبد للتوبة إليه ويسرها له، ثم تقبلها منه برحمته وفضله، بل وفرح بها سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ٣٧﴾ [النساء:٣٧].

وفي الصحيح عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني، والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة، ومن تقرب إلي شبرًا، تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إلي ذراعًا، تقربت إليه باعًا، وإذا أقبل إلي يمشي، أقبلت إليه أهرول»[١].

٥. الرؤوف:

اقترن اسم الرحيم جل جلاله باسم الرؤوف في ثمانية مواضع في القرآن الكريم، منها قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾ [البقرة:١٤٣].

واقتران هذين الاسمين يدل على أن رأفة الله، من آثار رحمته ومقتضاها.

قال ابن القيم: «وأقرب الخلق إلى الله سبحانه وتعالى أعظمهم رأفة ورحمة، كما أن أبعدهم منه، من اتصف بضد صفاته»[٢].

٦. البر:

اقترن اسم البر مع الرحيم في آية واحدة، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، ٤/٢١٠٢
(٢) الروح ٥٥٧.

﴿مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور:٢٨] والبر هو العطوف على عباده المحسن إليهم، عم ببره جميع خلقه، فلم يبخل عليهم برزقه، وهو البر المحسن في مضاعفته الثواب له، والبر بالمسيء في الصفح والتجاوز عنه.

واقتران البر بالرحيم لعله من اقتران المسبّب بالسبب.

٧. الرب:

واقترن به في موضع واحد، قال تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس٥٨] ومن آثار اسم الرب ﷻ أنه رحيم كما في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة]، فصفة الرحمة من آثار ربوبيته.

قال الشيخ السعدي: «فمن ربوبيته ﷻ رحمته، فالرب لا يمكن الا أن يكون رحيمًا، قال تعالى:﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفرقان:٦٣] ثم ذكر أوصافهم الجميلة التي إنما نالوها برحمته، وتبوؤوا منازلها برحمته، وجازاهم بمحبته وقربه ورضوانه،وثوابه وكرامته برحمته»[(١)].

٨. الودود:

واقترن به في موضع واحد، قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ [هود: ٩٠].

والودود هو: الذي يحب عباده المؤمنين.

قال ابن القيم: «وما ألطف اقتران اسمه (الودود) بـ (الرحيم) وبـ (الغفور)، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحب، و(الرب) ﷻ يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه ويحبه مع ذلك، فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحبه، ولو كان منه ما كان»[(٢)].

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ

(١) فتح الرحيم الملك العلام ٢١-٢٢
(٢) التبيان في أقسام القرآن ٥٩

وَدُودٌ﴾ [هود:٩٠] أي: لمن تاب وأناب؛ يرحمه فيغفر له، ويتقبل توبته ويحبه. ومعنى الودود من أسمائه ﷻ: أنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه، فهو فعول بمعنى فاعل ومعنى مفعول»(١).

المطلب الرابع
إثبات صفة الرحمة لله

صفة الرحمة من الصفات الثابتة لله ﷻ، دل على ثبوتها: الكتاب والسنة والعقل، وهي صفة تليق بذاته ﷻ، لا يجوز نفيها أو تأويلها أو تحريفها أو تكييفها، كما هو مقرر في مذهب أهل السنة والجماعة،كسائر الصفات.

فأما ثبوتها في الكتاب: فجاءت الآيات بذكر الرحمة في مواضع كثيرة، منها:

- قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥].
- وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب:٤٣].
- قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].
- وقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٦٤].

ومن السنة:

جاء إثبات صفة الرحمة في أحاديث عدة، منها:

- عن عمر بن الخطاب ؓ: قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «أترون هذه طارحة

(١) تفسير السعدي ٢/٣٨٥

ولدها في النار؟» قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»(١).

- وفي الصحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «لما خلق الله الخلق كتب في كتابه وهو يكتب على نفسه وهو وضع عنده على العرش إن رحمتي تغلب غضبي»(٢).
- وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييئس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار»(٣).
- وفي الصحيح أيضًا عن جرير بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»(٤).

وأما العقل:

إن ما نراه من الخيرات والإحسان إلى العباد ونفعهم، يدل على ثبوت صفة الرحمة، كما قد دل عليها تفريج الضر، وكشف الكربات، واندفاع النقم بأمر الله، كل ذلك دال على إثبات صفة الرحمة عقلا(٥).

قال ابن القيم: «والرب يستحيل أن يكون إلا رحيمًا، فرحمته من لوازم ذاته، ولهذا كتب على نفسه الرحمة، ولم يكتب على نفسه الغضب،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، ٨/٨
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (ويحذركم الله نفسه)، ٩/١٢٠
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الرجاء مع الخوف، ٨/٩٩
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًا ما تدعو فله الأسماء الحسنى)، ٩/١١٥
(٥) ينظر: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣٠

فهو لم يزل ولا يزال رحيمًا، ولا يصح نفي صفة الرحمة، أو تأويلها، أو تحريفها، أو تكييفها، أو تفويض معناها»(١).

قال ابن القيم: «وأما من قال: إن معنى الرحمة:الإحسان المحض والعطف والرقة التي في الشاهد، فلا يوصف الله ﷻ بها، وإنما رحمته مجرد إحسانه. فنقول: تثبت لله ﷻ الرحمة حقيقة، كما أثبتها لنفسه منزهة مبرأة عن خواص صفات المخلوقين، كما نقوله في سائر صفاته من إرادته وسمعه وبصره وعلمه وحياته وعلمه وحياته،وسائر صفات كماله، والرحمة لا تنفك عن إرادة الإحسان، فهي مستلزمة للإحسان، أو إرادته استلزام الخاص للعام، فكما يستحيل وجود الخاص بدون العام، فكذلك الرحمة بدون الإحسان، أو إرادته يستحيل وجودها»(٢).

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢٧١
(٢) بدائع الفوائد ٣/ ٢٣

المبحث الثاني
أنواع الرحمة

أنواع رحمة الله:

أولًا: رحمة الله لعباده نوعان، هما:

١. الرحمة العامة: وهي التي لا تشمل جميع الخلائق بإيجادهم وتربيتهم ورزقهم وغير ذلك من النعم التي تعد ولا تحصى.

قال الشيخ ابن عثيمين: "الرحمة العامة وهي التي تشمل جميع المخلوقات حتى الكفار، لأن الله قرن الرحمة هذه مع العلم، فكل ما بلغه علم الله، فقد بلغته رحمته، فكما يعلم الكافر، يرحم الكافر أيضًا. لكن رحمته للكافر رحمة جسدية بدنية دنيوية قاصرة غاية القصور بالنسبة لرحمة المؤمن، فالذي يرزق الكافر هو الله الذي يرزقه بالطعام والشراب واللباس والمسكن والمنكح وغير ذلك"(١).

٢. الرحمة الخاصة: وهي التي يرحم الله بها المؤمنين فيوفقهم إلى الهداية والطريق المستقيم، ويرزقهم الحياة الطيبة في الدنيا، وكذلك يرحمهم في الآخرة فيتجاوز عنهم ويدخلهم جناته وينجيهم من عذابه ونقمته.

قال ابن عثيمين: «أما المؤمنون، فرحمتهم رحمة أخص من هذه وأعظم، لأنها رحمة إيمانية دينية دنيوية. ولهذا تجد المؤمن أحسن

(١) شرح العقيدة الواسطية للعثيمين ١/ ٢٤٩

حالًا من الكافر، حتى في أمور الدنيا، لأن الله يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] الحياة الطيبة هذه مفقودة بالنسبة للكفار، حياتهم كحياة البهائم، إذا شبع، روث، وإذا لم يشبع، جلس يصرخ هكذا هؤلاء الكفار إن شبعوا، بطروا وإلا جلسوا يصرخون ولا يستفيدون من دنياهم، لكن المؤمن إن أصابته سراء، شكر، فهو في خير في هذا وفي هذا، وقلبه منشرح مطمئن متفق مع القضاء والقدر، لا جزع عند البلاء، ولا بطر عند النعماء، بل هو متوازن مستقيم معتدل»[١].

ثانيًا: الرحمة باعتبار إضافتها إلى الله، نوعان هما:

١. رحمة هي صفة الله يوصف بها على الوجه الذي يليق به كسائر صفاته؛ فيجب إثباتها من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل.

فهذه غير مخلوقة وغير بائنة من الله عزَّ وجلَّ؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨]، ولا يطلب نزولها[٢].

٢. رحمة مخلوقة، لكنها أثر من آثار رحمة الله. فأطلق عليها الرحمة[٣]؛ مثل قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم:٥٠] وقوله تعالى في الحديث القدسي عن الجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشاء»[٤].

وهذه الرحمة من باب إضافة المفعول إلى فاعله، وهذه الرحمة ليست صفة لله، بل هي من أثر رحمته التي هي صفته الفعلية.

(١) شرح العقيدة الواسطية للعثيمين ١/ ٢٤٩
(٢) ينظر: شرح العقيدة الواسطية للعثيمين ٢/ ٣٩
(٣) ينظر: شرح العقيدة الواسطية للعثيمين ٢/ ٣٩
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قول الله تعالى: (وتقول هل من مزيد)، ٦/١٣٨

المبحث الثالث
آثار رحمة الله سبحانه وتعالى

وتحته مطلبان:

المطلب الأول
آثار رحمة الله سبحانه وتعالى في الخلق

تظهر آثار رحمة الله في كل ما خلق، فرحمته قد وسعت كل شيء فلا يحيطها عقل ولا حصر.

قال ابن القيم: «وإذا كان كل مخلوق قد انتهت إليه الرحمة، ووسعته، فلا بد أن يظهر أثرها فيه آخرًا، كما ظهر أثرها فيه أولًا»[(١)].

وأسوق الآن بعضًا منها على سبيل التمثيل:

١. تسخير الخلق لبعضهم، واحتياج كل منهم للآخر، مما يعود عليهم بتحقيق المصالح والمآرب[(٢)]، قال تعالى: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا﴾ [الزخرف:٣٢].

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢٦٠

(٢) ينظر: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣٦٨

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

٢. إنزال المطر وانتفاع الناس به، وقد جاءت تسمية المطر في القرآن رحمةً، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٧].

٣. خلق الله للذكر أنثى يسكن إليها وتسكن إليه، وما يكون بينهما من المودة والرحمة، وغير ذلك من التناسل والانتفاع[١]، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم:٢١].

٤. تسخير الدواب وتذليلها للركوب والحمل والدر[٢]، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل:٥].

٥. تعاقب الليل والنهار لتتم معيشة العباد على وجه سوي، فيسعون إلى معاشاتهم نهارًا، ويتحقق سكنهم ليلًا، قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص:١٣].

٦. تسخير السماوات، وتذليل الأرض، وجعلها مهادًا وفراشًا،[٣] قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحاثية:١٣].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:١].

٧. جعل الرحمة بين العباد ليتراحموا بها[٤]، فقد جاء عن النبي ﷺ:

(١) ينظر: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣٦٨
(٢) ينظر: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣٦٨
(٣) ينظر: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣٦٨
(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣٦٨

«جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها، خشية أن تصيبه»(١).

ومن أعظم ذلك ما يضعه في قلوب الأمهات من الرحمة، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبيا في السبي أخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»»(٢).

المطلب الثاني
آثار رحمة الله سبحانه وتعالى في الشرع

١. إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وإيصال معاني خطابه إلى خلقه(٣)، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

قال ابن القيم: «فمن أعطى اسم الرحمن حقه،عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه إنزال الغيث، وإنبات الكلأ، وإخراج الحب، فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح، أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب، وأدرك منه أولو الألباب أمرًا وراء ذلك»(٤).

٢. مضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة مائة جزء، ٨/٨
(٢) سبق تخريجه.
(٣) ينظر: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣٦٨
(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٢

كثيرة[1]، ثبت في الصحيح عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله: إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة، فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف»[2].

٣. مغفرة الله ﷻ للذنوب وتكفيره للسيئات، قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

٤. ستر الله للعبد، وإمهاله وعدم معاجلته بالعقوبة إذا عصى.

٥. الشفاعة وعدم تخليد من في قلبه مثقال ذرة من إيمان[3]، ففي الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: « إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يقول الله: من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه، فيخرجون قد امتحشوا وعادوا حممًا، فيلقون في نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل»[4].

٦. دخول الأبناء الجنة بعمل الآباء[5]، قال الثوري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور:٢١] .

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢٦١
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى:(يريدون أن يبدلوا كلام الله)، ١٤٤/٩
(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢٦١
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، ١١٥/٨
(٥) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢٦١

٧. دخول الجنة من ينشئه الله فيها[١]، ففي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ « تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منهما ملؤها، فأما النار: فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول: قط، قط، فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحدًا، وأما الجنة: فإن الله عز وجل ينشئ لها خلقًا »[٢].

٨. رفع الحرج عن أهل الأعذار كالمريض ونحوه، وتخفيف بعض العبادات عليهم، من ذلك قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور:٦١].

٩. كون الأصل في الأشياء الإباحة، وكون الحرام ضيقًا محصورًا.

١٠. الرحمة بالمخطئين ووعظهم باللين، كما جاء في الصحيح أن أبا هريرة، أخبره: أن أعرابيًا بال في المسجد، فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «دعوه، وأهريقوا على بوله ذنوبًا من ماء، أو سجلًا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[٣].

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢٦١

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قول الله تعالى:(وتقول هل من مزيد)، ١٣٨/٦

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ: «يسروا ولا تعسروا»، ٣٠/٨

المبحث الرابع
ثمار الإيمان برحمة الله سبحانه وتعالى

١. محبة الله وتعظيمه الموجبان للقيام بأمره واجتناب نهيه. فإن العبد إذا نظر في آثار رحمة الله فإن هذا يثمر محبته سبحانه وتعالى والعبودية الصادقة له والمسارعة إلى مرضاته.

قال ابن القيم: "فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب سبحانه وتعالى في القلب"[(١)].

٢. سعي العبد إلى الاتصاف بالرحمة والتحلي بها، فإن من المعلوم أن المحب يحب أن يتصف بصفات محبوبه كما أن المحبوب يحب أن يتحلى محبه بصفاته[(٢)].

وقد امتدح القرآن أشرف رسله فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

وفي الصحيح عن جرير بن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من لا يرحم الناس، لا يرحمه الله عز وجل»[(٣)].

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٤٦٣
(٢) ينظر: صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة ٣٤
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، ٤/١٨٠٩

وقال ﷺ: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»[١]، فبيّن أن الرحمة إنما تنال من عباده الرحماء.

قال ابن القيم: «والرب ﷻ هو الرؤوف الرحيم وأقرب الخلق إليه أعظمهم رأفة ورحمة، كما أن أبعدهم منه من اتصف بضد صفاته»[٢].

قال الشيخ السعدي: «فرحمة العبد للخلق من أكبر الأسباب التي تنال بها رحمة الله، التي من آثارها خيرات الدنيا، وخيرات الآخرة، وفقدها من أكبر القواطع والموانع لرحمة الله، والعبد في غاية الضرورة والافتقار إلى رحمة الله، لا يستغني عنها طرفة عين، وكل ما هو فيه من النعم واندفاع النقم، من رحمة الله»[٣].

٣. توبة العبد إذا وقع في الذنب ورجوعه وأوبته،حياء من الله،ورجاء إحسانه ورحمته، فلا يجد اليأس إلى قلبه سبيلًا، بل يدعو الله أن يرحمه ويغفر له ويتوب عليه فهو الذي يغفر الذنوب جميعًا[٤]. قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

٤. فعل الأسباب الجالبة لرحمة الله، ومن أعظمها: فعل الأوامر واجتناب النواهي.

وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النوح من سنته»، ٢/٧٩
(٢) الروح ٢٥١
(٣) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار ١٨٨
(٤) ينظر: صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة ٣٤

قال الشيخ السعدي: «فطاعة الله وطاعة رسوله، من أسباب حصول الرحمة كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ﴾ [الاعراف:١٥٦].

ومما تستجلب به رحمة الله: رحمة اليتامى والفقراء والضعفاء والرفق بهم، جاء في الصحيح عن النبي ﷺ: «إن إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم»[1].

ومن ذلك: الاستغفار، قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل:٤٦].

ومن ذلك أيضًا: حضور مجالس الذكر، قال ﷺ: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[2].

ومن ذلك تدبر القرآن والإنصات إليه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف:٢٠٤].

ومن الطرق التي تستجلب بها رحمة الله: دعاء الله وسؤاله الرحمة لأنفسنا، كما جاء عن أيوب قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣].

وقال ﷻ: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنين:١١٨].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب قول النبي ﷺ: «العبيد إخوانكم فأطعموهم مما تأكلون»، ٣/ ١٤٩

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، ٤/ ٢٠٧٤

٥. التعلق برحمته سبحانه وتعالى، ورجاؤه، وحسن الظن به، وعبادته حق العبادة، والتوكل عليه، والرضى بما قدر عليه، واليقين بأن اختيار الله خير وأفضل من اختيار العبد لنفسه.

قال الشيخ السعدي: "والأمل بالرب الكريم، الرحمن الرحيم، أن يرى الخلائق منه، من الفضل والإحسان، والعفو والصفح والغفران، ما لا تعبر عنه الألسنة، ولا تتصوره الأفكار، ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق لما يشاهدونه فيختص المؤمنون به وبرسله بالرحمة، فإن قيل: من أين لكم هذا الأمل؟ وإن شئت قلت: من أين لكم هذا العلم بما ذكر؟

قلنا: لما نعلمه من غلبة رحمته لغضبه، ومن سعة جوده، الذي عم جميع البرايا، ومما نشاهده في أنفسنا وفي غيرنا، من النعم المتواترة في هذه الدار، وخصوصًا في فصل القيامة، فإن قوله: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ [طه:١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [طه:١٠٩] مع قوله: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفرقان:٢٦] مع قوله صلى الله عليه وسلم: «جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها، خشية أن تصيبه»[(١)]»[(٢)].

٦. أن العبد إذا آمن بصفة الرحمة لله فإنه يستأنس لهذا الرب ويطمئن له[(٣)].

قال أبو القاسم الأصفهاني: « فينبغي للمسلمين أن يعرفوا أسماء

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة مائة جزء، ٨/٨
(٢) تفسير السعدي ٥١٣
(٣) ينظر: صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة ٣٤

اللّه وتفسيرها فيعظموا اللّه حق عظمته، ولو أراد رجل أن يتزوج إلى رجل أو يزوجه أو يعامله طلب أن يعرف اسمه وكنيته، واسم أبيه وجده، وسأل عن صغير أمره وكبيره، فاللّه الذي خلقنا ورزقنا ونحن نرجوا رحمته ونخاف من سخطه أولى أن نعرف أسماءه ونعرف تفسيرها"[1].

(١) الحجة في بيان المحجة ١/ ١٣٤

الخاتمة

١. الرحمن والرحيم اسمان مشتقان من الرحمة، بني الرحمن على وزن فعلان، والرحيم على وزن فعيل.

٢. تعددت الأقوال في الفرق بين الرحمن والرحيم على ثلاثة أقوال:

أ. الرحمن أكثر مبالغة من الرحيم.

ب. الرحمن مختص بالله سبحانه وتعالى لا يجوز أن يسمى به غيره، والرحيم يجوز أن يسمى به غيره.

ج. الرحمن صفة لازمة ذاتية لله سبحانه وتعالى، والرحيم تدل على فعله المتعدي للمخلوق.

٣. اقتران اسم الرحمن بالاستواء على العرش، واقترن اسم الرحيم بالرحمن والغفور والعزيز والتواب والرؤوف والبر والرب والودود.

٤. ثبتت صفة الرحمة لله بالكتاب والسنة والعقل، وهي صفة كمال كما يليق به سبحانه وتعالى.

٥. للرحمة نوعان:

أ. عامة تشمل جميع الخلائق، وخاصة للمؤمنين.

ب. رحمة صفة لله ﷻ، ورحمة مخلوقاته من آثار رحمته ﷻ.

٦. للرحمة آثار في الخلق منها تسخير الخلق لبعضهم وخلق السماوات وإنزال المطر، وخلق الذكر والأنثى، وتسخير الدواب وجعل الرحمة بين العباد ليتراحموا بها.

٧. من آثار رحمة الله في الشرع:

إرسال الرسل، وإنزال الكتب، ومضاعفة الحسنات، ومغفرة الله ﷻ للذنوب، وستره للعبد وإمهاله، والشفاعة وعدم تخليد أهل التوحيد في النار، ودخول الأبناء الجنة بعمل الآباء، ورفع الحرج عن أهل الأعذار، وكون الأصل في الأشياء الإباحة.

٨. من ثمار الإيمان برحمة الله:

محبة الله وتعظيمه، وسعي العبد للاتصاف بالرحمة، والتوبة وفعل الأسباب الجالبة لرحمة الله، والتعلق برحمته والاطمئنان له، ورجاؤه وحسن الظن به، وعبادته، والرضى بما قدر.

قائمة المصادر والمراجع

١. بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
٢. بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، أبو عبدالله، عبدالرحمن بن ناصر آل سعدي، تحقيق: عبدالكريم ابن رسمي الدريني، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
٣. تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد الحسيني، الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
٤. التبيان في أقسام القرآن، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
٥. معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، محيي السنة، أبو محمد الحسين البغوي الشافعي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي -بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.
٦. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.
٧. جامع البيان في تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٨. الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، إسماعيل بن محمد التيمي الأصبهاني، أبو القاسم، تحقيق: محمد بن ربيع المدخلي، دار الراية - السعودية / الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٩. حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية، مطبعة المدني، القاهرة.

١٠. حادي الأرواح

١١. خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ.

١٢. الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية بيروت.

١٣. سنن الترمذي المؤلف: محمد بن عيسى الترمذي، أبو عيسى، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبدالباقي وإبراهيم عطوة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م.

١٤. شرح العقيدة الواسطية، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، خرج أحاديثه واعتنى به: سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة السادسة، ١٤٢١ هـ.

١٥. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٦. صحيح الجامع الصغير وزياداته، أبو عبدالرحمن محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.

١٧. صفات الله سبحانه وتعالى الواردة في الكتاب والسنة، علوي بن عبدالقادر السَّقَّاف، الدرر السنية – دار الهجرة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٦م

١٨. فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق

والأحكام المستنبطة من القرآن، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، دار المنهاج.

١٩. لسان العرب، محمد بن مكرم، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة - ١٤١٤هـ.

٢٠. مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني، تحقيق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

٢١. مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية، اختصار: محمد بن محمد البعلي شمس الدين، ابن الموصلي، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٢٢. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية - بيروت.

٢٣. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٢٤. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس القزويني الرازي، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢٥. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك الشيباني الجزري ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

حديث
جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِئَةَ جُزْءٍ
وقفات إيمانية

إعداد:

أ. د. إبراهيم بن حماد الريس

المقدمة

الحمد لله القائل ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، والصلاة والسلام على النبي الكريم وعلى آله وصحابته الغر الميامين وعلى من سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فكلما قرأت أو سمعت حديث "المئة رحمة" وما فيه من رحمة الله بعباده، وما ادخر سبحانه لهم منها؛ انشرح صدري وأنست نفسي، واطمأن قلبي، وحمدت ربي عليَّ ما أنعم به علي من نعمة الهداية لهذا الدين العظيم الذي لا يعرف عظمته إلا من عاش الجاهلية ولا يدرك عظيم فضل الله عليه إلا من رأى تيه البشر وضلالهم وطغيانهم، حينما ابتعدوا عن دين الرحمة والطمأنينة.

وكان يرد عليَّ أسئلة كثيرة عن المعاني العظيمة في "حديث المئة رحمة" وكنت عند التأمل والتفكر وقراءة كلام العلماء، أقف على معان إيمانية رائعة، واستنباطات وفوائد قيمة.

ثم تكاملت الصورة أو كادت؛ عندما وجدت التقنيات الحديثة وبرامج التواصل والشبكة العنكبوتية، ومكنت الإنسان من الاطلاع على دقائق

من الحياة في العالم بأنسه وحيواناته وطيوره؛ فجُمعت لقطات وصور من عدسات المصورين أو أخبار الموثوقين عن مواقف رحمة عجيبة تقع للحيوانات والهوام والطيور[1]، وكان الإنسان أولى بكثير من هذه اللقطات؛ بما حباه الله تعالى من عقل وعلم، ولكن الإنسان غلبت على كثير من جوانب حياته المطامع الدنيوية والمؤثرات الكثيرة، التي أضعفت عنده خلق الرحمة، ليعيش ما نشهده اليوم من الصراعات والطغيان، وإن كانت حياة البشر مليئة بهذا الخلق، ولله الحمد؛ إلا أن المؤمل من الإنسان أكثر.

وحديث النبي ﷺ هذا والذي يقول فيه: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِئَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الخَلْقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ» حديث عظيم، وهو ميدان فسيح للتأمل والاستنباط، وإدراك شيء ولو يسير من آثار رحمة الله تعالى.

حدود البحث:

يتناول البحث حديث نبي الهدى ﷺ الذي يقول فيه: "جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِئَةَ جُزْءٍ« تخريجا وتحليلًا، مكتفيا بتخريج رواياته الواردة في الصحيحين، مع عرض بعض ألفاظه، واستنباط ما فيه من حكم وفوائد وعبر ودروس، مع التركيز على الجوانب الإيمانية والدعوية والاجتماعية، وربط ذلك بالواقع المعاصر، محاولًا بيان عظمة هذا الدين وسعة رحمة الله رب العالمين بالخلق أجمعين، وتلبية حاجة المجتمعات إلى الإسلام وتشريعاته ونقائه في هذا العصر.

أسئلة البحث:

يجيب البحث بإذن الله على الأسئلة التالية:

(١) كنت جمعت ملحقا خاصًا ببعض الصور، وأثبت عددًا من الروابط على الشبكة المعلوماتية لبعض اللقطات الحية، وقد حذفتها لعدم الحاجة الظاهرة لها، ولن يعدم القارئ من الوصول إليها والبحث عنها في شبكة المعلومات إن أرادها.

١. ما الذي يجب علينا القيام به لننال رحمة الله؟.

٢. إذا كان ما نراه من رحمات على وجه الأرض بين الأم وأولادها وبين الطير وفراخه وبين الحيوان وصغاره؛ جزءًا واحدًا من مئة جزء من رحمة الله تعالى، فكيف ستكون رحمة الله تعالى بعباده يوم القيامة؟.

٣. هل هذه الرحمات من الله تعالى لعباده معدودة محصورة في هذا العدد، أم أن هذا العدد غير مقصود، وإنما المراد بيان سعة رحمة الله تعالى؟

٤. ما الأثر الإيماني لدى العبد إذا تذكر مثل هذا الحديث العظيم؟

أهداف البحث:

١. معرفة واجبنا الذي يتحقق به نيل رحمة الله تعالى.

٢. بيان عظيم رحمة الله، وما يترتب على ذلك من طمأنينة القلب وأنس النفس.

٣. أن رحمة الله واسعة، وأن الرحمات التي بين الخلق؛ بين الأم وأبنائها والطير وفراخها والحيوانات وصغارها هي جزء واحد من مئة جزء من الرحمة التي خلقها رب العالمين.

٤. بيان عظمة خلق الرحمة في الإسلام، وارتباطه بالإيمان بالله رب العالمين.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة وفهارس.

المقدمة؛ وفيها بيان أهمية الموضوع وأهداف البحث وحدوده.

المبحث الأول: تخريج الحديث وذكر بعض ألفاظه ورواياته، وفوائده.

المبحث الثاني: بيان سعة رحمة الله مع ذكر بعض النصوص الواردة في معنى الحديث.

المبحث الثالث: الأثر الإيماني لحديث «المئة رحمة» في قلوب العباد وعلى أعمالهم.

الخاتمة، وفيها أهم النتائج والتوصيات

وأخيرًا فإنني أستحضر في مقدمة هذا البحث بعض الأسئلة المهمة، التي يجب أن يطرحها كل ناظر فيه على نفسه وعلى من حوله:

- أين خلق الرحمة الذي أنعم الله به على العالمين في واقع حياة المسلمين اليوم؟ وخاصة حين يرى المسلم إخوانه في شرق الأرض وغربها تكويهم ويلات الحروب وتطحنهم آلام الفتن والجوع، بينما أخوهم المسلم لا يكترث لحالهم ولا يبادر للتخفيف عنهم ولا يتألم قلبه رحمة بهم؟.
- يجب علينا أن لا ننسى خلق الرحمة الذي يجب على المسلم أن يتخلق به حتى يرحمه الله؛ فالراحمون يرحمهم الرحمن جل وعلا.
- لماذا الاختلاف بين ما يعرفه المسلم من خلق الرحمة في الإسلام، وبين ما يشاهد اليوم من تعامل بعض المسلمين أو من ينتسبون للإسلام، ويرفعون شعار الإسلام، وتكون لهم تصرفات أناسٍ قدَّت قلوبهم من صخر، وصبت من فولاذ؛ لا يكترثون لدم ولا يرعوون عن استهانة بأنفس، ولا يلقون بالا لحق إنسان، فلا يوجد أي أثر للرحمة في قلوبهم؟
- وحين أذكر هذا عن المسلمين فلا يعني ذلك أن حال العالم غير المسلم

حال رحمة وحال أمان للعالم، كلا فإن تلك القسوة في القلوب سببها الرئيس ما صنعه العالم المادي في واقع العالم اليوم من إغراقه في الماديات، وكذلك فإن من صنع أدوات الدمار وجعل العالم اليوم عالمًا وحشيًّا، هو الغرب والشرق الكافر، ولا نعفي أنفسنا من الخلل ولكننا لا ننبهر بما لدى الغرب الذي لا يعرف أمام مصالحه أي معنى للرحمة، ولا يعرف أمام تحطيم خصومه أي شعور رحمة، فدمار العالم اليوم وقديما كان مرتكزا على صناعات الأسلحة الفتاكة التي يحتكرها غير المسلمين، فأين هؤلاء من خلق الرحمة الذي يطالبوننا به؟ وما وضع المسلمين اليوم في الشام والعراق وبورما إلا شاهد على وحشية أصحاب المصالح الكبرى في العالم، من الغربيين والشرقيين.

إنما نحن المسلمون نريد نشر خلق الرحمة ليكون خلقًا عالميًا؛ لا لأن الشرق والغرب سألونا عنه، واتهمونا بضده، وإنما لأن الله تعالى أمرنا به، ولأن نبينا ﷺ وجهنا إليه.

أسأل الله تعالى التوفيق والسداد.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول
حديث «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مئَةَ جُزْءٍ»، وفيه: تخريجه وذكر بعض ألفاظه ورواياته، وفوائده

المطلب الأول
تخريج الحديث وذكر بعض ألفاظه ورواياته

الحديث ورد عن عدد من الصحابة منهم أبو هريرة وسلمان الفارسي وأبوسعيد الخدري وجندب بن عبدالله البجلي رضي الله عنهم، فأما حديث أبي هريرة ففي الصحيحين، وأما حديث سلمان ففي صحيح مسلم، وأما الحديثين الآخرين ففي المسند وبعض السنن، وسأقصر عملي في تخريج الحديث على ما في الصحيحين لأن المقصود ثبوت الخبر وهو ثابت عن نبي الهدى صلى الله عليه وسلم.

تخريج الحديث:

أولًا: حديث أبي هريرة رضي الله عنه:

أخرج الإمام البخاري في صحيحه[1] أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِئَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الخَلْقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ».

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة مئة جزء، ص ١١٦٣، رقم ٦٠٠٠. وفي صحيح مسلم، كتاب التَّوْبَةِ، ص ١١٠١، رقم ١٧ - ٢٧٥٢ بلفظ مقارب.

وفي رواية أخرى عنده[1] عن أبي هريرة ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِئَةَ رَحْمَة، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِه كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً، فَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّه مِنَ الرَّحْمَة لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ المُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ العَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ».

وفي رواية عند مسلم[2] عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللّه ﷺ، قَالَ: «خَلَقَ اللّهُ مِئَةَ رَحْمَةٍ، فَوَضَعَ وَاحِدَةً بَيْنَ خَلْقِهِ وَخَبَأَ عِنْدَهُ مِئَةً إِلَّا وَاحِدَةً»

وعنده[3] أيضا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلَّه مِئَةَ رَحْمَة أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللّهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»

ثانيًا: حديث سلمان ﷺ:

أخرج الإمام مسلم[4] عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّه ﷺ: «إِنَّ لِلَّه مِئَةَ رَحْمَةٍ، فَمِنْهَا رَحْمَةٌ بِهَا يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ بَيْنَهُمْ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وفي رواية لمسلم[5]: عَنْ سَلْمَانَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّه ﷺ: «إِنَّ اللّهَ خَلَقَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِئَةَ رَحْمَة كُلُّ رَحْمَة طِبَاقَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَجَعَلَ مِنْهَا فِي الأَرْضِ رَحْمَةً، فَبِهَا تَعْطِفُ الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا، وَالْوَحْشُ وَالطَّيْرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَكْمَلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ».

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب الرجاء مع الخوف، ص ١٢٤١، رقم ٦٤٦٩.
(٢) صحيح مسلم، كتاب التَّوْبَة، ص ١١٠١، رقم ١٨ – ٢٧٥٢.
(٣) صحيح مسلم، كتاب التَّوْبَة، ص ١١٠١، رقم ١٩ – ٢٧٥٢.
(٤) صحيح مسلم، كتاب التَّوْبَة، ص ١١٠١، رقم ٢٠ – ٢٧٥٣.
(٥) صحيح مسلم، كتاب التَّوْبَة، ص ١١٠١، رقم ٢١ – ٢٧٥٣.

المطلب الثاني
من فوائد الحديث وفقهه

لا أجد أن صفحات هذا البحث كافية للتأمل والنظر وإعمال الفكر والاستنباط فيما في هذا الحديث من الفوائد والعبر، ولكن حسبي أن أذكر بعض ما يتطلبه المقام، ويستدعيه النظر؛ فأقول وبالله التوفيق:

أولًا: نظرة سريعة في ألفاظ الحديث:

كما يظهر من تخريج الحديث ثبوته عن نبي الهدى ﷺ وكذلك فإن ألفاظ الحديث في الروايات الواردة في الصحيحين تتكامل في إيضاح الصورة وبيان سعة رحمة الله تعالى، ففي الحديثين اتفاق على العدد واتفاق على ما أنزل الله بين الخلق من الرحمات، وما ادخر سبحانه عنده.

وبين الحديثين اتفاق في المراد بالرحمة التي أنزلها الله سبحانه بين خلقه من الجن والإنس والبهائم والهوام والطير.

ثانيًا: هل العدد مقصود لذاته؟

اتفقت الروايات على العدد، ولم تختلف فهي مئة رحمة، بواحدة يتراحم الخلق، وتسعة وتسعون رحمة مدخرة عند الله تعالى، فهل العدد تعداد للرحمات، أم ذكر العدد يقصد به التكثير فقط؟

تناول بعض أهل العلم هذا الموضوع بالإشارة إليه، واختلفت أقوالهم في ذلك

فبينما ذكر النبي ﷺ الرحمات التي تقابل الجزء من المئة رحمة، لم يرد ذكر للرحمات المدخرة عند الله ليوم القيامة، ومع ذلك، ومع أن الأرجح أنه لا يمكن حصر وتعداد رحمات الله تعالى، فحيث يعدد البعض رحمات الله لخلقه في الدنيا، يذكر آخرون أن الرحمات المدخرة ستكون في الآخرة،

وبينما يذكر بعضهم الرحمات التي تستنبط من كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، من إرسال الرسل وإنزال الكتب ونزول الغيث ونحو ذلك، فهناك من يجعل من ضمن هذه الرحمات ما يمنعه الله تعالى من عدم طغيان البحار وعدم سقوط النجوم وعدم إحراق الشمس، وغير ذلك مما لا يمكن حصره ولا تعداده، والذي وقفت عليه من كلام الشراح وأهل العلم في هذا قليل ولكنه يشير إلى نحو ما ذكرته.

يقول الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ[١]: مقتضى هذا الحديث أن الله تعالى علم أن أنواع النعم التي ينعم بها على خلقه مئة نوع[٢]، فأرسل منها فيهم في هذه الدار نوعًا واحدًا؛ فبه انتظمت مصالحهم، وحصلت مرافقهم، كما نبه عليها في الحديث، فإذا كان يوم القيامة كمَّل لعباده المؤمنين ما بقي في علمه، فبلغت مئة وكلها للمؤمنين.ا.هـ

فالإمام القرطبي هنا يومئ إلى القول بأن العدد مراد لذاته، وقد حكى الحافظ ابن حجر عنه ما يؤكد ذلك.

قال الحافظ[٣]: وأما مناسبة هذا العدد الخاص، فحكى القرطبي عن بعض الشراح أن هذا العدد الخاص أطلق لإرادة التكثير والمبالغة فيه، وتعقبه -أي تعقب القرطبي من حكى عنه ذلك- بأنه لم تجر عادة العرب بذلك في المئة وإنما جرى في السبعين، كذا قال.

وقال الكرماني[٤]: "فحصره على مئة على سبيل التمثيل تسهيلا للفهم وتقليلا[٥] لما عندنا، وتكثيرا لما عنده سبحانه".

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٨٢/٧.
(٢) تعقب فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين قول القرطبي، فقال: «تفسير الرحمة بالنعمة فيه نظر لأن الرحمة التي في الخلائق غير النعمة، هي رحمة يجدها الإنسان في قلبه». شرح كتاب الرقاق من صحيح البخاري ص٧٢.
(٣) فتح الباري ٤٣٣/١٠.
(٤) الكواكب الدراري ١٦٥/٢١.
(٥) ورد في الكواكب الدراري «تعليلًا» ولعله تصحيف، وفي فتح الباري «تقليلًا» وهو أقرب للصواب.

وذكر الشيخ محمد العثيمين أن العدد غير مراد فقال[1]: "فالحاصل أن هذه الرحمة التي في الأرض تتراحم بها الخلائق، ما يحصيها إلا الله، يوم القيامة تتضاعف إلى مئة ضعف" .ا.هـ

ثم أراد الحافظ[2] أن يجد توجيها لذكر هذا العدد، فقال: "لكن تبقى مناسبة خصوص هذا العدد، فيحتمل أن تكون مناسبة هذا العدد الخاص لكونه مثل عدد درج الجنة، والجنة هي محل الرحمة، فكأن كل رحمة بإزاء درجة، وقد ثبت أنه لا يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله ﷻ، فمن نالته منها رحمة واحدة كان أدنى أهل الجنة منزلة، وأعلاهم منزلة من حصلت له جميع الأنواع من الرحمة" .

والخلاصة: أن العدد غير مقصود، ولو تتبعنا ما نعرفه من رحمته جل وعلا ما استطعناه، فكيف بما يخفى علينا أمره من رحمته سبحانه؟، وكيف بما ادخره جل وعلا يوم القيامة لعباده المؤمنين؟

ثالثًا: أمثلة الرحمة، التي أنزلها الله تعالى والواردة في الحديثين:

عند تتبع ألفاظ الحديثين نجد بأن نبي الهدى ﷺ ضرب أمثلة من الرحمات التي تسعد العاقل وتنبه الغافل، ومع ذلك فكل هذه الرحمات التي نراها في الدنيا وبين الخلق ما هي إلا جزء واحد فقط من مئة جزء من رحمة الله تعالى، فإذا كان هذا حال الرحمة التي تقدر بـ ١٪، فكيف ستكون عظمة وسعة رحمة أرحم الراحمين سبحانه في الآخرة، وهي تساوي ٩٩٪، فما أعظم رحمة الرحمن الرحيم سبحانه.

وهذه أمثلة للرحمة التي أنزلها الله تعالى بين الخلائق، أوردها بنص ما ورد في كلام النبي ﷺ دون شرح أو تعليق، وذلك لوضوحها:

- أن ما أنزله الله تعالى من الرحمة بين الخلائق، جزء واحد من مئة

(١) شرح كتاب الرقاق من صحيح البخاري ص٧٢.
(٢) فتح الباري ٤٣٣/١٠

جزء من رحمة الله، وقد ادخر لعباده ما هو أعظم؛ قال: " أَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلَائِقُ".

- أن ما يوجد من الرحمات في العالم بكل أحيائه من إنس وجن وحيوانات وطيور وهوام؛ من ذلك الجزء الواحد من الرحمة: " أَرْسَلَ سبحانه فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ؛ من الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ".
- أن رفع الدابة حافرها رحمة بولدها وخشية أن تؤذيه هو من هذا الجزء الواحد من المئة: "تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ".
- أن من الرحمة التعاطف بين الخلق، وهو من ذلك الجزء الواحد: "فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ".
- وفي هذا الجزء التراحم بينهم: وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ.
- وفي هذا الجزء: تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا.
- ومن هذا الجزء: تَعْطِفُ الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا.
- ومن هذا الجزء: تعطف الْوَحْشُ بعضها على بعض.
- ومن هذا الجزء: تعطف الطَّيْرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ.

فهذه الألفاظ النبوية التي وردت في توصيف هذا الجزء من الرحمة في الحياة الدنيا.

رابعًا: الحديث بشارة ورحمة، ولكنه نذارة وتحذير.

فالنبي ﷺ يطمئن القلوب الصادقة بسعة رحمة الله، وكذلك يحذر القلوب المعرضة من عقوبة الله تعالى؛ ففي رواية الإمام البخاري يقول ﷺ: «فَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْأَسْ مِنَ الجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ المُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ العَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ».

خامسًا: رحمات الله مدخرة لليوم الأشد، الذي يمر بالخلق، يوم القيامة.

إن رحمة الله بخلقه ترافقهم في كل لحظات حياتهم، وتحوطهم في مواقف كثيرة في دنياهم، ومع ذلك فإن الرحمات العظيمة من الله لخلقه مدخرة لهم يوم القيامة، وهذا ما أشار له النبي ﷺ في الحديث، حيث قال ﷺ عن التسعة والتسعين رحمة:

- في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري: «فَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الجَنَّةِ».
- وعند مسلم: «وَخَبَأَ عِنْدَهُ مِائَةً إِلَّا وَاحِدَةً».
- وعند مسلم: «وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».
- كذلك جاء في حديث سلمان رضي الله عنه: "وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ»،
- وعنده أيضًا: «فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَكْمَلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ».

فهذه النصوص واضحة في أنها مدخرة ليوم القيامة.

يقول الإمام القرطبي[(١)]: "وهذه الرحمة التي جعلها الله في القلوب في هذه الدار، وتحصل عنها هذه المصلحة العظيمة هي رحمة واحدة من مئة رحمة ادَّخرها الله تعالى ليوم القيامة؛ فيرحم بها عباده المؤمنين وقت أهوالها، وشدائدها حتى يخصَّهم منها، ويدخلهم في جنته، وكرامته".

ورحمة الله تعالى بخلقه في الدنيا ظاهرة لا تحتاج لدليل، ونصوص القرآن والسنة واضحة في ذكر ذلك؛ وسأعرض لذكر بعضها في المبحث التالي، ولكن المراد أن رحمة الله تعالى تظهر في موقف الشدة والحساب

(١) المفهم ٦/١٠٩.

بالشكل الذي يراه الخلق ويتشوفون إليه، وقد صار الأمر عندهم عين اليقين.

سادسًا: رحمة الله لا تنافي غضبه ونقمته.

في كتاب الله تعالى وفي السنة المشرفة آيات وأحاديث عديدة، تؤكد على سعة رحمة أرحم الراحمين، لكن الذي يجب أن يكون حاضرًا؛ ما أكده رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة عند البخاري[1]، حيث ذكر ﷺ المئة رحمة؛ ثم ختم الحديث بقوله ﷺ: "فَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ المُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ العَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ».

فالمراد أن نأنس برحمة الله، ولكن لا نغفل عن طاعته وننسى عقابه، ورحمته سبحانه لا تنافي غضبه ونقمته، فمن قصر في جنب الله وأصر وعاند واستكبر وكابر وغفل وتغافل فعذاب الله له بالمرصاد، وهذا لا ينافي رحمته جل وعلا، بل هو مقتضى ذلك؛ فإن من أعرض بعد البيان، وأنكر فضل الله ورحمته يستحق العقوبة والعذاب.

(١) سبق تخريجه

المبحث الثاني
بيان سعة رحمة الله مع ذكر بعض النصوص الواردة في معنى الحديث

حديث جعل الله الرحمة مئة جزء، حديث عظيم، وأظهر الدلالات فيه، وأوضحها بيان رحمة الله تعالى، وأن لهذه الرحمة من الآثار والمشاهد، ولها من الدلالات والأحكام ما تمتلئ به أرجاء الحياة كلها، وليس ذلك بخاف على من له أدنى نظر في أحداث الحياة، ولا من له اطلاع على تشريعات الإسلام وأحكامه، ولهذا حين نقرأ حديث رسول الله ﷺ ونرى آثار رحمة الله تعالى بخلقه، وأن الله خلق مئة رحمة ندرك ما جاء في آيات القرآن العظيم وأخبار النبي الكريم ﷺ من النصوص، التي تبين للمسلم سعة رحمة الله ولطفه سبحانه بخلقه، ولنتدبر في ضوء ما جاء في حديثنا بعضًا من ذلك.

إن الناظر في التكاليف الشرعية يرى ما فيها من سعة رحمة الله، فلو تأملنا كيف أن أرحم الراحمين سبحانه في جانب التكاليف الشرعية عند طلب الفعل يقرن ذلك بالاستطاعة، فلا يكلف المرء ما لا يستطيعه، فهل ذلك إلا رحمة من الله؟

وحينما نتأمل التكاليف الشرعية، وهي تتوافق مع حاجة الإنسان وإمكانياته ومراعاة ظروفه وحالاته وحاجاته؛ فنجد أحكام السفر وما

يتعلق به من القصر والجمع والتيمم والفطر، ونجد أحكام المرضى وما يتعلق بها من رحمات الله بهم وتكيف الأحكام الشرعية مع حالاتهم، ونجد الأحكام المتعلقة بالنساء وضعفهن والرحمة بهن والرخص الشرعية في التكاليف مع الحائض والنفساء، ومع الحامل والمرضع، ونجد غير ذلك كثيرًا مما لا يمكننا حصره.

وعند النظر كذلك في العلاقات الاجتماعية وما فيها من رحمة الله التي يعم بها الضعفاء والأمهات والآباء والأطفال والصبيان، والبنات على وجه الخصوص، فنجد رحمة الله تعالى بهؤلاء، ونجد رحمة الله تعالى تتمثل في الأجور العظيمة من الله لمن يرحم هؤلاء ويعطف عليهم؛ وذلك من رحمة الله تعالى بهم.

فهذا إجمال لبعض رحمات الله تعالى بخلقه، والآيات في كتاب الله تعالى كثيرة في هذا المعنى، ومتوافرة في بيان تلك الأحكام الرحيمة من الله الرحيم سبحانه وتعالى.

يقول سبحانه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]. وقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] وغير ذلك من الآيات في هذا الباب.

وفي السنة النبوية من الأحاديث ما يؤكد على المعاني التي وردت في حديثنا، فمن ذلك حديث الفاروق عمر بن الخطاب ﵁ في الصحيحين أنه قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ قُلْنَا: لاَ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا. متفق عليه[1].

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، بَابُ رَحْمَةِ الوَلَدِ وَتَقْبِيلِهِ وَمُعَانَقَتِهِ، ص ١١٩٢، رقم ٥٩٩٩. وصحيح

فالحديث يعطي مثالًا من أمثلة الرحمة بين الخلائق، التي ذكرها النبي ﷺ في حديثنا، فرحمة هذه الأم بولدها مع توافر أسباب الشوق له والرحمة به والعطف عليه وشدتها حين فقده، لا يمكن أن يكون منها فعل ما ذكره النبي ﷺ، وسأل عنه أصحابه، وهو إلقاء ولدها في النار، ثم يبين ﷺ رحمة الله تعالى بعباده، وأنه سبحانه أرحم بهم من الأم بولدها، وأكثر شفقة على عباده من هذه إلا أن تلقي ولدها في النار وهي تقدر على أن لا تطرحه فيها.

ويبين ﷺ رحمة الله ولطفه بعباده، وأن رحمة الله تغلب غضبه على عباده وإن هم عصوه إذا تابوا وأنابوا؛ فيقول ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيحين: « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ وَهُوَ يَكْتُبُ عَلَى نَفْسِهِ، وَهُوَ مَوْضُعٌ عِنْدَهُ عَلَى العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي». متفق عليه[1].

- وفي رواية عند الشيخين[2] "سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي". وفي رواية عند البخاري[3] "إِنَّ رَحْمَتِي غلبت غَضَبِي".

مسلم، كتاب التوبة، ص ١١٠٢، رقم٢٢-٢٧٥٤.

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، ص ١٤١٠، رقم ٧٤٠٤. وصحيح مسلم، كتاب التوبة، ص١١٠٠، رقم ١٤-٢٧٥١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾، ص ١٤٤٢، رقم ٧٥٥٣، وصحيح مسلم، كتاب التوبة، ص١١٠١، رقم ١٥-٢٧٥١.

(٣) صحيح البخاري كتاب بَدْءِ الخَلْقِ. بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، ص ٦١٣، رقم ٣١٩٤.

المبحث الثالث
الأثر الإيماني للحديث
في قلوب العباد وعلى أعمالهم

قوة الإيمان وضعفه يكون بحسب قرب العبد من ربه وحرصه على مرضاة خالقه واتباعه لهدي نبي الهدى ﷺ، ومن أقوى المؤثرات على قلوب الخلق شعورهم بالحاجة إلى الله العظيم سبحانه وتعالى، واستشعارهم ضعفهم وعوزهم أمام قدرة الله وتدبيره، وتذكرهم رحمته بهم ولطفه وتخفيفه عنهم، فإذا تذكر العبد ذلك اطمأنت نفسه وارتاح باله وسمت مشاعره، وأنس بشريعة الله رب العالمين.

إن تحقيق أسباب الرحمة من العبد هو مقتضى الإيمان، فإذا قرأ المسلم آيات الرحمة في كتاب الله تعالى شعر بأن الله قريب منه، يحفظه ويحوطه ويرحمه وينعم عليه، فيقوى إيمانه، وتقوى علاقته بالله تعالى، وإذا تأمل المسلم أحاديث رسول الله ﷺ وما فيها من رحمات الله والتأكيد عليها والتذكير بها، علم حكمة الله تعالى حين قال في كتابه العظيم:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وإذا تذكر المسلم مواقف الحياة ورحمات الله وعونه وحفظه وهدايته، وتذكر حاله وحفظ الله له، زاد إيمانه وقوي يقينه بالله رب العالمين.

وإذا استعرض الإنسان ما شهده من مواقف، وما نقل له من أخبار، وما طالعه من صور ومشاهد، تتجلى فيها الرحمة، وإن مطالعة المرء لبعض اللقطات، أو رؤية بعض الصور يشعره بنعمة الله عليه، وتظهر فيها حكمة الله تعالى في خلقه، فيقوى إيمانه بالله رب العالمين.

ثم إذا قرأ حديث المئة رحمة، وقد امتلأت نفسه بتلك المشاهد والصور لتلك المواقف والرحمات بين الخلائق، فإذا شاهد تلك اللقطات للمخلوقات من سباع وغيرها من سائر الحيوانات، وللجوارح وما سواها من الطيور، وللهوام وما عداها من الحشرات، فعندها سيقول -من قلبه قبل لسانه-: الله أكبر؛ ما أعظم رحمة الله جل وعلا، فكل هذه المواقف من الرحمات بين المخلوقات هي جزء واحد من مئة جزء من آثار رحمة الله تعالى، وأن رحمة الله يوم القيامة بعباده تعدل ذلك تسعة وتسعين مرة، فعندها يطمئن القلب، وتهدأ النفس، ويقوى الإيمان بالله رب العالمين.

يقول الله تعالى في بيان أثر الرحمات على الإيمان: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [الروم: ٥٠].

فإن الآية تؤكد على أن تأمل رحمات الله في الكون تزيد يقين العبد بأن الله رحيم بخلقه، وأن الله قادر على كل شيء سبحانه.

من الآثار الإيمانية للحديث:

إضافة لما ذكر سلفًا؛ فإن تأمل هذا الحديث يوجد في القلب شعورا إيمانيا قويا، ويجعل العبد مرتبطًا بالله رب العالمين، فمن تلك الآثار الإيمانية:

١. العلى: كالرحمن والرحيم، وما يتضمنه الاسمان من معانٍ جليلة وآثار ظاهرة وفضل من الله عظيم.

٢. الوقوف على الإعجاز في البيان النبوي عنه ﷺ؛ فما ذكره من الرحمة بين الخلق كأمثلة؛ يوجد ويسهل الوقوف عليه اليوم لكل مريد من خلال التقنيات الحديثة، فيرى الناظر عظمة قوله ﷺ ويشاهد العبد ما قاله ﷺ ونحوًا مما قاله؛ فتزداد محبته في قلبه، وتعظم منزلته ﷺ في نفسه، ويحقق الاتباع الصادق له ﷺ في أعماله وحياته.

٣. ومن الآثار الإيمانية؛ أن المعرفة بهذا الحديث وما في معناه تحث العبد على تتبع أسباب رحمة الله والتعرف عليها وفعلها، ومن رامها فسيجدها مذكورة واضحة في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ﷺ.

٤. ومن الآثار أن ندرك إذا عرفنا رحمة الله القوي القادر؛ واجبنا في رحمة خلقه والعطف عليهم، فنحسن معاملتهم ونلطف بهم ونرحمهم؛ فإنه كما قال النبي ﷺ: "من لا يَرحم لا يُرحم"[(١)].

٥. أن رحمة الله تعالى بعباده يوم القيامة أعظم وأكبر من رحمات الدنيا كلها، وهذا فضل من الله عظيم؛ فإذا تذكر العبد ذلك؛ فإنه يحوط قلبه أنس بالله ورجاء لما عنده من الرحمة، مهما عظمت ذنوبه، وقل عمله، وساء فعله.

٦. أن رحمة الله سبقت غضبه، وأن رحمة الله واسعة وعظيمة، وأن العبد يرجو رحمة الله وغفرانه، ولكن يجب عليه أن يتذكر ما ورد في حديثنا من التنبيه على عدم الغفلة، وأن الله يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؛ متى علم منه خيرا وحسن قصد،

---

(١) متفق عليه من حديث جرير بن عبدالله البجلي، ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفي خبر أبي هريرة قصة الأقرع بن حابس رضي الله عنه؛ فحديث جرير عند البخاري في باب رحمة الناس والبهائم، رقم/٥٦٦٧. وعند مسلم بلفظ مقارب، باب رحمته ﷺ الصبيان، رقم ٢٣١٩. وحديث أبي هريرة عندهما؛ البخاري باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم ٥٦٥١، ومسلم، باب رحمته ﷺ الصبيان، رقم ٢٣١٨.

ويجازيه بعدله إذا كان من العبد إعراض وسوء قصد، ولكن يبقى أن رحمة الله تسبق غضبه؛ وكما في نداء الله لعباده أن لا يقنطوا من رحمة الله، وأن لا ييأسوا منها؛ كما في قوله جل وعلا: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، فكذلك عليهم أن لا يغفلوا عن نقمة الله وغضبه وعقابه، فإن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، وإن الله تعالى يمهل العبد، ويؤخره عسى أن يتوب ويرجع، ولكن الله لا يهمله وينساه، بل يجازيه ويحاسبه سبحانه.

٧. أن تأمل حديثنا وما ورد في بعض رواياته من قوله ﷺ: فَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الجنَّة، وَلَوْ يَعْلَمُ المُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ العَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ». يجعل العبد يعيش بين الرجاء والخوف، الرجاء لما عند الله من الرحمة، والخوف مما عنده سبحانه من العذاب، فلا يطمئن وينسى، ولا ييأس ويجزع، وإنما يكون وسطًا بين ذلك.

٨. نتأمل قوله ﷺ « فَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الجَنَّةِ» فنجد باب رحمة واسع حتى إن الكافر الجاحد المكابر لو علم بما ادخر الله تعالى من الرحمة؛ فإنه يقع في قلبه الطمع في أن تتنزل عليه رحمة الرحيم سبحانه، وأعظم من ذلك أن يطمع في أن يكون من أهل الجنة.

٩. الحديث فيه التحذير من الغفلة ولزوم مداومة تذكر الله تعالى والعمل وفق شريعته، فإن الخوف من نقمة الله أمر قائم في نفس المؤمن الصادق، كما في قوله ﷺ: «وَلَوْ يَعْلَمُ المُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ العَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ».

١٠. من أبلغ ما تقوى به المحبة لله تعالى والثقة بوعده تذكر هذا الحديث العظيم، فإن نسبة واحد في المئة من الرحمة هو ما نشاهده في حياة الخلق من الجن والإنس، وأما رحمة الله فأعظم وأجل.

١١. أن رحمة الله تعالى فيما لا يقدر عليه الخلق ولا يستطيعونه، فهي رحمات أعظم، ولهذا ادخرها الله تعالى ليوم القيامة، حيث لا تنفع الرحمات التي بين الخلائق، ولا يبقى إلا رحمة الله تعالى، وقد قال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وكما في حديث سلمان رضي الله عنه: «وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ».

١٢. أن الرحمات يوم القيامة ليست تسعة وتسعين، وإنما تكتمل مئة رحمة، كما في حديث سلمان رضي الله عنه: «فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَكْمَلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ»، وهذا زيادة فضل ومنة من الله تعالى على عباده.

١٣. بين ﷺ في الحديث أن الرحمة الواحدة عظيمة القدر واسعة شاملة؛ فقد بين ﷺ في حديث سلمان رضي الله عنه أن: «كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»، وهذا لعظمها وواسع فضل الله تعالى بها.

الخاتمة

ذكرت في هذا البحث حديثين عن نبي الهدى ﷺ أحدهما حديث أبي هريرة، رضي الله عنه والآخر حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه، وهما يتناولان موضوع قول النبي ﷺ -كما في حديث أبي هريرة-: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِئَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا...» الحديث.

وهذا الحديث العظيم عن نبي الهدى ﷺ بعث الطمأنينة في قلوب أصحاب رسول الله ﷺ، وفي نفوس أتباعه من بعده، ولا زال المسلمون يقرؤون هذا الحديث العظيم وغيره، فيرون في ذلك السعادة والراحة، ويشعرون بقوة العلاقة بالله تعالى والمحبة الصادقة للرحيم جل وعلا.

وقد تضمن البحث دراسة لهذا الحديث، وتخريجه من الصحيحين وذكر بعض رواياته، التي فصلت وبينت مراد رسول الله ﷺ من تلك الرحمات العظيمة، مع ذكر بعض الفوائد المتضمنة في ألفاظ الحديث ورواياته؛ ومنها:

- أن حصر العدد على مئة هو على سبيل التمثيل -كما قال الكرماني وغيره- وأن هذه الرحمة التي في الأرض تتراحم بها الخلائق، ما

يحصيها إلا الله، يوم القيامة تتضاعف إلى مئة ضعف -كما قال ابن عثيمين-.

- ذكر الأمثلة من الرحمة التي ذكرها النبي ﷺ، والتي نجد من الصور واللقطات اليوم عبر شبكة المعلومات ما ينقل صورة بعضها.
- الإشارة إلى أن في الحديث إنذارًا وتحذيرًا من التقصير في جنب الله، وأن لا يغفل المسلم عن ذلك، وأن الله تعالى ادخر لعباده يوم القيامة تسعًا وتسعين رحمة.
- وفي المبحث الثاني: ذكر سعة رحمة الله في ضوء ما ورد في الحديث، وما دلت عليه النصوص الكثيرة الأخرى من الكتاب والسنة. وفي المبحث الثالث: استنباط للآثار الإيمانية للحديث في قلوب العباد وعلى أعمالهم.

وأما أهم النتائج التي توصلت إليها، فهي:

١. أن حصر العدد على مئة هو على سبيل التمثيل، وليس مقصودًا لذاته.

٢. أن الأمثلة التي ذكرها رسول الله ﷺ من التراحم بين الخلائق موجودة مشاهدة موثقة في واقع الناس اليوم.

٣. أن سعة رحمة الله لا تعني الغفلة والبعد عن شريعته، والتواكل على سعة رحمته، وإنما أن يعيش المرء بين الرجاء والخوف، ويغلب في واقعه عند العمل لله جانب الرجاء وعند الغفلة يغلب جانب الخوف حتى يستقيم على أمر الله.

٤. أن الله تعالى ادخر لعباده يوم القيامة تسعًا وتسعين رحمة. وفي بعض الروايات يكمل المائة بالرحمة التي بين الخلائق.

٥. أن الآثار الإيمانية لهذا الحديث ظاهرة في واقع الناس، وغامرة للقلوب من جوانب متعددة يقوى بها الإيمان ويزداد بها اليقين.

ومن التوصيات:

١. أن نشيع في العالم خلق الرحمة وننشر مثل هذا الحديث وما في معناه، ليطمئن الناس ويثقوا برحمة الله، ويعملوا بدين الله ولدين الله، ويعرفوا أن رحمة الله قريب ورحمته واسعة ومغفرته شاملة.

٢. أن نعلم العالم أن ديننا دين الرحمة والعفو والصفح والأخلاق الإسلامية والإنسانية العظيمة الراقية.

٣. أن ننبه على أن ما يقع من أخطاء وتجاوزات من بعض من ينتسبون للإسلام، فنزيل مفاهيم مغلوطة واجتهادات جاهلة وصور تشويه متعمدة؛ جاءت رد فعل لأحداث ومواقف، فنبين للعالم حكم الله تعالى فيها من خلال الفهم الصحيح والقول المبين من العلماء الراسخين في العلم، ونظهر براءة دين الله تعالى مما يشاع حول أحكام اليوم.

٤. أن نقف سدًّا منيعًا في وجه من يصطاد في الماء العكر، فيستغل التجاوزات ليعمم على كل أتباع الإسلام، فنبين للناس الحق، ونؤكد على أن يستقوا معلوماتهم عن شريعة الله من العلماء الراسخين، ولا يكونوا سماعين لكل ناعق وكاتب، عبر وسائل أكثرها لا يوثق بها من برامج التواصل الاجتماعي والقنوات وغيرها.

٥. الأمة تحتاج لمثل هذا المؤتمر الذي يبعث فيها الطمأنينة وينير لها الطريق، ويبعد عنها اليأس في واقع مادي المقاييس ودموي التفكير ومصلحي العلاقات.

٦. أوصي بأن يتولى القسم بعد نجاحه في هذا المؤتمر بإقامة مؤتمر آخر يتناول خلقًا واحدًا من الأخلاق الإسلامية العظيمة؛ كالحلم والعفو والتكافل الاجتماعي ونحو ذلك.

٧. أوصي بأن يتم إنشاء وحدة الأخلاق الإسلامية بالقسم أو الجامعة، يعنى بالأبحاث والدراسات والملتقيات والمؤتمرات، التي تتناول هذا المجال الواسع من خصائص الإسلام العظيم.

وأخيرًا ففي ضوء هذه المعاني العظيمة في الحديث، وفي ظل الواقع الذي نعيشه يمكن القول: إن المتأمل في واقع الجبروت البشري والطغيان الإنساني والقسوة الآدمية، حين يتأمل هذا الحديث، ويستحضر تلك الصور والأمثلة، التي ذكرها النبي ﷺ عن رحمة الخلائق ببعضها؛ يصاب؛ الغثيان لوقاحة حال البشر، وقبح تصرفات بعضهم، فتلك الصور والمشاهد الكثيرة من طغيان البشر، وقسوة قلوبهم، وتهاونهم بالخلق، وكأن ما يراه المرء من مشاهد تحكيها أحداث سياسية وعقائدية، قد وقعت من قلوب صخرية وعقول حديدية صماء، لا تعرف الرحمة لها طريقًا للقلب عند فاعليها، فيتوج شعوره ذلك بحمد الله وشكره.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

فهرس المصادر والمراجع:

١. الجامع الصحيح، للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، عناية أبي صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٢. الجامع الصحيح، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، عناية أبي صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٣. الشبكة العنكبوتية.

٤. شرح صحيح مسلم، للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

٥. شرح كتاب الرقاق من صحيح البخاري، لابن عثيمين.

٦. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لأبي محمد محمود بن أحمد العيني، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٢هـ.

٧. فتح الباري شرح صحيح الإمام البخاري، لابن حجر العسقلاني، تحقيق محب الدين الخطيب، مع تعليقات الشيخ ابن باز، تصوير رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، عن الطبعة السلفية، القاهرة.

٨. الكواكب الدراري شرح صحيح البخاري، للإمام شمس الدين محمد ابن يوسف الكرماني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ.

٩. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس أحمد بن عمر القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين. دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، دمشق وبيروت، ط١، ١٤١٧هـ.

معالم الرحمة
في عقيدة الإيمان باليوم الآخر

إعداد:

د. عبدالسلام محسن يوسف

أستاذ التفسير المساعد في جامعة آرتكلو

ماردين (تركيا)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: فإن الله سبحانه وتعالى قد أنعم على عباده بأن عّرفهم على ذاته وصفاته، وذلك من خلال وحيه لأنبيائه ورسله من عهد آدم وإلى آخرهم نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. لقد خلق الله سبحانه وتعالى الكون بما فيه الإنسان، خلقه محدود العلم ضعيف الإدراك، ولذلك فإنه سبحانه وتعالى لم يخلقهم عبثًا ولم يتركهم في غيابات الجهل والتيه، بل أرشدهم إلى طريق الخير وأخبرهم أن ما يفكرون فيه، وهي الأسئلة الكبرى عند الإنسان: (من أنا؟ ولماذا؟ وإلى أين، وكيف؟) هذه الأسئلة التي تشغل بال الإنسان، قد أجاب -الله- عنها في وحيه، وهي رحمة وأي رحمة من الله لعباده، ولايستطيع العقل المجرد عن تأييد الوحي أن يعطي أي تفسير أو أن يصل إلى أيّ نتيجة. ومما أخبرنا سبحانه وتعالى عن الغيب المستقبلي؛ رحمةً بنا: اليوم الآخر. واليوم الآخر عقيدة الإنسان المؤمن، وهو أصل من أصول عقيدته الكبرى.

ولذا أردت في هذا البحث أن أقف عند معالم رحمة الله بعباده من خلال هذا اليوم، كيف تكون هذه الرحمة ومتى؟

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يقسم إلى مقدمةٍ وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة.

ففي المقدمة بينت أهمية الموضوع -كما سبق- والخطة الموضوعة.

وفي التمهيد: عرفت بيوم القيامة، وسبيل الإيمان به، ومكانته عند المسلم.

ثم كان الفصل الأول عن: منهج القرآن في إثبات يوم القيامة والاستدلال عليه، أي: كيف دعا إلى الإيمان به، والذي هو معلمٌ مهمٌّ من معالم رحمته، من خلال مباحث عدة وهي:

١. النشأة الأولى دليل على النشأة الآخرة.

٢. تنزيه الله عن العبث في الخلق.

٣. القدرة على خلق السموات والأرض دليل على قدرة إحياء الموتى.

٤. إحياء الأرض دليل على إحياء الموتى.

٥. قصص قصها الله علينا في القرآن الكريم ومضمونها: البعث بعد الموت.

٦. إقسام الله سبحانه وتعالى في القرآن على وقوع البعث.

وأماالفصل الثاني فقد قدمته بتمهيدٍ عن كيفية الحساب يوم القيامة، عن ماهية الميزان وحقيقته، من خلال أقوال العلماء، وكيفية توزيع الحسنات والسيئات، ثم خصصته للحديث عن تجليات رحمة الله في هذا اليوم من خلال عدة مباحث وهي:

١. مضاعفة الحسنات دون السيئات.

٢. جزاء الصوم.

٣. جزاء الصبر.

٤. الشفاعة.

٥. أهل الأعراف.

٦. رفع الذرية وإلحاقهم بآبائهم.

٧. دخول آخر أهل الجنة الجنة.

٨. قول لا إله إلا الله، ثم ختمت البحث ببعض الأعمال الأخرى، والتي تثقل ميزان الحسنات يوم القيامة.

ثم كان الفصل الثالث: وقد خصصته بالحديث عن أثر هذه العقيدة في سلوك الأفراد والجماعات، وختمته بذكر بعض الصور والأحوال في ذلك اليوم لأهل النار ولأهل الجنة لتكتمل الصورة أكثر.

وأخيرًا فقد ختمت البحث بتدوين أبرز ما وصلت إليه من استنتاج واستخلاص تبرز أهمية الموضوع وتؤكد على خطورته في الحياة.

التمهيد

يوم القيامة: مفهومه، وسبيل الإيمان به، ومكانته عند المسلم:

مفهومه:

هو اليوم الذي يحيي الله فيه جميع الخلائق، في أرض المحشر، ليتم من بعد ذلك محاسبتهم على ما عملوا في الحياة الدنيا[1]. وهو المعاد الجسماني، وإحياء العباد بعد أن يأمر الله ﷻ الملك إسرافيل بالنفخ في الصور.

سبيل الإيمان به:

لا شك أن مما مّيز به الله ﷻ الإنسان أن أكرمه بطاقة العقل التي تميز بين الأشياء، ضارّها ونافعها، ولكن هذا العقل بحد ذاته يحتاج -في سبيل أداء مهمته- إلى من ينور له الطريق في عملية الإدراك والتحليل. وهذا يتعلق بماهية القضية المراد تحليلها ومعرفتها، فإن كانت مادةً محسوسةً، خاضعة لشيءٍ من الحواس فإنه سوف يُخضع للتجربة والمشاهدة، وهو ما يسمى بالتجربة الحسية. وأما إن كانت القضية خارج المحسوس، لا تخضع لأي من الحواس، وهو ما يصطلح عليه بما وراء الطبيعة، والتي نسميها الغيبيات، فإن العقل لا يستقل بنفسه في سبيل معرفته، بل لابد من أمر آخر، وهذا هو الوحي أو الخبر الصادق. ولأن يوم القيامة من

(١) انظر: القيامة الكبرى. عمر سليمان الأشقر ص ٥١.

الغيبيات المستقبلية التي لا تخضع لمعايير التجربة الحسية، فإنه لا غنى للاستماع إلى هذا الخبر، وهو القرآن الكريم الذي وصلَنا متواترًا، لا ريب في صدقه. ومن رحمة الله ﷻ أن أودع في الفطرة البشرية القبول لهذا الأمر والاستعداد للإيمان به، والإيمان بالغيب عامةً، بخلاف الحيوان الذي يعيش في حدود ماتدركه الحواس فحسب، وهو من تكريم الله لجميع البشر. وقد تحدث الشهرستاني عن صنفين من معطلة العرب، صنف أنكروا الخالق والبعث والإعادة، وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني، وهؤلاء هم الدهريون، وكان شعارهم: إن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع. وصنف منهم أقروا بالخالق وابتداء الخلق والإبداع، لكنهم أنكروا البعث، ولذا فإن الوحي السماوي يريح الإنسان ويضعه على الطريق الصحيح، وعليه... فإن من يعيّر على المسلمين ويعيّب عليهم هذا المعتقد فإنما هم من صنف تلك الحيوانات التي تعيش في حدود ما تدركه حواسها! ولم يعملوا عقولهم وقلوبهم التي وهبهم الله ﷻ إياها، من أمثال الدهريين -قديمًا- والشيوعيين والماركسيين والملحدين عامةً. ويوم القيامة من أخطر وأعظم الغيبيات التي أخبرنا بها القرآن الكريم، لأن عليه مدار وجود الإنسان كله، فحياته اليوم مع ما فيها من عمل مستمر تمهيد واستعداد لذلك اليوم الذي يختلف عن مألوف الإنسان وتصوراته.

ومن أجل هذا فإن الخطاب الإلهي يظل يخبرنا عنه وينذرنا منه بتفننٍ عجيبٍ في النظم والأسلوب.

مكانته عند المسلم:

عقيدتنا فيه هو إيماننا بكل ما جاء في الكتاب والسنة مما يكون في ذلك اليوم، مرورًا بحياة البرزخ والبعث والنشور والميزان... ثم الجنة أو النار[1]. يقول الطحاوي: ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة. ويقول

(١) نظر: الإيمان. محمد نعيم ياسين. ص ٨٩

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

شارحه: والإيمان بالبعث مما أجمع عليه أهل الملل الثلاث: المسلمون واليهود والنصارى، ومما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى آخرهم، وليس فيه اختلاف بين فرق الأمة، ولا ينكر بعث الأجساد إلا الفلاسفة والملاحدة[1].

وهو ركن من أركان الإيمان، بل من أهم الأركان، وقد بلغ اهتمام القرآن به أن عطفه على الإيمان بالله مباشرةً وفي مواطن عدة في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾[النساء: ٣٨]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[التوبة:١٨][2]. وقد ورد ذكره في المرتبة الخامسة في الحديث المشهور المروي عن عمر بن الخطاب ﵁ قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبته إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: (يا محمد أخبرني عن الإسلام)، فقال له: (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا)، قال: (صدقت)، فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: (أخبرني عن الإيمان) قال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)، قال: (صدقت) قال: (فأخبرني عن الإحسان)، قال: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، قال: (فأخبرني عن الساعة)، قال: (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)، قال: (فأخبرني عن أماراتها)، قال: (أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى

(١) ص٣٠١ الشارح عبدالرحمن بن ناصر البراك إعداد عبدالرحمن السديس، وينظر: درء تعارض العقل والنقل ٥/٢٥٠ والجواب الصحيح ٣/ ٢٨١.
(٢) انظر: مدى عناية القرآن واهتمامه باليوم الآخر. د. مصطفى مسلم ود. فتحي محمد الزغبي. موقع الألوكة.

الحفاة العراة العالة رعاء الشاء، يتطاولون في البنيان) ثم انطلق فلبث مليًا، ثم قال: (يا عمر، أتدري من السائل؟)، قلت: (الله ورسوله أعلم)، قال: (فإنه جبريل، أتاكم يعلمكم دينكم)[١].

وقد كان العلماء الأقدمون يجعلونه ثالث الأصول في العقيدة الإسلامية عندما يقولون: الأصول الثلاثة، ويقصدون بذلك (الإلهيات والنبوات والمعاد)[٢].

وقد تعددت أسماء هذا اليوم، وجمعها الغزالي ثم أوصلها القرطبي إلى ثمانين اسمًا، كما يقول ابن حجر العسقلاني.[٣] ويرجع تعدد الأسماء هذه إلى اختلاف ما سيق فيه من الأهوال والمواقف والأحداث، فالقيامة مثلًا؛ لقيام الناس من قبورهم، والبعث؛ لما سيقع فيه من بعث الناس من قبورهم، والحساب؛ لما يقع فيه من حساب... وهكذا. وهذا يعني أن الله ﷻ -كما يقول الغزالي- قد وصف بعض دواهيها، وأكثر من أساميها؛ لنقف بكثرة هذه الأسماء على كثرة المعاني، فليس التعداد هنا تكرارًا، بل تنبيهٌ لبصائر ذوي التمييز ولأولي الألباب[٤]. يقول القرطبي: وكل ما عظم شأنه تعددت صفاته وكثرت أسماؤه، وهذا مهيع كلام العرب[٥].

وزيادةً في رحمة الله ولطفه بعباده أنه لم يأمر الناس في وحيه أن يؤمنوا بهذا اليوم إيمانًا نظريًا فحسب بل دعاهم إلى التأمل فيما حولهم وفي أنفسهم وإلى محاكمة عقولهم، ليتفكروا كثيرًا ثم يعلموا علمًا يقينيًا أن هذا اليوم -لابد- آتٍ لا ريب فيه. وهذا ما سيتضح في ما يلي.

---

(١) البخاري، كتاب: الإيمان، باب سؤال جبريل ١/ ١٨ (٥)، مسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان والإحسان ١/ ٨ (٣٦).
(٢) انظر مثلًا: تفسير الفخر الرازي فهو يكثر من ذكر هذا المصطلح.
(٣) فتح الباري ١١/ ٣٩٦.
(٤) راجع إحياء علوم الدين ٥/٢٠٥.
(٥) التذكرة ص ٢١٤.

الفصل الأول

كيف دعا القرآن الكريم إلى الإيمان باليوم الآخر، وكيف استدل عليه (منهجه)

تمهيد: لقد اهتم القرآن الكريم اهتمامًا كبيرًا بهذا اليوم والإيمان به، ولأنه أمرٌ غيبي مستقبلي، لم يطّلع عليه أحد من خلقه، فإن مسألة الإيمان به كانت تحتاج إلى شيء من التفسير والتوضيح فقد أخبرنا ربنا ﷻ قصص أقوام -على مر التاريخ- لم يؤمنوا بهذا اليوم، متذرّعين بحجج واهيةٍ متعددة من مثل: عدم رؤيته، أو استحالته عقلًا، أو الاكتفاء بعقيدة سلفهم من الآباء والأجداد، وهو الإنكار... لذا خاطب ﷻ الناس -في خطابه الأخير لهم- بأن أولئك الناس قد ضلوا وأضلوا، وأن قضية ذلك اليوم ليست من المستحيلات العقلية، بل هو كائن لا محالة، وذلك من خلال تمثيله ذلك اليوم بما يرونه ويشاهدونه من حولهم وهي تخاطب أفئدتهم السليمة، إن استسلموا لنداء الفطرة... لنداء العقل. وهذا -كما نرى- رحمةٌ عظيمةٌ من الله ﷻ لخلقه، فكم من الأشياء مما حولنا هي دالةٌ عليه وتوصلنا إلى الإيمان به، وعندئذٍ فلا مناص من الاستعداد له والتهيؤ لاستقباله.

الدليل الأول: تنزيه الله عن العبث في الخلق:

لو تأمل الإنسان -أي إنسان- في ما حوله ورأى بأم عينه ما يحدث في الحياة لقاده تفكيره وتأمله هذا إلى الإيمان بيومٍ آخر، وذلك عندما يرى

ظالمين ومظلومين، وقاتلين ومقتولين، وسارقين ومسروقين... فهل يُعقل أن يموت الطرفان المتقابلان دون وجود أي شكل من أشكال القصاص والعدالة؟ وفي هذا يقول ربنا ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[المؤمنون:١١٥] وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]. ولذا ذهب ابن قيم الجوزية إلى أن دليل اليوم الآخر عقليٌّ بخلاف الآخرين الذين قالوا بأنه نقليٌّ. ولم يذهب ابن القيم هذا المذهب إلا إيمانه بان كمال الخلق يدل على كمال التصرف(١).

الدليل الثاني: النشأة الأولى دليل على النشأة الآخرة:

وهذا خطاب للعقول كي تفكر قبل أن تصدرحكمًا لايستند إلا على الأهواء، فكما أنه ﷻ أنشأهم أول مرة من العدم، ولم يكن عسيرًا عليه ولا محالًا، فإنه قادرعلى الإنشاء ثانيةً، والذين ينكرون هم الذين يرون الصورة المادية فتقف بينهم وبين تصور الحياة الآخرة، ولا يدري أحدهم أين كانت تلك الخلايا والذرات التي تكونت فيها هياكلهم الأولى(٢). يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء:٤٩-٥١]، ويقول: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٨-٧٩].

أي -كما يقول ابن كثير-: يعلم العظائم في سائر أقطار الأرض وأرجائها(٣). ثم استشهد بحديث يقول: إن رجلًا حضره الموت، فلما أيس من الحياة أوصى أهله: إذا أنا مت فاجمعوا لي حطبًا كثيرًا جزلًا ثم أوقدوا فيه نارًا،

(١) قال: لهذا كان من الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن كمال الرب ﷻ وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه. الفوائد ص ٧.

(٢) انظر: اليوم الآخر في ظلال القرآن، إعداد أحمد فائز.

(٣) التفسير العظيم ٤/ ٥٩٤.

حتى إذا أكلت لحمي، وخلصت إلى عظمي فامتحشت، فخذوها فدقوها، فذروها في اليم. ففعلوا.

فجمعه الله إليه فقال له: لم فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك. فقال عقبة بن عمرو: وأنا سمعته يقول ذلك، فغفر الله له.

الدليل الثالث: القدرة على خلق السموات والأرض دليل على قدرة الإحياء والبعث:

وهنا -أيضًا- دعوة من رب السموات والأرض لاحتكام العقل والتحرر من ربقة التقليد، وإزالة الغشاوة عن العيون، فالعقل يقول: إن القادر على شيء عظيم وكبير قادر على ما دونه بطريقة أولى، فكيف يُنكر على من خلق السموات والأرض بأن يخلق الإنسان مرةً ثانيةً ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الاحقاف:٣٣]، وقوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧].

الدليل الرابع: إحياء الأرض دليل على إحياء الموتى:

وهذا أيضًا دليل علمي يخاطب العقول، فالله سبحانه وتعالى قد بسّط لهم عقيدة اليوم الآخر، فهم يرون رؤيا العين كيف تكون الأرض ميتة، وذلك إذا كانت جرداء لا نبت فيها ولازرع، فالتشبيه بين الاثنين فيها مماثلة عجيبة، أقصد بين إعادة الأجسام بإنباتها من التراب بعد إنزال الماءقبيل النفخ في الصور، وبين إنبات النبات بعد نزول الماء من السماء، ونحن نعلم أن النبات يتكون من بذور صغيرةٍ تكون في الأرض ساكنةً هامدةً، فإذا نزل عليها الماء تحركت الحياة فيها وضربت بجذورها في الأرض، وبسقت بسوقها إلى السماء فإذا هي نبتةٌ مكتملةٌ خضراء، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً

﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج:٥].
وهذا دليل آخرعلى قدرته ﷻ على إحياء الموتى، كما يقول ابن كثير(١).

الدليل الخامس: قصص في القرآن قصها الله علينا ومضمونها البعث بعد الموت:

وهذه القصص أوردها الله ﷻ رحمةً بالعباد عندما كانوا ينكرون هذه العقيدة ويستغربونها، فكان الله يريهم كيف يحيي الموتى في الحياة الدنيا حتى لا تبقى حجة للناس، أو يزدادوا إيمانًا ويطمئنوا.

ومن هذه القصص:

- موت أهل الكهف ثلاثة قرون، ثم إحياؤهم ورؤية الناس لهم، ثم خلّد الله ذكر القصة في القرآن الكريم، وكذلك ذكرها الله ﷻ في الكتب السابقة. والدليل أن اليهود كانوا يعلمونها، وأرادوا أن يمتحنوا رسول الله ﷺ عندما سألوه. يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ [الكهف:٢١]. يقول الطبري: يقول تعالى ذكره: وكما بعثناهم بعد طول رقدتهم كهيئتهم ساعة رقدوا، ليتساءلوا بينهم، فيزدادوا بعظيم سلطان الله بصيرةً، وبحسن دفاع الله عن أوليائه (وكذلِكَ أعْثَرْنا عليْهِم) يقول: كذلك أطلعنا عليهم الفريق الآخرالذين كانوا في شكٍ من قدرة الله على إحياء الموتى، وفي مرية من إنشاء أجسام خلقه، كهيئتهم يوم قبضهم بعد البلى، فيعلموا أنَّ وعد الله حقٌّ، ويوقنوا أن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها. ثم قال: وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٣٤٩.
(٢) جامع البيان ١٧/ ٦٣٩.

- موت بني إسرائيل في عهد موسى: يقول الله ﷻ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:٥٥-٥٦]، وذلك عندما تجرأوا في معاداتهم لموسى واشتراطهم عليه في إيمانهم بأن يروا ربهم. يقول القرطبي: قوله تعالى: (ثم بعثناكم من بعد موتكم) أي: أحييناكم، قال قتادة: ماتوا وذهبت أرواحهم ثم رُدوا لاستيفاء آجالهم. قال النحاس: وهذا احتجاج على مَن لم يؤمن بالبعث من قريش، واحتجاج على أهل الكتاب، إذ أُخبروا بهذا. والمعنى (لعلكم تشكرون) ما فعل بكم من البعث بعد الموت(١).

- موت الرجل الإسرائيلي (العزير) المار على القرية: وقد ورد ذكرها في سورة البقرة: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٥٩].
وفي هذه الجمل من الفوائد الخالدة أن الله بعد أن أراه الآية التي تكون حجة خاصة لمن رآها نبّهه وسائر العباد إلى الحجة العامة التي يحصل الاحتجاج بها على البعث في كل زمان ومكان، ففيها آيتان خاصة وعامة، هما كيفية التكوين والاستدلال على سهولة البعث على الله.

- طلب إبراهيم ﵇ من الله ﷻ رؤية إحياء الموتى؛ ليطمئن قلبه. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٤٠٤.

جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٠].
وقد تعددت الروايات التي تحكي سبب نزول إبراهيم لربه ﷻ، غير أنها جميعًا تؤكد رغبة سيدنا إبراهيم في رؤيته إحياء الموتى، وليس الخبر كالمعاينة.

الدليل السادس: إقسام الله ﷻ على وقوع البعث مرارًا في القرآن الكريم:

وقد أكثر الله ﷻ من ذكر يوم القيامة وأنه حق لا ريب فيه آت. فنراه يقسم بأشياء، والله أعلم بمقامها عنده، ليكون جواب القسم هو: أن يوم البعث كائن. فمثلًا يقول في صدر سورة المرسلات: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ [المرسلات: ١-٧]. وفي سورة الطور: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور: ١-٧].

الفصل الثاني
تجليات الرحمة في يوم القيامة

تمهيد: كيف تتم المحاسبة:

بادئ ذي بدء ينبغي معرفة الميزان الذي سيتم من خلاله محاسبة العباد يوم القيامة، فنقول: إن ميزان الله ﷻ الذي سيحاسب الناس من خلاله حسيٌّ حسب ظاهر القرآن، وأنكر ذلك أهلُ البدع، وقالوا: إنها كنايةٌ عن عدل الله. لكن الذي اختلف عليه الجمهور هو هيئة الميزان وشكله لأنه لم يرد فيه نص صريح صحيح، غيرأنهم اتفقوا أنه ميزان حسي، له كفتان ولسان، لقوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢-١٠٣] ولحديث البطاقة -وسيأتي بتمامه- وفيه: (فطاشت السجلات وثقلت البطاقة).

يقول القرطبي -رادًّا على من تأوَّله وأنه من ضرب المثل-: (وهذا مجاز وليس بشيء، وإن كان شائعًا في اللغة؛ للسنة الثابتة في الميزان الحقيقي ووصفه بكفين ولسان، وأن كل كفة فيها طباق السموات والأرض)[1]. ويقول أبو الحسن الأشعري -في تعريفه للميزان-: (له لسان وكفتان، توزن في إحدى كفتيه الحسنات وفي الأخرى السيئات فمن ثقلت ميزان سيئاته دخل

(١) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة ص ٧٢٣.

النار، ومن تساوت حسناته وسيئاته تفضل عليه فأدخله الجنة) [1]. وهو الذي رجحه المفسر الطبري بعد أن ساق عدة روايات، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨] [2]. وقد عقد ابن كثير عند تفسير هذه الآية فصلًا قال: والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل: الأعمال وإن كانت أعراضًا، إلا أن الله ﷻ يقلبها يوم القيامة أجساما [3]. وقيل: يوزن صاحب العمل، كما في الحديث: (يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين، فلا يزن عند الله جناح بعوضة) ثم قرأ: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥].

وأما كيفية محاسبة الله للعباد، فقد جاءت الأخبار الصحيحة التي تثبت هذا، والتي لا يمكن القول إلا من خلالها. إن هنالك أصولًا وقواعد سوف يُحاسب العبد من خلالها، وليس الأمر مجهولًا، وهو أمر من رحمة الله بعباده؛ كي يستعدوا لذلك اليوم ولا يغفلوا عنه ويبقوا في تِيههم، فمن يؤمن بالله ﷻ خالقًا، عليه أن يؤمن بما جاء من عنده، بكل ما جاء من عنده. ومما أخبرنا ربنا ﷻ أن في هذا اليوم سينقسم الناس فريقين، فريق في الجنة وفريق في السعير، وأنه قبل انقسام الناس إلى فريقين فإن أمورًا معينة سوف تسبق هذا التصنيف، وهي بحد ذاتها منحةٌ ربانيةٌ للعبد دون مقابل، ولم يبق للإنسان إلا السعي الصادق، لأن يتجنب دائرة الضلالة والكفر، ومن هذه الأمور:

- كيفية توزيع الحسنات والسيئات: لقد أخبرنا الله ﷻ في غير ما موضع من كتابه الكريم أن الإنسان سوف يُحاسب على ما عمل من خير أو شرٍّ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

(١) مقالات الإسلاميين ص ٤٧٢.
(٢) جامع البيان ١٢/ ٣١١.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٥٠.

يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، وقال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم:٣٩-٤٠]. وهذا مقتضى العدل، غير أنه ﷻ رحيمٌ بخلقه رؤوفٌ بهم، لم يخلقهم ليعذبهم في الآخرة، بل لن يعذب إلا من أبى وتجبر وعاند، وأما الذي خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا فله البشرى بالتجاوز، وأما الذين اجتنبوا الكبائر إلا اللمم فهنيئًا لهم الجنة.

إذن كيف تتجلى رحمة الله بعباده جميعًا:

أولًا: مضاعفة الحسنات:

إن العدل يعني أن تكون الحسنة بمثلها والسيئة بمثلها، غير أنه ﷻ لا يعامل الناس يوم القيامة إلا بمقتضى رحمته وإحسانه، فهو يضاعف الحسنات أضعافًا كثيرةً، وأقلها عشرة. ولا يجزي بالسيئة إلا مثلها، ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠]، وليس هذا فحسب، بل يتعدى إحسانه ﷻ ورحمته هذا، وهوأن مَن همّ بحسنةٍ فلم يعملها كتبت له حسنةٌ، ومن همّ بسيئةٍ ثم أدركته مخافة الله كتبت له حسنة. روى الطبري روايةً عن قتادة قال: قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ كان يقول: الأعمال ستة: مُوجبة ومُوجبة، ومُضْعِفة ومُضْعِفة، ومِثْل ومِثْل. فأما الموجبتان: فمن لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقي الله مشركًا به دخل النار. وأما المضعف والمضعف: فنفقة المؤمن في سبيل الله سبع مئة ضعف ونفقته على أهل بيته عشر أمثالها. وأما مثل ومثل: فإذا همّ العبد بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، وإذا هم بسيئة ثم عملها كتبت عليه سيئة [1]. وعن ابن عباسٍ عن النبي ﷺ فيما

(١) جامع البيان ١٢/ ٢٧٩ (١٤٩٢١).

يرويه عن ربه: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن همَّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة»(١).

قال ابن عاشور: من عادة القرآن أنَّه إذا أنذر أعقب الإنذار ببشارة لمن لا يحقّ عليه ذلك الإنذار، وإذا بَشَّر أعقب البشارة بنذارة لمن يتَّصف بضدّ ما بشر عليه، وقد جرى على ذلك ههنا: فإنَّه لمّا أنذر المؤمنين وحذرهم من التريُّثِ في اكتساب الخير، قبل أن يأتي بعض آياتِ الله القاهرة، بقوله: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨] فحَدّ لَهم بذلك حدًّا هو من مظهر عدله، أعقب ذلك ببشرى من مظاهر فضله وعَدله، وهي الجزاء على الحسنة بعشر أمثالها والجزاء على السيّئة بمثلها، فقوله: (من جاء بالحسنة) إلى آخره استئناف ابتدائي جرى على عرف القرآن في الانتقال بين الأغراض.

فالكلام تذييل جامع لأحوال الفريقين اللذين اقتضاهما قوله: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾. وهذا بيان لبعض الإجمال الذي في قوله: (لا ينفع نفسًا إيمانها) الآية، كما تقدّم آنفًا. و(جاء بالحسنة) معناه عمل الحسنة: شبه عمله الحسنة بحال المكتسب، إذ يخرج يطلب رزقًا من وجوهه أو احتطاب أو صيد فيجيء أهله بشيء. وأمثال الحسنة ثواب أمثالها، فالكلام على حذف مضاف بقرينة قوله: (فلا يُجزى إلا مثلها)، أو معناه تحسب له عشرُ حسنات مثل التي جاء بها كما في الحديث: (كتبها الله عنده عشر حسنات) ويعرف من ذلك أنّ الثّواب على نحو ذلك الحساب كما دلّ عليه قوله: (فلا يجزى إلا مثلها).

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: إذا هم العبد بحسنة ١/١١٧ رقم ١٢٨.

والجزاء على الحسنة بعشرة أضعاف فضلٌ من الله، وهو جزاء غالب الحسنات، وقد زاد الله في بعض الحسنات أن ضاعفها سبع مئة ضِعْف كما في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١] فذلك خاصّ بالإنفاق في الجهاد[١].

ورحمةً بعباده، فإنه ﷻ قد أخبرنا على لسان نبيه ﷺ بأن هنالك أعمالًا خاصة تضاعف الأجر يوم القيامة، من مثل قراءة القرآن، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف)[٢].

ثانيًا: أناسٌ يُعطون الأجر بغير حساب:

يقول تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠] إنها دعوةٌ مفتوحةٌ للعباد بأن يصبروا في الحياة الدنيا، صبرًا على طاعة الله وعبادته، وصبرًا على المحن والبلايا، وكفّ النفس عن المحرّمات، وما أكثرها في الحياة. فقد اختلف أهل العلم فيها على قولين -كما جاء في التسهيل- لابن جزي: إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب هذا يحتمل وجهين أحدهما: أن الصابر يوفى أجره ولا يحاسب على أعماله، فهو من الذين يدخلون الجنة بغير حساب، الثاني: أن أجر الصابرين بغير حصر بل أكثر من أن يحصر بعدد، أو وزن، وهذا قول الجمهور[٣].

(١) التحرير والتنوير ٨/ ١٩٤.
(٢) (١٩٨٣) وصححه الألباني (تخريج العقيدة الطحاوية رقم ١٣٩).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٢/ ٢١٨.

ثالثًا: جزاء الصوم:

يقول الرسول ﷺ في الحديث القدسي: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به»[1]. ولذلك ذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود بـ (الصابرون) في الآية السابقة هم الصائمون.

رابعًا: الشفاعة:

والشفاعة يوم القيامة من أعظم نعم الله ﷻ على عباده ورحمته بخلقه، وهي أنواعٌ، وقد ثبتت بالأدلة الصحيحة الصريحة من الكتاب والسنة:

١. شفاعة النبي ﷺ: وهي شفاعةٌ عامةٌ وخاصةٌ:

وأمّا العامة فهي العظمى، وتكون لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم، كل الناس - كماأسلفت - فيخرجون من قبورهم لِتعرض أعمالهم بعد ذلك للمحاسبة وهي المعني بقوله ﷻ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الأسراء:٧٩] باتفاق العلماء، وذلك حين يبلغ الكرب بأهل المحشر، فيقول بعضهم: ألا تنظرون من يشفع لكم عند ربكم، فيأتون آدم فيعتذر، ويأتون نوح فيعتذر... وهكذا إلى أن يأتوا إلى محمد ﷺ، فيشفع لجميع الناس، من لدن آدم عليه السلام وإلى آخر الناس.

وقد ثبت هذا في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ وفيه (... فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسولُ اللهِ، وكلَّمت الناس في المهد، وكلمة منه ألقاها إلى مريم وروح منه، فاشفع لنا إلى ربِّك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى عليه السلام: إِنَّ ربِّي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر

(١) البخاري، كتاب الصوم، باب: هل يقول إني صائم إذا شُتم ٣/٢٦ (١٩٠٤)، ومسلم، كتاب: الصيام، باب: فضل الصيام ٢/٨٠٦ (١١٥١).

له ذنبًا، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ. فيأتوني فيقولون: يا محمد أَنت رسولُ اللّهِ، وخاتم الأنبياء وغفر اللّهُ لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر، اشفع لنا إلى ربِّك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فأَنْطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدًا لربِّي، ثم يفتح اللّه عليَّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه لأحد قبلي. ثم قال: يا محمد ارفعْ رأسك سلْ تُعْطه اشفع تشفَّعْ فأَرفع رأسي، فأقول: يا ربِّ أُمَّتي أُمَّتي، فيقال: يا محمد أدخل الجنة من أُمَّتك من لاحساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، والذي نفس محمد بيده إِنَّ مابين المصراعين من مصاريع الجنة لَكَما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبُصرى)[1].

وأما الشفاعة الخاصة، فهي لأهل الإيمان من أمته، من مات لا يشرك بالله شيئًا، قال ﷺ -كما في الصحيحين- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: (لكل نبي دعوةٌ مستجابةٌ فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة، فهي نائلةٌ إن شاء اللّه تعالى من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا)[2].

وكذلك ثبت في الصحيحين شفاعته لعمه أبي طالب، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ وذُكر عنده عمه - فقال: (لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيُجعل في ضحضاح من النار، يبلغ كعبيه، يغلي منه دماغه)[3]. وهذا لا يتناقض مع قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[المدثر:٤٨]

(١) البخاري كتاب التفسيرباب قوله (ذرية من حملنا مع نوح) ٦/ ٨٤ (٤٧١٢) ومسلم كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة ١/ ٨٤ (١٩٤)

(٢) البخاري، كتاب الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابة ٨/ ٦٧ (٦٣٠٤) ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته ١/ ١٨٨ (١٩٨، ١٩٩).

(٣) البخاري، كتاب: الرقاق، باب صفة الجنة والنار٨/ ١١٦ (٦٥٦٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب التخفيف عنه بسببه ١/ ١٩٥ (٣٦٠).

فهذه عامةٌ، وخبر شفاعته لأبي طالب خاصة، أو أنه يقصد التخفيف، ولا يقصد الخلاص من النار.

٢. شفاعة الشهيد:

وهو الذي قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، في أرض المعركة، فقاتل حتى قُتل مقبلًا غير مدبرٍ، فعن المقدام رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (للشهيد عند الله ست خصال: يُغفر له في أول دفعةٍ من دمه، ويرى مقعده من الجنة ويُحلّى حُلّة الإيمان، ويُزوَّج ثنتين وسبعين من حور العين، ويُجار من عذاب القبر،

ويُؤمَّن يوم الفزع الأكبر، ويضع الله على رأسه تاج الوقار، الياقوتة خيرٌ من الدنيا وما فيها، ويشفع في سبعين من أهل بيته).[١]

خامسًا: أهل الأعراف:

يقول الله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٦، ٤٧]وقد ذهب أكثر المفسرين من الصحابة والتابعين إلى أن مصير أصحاب الأعراف هو الجنة، بفضل الله ورحمته، وهو الأقرب إلى ظاهر القرآن الكريم، وقد ثبت عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: (أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار، وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، فإذا صرفت أبصارهم تلقاء النار، قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، فبينما هم كذلك فيها، إذ اطلع عليهم ربك قال: قوموا ادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم)[٢]. ومثل هذا الكلام لا

(١) رواه الترمذي ٣/٢٣٩ رقم ١٦٦٣، وقال: حديث صحيح غريب، وأحمد في مسنده ٤/١٣١ وغيرهما.

(٢) رواه الطبري ١٢/٤٥٢ رقم ١٤٦٨٥.

يصدر عن اجتهاد محض من صحابي جليل مثل حذيفة، والراجح أنه سمع شيئًا في الموضوع عن رسول الله ﷺ.

سادسًا: رفع الذرية:

وهو أنه سبحانه وتعالى يتفضل على عباده المؤمنين، فيكرم الأبناء لصلاح الأباء، كي يجتمعوا -جميعًا- يوم القيامة، وفي ذلك منتهى السرور والحبور. وهذا لا يشمل الأبناء الذين ماتوا على الكفر، باتفاق العلماء، وإنما الأولاد الذين كانوا دون رتبة الآباء في الأعمال الصالحة، وليس بمجرد النسب، يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾ [الرعد: ٢٣] (يقول الشوكاني: وذكر الصلاح دليل على أنه لا يدخل الجنة إلا من كان كذلك من قرابات أولئك، ولا ينفع مجرد كونه من الآباء أو الأزواج، أو الذرية بدون صلاح[١].

سابعًا: خروج آخر أهل الجنة من النار:

وهذه رحمة عظيمة بعصاة هذه الأمة، وقد يئسوا من الخروج من النار، فتتجلى رحمة الله بهم، ويبشرهم بخروجهم من النار ودخولهم الجنة. عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولًا الجنة، وآخر أهل النار خروجًا من النار، يؤتى برجل فيقول: سلوا عن صغار ذنوبه وأخبئوا كبارها، فيقال له: عملت كذا وكذا يوم كذا وكذا، عملت كذا وكذا في يوم كذا وكذا، قال فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة قال: فيقول: يا رب لقد عملت أشياء ما أراها ههنا). قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه...)[٢].

وأما كيفية خروجهم منه فقد بينه رسول الله ﷺ، ففي الحديث: (إذا

(١) فتح القدير ٣/ ٩٥.
(٢) البخاري كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار ٨/ ١١٧ (٦٥٧١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: آخر أهل النار خروجًا ١/ ١٧٣ (١٨٦)

دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، يقول الله تعالى: من كان في قلبه مثقال حبةٍ من خردلٍ من إيمانٍ فأخرجوه، فيخرجون، قد امْتَحشوا، وعادوا حُممًا، فيُلقون في نهر الحياة فيَنبتون كما تنبت الحِبةُ في حَميلِ السَّيلِ. وقال النبي ﷺ: ألم تروا أنها تنبت صفراءَ ملتويةً)[(١)].

ثامنًا: قول لا إله إلا الله:

ففي الحديث الصحيح من حديث معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: (من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة)[(٢)]. وهذا- كما قال العلماء- إذا قالها معتقدًا بها ولم يتمكن من العمل لموتٍ أو قتلٍ، وإلا فلا يشمل كل قائلٍ.

وقد علق شيخ الإسلام على الحديث قائلًا: فهذه حال من قالها بإخلاص وصدقٍ، كما قالها هذا الشخص، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون لا إله إلا الله، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجح قول صاحب البطاقة[(٣)]. وهو ما صرح به النبي ﷺ من رواية أبي موسى الأشعري قال: أتيتُ النبي ﷺ ومعي نفر من قومي فقال: (أبشروا وبشروا من وراءكم، إنه من شهد أن لاإله إلا الله صادقًا بها دخل الجنة)[(٤)].

أعمال أخرى تزيد من حسنات الإنسان وتثقل ميزان الحسنات:

- الصدقة على المحتاجين: يقول ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ

---

(١) البخاري، كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار٨/ ١١٥ (٦٥٦٠)، ومسلم، كتاب: باب: إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين ١/ ١٧٢ (١٨٤). وامتحشوا: احترقوا. النهاية في غريب الحديث ١/ ٣٠٢ والحِبة -بكسر الحاء- بزر البقول والعشب. تنبت في البراري وجوانب السيول. وجميل السيل - بفتح الحَاء وكسر الميم، ماجاء به السيل من طين أو غثاء، ومعناه محمول السيل. النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٤٤٢. والمراد التشبيه في سرعة النبات وحسنه وطراوته. شرح مسلم للنووي ٣/ ٢٢.

(٢) رواه أبو داود ٣/ ١٩٠ رقم ٣١١٦، وصححه الألباني، والحاكم في مستدركه ١/ ٦٧٨ رقم ١٨٤٢ وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه.

(٣) منهاج السنة ٦/ ٢١٦، ومجموع الفتاوى ١٠/ ٧٣٥.

(٤) الحديث رواه أحمد في مسنده ٤/ ٤١١.

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦١﴾ [البقرة:٢٦١]. فقد بيَّن سبحانه وتعالى أن مثل من ينفق ماله في سبيل الله كمثل عود القمح الذي يحمل سبع سنابل، وتحمل كل سنبلة منه مئة حبة، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يضاعف له ما أنفقه أضعافًا مضاعفة. فمن خلال هذا المثل الحسي المشاهد والحي، يدرك المؤمن أهمية الإنفاق في سبيل الله وقيمته. وكان يمكن للخطاب القرآني أن يأتي بصيغة مجردة، كأن يقال مثلًا: أنفقوا من أموالكم، ولا تبخلوا بها، فإن أنفقتم فإن الله يعوضكم خيرًا مما أنفقتم، بيد أن مجيئه على هذا النحو المجرد لن يكون له من الأثر والتأثير الذي جاء عليه النظم القرآني. ولعلنا لا نحتاج إلى تأملٍ طويلٍ في هذين النصين، فالحديث يرشد إلى تزكية النفس، والآية الكريمة ترشد إلى العلاقة مع الآخرين، وأفضل ما يقوي العلاقة بين الناس هو الإحسان إليهم.

- الإيمان بالله والتصديق بالمرسلين: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن أهل الجنة يَتراءَون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدُّريَّ الغابر، أي النجم في الأفق من المشرق أو المغرب لِتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين)[١].

- الجهاد في سبيل الله: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن في الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض)[٢].

- التسبيح والتحميد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء الفقراء إلى النبي

(١) البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ٤/ ١١٩ (٣٢٥٦)، ومسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: ترائي أهل الجنة أهل الغرف ٤/ ٢١٧٧ (٢٨٣١)

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله ٤/ ١٦ (٢٧٩٠).

ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلا والنعيم المقيم، قال: وما ذاك؟ قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، فقال رسول الله ﷺ: أفلا أعلمكم شيئًا تدركون به من سبقكم، وتسبقون من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم، إلا من صنع مثل ما صنعتم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: تسبِّحون وتكبّرون وتحمَدون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين مرة)[١].

- إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يارسول الله، قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط)[٢].

فَعَلى مَنْ سمت همته أن يتطلع للأعلى، ويعمل لينال رضي الله، ويدخل جنة الفردوس، وها هي الأعمال قد وعد الله أهلَها بتلك الدرجات، فكم بين زهد الناس عنها وتشميرهم لها، والله أعلم. وغيرها الكثير من وجوه الخير والعمل الصالح التي تعارف عليها الناس، ومن خلال مبادئ الدين الحنيف.

(١) رواه مسلم بنحوه، كتاب: الزكاة، باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل.... ٢/ ٦٩٧ (١٠٠٦).
(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الطهارة، باب: إسباغ الوضوء على المكاره ١/ ٢١٩ (٢٥١).

الفصل الثالث
أثر عقيدة البعث والنشور على الإنسان

لا شك أن العوامل الداخلية الكامنة في أعماق نفس الإنسان، والنابعة من صميم ضميره ووجدانه هي القوة الكبرى التي توجه صاحبها وتتحكم في تصرفاته في كل حينٍ وآنٍ، سواء أكان وحيدًا في غابةٍ لا يراه أحد من الناس، أو كان في مجتمعٍ مفتحة فيه العيون. وذلك لِما للنفس من سلطانٍ على الجوارح وكبحٍ لجماحها، وكي تصل النفس بصاحبها إلى هذا السمو، فإنه لابد من رياضةٍ روحيةٍ طويلةٍ وقويةٍ، وهذا ما يعزُّ على من لا يؤمن بيومٍ آخر يتم فيه الحساب والجزاء. وليس ثمة قانونٌ وضعيٌّ يستطيع أن يجعل تصرفات الإنسان مستقيمة كما يفعله الإيمان باليوم الآخر؛ وذلك لأن المؤمن بهذا اليوم يسعى ويعمل في الحياة وهو ينظرإلى الميزان الإلهي، إلى مالك ذلك اليوم، وإلى الحساب في ذلك اليوم، ولذا تراه مستقيمًا في سلوكه، ثابتًا خلال الشدائد صابرًا، شاكرًا عند النعماء ذاكرًا، فهو يعلم أن الحياة فانية، وأن الآخرة باقية، ولذا فإن كتب التراث حفيلةٌ بذكر قصص السلف الصالح، الذين كان إيمانهم بيوم القيامة قد اختلط مع الدماء التي تجري في عروقهم، وهذا هو سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات ضياعًا لخشيت أن يسألني الله عنها)[1].

(١) أورده أبو نعيم في حلية الأولياء ١/٥٣، وابن الجوزي في الطبقات، المناقب ص ١٦١ بأسانيد ترتقي به إلى درجة الحسن لغيره.

إنه أثر الإيمان والشعور بثقل المسؤولية والأمانة التي حملها الإنسان يوم أشفقت منها السموات والأرض. وأما من لا يؤمن بهذا اليوم، وما فيه من حسابٍ وجزاءٍ، فهو يحاول جاهدًا أن يحوز على كل ما تشتهيه نفسه من ملذات الحياة، يلهث وراء متعها، ولا ينظر إلى الأمور إلا من خلال منظاره الخاص، يتحرك ومبلغه من العلم دنياه الفانية وعمره الذي سينقضي عما قريب ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة:٥-٦]. هذا التصور القاصرعند الجاهليين جعلهم لا يرتدعون عن ارتكاب أي شيء من قتلٍ للنفوس البريئة إلى نهبٍ للأموال وقطعٍ للطرقات؛ لأنه لايوجد يوم للحساب والجزاء، حسب معتقدهم الباطل. وها هي اليوم قوى الشر والإجرام تعيد السيرة الأولى للجاهليين، حيث يتعاونون على الإثم والعدوان، على استعباد الشعوب ونهب خيراتهم، ولِمَ لا؟ فما هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع، والحياة مادة، ولا إله في الكون؟! وهنا نرى الأثر الكبير لقضية الإيمان بيوم آخر، حيث تُعرض الصحائف، وقد سُجِّل فيها كلُّ صغيرةٍ وكبيرةٍ.

وتكملةً للصورة من جميع الجوانب فلا بأس بذكر بعض الصور والأخبار عن ذلك اليوم العظيم وما يليه من حسابٍ وجزاء، وأقصد -هنا- ما يتعلق بحال أهل الجنة وأهل النار:

حال أهل الجنة وحال أهل النار:

من تمام رحمة الله بعباده ولطفه بهم أن ذكر لهم مما هو كائن في الجنة والنار، ما يجعلهم في حالتي الرهبة والرغبة، والإنسان عندما يعلم ما ينتظره من خيرأو شر يستعد له كل الاستعداد، فالإنسان يحب الملذات ويسعى إليها بكل ما أوتي من قوة وقدرة، ويكره الشدائد والمكاره ويسعى جاهدًا اجتنابها. ومن هنا فإن قضية الجنة والنار وما فيهما كانت

في غاية الأهمية والخطورة، فالإنسان يحب -في الدنيا- الراحة، ويحب المال والأولاد، يحب شهوته من طعام وجماع، ويكره الأعمال الشاقة، وما يضر ببدنه، ولذا فإن الله ﷻ بشَّرهم في الأُولى وأنذرهم من الثانية؛ لأنه كائن لا محالة، وأنهم الآن في امتحان الدنيا وفتنتها، فمن قدم والتزم بمنهاج ربه، فاز ونجى وحاز على ما تشتهيه النفس وتلذه الأعين، وإذا ما أعرض عن داعي الله وندائه، فلا يلومنَّ إلا نفسه ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣].

من هنا فإن قضية ما سوف يراه العبد في الآخرة (الجنة أو النار) حاز على اهتمام كبير في كتاب ربنا، والآيات التي تتحدث عن نعيم الجنة وعذاب النار كثيرة جدًا، فلا تكاد تمر صفحات إلا ولهما نصيب من الذكر، وهذه رحمة من الله ﷻ. فما الذي ورد ذكره في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من نعيم الجنة وخزي الآخرة؟

حال أهل النار:

وردت في حق أهل النار وما سوف يلاقونه من الويلات أقسى الصور وأشدها على النفس، ففيها مناظر مخيفة وأحوال مفزعة خارقة للمألوف والعادات؛ كي تستجيش النفوس وتتأهب الجوارح للنجاة من ذلك الهول العظيم، كهيئتهم مثلًا، ففي الصحيح الذي رفعه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (مابين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع)(١).

ولماذا يجعله الله على هذه الهيئة؟ ليزداد عذابًا وآلامًا. يقول النووي

(١) البخاري، كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار ٨/ ١٤ (٦٥٥١)، ومسلم، كتاب: الجنة، باب: يدخلها الجبارون ٤ ٢١٨٩ (٢٨٥٢).

في شرحه: (هذا كله لكونه أبلغ في إيلامه، وكل هذا مقدور لله تعالى يجب الإيمان به لإخبار الصادق به)[١]. وأما شرابهم فهو -كما ورد في الكتاب العزيز- الحميم والغساق، فهم يشربون الماء الساخن الذي يشوي الحلوق والبطون، والغساق الذي يغسق من أجساد المحروقين ويسيل.

وأما طعامهم فهو الزقوم، الذي لا يسمن ولا يغني من جوع. وواضح أننا لا نملك في الدنيا أن ندرك طبيعة هذا العذاب في الآخرة وإنما تجيء هذه الأوصاف لتلمس في حسنا البشري أقصى ما يملك تصوره من الألم الذي يتجمع من الذل والوهن والخيبة ومن لسع النارالحامية، ومن البرد والارتواء بالماء الشديد الحرارة. وإذا جمعنا كل هذه الصور التي تكلم عنها القرآن الكريم نجد أن الألم يصل إلى أقصى ما يصل إليه حِسّنا، نسأل الله العافية.

أحوال أهل الجنة:

بعد أن يرى العبد ما أعده الله من أنواع العذاب والخزي لأهل النار يتوجس خيفةً وترتعد أوصاله من هول ما ينتظر العصاة المتكبرين، فيبحث عن السبيل للنجاة منه والبعد عن دائرته، وهنا يأتيه صوت ليقول: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠]

ويعلم أنه لا منجاة منه إلا بالالتجاء إليه. وتأتيه البشرى أنك يا عبدالله إذا ما أطعت الله والتزمت صراطه، فإن لك ثوابًا عظيمًا لم تره عيناك قط ولا سمعته آذانك ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]إنها رحمة من الله لعباده وأي رحمة! وقد وردت تفاصيل تلك النعم جميعًا من طعامٍ وشرابٍ وحور عينٍ ولباسٍ، يتجملون به، وأعلاها رؤيته سبحانه وتعالى.

(١) شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٨٦.

ولو ذهبت أذكر كل ما ورد ذكره في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة لاستغرق مني كتابًا كاملًا، ولكن حسبنا -في هذا البحث- أن أشرنا إلى أهم ما يشوّق العبد ويدفعه للمزيد من الطاعة والبعد عن المعاصي، ولا نراه إلا رحمة من الله ﷻ لعباده، ودعوة إلى التسابق والتنافس.

ولا شك أن الحديث عن أثر هذا اليوم وأهميته عند المؤمن يطول جدًا، ولذا سوف نذكرها بعناوينها العريضة التي تغني عن الاستطراد بإذن الله.

إن الإيمان باليوم الآخر:

١. يجعل المؤمن أمام هدفٍ منشود ومستقبلٍ أبدي، ولذا يسعى جاهدًا لتحقيق مراده.

٢. يحيي في النفس معاني عظيمةً في الحياة من مثل: الصبر والرضا والاحتساب، وهو إذ يحيي هذه المعاني فإنه يستهين بمصائب الدنيا لأنها زائلة وليست أبدية، ويداوي جراحه ببلسم الاحتساب، فالله ﷻ بشره بأنه (إنّما يُوفّى الصّابِرونَ أجرَهُم بغيرِ حِسابٍ) وبشره رسوله الذي لا ينطق عن الهوى بقوله (عَجبًا لأمر المؤمن إنّ أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سرّاء شكر؛ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر؛ فكان خيرًا له)(١).

٣. يحرّر المؤمن من أسر الدنيا ومباهجها ويعتقه من ربقة العبودية للدرهم والدينار ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨].

٤. يورث للقلب طمأنينةً، فلا يقلق على غده ولا يندم على ماضيه،

(١) رواه مسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير ٤/ ٢٢٩٥ (٢٩٩٩).

فهو في تجدد لحياته نحو الأفضل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الاحقاف:١٣]

٥. يطهِّر القلب من أدرانها وأمراضها من حسدٍ وغلٍ وفرقة ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩]

٦. يمسح على قلوب المستضعفين والمظلومين مسحة يقين، تسكن معه القلوب؛ لأنهم يتطلعون لما أعده الله للصابرين من نعيمٍ مقيمٍ يُنسى معه كل ضرٍ وبلاء.

٧. يجعل الظالمين يفكرون كثيرًا، فإن وجد فيهم بذرة الخير والإيمان ارتدعوا عن ظلمهم وانتبهوا لغفلتهم، وإلا فالله ﷻ يتوعدهم بقوله: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ [إبراهيم:٤٢-٤٣].

٨. يجعل المؤمن على بينةٍ من أمره، فهو بُوصَلَتُه التي يمشي على هدْيٍ منها، فيسعى للحيلولة دون التحييد عنها أو تجاوزها.

الخاتمة

وهكذا وبعد أن عشت مع موضوع الإيمان باليوم الآخر بضعة أسابيع، والذي زادني إيمانًا به وشوقًا له، لابد لي قبل أن أنتهي، أن أذكر ما كان يجول في خاطري في أثناء الكتابة، فأقول:

إن الإيمان باليوم الآخر ركن عظيم من أركان عقيدتنا، فبقدر استعدادنا له يستقيم سلوكنا.

ولأنه أمرٌ غيبي مستقبلي، فإن القرآن الكريم قد سلك في سبيل تأكيده ووقوعه أسلوبًا علميًا رائعًا، وذلك من خلال دعوة الناس إلى التأمل فيما حولهم من مظاهر الكون، فآمن به ذوو الفطرة السليمة من أولي الألباب، وأعرض عنه من أعرض عن نداء الفطرة والعقل من الدهريين والملحدين.

وقد تجلت رحمة الله لعباده المؤمنين في ذلك اليوم من جوانب كثيرة، وكانت بمقتضى رحمته بعباده وبما هو أهله. فالحسنة بعشر أمثالها ثم تضاعف أضعافًا كثيرةً، ثم هنالك شفاعةٌ لرسولنا الكريم ﷺ، وكذلك الشفاعة للشهداء، وهنالك إلحاق للذرية بالآباء، وغيرها من معالم رحمته. ﷻ ومن رحمة الله بعباده أن قرن هذه العقيدة بالأحكام

التشريعية، وهو تنبيه من الله للمكلف في تعاطيه للمعاملات الدنيوية، فغدًا سيقف بين يدي الله ليحاسبه على ما جنته يداه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر. وقليلة تلك السور التي لم يأت فيها ذكر ليوم القيامة. إن الإيمان بالآخرة حاجز دون الصراع المحموم الذي تداس فيه القيم وتداس فيه الحرمات، بلا تحرج ولاحياء. وهذا التصور للآخرة يفيض على النفس السلام في مجال المنافسة والسباق، ويخفف السعار الذي ينطلق من الشعور بأن الحياة الدنيا –على قصرها– هي الفرصة الوحيدة والأخيرة في العمر، وبذا يبرر للنفس في سبيل هذا التنافس كل الطرق، المشروعة وغير المشروعة. وعندئذٍ تتخلى الإنسانية عن أمانتها، وتتمرد على فطرتها، وتتنكر لمسؤوليتها التي وكلها الله بها.

فهرس المصادر والمراجع

١. الإيمان، محمد نعيم ياسين. دار عمر بن الخطاب، الاسكندرية (د. ط).
٢. إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي. دار الفجر للتراث، القاهرة (ط/٢).
٣. التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة. القرطبي (أبو عبدالله محمد بن أحمد) ت: د. الصادق بن محمد بن إبراهيم. دار المنهاج/ الرياض ط١/١٤٢٥.
٤. التاريخ الكبير، البخاري، ت: هاشم الندوي وآخرين، دائرة المعارف العثمانية (د. ت).
٥. تفسير: التحرير والتنوير، ابن عاشور (محمد الطاهر)، الدار التونسية/ تونس ط ١٩٨٤.
٦. تفسير التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبي (أبوالقاسم محمد بن أحمد ت: عبدالله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم/بيروت ط١/١٤١٦.
٧. تفسير: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي. ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. دار الكتب المصرية/ القاهرة ط٢/١٣٨٤.
٨. تفسير: جامع البيان في تأويل آي القرآن، الطبري (أبو جعفر محمد ابن عبدالله) ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١/ ١٤٢٠.
٩. تفسير: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، الشوكاني (محمد بن علي) دار ابن كثير/ دمشق ط١/١٤١٤.
١٠. تفسير معالم التنزيل، البغوي (الحسين بن مسعود) ت: محمد عبدالله النمر وآخرين، دار طيبة النشر، ط٤/١٤١٧.

١١. تفسير: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر) ت: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية/بيروت ط١/١٤١٩.
١٢. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية (أبو العباس تقي الدين) ت: علي بن حسن وآخرين، دار العاصمة/ السعودية ط٢/١٤١٩.
١٣. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم (أحمد بن عبدالله)، نشر دار السعادة/ محافظة مصر ط/١٣٩٤
١٤. درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، ت: محمد رشاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود ط٢/١٤١١.
١٥. ركائز الإيمان، محمد قطب، دار الشروق/ القاهرة ط١٤٢٢.
١٦. سنن أبي داود (سليمان بن الأشعث) ت: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية/بيروت (د.ت).
١٧. سنن ابن ماجه (أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني) ت: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية/فيصل عيسى البابي الحلبي (د.ت).
١٨. سنن الترمذي (محمد بن عيسى) ت: بشار معروف، دار الغرب الإسلامي/بيروت ط١٩٩٨.
١٩. شرح صحيح مسلم (المنهاج)، النووي (أبو زكريا) دار إحياء التراث العربي/بيروت ط٢/١٣٩٢.
٢٠. شعب الإيمان، البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين)، ت: عبدالعلي حامد، مكتبة الرشد/الرياض ط١/١٤٢٣.
٢١. صحيح الجامع الصغير وزياداته، الألباني (أبو عبدالرحمن محمد ابن ناصر الدين)، نشر المكتب الإسلامي (د.ت).

٢٢. صحيح البخاري (محمد بن إسماعيل) وهو (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه) ت: محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة، ط١/١٤٢٢.
٢٣. صحيح مسلم (بن حجاج النيسابوري) ت: محمد فؤاد عبدالباقي، دارإحياء التراث العربي/بيروت (د.ت).
٢٤. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي)، اعتنى به محمد فؤاد عبدالباقي، دار المعرفة/بيروت ط١٣٧٩.
٢٥. الفوائد، ابن القيم (محمد بن أبي بكر)، دار الكتب العلمية/بيروت، ط٢/١٣٩٢.
٢٦. القيامة الكبرى. د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس.
٢٧. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي (علي بن أبي بكر) ت: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي/القاهرة ط١٤١٤.
٢٨. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ت: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد ط ١٤١٦.
٢٩. مدى عناية القرآن واهتمامه باليوم الآخر/ د. مصطفى مسلم، ود. محمد فتحي الزغبي، موقع الألوكة.
٣٠. المستدرك على ما في الصحيحين، الحاكم النيسابوري (محمد بن عبدالله) ت: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية/بيروت ط١/١٤١١.
٣١. مسند أحمد بن حنبل (أبو عبدالله) ت: شعيب الأرناؤوط وآخرين. مؤسسة الرسالة، ط١/١٤٢١.
٣٢. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير الجزري (أبوالسعادات محمد بن محمد)، ت: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية/بيروت ط١٣٩٩.

٣٣. مقالات الإسلاميين، أبو الحسن الأشعري (علي بن إسماعيل) ت: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية/بيروت، ط١٤١١.
٣٤. منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، ابن تيمية ت: محمد رشاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود ط١/١٤٠٦.
٣٥. اليوم الآخر في ظلال القرآن، إعداد أحمد فائز، مؤسسة الرسالة، ط١٧/١٤١٤.

نقد المفاهيم الخلاصيَّة النَّصرانيّة من خلال حقائق الرحمة في الإسلام

إعداد:
د. محمد بودبان
أستاذ محاضر في مقارنة الأديان
عضو مجلس إدارة الجامعة
ومستشار سابق لدى نائب مدير الجامعة
جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية
قسنطينة– الجزائر

مقدمة

إنَّ الحمد للّه نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا، ومن سيِّئات أعمالنا؛ من يهده اللّه فلا مضلَّ له؛ ومن يُضلل فلا هاديَ له؛ وأشهد أن لا إله إلاَّ اللّه وحده لا شريك له؛ وأشهد أنّ محمَّدًا عبده ورسوله، وحبيبُه من خلقه وصفيُّه، اللَّهُمَّ صلِّ عليه وسلِّم، زد وبارك، عليه وعلى آله وصحبه الكرام؛ أمّا بعد: فيتناول هذا البحث مسائل: العمل والجزاء والخلاص لدى النّصارى؛ والتي وإن تعلَّقت بالجانب العقدي أساسًا، إلاَّ أنَّها من جانبٍ آخرَ هي أساسٌ متعلِّق بالفروع التَّشريعيّة النَّصرانيَّة؛ حيثُ يعمدون إلى بناء هيكلٍ معرفيٍّ مكوَّنٍ من مجموعةٍ من المفاهيم، ويحاولون الربط فيما بينها بشكلٍ يريدونه أن يكون منطقيًّا؛ إنَّه ما يسمَّى ويدعى بـ: «التدبير الخلاصي».

وإنّ النَّصارى يوظِّفون مفاهيم هذا «التدبير الخلاصي» في شرح دينهم، وفي دعوة الآخرين إليه؛ فقلّما تكون دعوةٌ تنصيريَّةٌ من دون التركيز عليه؛ ومن أهمَّ مرتكزاتهم في ذلك الشرح أمران: «المحبَّة» و«الرحمة» وهذه الأخيرة هي من تجلِّيات الأولى. وهم في سياقات كلامهم، يحاولون أن يعقدوا المقارنات مع بقيَّة الأديان - وإن لم يشيروا إليها أحيانًا- ومع

الإسلام خاصَّة؛ فيبيِّنون في كلامهم أنَّ مقتضيات الرحمة مثلًا هي التي جعلت المسيح يقدِّم نفسه فداءً للنَّاس على الصليب -بزعمهم- وهي التي تُظهر -بحسبهم- العناية الإلهية في أسمى صورها، حيث رحم الله عباده رحمةً ما بعدها رحمة بتشريعه لهم سبيلًا خلاصيَّة من طريق ابنه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. ومن هنا أتت أهميَّة الموضوع الذي اخترت البحث فيه.

حيث إنّ الاستثمار العاطفي الخاطئ للفكرة الدِّينيّة يُكسبها تغافلًا عن بحث صدق منطقها؛ كما إنّ من وسائل ترويج الفكرة الباطلة محاولة ربط أجزائها بشيءٍ ممَّا ظاهرُه المنطق؛ وإنّ الرحمة لها سلطانٌ لمفهومها في العقل والفكر والروح جميعًا؛ وهي مرتبطةٌ واقعيًّا بقدرات الإنسان، وغلبة سلطان الهوى واللَّذَّة عليه؛ وقلّة حيلتِهِ؛ بحيث إنَّ الإنسان يميل -بشِقوته- إلى السكون والدعة، والتحلُّل من التكاليف والمسؤوليّة؛ فيبحث عن نجاةٍ بلا عقاب، وعلى نعيمٍ وجزاءٍ بلا عملٍ، وعلى رضوانٍ بمعصيةٍ، وعلى تحلُّلٍ لا تعفُّف... إلخ؛ ومسألة: «التدبير الخلاصي» تستثمر في كلِّ ذلك.

الإشكالية :

يمكننا صياغة الإشكالية المراد حلُّها في التساؤل الآتي:

«من منطلق كون الإسلام شاهدًا ومهيمنًا على ما قبله: كيف يمكن لحقائق الرحمة في الإسلام أن تسهم في نقد المفاهيم الخلاصية النَّصرانيّة؟».

الأهداف.

تهدف هذه الدراسة إلى مجموعةٍ من الأغراض، أهمُّها الآتي:

- تجريد النَّصارى من أحد أهمِّ المفاهيم التي يستعملونها في سبيل تنصير النَّاس.
- بيان اتِّساق مفاهيم الرَّحمة في الإسلام؛ وقدرتها على تحدِّي المفاهيم الباطلة، مهما تفنَّن أهلها في إلباسها ثياب المنطق، أو حشدوا لها أدلَّةً.
- دعوة النصارى وغيرهم إلى دين الرَّحمة؛ وإلى السبيل الحقَّة للنجاة والخلاص الحقيقي، إلى دار السلام.

المنهج.

منهجي في هذه الورقة أن أصف المخطط الخلاصي الذي يزعمه النَّصارى، مع تدقيق مختلف عناصره ومحطّاته من الخطيئة الأولى إلى غاية نهاية الشيطان، مرورًا بالصلب – بقولهم- واصفًا ما يسوقونه من أدلَّةٍ في ذلك، مجلِّيًا ما يحاولون إظهاره في قالب المنطق؛ ثمَّ أبيِّن ما يعتبرونه قمّة الرحمة الربَّانيَّة في هذا المخطط؛ لأكرَّ عليه بالتفنيد والنقد لمختلف مِفصليَّاته، مستعينًا بالمفاهيم الحقَّة للرحمة في الإسلام والتي استوعَبَت جميع حياة النَّاس من آدم عليه السلام، وإلى خلود أهل الدارين؛ بحيث تفسِّر كلَّ شيءٍ، بما يورث اطمئنانًا: روحًا وجسدًا وعقلًا.

خطَّة البحث:

مقدِّمة

المبحث الأوَّل: ضبط المفاهيم الخلاصيّة في النَّصرانيَّة.

المطلب الأوّل: المكوِّنات العقديَّة للتدبير الخلاصي في النَّصرانيَّة.

المطلب الثاني: صياغة النَّصارى لمراحل التدبير الخلاصي.

المبحث الثاني: مكانة الرحمة من المخطط الخلاصي النَّصراني.

المطلب الأوّل: مفهوم الرَّحمة عند النَّصارى.

المطلب الثاني: علاقة الرحمة بمكوِّنات التدبير الخلاصي عند النّصارى.

المبحث الثالث: النقد الإسلامي للخلاص النَّصراني من خلال الرحمة.

المطلب الأوَّل: بيان معالم الرحمة الإلهيَّة في الإسلام، وتناسق معانيها المبثوثة في الشريعة.

المطلب الثاني: بيان اضطراب التبرير بالرحمة في كامل محطّات التدبير الخلاصي النّصراني.

خاتمة.

المبحث الأوَّل
ضبط المفاهيم الخلاصيّة في النَّصرانيَّة

لا يمكن للباحث أن ينطلق رأسًا إلى إطلاق الأحكام واستصدارها، من دون أن تكون له أرضيَّةٌ صُلبة من تدقيق المفاهيم؛ وخاصةً إذا تعلّق الأمر بفكرةٍ يعتقدها خاطئةً. ويزداد الأمر حرجًا، حين يتعلَّق بأمور المخالف في الدِّين؛ حينها تحتاج المسائل إلى مزيد تثبُّتٍ وضبطٍ لها. وذلك حتَّى تكون الردود قويَّةً، سديدةً أو قريبةً إلى السداد؛ وتكون نتيجتها الهدايةُ الحقَّة إلى دين الحق؛ وإلاَّ قد ترتدُّ على صاحبها وعلى الإسلام من طريق التبع في أذهان النَّاس.

ولذلك سنحاول ههنا أن نتبيَّن المفاهيم الخلاصيَّة النَّصرانيَّة؛ وندع ألسنة أهلها نفسها تشرحه؛ ومن تواليف أهل الملَّة لديهم؛ من دون تجنٍّ، أو كسرٍ عليهم؛ أو تقويلهم ما لا يقولون به؛ ليأتي الردُّ والنقد بإذن اللّٰه تعالى بعد ذلك متوافقًا مع الفهوم التي رسموا خطوطها هم أنفسهم.

المطلب الأوَّل
المكوِّنات العقديَّة للتدبير الخلاصي في النَّصرانيَّة

الخلاص في حقيقة أمره مفهومٌ عقديٌّ، وُجد في الفكر الدِّيني الإنساني

منذ القديم؛ لأنَّه مطلبٌ تنشده كلُّ نفسٍ: أن تحيا سعيدةً أبديًّا، وتتخلَّص من الآلام، ومن منغِّصات الحياة الدنيا. ولكن الأنفس قد تدرك سبيل تحقيق ذلك وقد تَضِلُّ؛ ولذلك جاء هدي الله تعالى النَّاسَ إلى كيفيَّة تحقيق ذلك من خلال ما أخبرهم به من طريق أنبيائه ورسله؛ وكانت البداية بأبي البشرية، نبيِّ الله آدم، حيث قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨] في مقابل هلاك الأنفس التي لا تقبل الهداية: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٣٩].

وفي الإسلام بيَّن الله تعالى -من خلال كلامه، ومن خلال إرسال الأنبياء والرسل- البدايةَ والنهايةَ؛ البدايةُ: من طينٍ[١]، والنِّهاية: يؤتى بالموت كهيئة كبش فيجعل بين الجنَّة والنَّار فيذبحٍ؛ وينادى على أهل الجنَّة وعلى أهل النَّار نعيم ولا موت أبدًا، وعذاب بلا موتٍ أبدًا[٢]؛ وبين البداية والنِّهاية ابتلاءٌ للنَّاس؛ فمن يعمل مثقال ذرَّةٍ خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرَّةٍ شرًّا يره.

والابتلاءُ لـمّا كانت غايتُه الجنَّة أو النَّار، حُفَّت الجنَّةُ بالمكاره، وحفَّت النَّار بالشهوات؛ فيغالب المرء نفسَهُ والهوى والشَّيطانَ فينجو؛ أو توبقه تلك الجنود إن أسلم نفسه لها. ومن رحمة الله بعباده أن جعل لهم سبلًا تتنزَّل من خلالها رحمته وهدايته: أنبياؤهُ ورسلُه، وكتبه وشرائعه وآياته فيها، وفي أنفسهم وفي الآفاق، وتأييده لهم بما شاء من جنوده؛

(١) كقول الله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥] ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر:٦٧-٦٨]

(٢) فعن أبي سعيد الخُدْرِيِّ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتى بالموت كهيئة كبش أملحَ؛ فينادي مناد: يا أهل الجنَّة، فيشْرئبُّون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموتُ، وكلُّهم قد رآه، ثمَّ يُنادي: يا أهل النَّار، فيشرئبُّون وينظرون؛ فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموتُ؛ وكلُّهم قد رآه، فيُذبح ثمَّ يقول: يا أهل الجنَّة خلودٌ فلا موتَ؛ ويا أهل النَّار، خلودٌ فلا موتَ». ثم قرأ: «وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ». البخاري: التفسير، باب قوله: وأنذرهم يوم الحسرة، ح٤٧٣٠، ص٩٩٠.

ومضاعفة الحسنات إلى أضعافٍ كثيرةٍ؛ ومحوُه ومغفرته جبال الخطايا وبحورَها، بل وتبديلَها حسنات؛ وتثبيت من اختار حزبَه في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة... إلخ. ومن البداية إلى النهاية كلُّ شيءٍ بقدرٍ وأجلٍ مسمًّى؛ وعلم أحاط بكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ قد أحصاها الكتاب، بحكمةٍ وعدلٍ وخبرةٍ وبكلِّ صفات الله تعالى التي تظهر في قيُّوميَّته على خلقه.

أمّا إذا انتقلنا إلى الجانب النَّصرانيِّ فإنَّنا نجد عقائد أساسيَّةً لهم، ارتبطت ببعض محطَّات البداية والنِّهاية وما بينهما؛ وهي محطّاتٌ وردت مسائلها في القرآن الكريم، تتَّفق في بعض الخطوط - من حيث ما لم يحرَّف- وتفترق في قيمتها وما يترتَّب عليها من هدًى أو ضلالة، بما نالت منه أيدي التحريف، وألسنتُه.

وفي هذا المطلب سنحدِّد فقط هذه المحطَّات التي تُشكِّل مفاهيم وعقائد؛ ثمّ في المطلب الموالي سننظر كيف يَنظم النَّصارى نسيجها لتكوين جوهر التحريف الدِّيني الذي زلُّوا به. فالتَّدبير الخلاصي الذي هو الإنقاذ الإلهيُّ الشامل[1]؛ والذي يقصدون به بوجه عام "القصد الإلهي في ما يعود إلى خلاص البشر[2] له مكوِّناتٌ عقيديّة تنتظم معًا، وهذه المكوِّنات هي كالآتي:

أ. الخطيئة الأصليَّة:

هي العقيدة التي تقول: إن سقوط آدم وحوَّاء قد لوّثهما، ولوَّث نسلهما إلى درجة أنَّ البشر لم -ولن- يستطيعوا أن يتوقَّفوا عن ارتكاب الخطايا[3]. ويأخذون حكاية ذلك من الكتاب المقدَّس الذي يؤمنون به؛ وإنَّ قصَّة أكل آدم

(١) مظهر الملوحي وآخرون: قراءة صوفيَّة لإنجيل يوحنَّا، (ط١)، دار الجيل: بيروت- لبنان، ٢٠٠٤م، ص ١٥٨.
(٢) صبحي حموي اليسوعي: معجم الإيمان المسيحي، أعاد النظر فيه من النَّاحية المسكونيَّة الأب جان كوربون، (ط١)، دار المشرق: بيروت- لبنان، ١٩٩٤م، ص ١٤١.
(٣) جوناثان هيل: تاريخ الفكر المسيحي، ترجمة سليم اسكندر، مايكل رأفت، (ط١)، مكتبة دار الكلمة: القاهرة- مصر، ٢٠١٢م، ص٣٥٤.

من الشجرة التي نهي عنها، وإن كانت عند النَّصارى تتقاطع مع ما قصَّه الله تعالى علينا في القرآن العظيم، إلاَّ أنَّها قد ضمَّت شناعاتٍ عديدةً، لا يمكن للنصارى إخفاؤها؛ من ذلك[1] أنَّ الرب -عياذًا بالله- كذب على آدم وزوجه، وأخبرهما أنَّهما سيموتان إن أكلا منها، والحقيقة هي ما تكلَّمت به الحيَّة - إبليس الذي أخذ شكلها ليغويهما- التي أغرتهما بالأكل منها، وأنَّ هذه الشجرة هي شجرة معرفة الخير والشرِّ، وفعلًا لم يموتا؛ ولا ينفعهم أن يقولوا: "إنَّه كتب عليهم الموت بالأكل منها وذريَّتِهما" وهو ما تبطله الشناعة الثانية، وهي قول الربِّ بزعمهم: «وقال الربُّ الإله: هوذا الإنسان قد صار كواحدٍ منَّا، عارفًا الخيرَ والشرَّ؛ والآن لعلَّه يمدُّ يده، ويأخذ من شجرة الحياة أيضًا؛ ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الربُّ الإله من جنَّة عدنٍ، ليعمل الأرضَ التي أُخِذَ منها. فطرد الإنسانَ؛ وأقام شرقي جنَّة عدنٍ الكَرُوبِيم[2]، ولهيبَ سيفٍ متقلِّبٍ لحراسةِ طريق شجرة الحياة»[3]. وكأنَّما يصوِّرون ههنا ملكًا من ملوك الأرض، خائفًا على عرشه مذعورًا، مخفيًّا سبيل الحياة الأبديَّة. وكأنَّما الرب صار الأوَّلَ والآخرَ بأكله من تلك الشجرة -والعياذ بالله- وخشي أن يَشْرُكَهُ آدم فيها. إنَّ ههنا تصويرًا لانعدام الرحمة، وانعدام صفات الكمال الإلهي؛ وادِّعاء مصيبةٍ وكارثةٍ حلَّت بالبشريَّة، وليس الأمر كما وصفوا.

ب. توارث الخطيئة:

قلنا في العنصر السابق بأنّ سقوط آدم وحوَّاء قد لوّثهما، ولوَّث نسلهما إلى درجة أنَّ البشر لم -ولن- يستطيعوا أن يتوقَّفوا عن ارتكاب الخطايا[4]. بحسب ما يرى النَّصارى، فهم يؤسِّسون على ذلك أن الخطيئة الأصليَّة متوارثةٌ، لم تنقطع زمن آدم عليه السلام، وليس في نصوصهم ما يفيد - وإن في

(١) انظر القصَّة بتمامها وشناعاتها في سفر التكوين، الإصحاحين الثاني والثالث منه.
(١) تكوين ٣: ٢٢-٢٤.
(٢) تاريخ الفكر المسيحي، مرجع سابق، ص٣٥٤.

قليلٍ- أنَّ آدم وزوجه تابا، أو أنَّ الربَّ غفر خطأهما. ويهتمُّ النَّصارى ههنا أكثر ما يهتمُّون بتصوير ازدياد الإنسان في آثامه وخطاياه، ومبارزة ربِّه بالعصيان، والإفساد في الأرض؛ وهي أمورٌ على العموم حقيقةٌ؛ وإنَّما المصيبة في تصوير تردُّد الرَّب وحيرته - تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا- فيما يفعله مع هذا الإنسان الذي انحرف عن الخطِّ الذي خلقه عليه؛ ولننظر في هذه الفقرات من الكتاب المقدَّس، فهي كفيلةٌ ببيان شناعة ما يقولون: «ورأى الربُّ أنَّ شرَّ الإنسان قد كثُر في الأرض؛ وأنَّ كلَّ تصوُّرِ أفكار قلبِه إنَّما هو شرِّيرٌ كلَّ يوم. فحزن الربُّ أنَّه عمل الإنسانَ في الأرض، وتأسَّف في قلبه. فقال الربُّ: أمحو عن وجه الأرض الإنسانَ الذي خلقتُه، الإنسانَ مع بهائم ودبَّابات، وطيور السماء، لأنِّي حزنت أنِّي عملِتُهم. وأمّا نوحٌ فوجد نعمةً في عيني الرب»[1]. ويستمر والعياذ بالله هذا الاضطراب، والتردُّد، والحيرة في التصرُّف؛ فبعد طوفان نوح، ندم الربُّ -عياذًا بالله-أنَّه فعله، وعاهد نوحًا أن لا يعود إلى إهلاك الناس بالطوفان.

ولا ينفع أن يُقال كما قال أحدُهم: "وإن كان الله يعدل هكذا عن قصده، أمام مشهد الشقاء الذي تسبِّبه الخطيئة، فذلك راجعٌ إلى أنَّه يريد رجوع الخاطئ إليه وتوبته"[1]. فالله تعالى حقًّا تسبق رحمتُه غضبه، ولكنَّه لا يضطرب، لا يندم، ولا يبدو له ما لم يكن يعلم.

ج. دخول الموت:

في ظنِّي أنَّ السبب الأهمَّ في إيراد الكلام عن دخول الموت جنبًا إلى جنبٍ مع كلامهم عن دخول الخطيئة إلى العالم؛ هو تصوير المقابلة بين ذلك وبين انتصار المسيح -بزعمهم- على الموت فوق الصليب، حين قام من بين الأموات؛ ليهب بعدها الحياة الأبديَّة لمن آمن به.

(١) لجنة من المعرِّبين بإشراف المطران أنطونيوس نجيب: معجم اللاَّهوت الكتابي (العنوان الأصلي: Vocabulaire de Theologie Biblique)، ط٦، دار المشرق: بيروت- لبنان، ٢٠٠٨م، ص٣٧٥.

وتصوير الموت ههنا، هو تصويرٌ للموت الحسِّي والمعنوي على السواء، ومدُّ جسورٍ فيما بينهما. والموت يربطونه بالخطيئة؛ كونه عقوبةً عادلةً لديهم عليها؛ ولذلك امتلأت شرائع العهد القديم بالعقوبات بالموت؛ حيث يرون أنَّ العهد القديم يقيم عقيدةً ثابتةً، تبرز المعنى الدِّيني لخبرةٍ جدُّ مرَّةٍ: " تطلب العدالةُ هلاك الشرِّير... والنَّفس التي تخطىء يجب أن تموت"(١)؛ وقد ورد في معجم اللاَّهوت الكتابي في كلِّ ذلك قولهم: «ولا يمكن أن يكون الموت خاليًا من المعنى؛ فهو يناقض بعنفٍ رغبتنا في الحياة؛ ويَثقُلُ علينا كقصاصٍ؛ ولهذا -وبطريقةٍ غريزيَّة- فإنَّنا نرى فيه جزاءً للخطيئة»(٢). وهنا تمامًا يتساءلون، صارخين في أنفسهم: كيف الخلاص من الموت؟

د. سلطان الشَّيطان:

والكلام ههنا عن سلطان الشَّيطان حين يأتي في سياق الكلام عن التدبير الخلاصي يكون بالتوازي، وبالتركيز على شدَّة ضعف الإنسان، في مواجهة الذي كان سببًا في دخول الخطيئة والموت إلى العالم. ولفظة شيطان في العبرانية تدلُّ على مسعاه؛ فهي تعني الخصم والعدوَّ(٣).

ونهاية الشيطان تكون في آخر المخطَّط الخلاصي؛ حيث إنَّه سيقبض عليه ويقيّد بالسلسلة، ويطرح في الهاوية ويُختَم عليه، لكي لا يُضلَّ الأمم فيما بعد؛ وفي النّهاية يطرح في بحيرة النّار والكبريت؛ ويعذَّب نهارًا وليلًا إلى أبد الآبدين؛ بحسب ما ورد في سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتي(٤).

(١) المرجع نفسه، ص٧٨٢.
(٢) المرجع نفسه، ص٧٨٢.
(٣) معجم الإيمان المسيحي، مرجع سابق، ص٢٩٠ وانظر Initiation Biblique; publiée sous la direction de A.Robert et A. Tricot, imprimeurs du Saint siege et la Sacrée congregation des rites: Paris, Tournai, Rome, p560 et aussi le Dictionnaire pratique des connaissances Religieuses , Publié sous la direction de J.BRICOT Librairie Letouzey et Ane , Paris , France 1925 (1/236)
(٤) نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص ومن اللاَّهوتيِّين؛ هيئة التَّحرير: بطرس عبدالملك، جون ألكسندر طمسن، إبراهيم مطر: قاموس الكتاب المقدّس، (ط١٣)، دار مكتبة العائلة: القاهرة

هـ. طريق الخلاص بالأنبياء والشريعة:

في هذه المحطَّة يتكلَّم النَّصارى عن الطريق الخلاصيّة التي أرادها الربُّ بإرسال الأنبياء وإنزال الشريعة -الشريعة الموسويّة تحديدًا-. واتِّباعُ الأنبياء والهدي الذي أنزل إليهم هو عين خلاص الإنسان وفلاحه؛ وإنّما النَّصارى يشغِّبون على هذه المعاني العظيمة، وينالون من نورها؛ حين يحاولون التقليل من شأن هذه الطريق الخلاصيَّة، بكونها غيرَ مجديةٍ؛ والحاملُ على ذلك هو أن تظهر طريق الخلاص بابن الله الوحيد -بزعمهم- واضحةً أخّاذةً بالألباب؛ فلننظر مثلا لوصف بعضهم ذلك بقولهم: "وفي مأساة العالم، لم تُفلح الشريعة لتصدَّ عوامل الموت العاملةِ فينا؛ بل اتَّخذت الخطيئةُ من الشريعة سبيلًا لغوايتنا وإماتتنا. قد أعطت الشريعة معرفة الخطيئة، بدون قوَّة التغلُّب عليها؛ وهكذا حكمت على الخاطئ صراحةً بالموت، فأصبحت قوَّةَ الخطيئة"(١). ثمَّ أضافوا قائلين: "ولهذا فإنَّ خدمة هذه الشَّريعة التي كانت مقدَّسةً، وروحيَّةً في ذاتِها؛ والتي كانت رغم ذلك مجرّد شريعة حرفيَّةٍ عاجزةٍ عن منح قوَّة الرُّوح، لم تحقِّق بالفعل إلاَّ خدمةَ موتٍ؛ فبدون المسيح كانت البشريَّة غارقةً في ظلال الموت".(٢) فإنَّ كل قوانين الشَّريعة آلت إلى تقييد الإنسان وتدميره، لعجزه عن العمل بها؛ ولكنَّ رحمة الله في سيِّدنا عيسى المسيح تعطيه حياةً روحيَّة طاهرةً، بعكس الشَّريعة التي أفضت به إلى حكم الموت(٣).

إنّ المشكلة أنَّ من لم يكن وسطًا، سيكون غاليًا، أو جافيًا؛ وهو ما وقع فيه النَّصارى، إنّهم نالوا من حكمة الله تعالى وعلمِه المحيط؛ لقد تحدَّثوا عن قيُّوميَّته على العالمين، وكأنّما هو يقوم بالتجريب كالبشر، فتفلح خططه

مصر، مطبعة الحرِّيَّة: بيروت- لبنان، ٢٠٠٠م،ص٥٣٥.

(١) معجم اللاَّهوت الكتابي، مرجع سابق، ص٧٨٤.

(٢) المرجع نفسه، ص٧٨٤.

(٣) قراءة صوفيَّة لإنجيل يوحنَّا، مرجع سابق، ص ٨٩.

أو تفشل؛ والأدهى والأمرُّ ههنا هو أنّ محصِّلة التجربة بتخليص البشر بالشريعة والأنبياء كانت تجربةً فاشلةً؛ وذَهَلَ الربُّ - عياذًا به- عن الطريقة المثلى، وهي تخليص النَّاس بابنه الوحيد - بكفرهم- حقبًا متطاولة.

و. طريق الخلاص بابن الله وضعف الإنسان:

ويلخِّصُ لنا بولس(١) هذه الطريق الجديدة، بمقارنتها بالقديمة التي سبق تحجيمُها، وبيان عدم جدواها، بقوله: «اللّه بعد ما كلَّم الآباء بالأنبياء قديمًا؛ بأنواعٍ وطرقٍ كثيرة؛ كلَّمنا في هذه الأيَّام الأخيرة في ابنه»(٢).

وهنا في هذا المفهوم تصويرُ رجاء الإنسان الذي لم تزده الشريعة - في ظنِّهم - إلاّ رَهَقًا، حتَّى زادت من انتصار الموت وتغلغله، حيث تحكم على كثيرٍ من الخطايا بالموت؛ فصار الإنسان ينتظر جَبْرَ ضعفِهِ بمن يأتي ويحمل عنه أثقاله وآلامه؛ ويفتح السبيل إلى تطلُّعاته وآماله.

هذا ما يصوِّرونه بعد ذلك في ما قام به يسوع في ظنِّهم؛ حيث فيما ساقه متَّى من بيان السلسلة الشاملة لسلالة المخلِّص -بزعمهم- اتَّضحت حسبهم خطّة اللّه البعيدة المدى لخلاص الجنس البشري... وقد أتمَّ اللّه مقاصده بسبب انتباهه إلى التفاصيل؛ إذ تيقَّن بإنجاز كلِّ خطوةٍ، وإعداد كلِّ شخص ذي نصيب في سلالة المسيح(٣). ومرَّةً بعد مرَّة يتكلَّم النَّصارى عن الربِّ كأنَّه بشرٌ عبقريٌّ، أو حكيم، أو ذكيّ، يفكِّر ويتأنّى ويجرِّب إلى أن يصل إلى نتيجة فاعلةٍ؛ ولا يتكلَّمون عنه كَرَبٍّ ليس كمثله شيءٌ؛ قد أحاط علمًا بالأشياء قبل كونها.

(١) ولد في طرسوس قيليقلية في حوالي ١٠م؛ وقطع رأسه في رومة في حوالي ٦٧م؛ اسمه اليهوديُّ: شاول، واسمه اليوناني بولس. اضطهد المسيحيِّين الأوَّلين، لكنَّه اهتدى إلى المسيحيَّة، فأصبح الرسول المثالي؛ معجم الإيمان المسيحي، مرجع سابق، ص ١١٨.

(٢) عبرانيين ١:١-٢.

(٣) جون ماكسويل: الكتاب المقدّس: دراسات في القيادة، الترجمة العربيَّة المشتركة، (ط١)، جمعية الكتاب المقدّس:بيروت- لبنان، ٢٠٠٧م، ص ١١٥١.

ثمّ يستمر تزيين المفهوم، بإضفاء صورة الأبطال - من البشر- على الأقنوم الثاني من الثالوث النَّصراني، كقولهم: "حتَّى مجيء المسيح وفي غيبته، كان الموت سائدًا على العالم؛ ثمّ يأتي المسيح، وبموته ينتصر على الموت نفسه. منذ تلك اللَّحظة، تغيَّر معنى الموت بالنِّسبة للبشريَّة المتجدِّدة، التي تموت مع المسيح لتحيا معه إلى الأبد"(١). أو قولهم عنه كذلك أنّه: "لكي يحرِّرنا من سلطان الموت أراد أوَّلًا أن يتَّخذ طبيعتنا المعرَّضة للموت"(٢).

ز. الصلب والكفارة، والفداء:

هنَّ مفاهيم متقاربةٌ من حيث الغرض منها، إذ يحيلُ بعضها على بعض؛ حيث إنّ المسيح بقولهم صُلِب لأداء وظيفةِ خلاصيَّة فداءً وكفَّارةً؛ على الرُّغم من أنَّه في تصوِّرهم مبرَّءٌ من الخطايا؛ ولم يستوجب الموت على الصَّليب "فلقد قَبِل أن يتَّخذ موتُه صورةَ العقاب الذي تستوجبه الشَّريعة"(٣).

ثمَّ يواصلون فلسفة الأمر من نحو قولهم: "لقد كان موت المسيح... وإن بدا في الظاهر كعقاب للخطيئة؛ إلاَّ أنَّه كان في الحقيقة ذبيحةً تكفيريّةً... بموته فدى المسيح الشَّعب ... لا من أجل شعبه فقط، بل من أجل جميع النَّاس... معطيًا لنا بذلك أعظم علامةٍ على المحبَّة"(٤). "لأنَّه إذ يموت من أجل خطايانا، يُصالحنا مع الله؛ ويؤهِّلنا لقبول الميراث الموعود"(٥). ويستخدم الكتاب المقدَّس كلا اللَّفظتين: "الكفَّارة(٦) والفدية(٧)" للتعبير

(١) معجم اللاَّهوت الكتابي، مرجع سابق، ص٧٨٣.
(٢) المرجع نفسه، ص٧٨٤.
(٣) انظر: متَّى ٢٦: ٦٦.
(٤) معجم اللاَّهوت الكتابي، مرجع سابق، ص٤٨٧-٥٨٧.
(٥) المرجع نفسه، ص٧٨٥.
(٦) والكفَّارة: هي عقيدةٌ مركزيَّة في المسيحيّة، وهي الفكرة القائلة: إنه من خلال المسيح؛ يمكن للإنسانيّة الخاطئة أن تتصالح مع الله: تاريخ الفكر المسيحي، مرجع سابق، ص٥٤٣.
(٧) فدى الله شعبه من بيت العبوديّة، والفداء هنا يعني التحرير والخلاص؛ ومفهوم الفداء هو قريبٌ من مفهوم الخلاص مع إشارةٍ قانونيّة. والحياة الأبديَّة قد تكون مرادف الخلاص المعتبر =

عن عمل اللّه في خلاص وفداء شعبه... وكانت الفدية تعبيرًا عن محبَّة اللّه، سواء قدَّم الإنسان ذبيحةً تكفيرًا عن خطاياه؛ أو قدَّم اللّه للإنسان هذه الكفَّارة أو الفدية[١].

وبما يتعلَّق بموت المسيح على الصليب -بزعمهم- يرون أنَّه يستمدُّ موته هذه الفاعليَّة الخلاصيَّةَ من مواجهته للعدوِّ القديم للجنس البشريِّ، وانتصاره عليه... وأصبح واضحًا أنّ الموتَ فَقَدَ كلَّ سلطانٍ عليه؛ وبالفعل عينه أبطلت قوَّة إبليس المتسلِّط على الموت[٢].

وسنرى فيما يأتي من البحث؛ أنَّ هذه الرحمة المزعومة بابن اللّه الوحيد، لا وجود لها؛ فلا الموت اختفى، ولا البشر كفُّوا عن الخطيئة، ولا الناس صارت ترى ربَّها عيانًا؛ ولا الآلام زالت؛ ولا الشيطان توقف عن أفعاله؛ لا جديد إذن. إنَّما المسيح عيسى ابن مريم رسولٌ قد خلت من قبله الرسل؛ لم تتبدّل سنَّة اللّه تعالى في خلقه؛ قضى إلى النَّاس سبيل إنجاء أنفسِهم وأهليهم من النَّار؛ ولا بدَّ من التكاليف الشرعيَّة المنجية؛ فلا تنتظر أحدًا يحمل عنك، أو يقوم بدلًا عنك بالسير في سبيل النجاة، من دون سعيٍ منك؛ تلك هي الظنون الكاذبة.

ح. إقامة الملكوت:

ويأتي الملكوت عند النَّصارى بمقابل نعيم الجنَّة في الإسلام؛ وكلتا العبارتين: «ملكوت اللّه»، و«ملكوت السماوات» تدلّان على عدّة معانٍ عند النَّصارى، فنذكر من ذلك[٣]: أنّها تدلّ على حياة التقوى في القلب[٤]؛

= كحياة تامَّة، وثابتة إلى الأبد، ومعفيَّة من كلِّ تبدُّلٍ وتقلُّب.: جورج حبيب بباوي: موت المسيح على الصَّليب حسبَ تسليم الآباء، (ط١)، ٢٠٠٩م، ص٢٠٩. المحيط الجامع في الكتاب المقدّس والشرق القديم، مرجع سابق، ص٥٠٩.

(١) موت المسيح على الصليب حسب تسليم الآباء، مرجع سابق، ص١٨٧.

(٢) معجم اللاهوت الكتابي، مرجع سابق، ص٧٨٥.

(٣) انظرها في قاموس الكتاب المقدّس، مرجع سابق، ص ٩١٩ و L 'abbé H . Lesetre; La clef des Evangiles . Lethielleux libraires - editeur Paris, p 158

(٤) انظر: متّى ٦ : ٣٣

وهي النظام الذي أتى المسيح لينظّمه :«من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرر ويقول: توبوا لأنّه قد اقترب ملكوت السّماوات»[١]. ويذكرون أنّه اقترب ملكوت الله عندما دخل الله نفسه –عياذًا بالله– إلى تاريخ الجنس البشري كإنسان، فالمسيح يسوع يملك الآن – بزعمهم– في قلوب المؤمنين، لكن ملكوت السّماوات لن يتحقق تمامًا إلا بعد إدانة كلّ الشّر الذي في العالم وإزالته، فقد جاء المسيح إلى الأرض أوّلا كالعبدالمتألّم، ولكنّه سيأتي ثانية كالملك والديّان، ليملك ظافرا على كلّ الأرض[٢]. ويقصد بالعبارتين كذلك: مجد المسيح؛ وسلطان الله على الكلّ؛ والحالة السماوية (لعلّهم يقصدون بذلك مكان التنعيم الأبدي بهذه العبارة)[٣]. وملكوت السّماوات أهلُه الفقراء، والمساكين والمضطهدون، والذين ينكرون ذواتهم وأهل الطّاعة والخاشعون، والزاهدون في ملذّات هذا العالم، والذين يحققون مشيئة الآب[٤]. في تصويرٍ منهم لحالة التنعيم الأبدية.

المطلب الثاني
صياغة النَّصارى لمراحل التدبير الخلاصي

إنّ أوّل ملاحظة يمكننا أن نقف عندها هي أنّ التدبير الخلاصي في بنائه اللاهوتيِّ الفكريِّ هو عبارةٌ عن وضع مجمل العقائد والتصوُّرات المسيحيَّة في قالبٍ منطقيٍّ يجمع أجزاءها، ويُحيل بعضها على بعضٍ في الفهم والإفهام؛ وهو محتاجٌ ومفتقرٌ في عناصره إلى العهد القديم[٥]:

(١) انظر: متّى ٤ : ١٧
(٢) بروس بارتون ، رونالد بيرز، وآخرون: التّفسير التّطبيقي للكتاب المقدّس، ترجمة شركة ماستر ميديا (دط) ، القاهرة ، مصر، (دت)، ص ١٨٧١.
(٣) انظر: متّى ٨ : ١١
(٤) La clef des Evangiles op.cit, p 158 .
(٥) العهد القديم والعهد الجديد هما الجزءان الرئيسيان للكتاب المقدّس الذي تؤمن به النّصارى؛ =

فخطيئة آدم فيه، وإعلان الله عن نفسه بالأنبياء فيه، والوعود المسيانيَّة(١) فيه... إلى آخر ما يصف النَّصارى في ذلك.

وأمّا عند الصِّياغة فيبتدئون بالخطيئة الأصليَّة التي كسرت العلاقة الخاصَّة والجميلة التي أرادها الله تعالى حسبهم أن تكون بينه وبينهم؛ والتي خلق الربُّ على أساسها الإنسان على صورته كما وصفوا، فالربُّ حسبهم لم يخلق له الموت، ولا الخطيئة (بل وكأنَّما أحيانًا يصوِّرون الربَّ لم يكن يعلم بما سيحدث فيتفاجأ لذلك). ولكنَّ آدم وزوجه كَسَرَا تلك العلاقة حين أطاعا الحيَّة، وأكلا من شجرة المعرفة؛ فترتَّب على ذلك دخول الخطيئة إلى العالم؛ وكذلك دخول الموت.

لم تنته هذه المحطَّة -كما يصفها النَّصارى- بالوقوف على الدمار الذي تسبَّب فيه الإنسان الأوَّل؛ وإنَّما يصوِّر النّص الدِّينيُّ لديهم أنّ الرب تعهَّد أن يخرج من نسل المرأة - حواء- من يسحق رأس الحيَّة - إبليس- وهو يسوع كما يزعمون.

في محطَّةٍ موالية، يصوِّرون كيف يسعى الربُّ في قولهم إلى إعادة علاقته بالإنسان كما كانت، وكما كان يريدها؛ وهنا يبتدئ الكلام عن تفاقم الشرِّ في الأرض؛ فيمحو الرب - غضبًا - كلَّ نفسٍ من وجه الأرض بالطوفان إلاَّ نوحًا وبنيه وزوجاتهم. ثمَّ -عياذًا بالله تعالى- يندم الرَّب، ويكتب على نفسه أن لا يُهلك أبدًا الأنفس ويبيدها بالطوفان كما فعل سابقًا، فيصوِّر نصُّ التوراة التي بأيديهم تردُّد الربِّ -عياذًا بالله-

= فالعهد القديم ما كتبه من كانوا قبل المسيح، ابتداءً من أسفار التوراة؛ والعهد الجديد ما كتبه من جاؤوا بعد المسيح عليه السلام، ابتداءً بالأناجيل. انظر: le Dictionnaire pratique des connaissances Religieuses op. cit, (1/795).

(١) يقصد بالمسيانيَّة: في العهد القديم: انتظارُ، ورجاءُ مجيء المسيح؛ معجم الإيمان المسيحي، مرجع سابق، ص٤٦٥. ولمَّا جاء المسيح ابن مريم لم يؤمن به اليهود أنّه المسيح المنتظر بحسب الكتب التي عندهم؛ ولذلك سيتبعون الدجَّال عند خروجه، والله أعلم.

واضطرابه بين تعذيب خلقه بذنوبهم، وبين محاولاته لتخليصهم، في تصويرٍ بشريٍّ محض.

بعد هذه المحطَّة يأتي كلام الرب إلى البشر من طريق أنبيائه؛ كطريقٍ خلاصيَّة، وإعادةٍ للعلاقة التي كسرها الإنسانُ؛ ويستغرق الكلام عن الأنبياء أجزاءً كبيرة جدًّا من العهد القديم بل هي العهد القديم؛ وفيها الكلام عن الشريعة وتفصيلاتها المتكاثرة. وفي هذه المحطَّة لا جديدَ بالنِّسبة إلينا كمسلمين؛ حيث نعلم أنّ الله تعالى لم تره أبصار الناس في الدنيا؛ ولكنَّه خاطبهم من طريق أنبيائه، وأنزل هُداهُ إليهم في كتبه المنزَّلة على بعضهم؛ وتنوَّعت الشرائع بحسب ما شاء الله، وَوِفق ما يُصلح شئون النَّاس بحسب الزمان والمكان وأهليهما. ولكنَّ المشكلة هي في تحوير النَّصارى لهذه المفاهيم، وجعلها مرحلةً زمانيّة فقط من تاريخ الهداية الإلهيّة، ووصفها باعتبار المحطَّة التي تليها بأنّها غير نافعةٍ وغير مجديَةٍ؛ ولذلك تخلَّى الرب عنها، ولم يبق أمامه إلاَّ إرسال ابنه الوحيد ليخاطبهم من خلاله.

تليها محطّةٌ أخرى، نتجت كما ذكرنا عن عدم قدرة الشريعة والأنبياء عن تحقيق إرادة الرَّب؛ فأرسل ابنه الوحيدَ ليحقّق به المصالحة مع البشر؛ وظهرت -حسبهم- النِّعمة في مقابل الناموس؛ وذلك بسبب ضعف الإنسان؛ وقلَّة حيلته؛ وحبِّ الرّب للبشرية، وصارت النجاة والخلاص بمجرَّد الإيمان بيسوع ابن الله الوحيد وقبوله ربًّا ومخلِّصًا؛ فهو لأجل الخطاة - وهو الذي بلا خطيةٍ- قَبِل أن يحمل الآلام، والخطايا، وأن يكون فديةً ويقدِّم كفَّارة ليخلصوا. ويحاول النَّصارى أن يوفِّقوا بين هذه المرحلة والتي قبلها، بكون الأنبياء والشرائع ممهِّدة لإرسال الابن الوحيد وبذلك تكون كلُّ حقيقةٍ مهيَّئةً منذ الأبد لأجل المسيح، ولها غايةٌ هي: "الخلاص"[1].

(١) فالتر كاسبر: اللاَّهوت والكنيسة، ترجمة يوحنا منصور، (ط١)، المكتبة البولسيَّة: بيروت- لبنان، ٢٠٠٦م، ص٢٣٧.

نتيجة هذه الطريقة الجديدة، والعهد الجديد هي الهدف من كلِّ ما سبق بيانهم له من التدبير الخلاصي: الانتصارُ على الموت، وسحق رأس الحيَّة، وكفارة الذنوب، وتحقُّق الفدية؛ إنّه خلاص البشرية ورجاء الأمم؛ إنَّه الدخول في ملكوت الله أو ملكوت السموات، في الحال، وسيُتمَّم في أحسن صورةٍ في المآل.

المبحث الثاني
مكانة الرحمة من المخطط الخلاصي النَّصراني

إنَّ المتتبِّع لحديث النصارى عن صفات الله عندهم، يتبدَّى له أنَّهم لا يبحثونها عمومًا، إلاَّ من خلال ربطها بمرتكزات ديانتهم؛ والمتعلِّقة أساسًا بالثالوث، وأعمال كلِّ أقنوم من أقانيمه؛ كما يتخلَّل ذلك - عادةً- عمليَّات التبرير والتفسير للأعمال الإلهيَّة، كما هو الشأن ههنا في موضوع الرحمة ضمن المخطط والتدبير الخلاصي. ويمكننا تبيُّن ذلك منهجيًّا من خلال تحديد مفهوم الرحمة لدى النَّصارى كمقدِّمة، ثمّ ببيان علاقة الرحمة حسب ما يرونه بمكوِّنات التدبير الخلاصي بقصدٍ أن نستشفَّ الصورة الكاملة لتلك المكانة في الشرح والتبرير؛ ولنشرع في المقصود كالآتي:

المطلب الأوَّل
مفهوم الرَّحمة عند النَّصارى

أمَّا من الناحية اللغويَّة: فالألفاظ النَّصرانيَّة تعود من حيث الأصول إلى العبرانيَّة والآرامية والسريانيَّة واليونانية وكذا اللاتينية؛ والترجمة لهذه الألفاظ العبريَّة واليونانيَّة في اللغات الحديثة، تتراوح بين الرحمة والمحبّة، مجتازةً معانيَ مختلفة: الحنان، والشفقة، والرأفة، والحلم،

والطيبة، بل حتَّى النِّعمة...، وإن كان هذا اللَّفظ يتضمَّن مفهومًا أوسع(١). وإنَّ المصطلحات المتداولة -المتأثِّرة بلا شك باللغة اللاَّتينيَّة- المستعملة قديمًا في الكنيسة، لا تميِّز بين الرحمة والرأفة والصفح(٢).

وأمَّا من الناحية الاصطلاحيَّة فليس هنالك كثير فارقٍ بين مفهوم الرَّحمة في الإسلام وفي النصرانيّة؛ إنّما الفرق يقع في إدراجاتها التبريريَّة الدِّينية؛ بين ما نوافقهم عليه أو نخالفهم فيه. وقد وردت فقرات كثيرة في الأناجيل التي بين أيدي النَّصارى تتكلَّم عن الرحمة، وسعتها(٣)، أكثره ممَّا يوافق ما جاء في القرآن العظيم، من ذلك: «اُطلبوا الربَّ ما دام يوجد، اُدعوه وهو قريبٌ، ليترك الشرِّير طريقَه، ورجل الإثم أفكارَهُ، وليتُب إلى الرَّبِّ فيَرحَمَهُ؛ وإلى إلهنا، لأنَّه يُكثِر الغفران»(٤). وورد كذلك أخذ العبد بحظِّه من صفة الرحمة التي يتَّصف بها الرب: «بل أحبُّوا أعداءَكُم، وأحسنوا، وأَقرضوا وأنتم لا ترجون شيئًا؛ فيكون أجركم عظيمًا، وتكونوا بني العلِيِّ؛ فإنَّه منعمٌ على غير الشاكرين والأشرار. فكونوا رحماءَ كما أنَّ أباكم أيضًا رحيمٌ»(٥). وهنا ما ينسب للمسيح عليه السلام من قوله: "وتكونوا أبناء العليِّ" مقصودهم به البنوّة المجازية الرَّوحيَّة للمؤمنين والمتَّبعين؛ وهي كذلك غير جائزة الإطلاق في حقِّ اللّه تعالى. كما ورد في الأناجيل التي بين أيدي النَّصارى، أنَّ المسيح عليه السلام قال لليهود الذين أنكروا عليه مجالسة الآثمين والخاطئين: «لا يحتاج الأصحَّاء إلى طبيبٍ، بل المرضى. فاذهبوا وتعلَّموا ما هو: إنِّي أريد رحمةً لا ذبيحةً؛ لأنِّي لم آتِ لأدعوا

(١) معجم اللاَّهوت الكتابي، مرجع سابق، ص٣٧٤.
(٢) المرجع نفسه، ص٣٧٤.
(٣) وفي السعة قالوا: رحمة الله ليست مجرَّد صفحه عن الخطاة؛ ولكنَّها موقفه من الإنسان؛ بل ومن الخليقة بعامَّة؛ فما أكثر مراحمه، فهي لا تزول. وليم وهبة بباوي: دائرة المعارف الكتابية ط٣، دار الثقافة المسيحية: القاهرة- مصر، ٢٠٠١م، (٨٨/٤). وقالوا: لا يحدُّ الرحمة الإلهيَّة سوى قساوة قلب الخاطئ، معجم اللاَّهوت الكتابي، مرجع سابق، ص٣٧٥.
(٤) إشعيا ٥٥: ٦-٧.
(٥) لوقا ٦: ٣٥-٣٦.

أبرارًا، بل خطاةً إلى التوبة»[1]. وبطبيعة الحال، الخطاب ظاهرٌ وواضحٌ أنّه من نبيٍّ لا من ابن إله كما يزعمون.

المطلب الثاني
علاقة الرحمة بمكوِّنات التدبير الخلاصي عند النّصارى

إنَّ الرحمة أحد أساسي التدبير الخلاصي - والآخُر هو المحبَّة - فحبُّ الربِّ للإنسان جعله يرحمه؛ وفي المقابل رحمة الربِّ بالإنسان ينبغي أن تجعل الإنسان يحبُّ ربَّه؛ هذا ملخَّص الأساسين. فعندما يدرك الإنسان أنّه تاعسٌ، أو خاطئٌ، حينئذ ينكشف له بوضوحٍ متزايدٍ، وجه الرحمة اللاّنهائيَّة[2]؛ ومن هذه الحيثيَّة تكون الرحمة من صلب التدبير الخلاصي إذن. والكتاب المقدَّس حسب النَّصارى يُظهر الله - وإن كان عليه أن يعاقب شعبه عن خطاياهم- إلاَّ أنَّه تأخذه الشفقة بهم، بمجرَّد أن يصرخوا إليه من أعماق شقائهم[3]. فيعلن هوشع[4] أنَّه: رغم أنَّ الله قرَّر ألاَّ يعود يرحم إسرائيل بعدُ وأن يعاقبهم[5]، إلاّ أنَّه يتغلَّب فيه فؤاده، وتضطرم مراحمه؛ فيعتزم[6] ألاَّ يدع غضبه يتفاقم[7].

وحقيقةً، كلامُ النَّصارى تصويرٌ للربِّ بالصورة البشرية، مهما أرادوا تزيينه؛ فهو في أقصى غاياته ومنتهاه، كصورة أمٍّ حنونٍ، تتعامل مع أبناءٍ

(١) متّى ٩: ١٢-١٣.
(٢) معجم اللاَّهوت الكتابي، مرجع سابق، ص٣٧٤.
(٣) المرجع نفسه، ص٣٧٥.
(٤) أحد أنبياء بني إسرائيل بحسب اليهود والنصارى.
(٥) انظر: هوشع١: ٦.
(٦) انظر: هوشع ١١: ٨-٩.
(٧) معجم اللاَّهوت الكتابي، مرجع سابق، ص٣٧٥.

غير برَرَة؛ ثمّ يصوِّرون اضطراب الرب بين رحمته ونقمته، لا على أساس أنَّها رحمةٌ في مكانها، ونقمة في محلِّها وغضبٌ.

وهنا نحتاج إلى بيان الكيفيَّة التي يتم بها الترويج للتدبير الخلاصي في النشاطات التنصيريَّة، وهو الأسلوب الذي يعتمده المنصِّرون بالعزف على وَتَرين حسَّاسين هما: المحبَّة والرَّحمة الإلهيين؛ حيث يمكننا الوقوف على الآتي:

أ. التركيز على محبَّة الرب للبشر مع رحمته بهم:

ولا شكَّ أنّ الفطرة في الإنسان تدعوه إلى أن يحبَّ من يحبُّه؛ فكيف إذا كان من يحبُّه ويرحمه هو ربُّ العالمين. وهنا يركِّز النَّصارى على خاصيَّةٍ في هذا الحب الإلهي، إنَّها تشبُّع هذا الحب برحمةٍ لا تحدُّها الحدود؛ فهي تشمل العاصي والبارَّ؛ وهنا يقع الخلل؛ فتارةً يصوِّرون تلك المحبّة والرحمة أنَّها تشمل العاصي من حيثُ إرادة الهداية له، وعدم رضى هلاكه؛ ولكن في أحيانٍ أخرى - وخاصَّةً في الخطاب التنصيري- يصوِّرون التسوية في ذلك بين طرفي النقيض، فالنجاة تشمل العاصي والخاطئ، وكذلك المحبة، يكفي فقط أن يعترف بالمسيح ربًّا؛ وقد انتقد النصارى في أغلبهم العقيدة التي تنحو إلى خلاص جميع المخلوقات في النهاية؛ لإمكان تعارضها مع عقيدة الإرادة الحـرَّة. واقترح بعض اللاَّهوتيِّين أنَّه من الممكن للمرء أن ينال الخلاص حتَّى وإن كان يتبع دينًا آخر غير المسيحيَّة(١)... ومن اللاَّهوتيِّين المشهورين الذين يميلون بشكلٍ ما إلى ذلك، نذكر: أوريجانوس، وغريغوريوس النيصي، ورانير، ومولتمان(٢).

ومن الملاحظ كذلك تذكيرهم برحمة الربِّ طوال مراحل التدبير

(١) وقد وقفت على بعض ذلك، من مشاهدة بعض القنوات التلفزيونيَّة التنصيريَّة؛ أحيانًا يكون الخطاب بذلك واضحًا ومباشرًا؛ وأحيانًا يصعب الجزم بمرادهم.

(٢) تاريخ الفكر المسيحي، مرجع سابق، ص٣٥٨. بتصرُّف طفيف.

الخلاصي، كقولهم -مثلًا-: حفظ اللّه الإنسان برغم سقوطه، وبرغم سيادة الموت على الإنسان، ظلَّ الإنسانُ في الوجود بسبب رحمة اللّه... إنّ الإبقاء على الإنسان كان أوَّل مظاهر الرحمة الإلهيَّة(١).

ب. التركيز على ضعف الإنسان:

وهذا أمرٌ يدركه كذلك النَّاس ببدائه العقول؛ قال اللّه تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ١٥]، وإنّ الضعيف يحتاج من يرحمه، ويضع عنه الأثقال التي ترهقُه؛ ويحبُّه حينها لرحمته وشفقته به. قال بعضهم في هذا السياق: اللّه يخلِّص الإنسان من الموت، ليس بمقدرة الإنسان أن يخلِّص نفسه من الموت؛ إذ تلزمه لذلك نعمةُ اللّه، الذي هو وحده الحيُّ بحكم طبيعته(٢).

ج. التركيز على وصف الآلام والآثام:

حيث لا يكفي تصوير عموم ضعف الإنسان، بل ينبغي وقفه على تفصيلاته؛ فيوضع نصب عيني الـمُخاطَب ضعفُه أمام الابتلاءات المختلفة التي توغر فيه بآلامها؛ وأمام الآثام والخطايا التي تحاول إعدام الروح فيه وتبيد إنسانيَّته. إنّ هذا التركيز منهم، والذي وإن اعتمد على وصفٍ واقعيٍّ لا غبار عليه؛ غير أنَّ هدفه – بشعورٍ أو من دونه– هو تحطيم الإرادة الإنسانيَّة، ونفيُها، بل ونفيُ التكليف بالأساس. المراد ههنا أن يقف الـمُخاطب عاجزًا معترفًا أنَّه لا يستطيع شيئًا ولا يقدر على شيءٍ في مواجهة مصائب الدنيا وآلامها، ومواجهة إغراقه في الذنوب والخطايا؛ ليصرخ: "هل من معين؟"، "هل من مخلِّص؟" "هل من راحم؟" لتأتيَهُ في إثر ذلك دعوات الرحمة بوجود المخلِّص والفادي، رجاءِ الأمم، الَّذي يحبُّه ويرحمُه.

(١) موت المسيح على الصليب حسب تسليم الآباء، مرجع سابق، ص٢٣٧.
(٢) معجم اللاَّهوت الكتابي، مرجع سابق، ص٧٨٢.

د. التركيز على صفات المخلِّص:

فهو ابن الله الوحيد، الذي هو بلا خطيَّة، ذبيحةِ الآب الذي بذله كفارةً لخطايا البشر، وفداءً لهم. الذي أخذ الصورة البشريَّة حين تأنَّس (أي صار إنسانًا)، وقَبِل أن يموت فوق الصليب، وعذِّب واستُهزئ به قبل موته، وهو الآتي لخلاص البشريَّة رحمةً بهم. والنتيجة الدعويَّة التي يصوغونها بعد هذه المقدِّمات للصفات هي: كيف لا تكون ممتنًّا لمن أحبك وضحى لأجلك، وكان رحمةً لك؟ كيف لا تتبعه؟ ألا يستحقُّ منك أن تكون خادمه؟ إلى آخر الاستفهامات التي تحاول أن تثير في المخاطَب الحياء الذي رُكِّز في النَّفس الإنسانيّة فطرةً أن لا يُقابل الإحسانُ إلاَّ بالإحسانِ. وهنا يأتي النصُّ الشهير من إنجيل يوحنا: «لأنَّ هكذا أحبّ اللّه العالمَ حتَّى بذَل ابنه الوحيد؛ لكي لا يهلك كلُّ من يؤمن به؛ بل تكون له الحياة الأبديَّة. لأنَّه لم يرسل الله ابنَه إلى العالم ليدين العالم؛ بل ليخلُص به العالمُ»[1].

هـ. التركيز على حدوث الخلاص:

في الخطاب التَّنصيري نجد تهليلاتٍ وأفراحًا تُذاع في الكلمات والصور والصلوات، بسبب الخلاص الذي وقع بالمخلِّص يسوع ابن الله الوحيد -بزعمهم- فيشعرونك بتلك الأفراح وكأنَّه حقيقةً قد وقع، وأنَّه حقيقةٌ معيشةٌ. ولكنَّ الفرح عادةً ما يُذهب عقل الإنسان إلى أبعد المدى؛ كالذي أخطأ من شدَّة فرحه، فقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربُّك. والسؤال ههنا: هل تحقق الخلاص فعلًا؟

الحقُّ أنَّ ما تتحقَّق، هو في أحسن حالاته وأقصى ثمراته هو ما يحدث للأنبياء من ثمراتٍ، لم يحدث ما هو أعجبُ ممَّا يحدث لهم.

(١) يوحنا ٣: ١٦-١٧.

فالنَّاس مؤمنٌ وكافر -بابن الله كما يعتقدون- والعصاة والفاسقون والمذنبون الخطاة موجودون؛ والشعائر ما تزال في دين من ألَّه المسيح ابن مريم؛ وملكوت السماوات ونعيمه مخصوص بالمتّبِع المؤمن دون من سواه؛ وابن الله -بزعمهم- حين ظهر للنَّاس ليكون ذلك حجَّة عليهم وسبيلًا لهدايتهم لم يظهر إلاّ في الصورة البشريَّة - كالأنبياء تمامًا- وبعد قيامته في قولهم لم يره إلاَّ أناسٌ قليلون، ومخصوصون من الذين آمنوا به أصلًا من قبلُ. وهو بعد قيامته - في زعمهم- قد أرسل تلاميذه والمؤمنين به ليبشِّروا النّاس بالخلاص وطريقِهِ، ويشهدوا له بما فعل؛ لكن: أليست هذه -بعينِها- طريقة الأنبياء التي حكموا عليها بأنَّها غير مجدية، ولا تحقِّق الأثمار التي ترتجيها رحمة الرب وحبُّه للبشرية؟ بلى، لم يتغيَّر شيءٌ البتّة.

وإذا تأملنا كلامًا مبالغًا فيه كقولهم: "وقد حمل المسيح.. جميع ذنوب الجنس البشري، وعيوبَه، وأفناها أمام الحضرة الإلهيَّة؛ ثمَّ حطَّم قيود الموت، إذ قام من القبر حيًّا في اليوم الثالث. وهكذا صار رأسًا لنسلٍ روحيٍّ جديدٍ، بحياةٍ مختلفةٍ تمامًا عن الحياة الفانية التي ورثناها من آدم"(١). لا نجد فيه بتاتًا حقيقة التغيير.

(١) قراءة صوفيَّة لإنجيل يوحنَّا، مرجع سابق، ص ١٢٨.

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

المبحث الثالث
النقد الإسلامي للخلاص النَّصراني من خلال الرحمة

نأتي ههنا بعد الذي بيَّناه في المقدِّمات السابقة إلى النقد -وهو المقصود بالبحث- والنقد ههنا جعلناه للمرتكزات التي تحمل بناء المفهوم؛ وجعلناه من خلال المفاهيم الإسلاميَّة التي لا تتناقض: لا في نفسها، ولا في غيرها؛ فنحاول ههنا القيام بخطوتين متساندتين لأجل ذلك: أوَّلا بيان معالم الرحمة الإلهيَّة الحقَّة في الإسلام؛ مع بيان تناسق معانيها، واتِّساق نسيجها في المفاهيم والتشريعات على السواء. ثمَّ ثانيًا: نقوم بناءً على المفاهيم السابقة بكشف الاضطراب الذي سلكه النَّصارى في محاولة جعل المخطط الخلاصي متناسقًا منطقيًّا، ويعنينا التبرير بالرحمة أساسًا.

المطلب الأوَّل
بيان معالم الرحمة الإلهيَّة في الإسلام، وتناسق معانيها المبثوثة في الشريعة

الرحمة في اللغة، يعود جذرها إلى أصلٍ واحد، يدلُّ على الرقَّة والعطف والرأفة. والرُّحم والمرحمة والرَّحمة بمعنًى؛ يقال: رحِمَ رُحْمًا[1]. والفرق

(١) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: المقاييس في اللغة؛ ت شهاب الدّين أبو عمرو؛ (دط)، =

بين الرَّحمة والرقَّة: أنَّ الرقّة والغلظة يكونان في القلب وغيره خلقةً؛ والرحمة فعل الراحم؛ والنَّاس يقولون: «رقَّ عليه فرحمه» يجعلون الرقّة سبب الرَّحمة[1]. والفرق بين الرأفة والرَّحمة: أنَّ الرأفة أبلغ من الرَّحمة؛ ولهذا قال أبو عبيدة: إنّ في قوله تعالى: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧] تقديمًا وتأخيرًا؛ أراد أنَّ التوكيد يكون في الأبلغ في المعنى؛ فإذا تقدَّم الأبلغ في اللَّفظ كان المعنى مؤخَّرًا.[2] والرّحمة أعمُّ من اللُّطف[3]. والرأفة مبالغةٌ في رحمة مخصوصة، هي رفع المكروه، وإزالة الضرِّ.[4] ورحمة الله عامَّةٌ وسعت كلَّ شيءٍ[5]، وصلاتُه خاصَّةٌ بخواص عباده[6].

واسمه تعالى «الرَّحمن» خاصٌ به، لم يسمَّ به غيره[7]. ورحمن أبلغ من رحيم؛ والرّحمن خاصٌّ لله، لا يسمَّى به غيره، ولا يوصف؛ والرحيم يوصف به غير الله تعالى، فيقال: رجلٌ رحيمٌ، ولا يقال رحمن[8]. وإنَّما قيل لله عزَّ وجلَّ

= دار الفكر: بيروت- لبنان، (دت)؛ ص٤٤٦؛ إسماعيل بن حمَّاد الجوهري: الصحاح، تاج اللُّغة وصحاح العربيَّة، تحقيق أحمد عبدالغفور عطَّار (ط٣)، دار العلم للملايين: بيروت- لبنان (١٩٢٩/٥)؛ مجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ت خليل مأمون شيحا؛ (ط٢)، دار المعرفة: بيروت- لبنان، ٢٠٠٧م، ص. مجد الدِّين أبو السعادات المبارك بن محمَّد الجزري ابن الأثير: النِّهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق علي بن حسن بن علي بن عبدالحميد الحلبي الأثري، (ط١)، دار ابن الجوزي: الرياض- المملكة العربيَّة السعوديَّة، ١٤٢١هـ، ص ٣٥٢.

(١) أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، ت محمَّد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة: القاهرة- جمهورية مصر العربية، ص ١٩٦.

(٢) الفروق اللغوية، مرجع سابق، ص ١٩٦.

(٣) أبو البقاء أيُّوب بن موسى الحسيني الكفوي: الكلِّيات، تحقيق عدنان درويش، محمَّد المصري، (ط٢)، مؤسّسة الرسالة: بيروت- لبنان، ١٩٩٨م، ص ٥٣.

(٤) المرجع نفسه، ص ٤٧١.

(٥) قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]؛ وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦] والكافر شيءٌ ولا يدخلها؟ جوابه: المراد بعموم «كلّ شَيْءٍ» المخصوص وهم المؤمنون؛ كقوله تعالى: «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ». أو أنّ المراد: رحمته في الدُّنيا، فإنَّها عامَّةٌ؛ بدر الدِّين بن جماعة: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، (ط١)، تحقيق عبدالجواد خلف، دار الوفاء: المنصورة- مصر، ١٩٩٠م، ص ٣١٨.

(٦) الكلِّيات، مرجع سابق، ص ٤٧١.

(٧) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدِّمشقي: تفسير القرآن العظيم، (ط١)، دار ابن حزم: بيروت- لبنان، ٢٠٠٠م، ص ٦٦.

(٨) مجد الدِّين أبو السعادات المبارك بن محمَّد الجزري ابن الأثير: النِّهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق علي بن حسن بن علي بن عبدالحميد الحلبي الأثري، (ط١)، دار ابن الجوزي: الرياض- المملكة العربيَّة السعوديَّة، ١٤٢١هـ، ص ٣٥٢.

رحمن، لأنَّه يملك الرَّحمة، ويقدر على كشف الضرِّ، ويُلجأ إليه برحمته... ولم يَجُزْ أن يُقال للمخلوق رحمن، لأنَّه لا يقدر كقدرته؛ فربَّما رقَّ بالرَّحمة، ولم يقدر على كشف الضرِّ عن المضرور، فقيل له رحيمٌ، ولا يقال له رحمنٌ[(١)].

والرحمةُ في القرآن العظيم قد وردت على أربعة عشر وجهًا: الإسلام، الجنَّة، المطر، النبوّة، النِّعمة، القرآن، الرزق، النصر والفتح، العافية، المودَّة، الإيمان، التوفيق، عيسى عليه السلام، محمَّد صلى الله عليه وسلم[(٢)]. فيمكنُّنا تتبُّع سياقاتها من إدراك معانيها، وأسرارها؛ وسوف نحاول ذلك بما يخدم الموضوع من خلال العناصر الآتية:

أ. الرحمة في المعتقد والإيمان:

إنّ من رحمة الله تعالى في المعتقد والإيمان، أنَّه جلَّ وعلا خاطبنا على القدر الذي تعقِله أفئدتنا؛ وعلَّمنا بنور الوحي القدرَ الذي نربط عليه قلوبنا مستيقنين إيّاه؛ بحيثُ لا يُبطل بعضه بعضًا؛ ولا يشكِّك بعضه في بعض؛ بل على النقيض من ذلك: يُفهم بعضه بعضًا، ويزيد من الإيمان، ويبدِّد الشكوك والأوهام؛ في المقابل نجد أنَّه لا رحمةَ في ظنون النصارى الواهمة بأنَّ الربَّ تعبَّدهم بثالوثٍ هو جوهر الديانة، يشهد العقل ببطلانه؛ وبشروحٍ يزيد بعضها في إبهام بعضٍ[(٣)].

(١) أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي: كتاب الزينة في الكلمات الإسلاميّة العربيَّة، تحقيق حسين بن فيض الله الهمداني اليعبري الحرازي، (ط١)، مركز الدراسات والبحوث اليمني: صنعاء- اليمن، ١٩٩٤م، ص ١٩٠-١٩١.

(٢) الحسين بن محمَّد الدامغاني: قاموس القرآن، أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق عبدالعزيز سيّد الأهل، (ط٣)، دار العلم للملايين: بيروت- لبنان، ١٩٨٠م ص١٩٩. والكلِّيات، مرجع سابق، ص ٤٧١-٤٧٢.

(٣) ويتَّضح ذلك لنا جليًّا من خلال بيانهم عدم وجود الأدلة الواضحة من الكتاب المقدَّس، وكذلك من خلال الكلام المتدرِّج في تقرير الثالوث عبر المجامع النَّصرانيَّة المتعاقبة خلال القرون الأولى من تاريخها؛ وأوَّل مرة استعمل بها حسب اللاهوت المسيحي كان في مجمع نيقية؛ وإلهيّة الرُّوح القُدُس لم تتقرّر إلاَّ في المجمع الأوّل للقسطنطينيَّة. ثمَّ لم ينته الكلام فيها؛ بل استمرَّ الكلام حول طبيعة الثالوث، خاصَّةً حول الطبيعة والمشيئة للأقنومين: "الآب والابن" ... إلخ. بل إنَّ اللفظة في حدِّ ذاتها متأخرةٌ في الظهور والاستعمال؛ في أواخر القرن الثاني في صفتها اليونانية عند ثيوفيلس الأنطاكي، =

وإنه ينبغي على المؤمن أن يعرف ربَّه بما علَّمه إيَّاه من الأسماء والصِّفات؛ فالله الرحمن الرحيم هو شديد العقاب، وهو المنتقم الجبَّار؛ ونظر العبد إلى صفةٍ دون الأخريات جهلٌ بالله تعالى؛ واتِّكالٌ على الأماني الكاذبة. وذُهول النَّصارى عن ذلك أوقعهم في تناقضات عديدة، متعلِّقة بصفات الله تعالى؛ حيث لـمّا توسَّعوا في تصوير محبَّة الله تعالى للإنسان، ورحمته به -من دون نورٍ وَحْيي، بل من عند أنفسهم- وقعوا في الانتقاص من العديد من صفاته كما مرَّ بنا.

ب. الرحمة في الشرائع والكتب:

إنَّ الله تعالى أنزل من رحمته في الشرائع وفي الكتب؛ نورًا يهدي به الله من اتَّبع رضوانه سبلَ السلام؛ ولم يَشُقَّ عليهم بالتكاليف -فهو لا يريد هلاكَهُم- وإنّما ليميز الطيِّب من الخبيث. وقد يعاقب الله تعالى بتشريعاتٍ قبل الدين الخاتم أناسًا بظلمهم كما قضى في زمانٍ إلى الذين هادوا: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء:١٦٠-١٦٢]. فالعقوبة بغرض التأديب والتطهير، والعودة بهم إلى طريق الله المستقيم؛ فأرسل الله تعالى إليهم عيسى ابن مريمَ ورحمَهم بنسخ بعض ما حُرِّم عليهم: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠]. ليختم الله تعالى برحمته محمَّد ﷺ، ويتمِّم النِّعمة عليهم، وعلى الإنسانيَّة جميعًا، والذي بَشَّر به في التوراة: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ

= وفي صفتها اللاتينية عند ترتليانس. انظر: معجم الإيمان المسيحي، مرجع سابق، ص ١٦٣، ودائرة المعارف الكتابية، مرجع سابق، (٣٢٧/١)؛ و dictionnaire de la theologie Catholique ; p598..

وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

إنّ رحمة الله تعالى تتجلَّى في كلِّ شرائعه؛ وعظمتُها تظهر في كونها صادرةً من الذي خلق الإنسان وركَّبه، عالِمًا بما يُصلحه وما يوبقه. رحمته أنَّه لم يكلِّفه بما لا يُستطاع، ولا تركه بغير مُستعانٍ، ولا جعل سبيله إلى الدنيا بانقطاع؛ فما المحَّرم بجوار الحلال بكثيرٍ؛ وليست العبادات تستغرق نهار العبد وليلَه، وإن كانت النيَّة والذكر تستغرقانهما. هي شرائع تنظِّم حياة الفرد والمجتمع، وتضبط علاقات العبد بخالقه، وبمخلوقاتِ ربِّه بشرًا وحيوانًا ونباتًا وجمادًا، كلُّها شرائع تجعل الخلق متراحمين، مظهرين لتجلِّي الصفة فيهم.

والشرائع أنزلها الله تعالى ليُعمل بها؛ ومخالفتها تقتضي العقوبة -شرعًا وقدرًا- رحمةً بالعبد لا إهلاكًا له؛ فالتزام الشرائع فيه صلاح الإنسان في الدنيا وفي الآخرة؛ ومخالفتها إهلاكٌ لنفسه في الدارين؛ فالعقوبات -كالحدود مثلًا- رحمةٌ وتطهيرٌ للعبد، وإصلاحٌ منه -وله- لعمله السيِّء؛ وابتلاءٌ لتمحيص صادق التوبة؛ وتدريبٌ عمليٌّ على الإقلاع وعدم العودة للذنوب والمعاصي؛ إلى آخر ذلك من الحِكَم التي لا يحيط بهنَّ إلاَّ العالم بهنَّ سبحانه.

وإنّ دائرة العقوبات كما أسلفنا بيان بعضِ مقاصدها الراحمة تعدُّ ضيِّقةً في مقابل سعة رحمة الله تعالى، ولذلك ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لـمَّا قضى اللهُ الخلقَ، كتب في كتابه على نفسه -فهو موضوعٌ عنده-: إنَّ رحمتي تغلب غضبي»[(١)].

(١) مسلم: التوبة، بابٌ في سعة رحمة الله تعالى، وأنَّها سبقت غضبه، ح٦٩٠٥، ص١٢٤٢. قالوا: والمراد بالسبق والغلبة هنا: كثرة الرحمة وشمولها؛ كما يقال: غلب على فلانٍ الكرمُ، والشجاعة إذا كثرا منه. محيي الدِّين أبو زكريا يحيي بن شرف النووي: المنهاج في شرحٍ صحيح مسلم بن الحجَّاج، بيت الأفكار الدولية: عمان- الأردن؛ الرياض- المملكة العربية السعودية، ص١٦١١.

أمَّا في النَّصرانيَّة التي لم تشتمل على تشريعاتٍ ذات بال -لأنّه في الأصل ما جاء المسيح عليه السلام إلاَّ متَّبعًا لشريعة موسى عليه السلام- فإنَّ النّصارى ابتدعوا شرائعَ هي مزيجٌ من بعض ما كان في شريعة التوراة، مع تحويرٍ لها لتتناغم مع المعتقدات الجديدة؛ مع إحاطتها بتعقيداتٍ أسراريَّة؛ جعلتهم يتعبّدون بما لا يعلمون، متحمِّلين لرَهَقٍ شديدٍ؛ من دون أن تظهر تباشيرُ رحمةٍ ربَّانيَّة[1] تنظِّم حياة الناس بعضهم مع بعض؛ أو تضع الحدود الرادعة. وأمّا ما هو مسطورٌ في تنظيم المجتمع ونحوها من النظم في كتابات النَّصارى قديمًا وحديثًا؛ فغالبه الأعمُّ هو من خارج النَّص الدِّيني الإنجيليِّ الذي بين أيديهم اليوم؛ وإنّما يستمدون أشياءَ من التَّوراة التي بين أيدي اليهود، ومعالمَ أخرى من كلام المفكِّرين والفلاسفة، ونحوهم.

ج. الرحمة في الأخلاق والسلوك:

الأخلاق والسلوك هما من الشَّريعة؛ وإنّ الالتزام بالشريعة، يُثمر سلوكًا وخُلقًا رفيعًا؛ ولذاك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قرآنًا يمشي بين النَّاس؛ ولـمّا قيل: يا رسول الله، اُدعُ على المشركين، قال: «إنِّي لم أُبعث لعَّانًا، وإنّما بُعثتُ رحمةً»[2].

ورحمة الله تعالى تتجلَّى كذلك في رَزْقِ النَّاس الخلق الحسن، سواءً ما جبَلَهم عليه فطرةً، أو ما أذن لهم في اكتسابه والتخلُّق به؛ وكذلك بما اصطفاه لهم من المبلِّغين المتخلِّقين، الذين نصبهم لهم إسوةً حسنةً؛ فينظر العبد فيهم ويقتفي الأثر.

والنَّصارى يعجبهم كثيرًا أن يحاوروا المسلمين في باب الأخلاق؛ لما يعتقدونه لديهم من الثراء في التَّشريعات الأخلاقيّة، والتي يُظهرون بها

(١) الرحمة أنزلت فعلًا في ما أنزله الله تعالى على أنبيائه من بني إسرائيل، وعلى آخرهم عيسى عليه السلام؛ وإنّما طمسو آثارها يوم حرَّفوا ما أنزله الله إليهم.

(٢) مسلم: البر والصِّلة، باب النَّهي عن لعن الدوابِّ وغيرها، ح٦٥٥٦، ص١١٨٤.

المرحمةَ التي لديهم، وخاصَّةً في عدم مدافعة السيِّئةَ بالسيِّئةِ؛ مصوِّرين الأمر وكأنَّه من أعظم التجلِّيَّات في معاملتهم للنَّاس بالرحمة؛ وغاب عنهم أنَّ عدم مدافعة السيِّئة بالسيِّئة مطلقًا لا يُصلح معاش النَّاس في كلِّ الأحوال؛ كما لا يُصلحه مواجهة كلِّ السيِّئات بالسيِّئات في كلِّ زمانٍ ومكانٍ. وإنَّما شريعة الإسلام الخالدة التي تمَّت بها النعمة بكمال الدِّين هي التي جاءت مصلحةً لمعاش النَّاس نظرًا وعملًا؛ بحيث أوجب الله العدل وندب إلى الفضل؛ فمن انتصر من بعد ظُلمه فلا سبيل عليه؛ ومن عفى عمَّن ظلمه فهو كريمٌ نبيلٌ؛ وتوازن الأمرين جميعًا في دنيا النَّاس يحقِّق المرحمة بينهم حقًّا وصدقًا.

د. الرحمة في الأقدار:

إنَّ النظر في أقدار الله تعالى ممَّا يزيد في الإيمان؛ وقد ينقلب المتعجِّل في تفهِّم مساراته إلى النقيض من ذلك. فعلى سبيل المثال: إنَّ الأقدار التي تصيب المرء ابتداءً من دون كسبه يجعلها الله تعالى باب رحمةٍ عظيمةٍ لمن يتلقَّاها مؤمنًا محتسبًا فعن عائشة زوج النبيِّ ﷺ، قالت: سألتُ رسول الله ﷺ عن الطاعون، فأخبرني أنَّه: «عذابٌ يبعثه الله على من يشاء؛ وأنَّ الله جعله رحمةً للمؤمنين: ليس من أحدٍ يقع الطاعون، فيمكث في بلده صابرًا محتسبًا؛ يعلمُ أنَّه لا يصيبه إلاَّ ما كتب الله له، إلاَّ كان له مثل أجر شهيدٍ»[1].

والمصائب التي هي رحمةٌ للمؤمن الصابر المحتسب، هي مناسَبَةٌ ليُظهر العبد الرحمة التي جعلها الله تعالى في قلبه المؤمن؛ فعن أسامة بن زيدٍ رضي الله عنهما قال: أرسلت ابنة النبيِّ ﷺ إليه: إنّ ابنًا لي قُبض، فأْتِنا. فأرسل يُقرئ السلام ويقول: «إنّ لله ما أخذ، وله ما أعطى؛ وكلٌّ عنده بأجلٍ

(١) البخاري: أحاديث الأنبياء، بابٌ، ح٣٤٧٤، ص٧٣١.

مسمًّى؛ فلتصبر، ولتحتسب». فأرسلت إليه تقسم ليأْتِيَنَّها. فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبيُّ بن كعبٍ، وزيد بن ثابتٍ، ورجالٌ. فرُفع إلى رسول الله ﷺ الصبيُّ ونفسُه تتقعقع، قال حسِبته أنَّه قال: كأنَّه شنٌّ، ففاضت عيناه. فقال سعدٌ: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: «هذه رحمةٌ جعلها الله في قلوب عباده؛ وإنَّما يرحم الله من عباده الرُّحماءَ»[1].

هـ. الرحمة في المعاش:

قال الله تعالى ممتنًّا على النّاس برحمته: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:١٠]. وقال كذلك سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:١٢-١٣]. فالله سخّر للإنسان ما شاء ممّا خلق، وقدّر لهم أرزاقًا وأقواتًا، من خزائن فضله التي لا تنضب، وأحلَّ لهم الطيِّبات، وحرَّم عليهم الخبائث، رحمةً بهم. وأمرهم في مقابل ذلك -من بعد شكر النِّعم والمراحِم- أن يتّصفوا بالرِّقّة فلا يسرفوا ولا يبذِّروا ولا يفسدوا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:١٣]؛ وأمرهم أن يتّصفوا بالرَّحمة مع المخلوقات التي سخَّرها لهم؛ قال ﷺ: «إنَّ الله كتب الإحسانَ على كلِّ شيءٍ؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلةَ؛ وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحةَ. وليحُدَّ أحدُكم شفرته، وليُرِح ذبيحتَهُ»[2].

والرحمة في المعاد: إنَّ الله تعالى رحمنٌ رحيمٌ لم يزل أزلًا وسيظلُّ كذلك أبدًا، هو الأوَّل والآخر حقًّا؛ ورحمته في الدار الدنيا، وفي الدار

(١) البخاري: الجنائز، باب قول النبيِّ ﷺ: «يعذَّب الميِّت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النَّوح من سنَّته»، ح١٢٨٤، ص٢٦٦.

(٢) التِّرمذي: الديَّات، باب ما جاء في النَّهي عن المُثْلَةِ، ح١٤٠٩؛ ص٣٣٢. وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ؛ وصحَّحه الألباني.

الآخرة، فهو رب العالمين جميعًا؛ وإذا كانت الدار الدنيا -كما يدلُّ عليها اسمها- ممتلئةً بالمنغِّصات والآلام، والمكدِّرات، وتختلط فيها الأقدار حلوةً ومُرَّةً؛ بما اقتضته حكمة الله تعالى من كونها دار ابتلاء وتمحيصٍ للخلق؛ فإنَّ الدار الآخرة دار الجزاء، ودار الخلود، وهي الباقية. وعلى ذلك، فإنّ انقطاع الحياة الدنيا الفانية، وانتهاء الابتلاء، ومجيء زمن الجزاء، هو أدعى لظهور تجلّيات رحمة الله تعالى بالخلق.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الله خلق الرحمة يوم خلقها مئة رحمة؛ فأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمةً؛ وأرسل في خلقه كلِّهم رحمةً واحدةً. فلو يعلم الكافر بكلِّ الذي عند الله من الرَّحمة لم ييأس من الجنَّة؛ ولو يعلم المؤمن بكلِّ الذي عند الله من العذاب، لم يأمن من النَّار».(١) وفي مسلم: «إنّ لله مئة رحمة، أنزل منها منها رحمةً واحدةً بين الجنّ والإنس والبهائم والهوامِّ. فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون؛ وبها تعطف الوحش على ولدها؛ وأخَّر الله تسعًا وتسعين رحمةً، يرحم بها عباده يوم القيامة»(٢). ومن أعظم تلك الرحمة إخراج عصاة الموحِّدين الذين بلغت بهم ذنوبهم دخولهم النَّار فعن أبي هريرة مرفوعًا: «حتَّى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النَّار، أمر الله الملائكة أن يُخرجوا من كان يعبدُ الله؛ فيخرجونهم، ويعرفونهم بآثار السُّجود»(٣). وكذلك ما ورد في حديث الشفاعة؛ ورحمة أهل المحشر من

(١) البخاري: الرِّقاق، باب الرجاء مع الخوف، ح٦٤٦٩، ص١٣١٥.

(٢) مسلم: التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، وأنَّها سبقت غضبه، ح٦٩٠٨، ص١٢٤٢. وهنا كلامٌ جميل لابن حجر قال: فلا يقطع النظر في الرجاء عن الخوف، ولا في الخوف عن الرجاء. لئلاَّ يفضيَ في الأوَّل إلى المكر؛ وفي الثاني إلى القنوط؛ وكلٌّ منهما مذمومٌ. والمقصود من الرجاء أنّ من وقع منه تقصيرٌ فليحسن ظنَّه بالله، ويرجو أن يمحو عنه ذنبَهُ؛ وكذا من وقع منه طاعةٌ يرجو قبولها. وأمّا من انهمك على المعصية راجيًا عدم المؤاخذة، بغير ندم، ولا إقلاع، فهذا في غرور. وما أحسن قول أبي عثمان الجيزي: «من علامة السعادة أن تطيع وتَخاف أن لاَ تُقبل؛ ومن علامةَ الشقاء أن تعصيَ وترجو أن تنجو». ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (دط)، بيت الأفكار الدَّوليَّة: المملكة العربيَّة السعوديَّة، (٣/٢٨٤٠).

(٣) البخاري: الأذان، باب فضل السجود، ح٨٠٦، ص١٧٢.

المؤمنين، وتيسير الحساب، والتجاوز عن المذنبين، ومكافأة محسني الظنِّ به سبحانه بما لا يحتسبون، وما أعدَّه للصالحين في الجنَّة من نعيم؛ بما لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ وعلى خلود في نعيمٍ مقيمٍ؛ إلى آخر ذلك من الرحمات التي لا يحيط بها إلاَّ الرحمن الرحيم.

المطلب الثاني
بيان اضطراب التبرير بالرحمة في كامل محطّات التدبير الخلاصي النّصراني

سوف نحاول ههنا أن ننظر في انكسار الربط النَّصراني شبه المنطقي بين محطَّات التدبير الخلاصي؛ لنبيِّن كيف أنَّه إن يصلح في جزئيَّةٍ لا يصلح في أخرى؛ أو لا يستقيم مع غيره، أو يكون مؤثِّرًا في فهم بقيّة صفات الرب، بحيث يحدُّ منها، أو يلغيها، ونحوها من الأمور المستشكلات أو الممتنعات؛ فلنشرع في المقصود كالآتي:

أ. الرحمة والخطيئة:

اللّه الرحمن الرحيم لم يؤاخذ آدم وزوجَه بمعصيتهما؛ وذلك لأنَّهما لم يكونا مصرَّين عليها، لم يكونا مبارزين ربَّهما بالعداء، وإنَّما لحقهما النِّسيان لما نُبِّها عليه قبلًا؛ وكيف لا يرحمهما وهو العزيز الحكيم الذي قد قدّر أن يخلق الإنسان خطَّاءً، قابلًا أن يصدر منه الذنب والعصيان، تبعًا لخلقه مختارًا للخير أو الشر؛ قد سبق علمُه تعالى بذلك ولم يفجؤه ذلك -عياذًا باللّه-.

ورحمة اللّه تعالى بآدم وزوجه قد أدركتهما؛ وأراد ربُّهما أن يعرفا عدوَّهما عمليًّا، وأن يذوقا طعم المعصية ويعرفا شؤمها؛ ثمّ علَّمه ربُّه

الرحمة المتنزِّلة بعد المعصية بالتوبة، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]. وختام الرحمة رحمةٌ بقبول التوبة.

وإذا كان آدمُ كما يقول القرآن: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] أي إنّ طبيعته لا تثبُتُ في التَّصميم على الأمر، مع يقظةٍ، وعدم غفلة، فماذا نسي آدمُ؟ هل نسي النَّهي الإلهي، أم الحذر من كيد إبليس؟ أم الصفات والملامح المميِّزة لتلك الشجرة؟ ومهما كان الأمر، فإنَّ الأكل لا يدلُّ أبدًا على التحدِّي الواعي للأمر الإلهي(١).

هنا بداية الخليقة بالرحمة؛ أمَّا بداية الخليقة لدى النصارى فمشاهدها مأساويَّة حيثُ: أخطأ آدم بسبب زوجه، فلم يغفر له ربُّه ولا لزوجه؛ بل دخل ما لم يكن يعلمه الربُّ من المقادير، بانكسار العلاقة التي قدَّرها خاصَّة وقريبةً؛ وأشنعُ منها عجز الرب عن رحمةِ من لم يرده قدرًا أن يعصيه؛ واستمرَّت مسيرة الخليقة دهرًا والربُّ يدبِّر: كيف يعيد العلاقة بينه وبين الإنسان الذي خلقه على صورته كما أرادها؟

كما إنَّ تصويرَهم امتداد العقوبة من آدم وزوجه إلى ذرِّيَّتهما وقع منهم مجرَّدًا من رحمة الرب بخلقه؛ فيأثم النسل بما قدَّمه أبوهم؛ مع تصويرهم ذلك عدلًا، وهو واضحٌ بطلانه. أمَّا من رحمة الله تعالى كما جاء جمال توصيفها في الإسلام، فقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٨-٤١]». وبطبيعة الحال من دعى النَّاس إلى المعصيةِ أو سنَّها فإنَّه سيكون عمل المقتدين بدعوته أو فعله، يكونون من كسبه وسعيه الذي سيُرَاه يوم القيامة، وليس من باب تحميله وزرًا من دون ذنبٍ.

(١) محمّد عبدالهادي أبو ريدة: قاموس القرآن الكريم؛ مضمون القرآن الكريم في قضايا الإيمان والنبوّة والأخلاق والكون، (ط٢)، مؤسَّسة الكويت للتقدُّم العلمي: الكويت، ١٩٩٧م، ص١٢٥.

ب. الرحمة والعدل والحكمة:

تتعارض في مفاهيم التدبير الخلاصي بشكل شنيع صفة الرحمة مع صفة العدل مع صفة الحكمة؛ فطريقة النَّصارى فِي تصوير سعة الرحمة الإلهية جعلتهم – من حيث لا يشعرون- يقعون في الانتقاص من صفتي العدل والحكمة الربَّانيتين. وهذه حقيقةٌ نقف عليها عند متابعة التحريف الذي حدث عند أهل الكتاب؛ فمن مزَّق النسيج الربَّاني للكتاب لن يستطيع بعد ذلك ترقيعَه بأباطيل من خارجه.

وهنا ذنبٌ عظيم في قولهم عن خطيئة آدم عليه السلام؛ فيحلُّ به سخطٌ ونقمةٌ وغضبٌ تتحمَّله الذريَّة، ويصيبها بلا ذنبٍ منها؛ ويغيثهم ربُّهم بطريق خلاص من طريق الأنبياء والشريعة وهي غيرُ مجديةٍ؛ أليس الربُّ هكذا -عياذاً بالله- ليس بالعزيز الحكيم؟ ثمَّ يرسل ابنه -افتراءً عليه سبحانه- من دون أن يكون خاطئًا فيتحمَّل آلامًا وذنوبًا ليس مقترفَها على أن يكون ذلك في صورة العقاب، والموتِ كلعنةٍ فوق الصليب؛ فأيُّ عدلٍ في عقاب البريء؟ ثمَّ هل يتألَّم الإله – الأقنوم الابن-؟ هل يعجز عن التحمُّل؟ هل يموت الإله؟ إلى آخر ما يمكن أن يتكوَّن في أذهاننا من تساؤلاتٍ ليس لها جوابٌ إلاَّ سقوط هذا التصوير الدرامي للتدبير الخلاصي.

ج. الرحمة والموت:

ولنا أن نتساءل ههنا: ما الذي جعل النَّصارى يتصايحون أنَّ الموت دخل بالأكل من الشجرة؛ ولم يجد الربُّ كيف يتغلَّب الإنسان على الموت إلاَّ بابنه الوحيد؟ كيف وفي الجنَّة كما مرّ بنا، شجرةُ الحياة التي من أكل منها يحيا أبدًا؟ لم تصوير عجز الربِّ هكذا؟ ولم يصوِّرون قسوته هكذا؟ بل لم يصوِّرونه في صفات البشر كالذي خشي على ملكه أن يأكل الإنسان من شجرة الحياة فيصير مثله خالدا؟

والشنيع في هذا قولهم إن الله لم يصنع الموت، فلقد خلق الإنسان لعدم الفساد والموت... هذا الموت الذي لم يكن قد أوجده في البدء[1].

د. الرحمة وطريق الخلاص:

من رحمة الله تعالى في الإسلام -من أوَّل الأنبياء إلى خاتمهم- أنَّه يوضِّح للخلق سبيل نجاتهم وخلاصهم من الدنيا إلى الآخرة؛ طريقًا سبق علمه بها، واقتضتها حكمته وعدله، وقضاها قبل خلق آدم ومن بعدَه. قضى أن لا يراه البشر في الحياة الدنيا بأبصارهم، وركز في فِطَرِهم أن يروه ببصائرهم، في أنفسهم وفي الآفاق؛ وبالغ -رحمةً بهم- في الإعذار، فأرسل «﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥]؛ وأنزل الله تعالى على من شاء منهم ما شاء من كتبٍ فيها رحمةٌ ونورٌ وهداية وحكمةٌ.

بعد رحمة الله تعالى بتذليل أدوات الهداية ووسائلها؛ ذلَّل لخلقه سُبُلَهَا؛ فعلى الإنسان الذي يريد الخلاص أن يرحمَ نفسه فيختار لها سبيل الاتِّباع والعبادة والصلاح والخيريَّة؛ وألاَّ يوبقها في ضيق الدنيا وخزي الآخرة.

ههنا الرحمة واضحة المعالم، قويَّة الدلالات؛ ولكن هناك في النصرانية تختلط المعالم وتختلُّ مرتكزاتها؛ فالربُّ عندهم يجرِّب طريق مخاطبة البشر من طريق الأنبياء والوحي إليهم مدَّةً طويلةً جدًّا من عمر البشريَّة التي تئنُّ حسب تصورهم تحت عذاب الخطيئة والموت، منتظرةً رحمة ربِّها. ولكنَّ تلك الطريق غير مجديةٍ، ولم تثمر؛ فجاءت الطريق الجديدة، من طريق ابن الله الوحيد -بقولهم- لتكون طريق الخلاص التي مهَّد لها الربُّ حِقَبًا زمانيَّة متطاولة جدًّا.

(١) معجم اللاَّهوت الكتابي، مرجع سابق، ص٧٨٢.

فجعلوا الربَّ -بحسب وصفهم- غيرَ رحيم بعباده؛ وغير مريدٍ لهدايتهم منذ البدء إلى طريق الخلاص الحقيقيَّة.

هـ. الرحمة والكفارة والفدية:

اللّه تعالى تَّواب غفورٌ رحيمٌ؛ لم يدع الإنسان الذي طبعه الخطأ والنسيان، والظلم والطغيان، لم يدعه فريسةً للنفس والهوى والشيطان؛ بل دعاه أن يستغفره فيغفر له؛ أن يدعوه فيستجيب له، أن يستعين به فيعينه، أن يتصبَّر فيصبِّره... إلخ. وقد شرع له من الأعمال والعبادات والطاعات، ما من شأنه أن يطهِّره من أدران الذنوب والمعاصي. ولا وجود للوسائط إلا من حيث البلاغ كالرسل من الملائكة والأنبياء، وقد جعل اللّه تعالى كفّاراتٍ وفدياتٍ فيما شرعه للنَّاس؛ بحيث يستنقذهم من الذنوب والخطايا.

لكن ما ينبغي ملاحظته ههنا أنَّ الأمر في الإسلام لا يجعل فديةً وكفَّارةً مبطليْنِ لمبدأ التكليف، أو متعارضين معه؛ بمعنى أنّ الإسلام أغلق الباب على الأماني الباطلة، ولكنَّه شرَّع أبواب الرحمة في وجوه الخاطئين، والمذنبين؛ لتكون النتيجة تقليل السيِّئات، وزيادة الحسنات ومضاعفتها أضعافًا كثيرةً.

فجعل اللّه تعالى كفَّارات لذنوبٍ بعينها فتكفُرُها وتغطِّيها، كالظِّهار، وكالحنث في اليمين؛ وجعل الفدية كشيءٍ حسن يفعله المرء في مقابل صنيعه السيِّئ كالصيد والمرء محرم. إنَّ الكفَّارة والفدية في مفهوم الشرع، ليست تعليق التكليف على آخر، وإنّما هي فتح باب التوبة والنجاة، ورحمة الخلق من الذنوب والخطايا التي ولابدَّ يقعون فيها.

وإنّما النّصارى فتحوا على النَّاس باب الأماني، أن يأتيهم من يُسقط عنهم التكاليف ويعينهم، بحجَّة ضعفهم وقلَّة حيلتهم؛ وهو أمرٌ تميل إليه النَّفس، وقد وقع في هذه الأمَّة من رأى سقوط التكاليف بحجّة أنّه وصل،

وما ذاك إلاَّ لكون الإنسان يحبُّ الركون إلى السكون والدَّعَة، وتحصيل الثمرات من دون أدنى الجهد. فيُقال لهم: لِمَ لم يُبطل الربُّ بزعمكم الأعمال والتكاليف ليرحمكم؟ أو لِمَ لم يخلِّصْكُم من دون فديةٍ؟ ما دمتم تبطلون مبدأ التكليف من الأساس.

و. الرحمة وحصول الخلاص:

الرحمة كما عَلَّمنا ربُّنا تكون في الدنيا وفي الآخرة؛ قال الله تعالى عن عذاب اليوم العظيم: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الأنعام:١٦].

وإنَّ محصِّلة الرحمة بالخلاص والنجاة والفوز، إنّما تكون عندما يُختم للإنسان بذلك عند خروج الروح -والكتاب طبعًا قد سبق بذلك- وإدراكُ ذلك والتمتُّع بثمراته يبتدئ في القبر أوَّل منازل الآخرة، ويدرك غايته في دار السلام. والذي يسبق ذلك في الحياة الدنيا، هو تمتُّع الصالح بثمرات الصلاح بشرح الصدر، والبركة في النفس والرزق، والقبول في الأرض، ونحوها من الأمارات. على هذا الأمر من آدم ﷷ، إلى آخر إنسيٍّ ستقبض روحه.

لكن في المقابل نجد النصارى يحاولون تصوير حصول ما لم يحصل من الثمرات، وتغيُّرها بمجيء ابن الله الوحيد -بقولهم- عمَّا قبل مجيئه؛ فيصوِّرون وقوع رحَمَاتٍ بذلك المجيء لا دليل عليها بتاتًا وإطلاقًا.

والعجيب أنَّهم حين يحاولون أن يصوِّروا سعة رحمة الله لا يمكنهم عند التحقيق أن يجاوزوا ما جاء في الدِّين الخاتم وكتابِه الشاهد عليهم؛ فلنتأمل قولهم هذا -على سبيل المثال-: فأولئك الذين سيخضعون لحكم الله ومشيئته، سيدخلون ملكوت المسيح، وينالون المغفرة عن خطاياهم، كما سينالون الحياة الأبديَّة. هذا الشيء سيحدث لكلِّ النَّاس في كلِّ

العصور؛ فمن يؤمن بالمسيح سيدخل ملكوته، وينال بركاته(١). ثمَّ هم يبرِّرون ذات التبرير أنَّ المطيع الصالح ينجو، وأمَّا غير المؤمن فيُدان؛ فكلٌّ على حسب ما اكتسب وسعى له؛ فلننظر إلى التبرير الآتي: فإله الرحمة هو أيضًا إله الدينونة الذي سيضع للتَّاريخ نهايةً. أمّا دعوته إلى الخلاص فلا يمكن إهمالها؛ فإمّا قبولها، وإمَّا رفضها(٢).

وكلُّ دعوةٍ غير هذه فهي بيِّنة التهافت؛ وخاصَّة في بعض الخطابات التنصيريَّة التي تحاول إسقاط التكاليف عن النَّاس، والاكتفاء بمجرَّد الاعتراف بالمسيح ربًّا ومخلِّصًا؛ ويُقال لهم ههنا: أن تنسب لله تعالى شيئًا، أو تصفه بما ليس من صفاته، تكون حينها مفتريًا عظيم الافتراء؛ لأنَّك حينها ستحدث خللًا في علمك بالله في ناحيةٍ ما. لو قلنا - مثلًا- اللهُ برحمته يُدخل جميع الناس مؤمنين وكفارًا الجنَّة، لكان ذلك افتراءً منَّا على الله الذي حرَّم الظلم على نفسه. إنّ نظرتنا في الإسلام -بفضل نور الوحي- متكاملةٌ إلى صفات الله تعالى التي علّمنا إياها، وفق ما أرادنا أن نفهمه من تجلِّياتها، أمّا في النصرانيَّة -بحسب تتبعي غير المتعمِّق- فيكثر الإغراق في جانب على حساب آخر حتَّى يختلَّ البناء المعرفيُّ لها.

هذا ما نلمسه منهم أيضًا حين يكون الربُّ رحيمًا عندهم وفي نفس الأمر غير قادرٍ على تحقيق الرحمة بمن أراد رحمتهم من البشرية؛ ويزداد الأمر شناعةً حين يكون تبريرهم عدم تلك القدرة -وإن لم يسمُّوها عجزًا- هو تصويرٌ موهومٌ لحاجزِ العدل، فالربُّ لأنَّه متَّصف بالعدل لا بدَّ وأن يكون جزاء الخطيئة الموت، وهو ما تنصُّ عليه الشريعة؛ وكأنَّما الشريعة حاكمة على الربِّ لا هو المشرِّع لها؛ فمن يموت؟ يموت ابن الإله

(١) دون فليمنج: التفسير المعاصر للكتاب المقدَّس، ترجمة لجنة التعليم بالكنيسة الإنجيليَّة بقصر الدوبارة، (ط١)، الكنيسة الإنجيليَّة بقصر الدوبارة: القاهرة- مصر، ٢٠٠٤م، ص٥٥٨.

(٢) غرانت. ر. أوزبورن: تفسير الكتاب المقدّس في أبعاده المتعدِّدة، ترجمة نزيه خاطر، (ط١)، دار المنهل: بيروت- لبنان، ٢٠١٤م، ص٣٤٨.

-عياذًا بالله- في تصويرٍ ملحميٍّ بطوليٍّ، مفعم بالحب والرَّحمة، وتحمُّل الآلام. ليست المشكلة في هذا البناء الدراميِّ المؤثِّر؛ المشكلة كلُّها أنَّهم زعموا لله ولدًا، وأماتوه.

حقيقةً إنَّ النَّصارى حين ثلَّثوا دخلوا نفقًا لا مخرج منه إلاَّ أن يوحِّدوا؛ وكلُّ مفهوم ينبني على التثليث سيزيد من زاوية انحرافهم؛ ويجعلهم متعمِّقين في أحلام وأوهام وظنونٍ كاذبةٍ؛ وحالات شعوريَّة من المحبَّة ومن الرحمات الموهومة؛ فيستمرُّوا -ولا بدَّ- في نهجهم: أنَّهم «ضلُّوا على غير علمٍ».

الخاتمة

في خاتمة هذا البحث المختصر؛ يجمل بنا أن نلخِّص أهمَّ محطَّاته ونتائجه؛ وذلك في نقاطٍ كالآتي:

- النتيجة الكبرى والرئيسة في البحث هي أنّه لا يمكن لأيِّ دينٍ ممَّا يعتنقه البشر أن يُظهر رحمة ربِّ العالمين بخلقه كما هي واضحةٌ في نصوص الإسلام -قرآنًا وسنَّةً- في مقابل طرفين: طرفٌ يقوم بتصوير الإله بلا صفة الرَّحمة قاسيًّا؛ والطرف الآخر هو الطرف الغالي: الذي يقوم بالعزف على وتر الرَّحمة، فيَفتري رحماتٍ -وما هي أصلًا رحماتٌ حقًّا- ما أنزل الله بها من سلطانٍ، وينسى من يسلك تلك السبيل أن - مفاهيم التدبير الخلاصي في النَّصرانيَّة هيكلُها وعمودُ أمرها قائمٌ على فكرة التثليث، وتحديدًا على فكرة بنوّة المسيح عليه السلام -بقولهم- وهو ما جعلهم ينتحلون خطَّةً إلهيّة منذ القدم لخلاص النَّاس؛ ثمَّ يصفون مراحلها، وكأنَّ الربَّ يجرِّب كبشر -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- فينجح أحيانًا، ويخفق أحيانًا، ويضحِّي بابنه رحمةً بالإنسان.
- التدبير الخلاصي النَّصراني وإن كان في قليلٍ من تصويراته

مقبولًا، غير أنَّ مشكلته هي في تحويره ليتوافق مع فكرة «بنوَّة المسيح» وما يتعلَّق بأحداث الصلب وفكرة الفداء؛ فيعتسفون في تبريراتٍ لا تستقيم، وفي تهويل بعض الأمور التي نوافقهم في أصلها، كضعف الإنسان، وقلَّة حيلته، وكعداوة الشيطان لآدمَ وذرِّيَّته، ولكنَّنا نخالفهم - بالإضافة إلى ما سبق من التهويل- في ربط بعضها ببعض.

- إنَّ التدبير الخلاصي في النَّصرانيَّة وإن جعل أحد مرتكزاته «الرحمة» إلاَّ أنَّ التبرير بها لا يستقيم في كلِّ محطَّاته؛ فقد لاحظنا في أحيانٍ عدم تحقق الرحمة المزعومة؛ وفي أحيانٍ أخرى تعارضَهَا مع سنَّة اللّه تعالى في تكليف العباد؛ وفي أحايين أخرى تعارض صفة الرحمة مع بقيَّة الصفات كالعدل والحكمة والعلم ونحوها.
- الرحمة في الإسلام مفاهيمها منضبطةٌ، متوافقةٌ مع الفطرة؛ يدركها النَّاس بيسرٍ، ويتذوَّق المؤمنون معانيها بحلاوة الإيمان؛ فقد تعلَّموا من الوحي الإلهي أن يقفوا عند ما حدَّ لهم ربُّهم؛ وهو الذي أنزل كلَّ شيءٍ منزله؛ وأمرهم ألاَّ يغلوا وألا يجفوا؛ وعلى ذلك ينبغي المسير والعمل.
- اللّه سبحانه وتعالى بيّن منذ البدء لآدم - ومن بعده ذرِّيّته - الطريقة التي يمكن من خلالها للنَّاس أن يخلُصوا، وأن ينجوا من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة؛ باتِّباع هدايته ورحماته التي ينزلها تعالى على أنبيائه، وفي كتبه؛ وأرشدهم إلى أنَّ الخلاص من الذنوب إنَّما بعدم مقارفتها، وبالتوبة منها إذا قارفها الإنسان - وهو الخطَّاءُ بأصل خِلْقتِه - مع الندم عليها، والعزم على عدم العودة إليها، وإصلاح ما أفسده المرء بمعصيته تلك. وقد أوسع

الله تعالى برحمته باب التوبة؛ وأطال في أجل قبولها. كما قضى الله تعالى أنّ الموتَ حقٌّ، وكلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت مهما عظُم قدرها فلا خلاص في الدنيا من الموت؛ وإنّما حقيقة الموت أنَّه انتقال من الفانية إلى الباقية، واستيقاظٌ بعد نوم وغفوةٍ. وأمّا الآلامُ فهي من الابتلاءات – خيرًا وشرًّا – تنتهي عن الصالحين بدخول دار السلام؛ ويخلد فيها من رفضوا أن تشملهم رحمة ربِّ العالمين. لا أحلامَ واهمة؛ لا أمانيَ كاذبة؛ لا وسائطَ صادَّة أو شافعة بغير حقٍّ؛ لا حاملَ للأوزار إلا مقترفها؛ لا رحمةَ إلاّ رحمةُ الله ربِّ العالمين، وهو العزيز الحكيم.

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات.

قائمة المصادر والمراجع

١. القرآن العظيم، برواية حفصٍ عن عاصم.
٢. الكتاب المقدَّس، نسخة فان ديك (Arabic New Van Dyck Bible)، الإصدار الثالث، (ط٤): القاهرة- مصر، ٢٠٠٦م.
٣. محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري: الجامع الصحيح، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، الّدار الذَّهبيَّة: القاهرة- مصر.
٤. مسلم بن الحجَّاج النَّيسابوري: الصَّحيح، تحقيق خليل مأمون شيحا (ط١)، دار المعرفة: بيروت- لبنان، ٢٠٠٥م.
٥. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: المقاييس في اللغة؛ ت شهاب الدّين أبو عمرو؛ (دط)، دار الفكر: بيروت- لبنان، (دت).
٦. إسماعيل بن حمَّاد الجوهري: الصحاح، تاج اللُّغة وصحاح العربيَّة، تحقيق أحمد عبدالغفور عطَّار (ط٣)، دار العلم للملايين: بيروت- لبنان.
٧. مجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ت خليل مأمون شيحا؛ (ط٢)، دار المعرفة: بيروت- لبنان، ٢٠٠٧م.
٨. مجد الدِّين أبو السعادات المبارك بن محمَّد الجزري ابن الأثير: النِّهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق علي بن حسن بن علي بن عبدالحميد الحلبي الأثري، (ط١)، دار ابن الجوزي: الرياض- المملكة العربيَّة السعوديَّة، ١٤٢١هـ.
٩. أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، ت محمَّد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة: القاهرة- جمهورية مصر العربية.

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

١٠. أبو البقاء أيُّوب بن موسى الحسيني الكفوي: الكلِّيات، تحقيق عدنان درويش، محمَّد المصري، (ط٢)، مؤسّسة الرسالة: بيروت- لبنان، ١٩٩٨م.
١١. بدر الدِّين بن جماعة: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، (ط١)، تحقيق عبدالجواد خلف، دار الوفاء: المنصورة- مصر، ١٩٩٠م.
١٢. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدِّمشقي: تفسير القرآن العظيم، (ط١)، دار ابن حزم: بيروت- لبنان، ٢٠٠٠م.
١٣. مجد الدِّين أبو السعادات المبارك بن محمَّد الجزري ابن الأثير: النِّهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق علي بن حسن بن علي بن عبدالحميد الحلبي الأثري، (ط١)، دار ابن الجوزي: الرياض- المملكة العربيَّة السعوديَّة، ١٤٢١هـ.
١٤. أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي: كتاب الزينة في الكلمات الإسلاميّة العربيَّة، تحقيق حسين بن فيض الله الهمداني اليعبري الحرازي، (ط١)، مركز الدراسات والبحوث اليمني: صنعاء- اليمن، ١٩٩٤م.
١٥. الحسين بن محمَّد الدامغاني: قاموس القرآن، أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق عبدالعزيز سيّد الأهل، (ط٣)، دار العلم للملايين: بيروت- لبنان، ١٩٨٠م.
١٦. محمّد عبدالهادي أبو ريدة: قاموس القرآن الكريم؛ مضمون القرآن الكريم في قضايا الإيمان والنبوّة والأخلاق والكون، (ط٢)، مؤسَّسة الكويت للتقدُّم العلمي: الكويت، ١٩٩٧م.
١٧. الخوري بولس الفغالي: المحيط الجامع في الكتاب المقدّس والشرق القديم، (ط٢)، المكتبة البولسية: بيروت- لبنان، ٢٠٠٩م.
١٨. صبحي حموي اليسوعي: معجم الإيمان المسيحي، أعاد النظر فيه من النَّاحية المسكونيَّة الأب جان كوربون، (ط١)، دار المشرق: بيروت- لبنان، ١٩٩٤م.

١٩. مظهر الملوحي وآخرون: قراءة صوفيَّة لإنجيل يوحنًّا، (ط١)، دار الجيل: بيروت- لبنان، ٢٠٠٤م.

٢٠. جوناثان هيل: تاريخ الفكر المسيحي، ترجمة سليم اسكندر، مايكل رأفت، (ط١)، مكتبة دار الكلمة: القاهرة- مصر، ٢٠١٢م.

٢١. لجنة من المعرِّبين بإشراف المطران أنطونيوس نجيب: معجم اللاَّهوت الكتابي (العنوان الأصلي: Vocabulaire de Theologie Biblique)، ط٦، دار المشرق: بيروت- لبنان، ٢٠٠٨م.

٢٢. نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص ومن اللاَّهوتيِّين؛ هيئة التَّحرير: بطرس عبدالملك، جون ألكسندر طمسن، إبراهيم مطر: قاموس الكتاب المقدّس، (ط١٣)، دار مكتبة العائلة: القاهرة مصر، مطبعة الحرِّيَّة: بيروت- لبنان، ٢٠٠٠م.

٢٣. جون ماكسويل: الكتاب المقدّس: دراسات في القيادة، الترجمة العربيَّة المشتركة، (ط١)، جمعية الكتاب المقدّس:بيروت- لبنان، ٢٠٠٧م.

٢٤. بروس بارتون ، رونالد بيرز، وآخرون: التّفسير التّطبيقي للكتاب المقدّس، ترجمة شركة ماستر ميديا (دط)، القاهرة- مصر.

٢٥. فالتر كاسبر: اللاَّهوت والكنيسة، ترجمة يوحنا منصور، (ط١)، المكتبة البولسيَّة: بيروت- لبنان، ٢٠٠٦م.

٢٦. وليم وهبة بباوي: دائرة المعارف الكتابية ط٣، دار الثقافة المسيحية: القاهرة- مصر، ٢٠٠١م.

٢٧. دون فليمنج: التفسير المعاصر للكتاب المقدَّس، ترجمة لجنة التعليم بالكنيسة الإنجيليَّة بقصر الدوبارة، (ط١)، الكنيسة الإنجيليَّة بقصر الدوبارة: القاهرة- مصر، ٢٠٠٤م.

٢٨. غرانت. ر. أوزبورن: تفسير الكتاب المقدّس في أبعاده المتعدِّدة، ترجمة نزيه خاطر، (ط١)، دار المنهل: بيروت- لبنان، ٢٠١٤م.

٢٩. L ‹abbé H. Lesetre; La clef des Evangiles. Lethielleux .libraires - editeur Paris

٣٠. Initiation Biblique; publiée sous la direction de A.Robert -et- A. Tricot, imprimeurs du Saint siege et la Sacrée congregation des rites: Paris, Tournai, Rome

٣١. le Dictionnaire pratique des connaissances Religieuses, Publié sous la direction de J.BRICOT Librairie Letouzey et Ane, .Paris, France 1925

أوجه الرحمة المتعلقة بالغيبيات
(النبوات، أنموذجًا)

إعداد:
سارة بنت فراج بن علي العقلاء
أستاذة العقيدة والمذاهب المعاصرة
بجامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم، والصلاة على سيد المرسلين المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد؛ فالإيمان بالغيب ركن ركين في عقيدة المسلم، وتكاد تكون جميع أركان الإيمان من الإيمان بالغيب، وهو أول صفة مدح الله المؤمنين بها في كتابه، على أن الله الذي وسعت رحمته كل شيء والذي لا يكلف العباد ما لا يطيقون جعل لهم منهجا من خلال النصوص الشرعية، يوضح لهم صحة ما جاءت به الرسل من النصوص المتعلقة بالغيب، ويرشدهم إلى الطريق الصحيح في التعامل مع تلك النصوص، وهذا المنهج تجلى فيه احترام العقل إضافة لما فيه من مراعاة لطبيعة البشر؛ كيف لا وهو، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء وتجلت هذه الرحمة في مواضع يصعب حصرها في جميع أبواب الإيمان ومنها ما يتعلق بالرسل والرسالات، أو ما اصطلح على تسميته بالنبوات. ورغبة في بحث هذا الأمر اخترت المشاركة في المؤتمر العالمي عن الرحمة ببحث في هذا الموضوع، وهو من ضمن المحور الثاني، وجعلته بعنوان: (أوجه الرحمة المتعلقة بالغيبيات النبوات، أنموذجًا).

ومشكلة البحث تتمثل في أن النبوات، أمور غيبية، والخلق مأمورون بالإيمان بها، والله هو الرحمن الرحيم، الذي لا يكلف العباد إلا ما في وسعهم. فهل يتعارض هذا مع ذاك ؟ وسيبحث البحث في الشواهد الدالة على رحمة الله في هذا الباب.

والهدف منه هو: بيان أوجه الرحمة في التعامل مع الحقائق الغيبية المتعلقة بالنبوات؛ وبالخصوص تلك المتمثلة في مراعاة طبيعة البشر،

وعدم تكليفهم ما لا يطيقون، ومخاطبة العقل واحترامه.

وسيكون المنهج المتبع هو: المنهج التحليلي بإذن الله.

أما عن تقسيمات البحث، فقد جعلته في مقدمة، وخمسة مباحث وخاتمة، يتلوها فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

المبحث الأول: الرحمة في دلالة العقل على الغيب.

المبحث الثاني: الرحمة في مراعاة الفطرة في الحاجة للرسل.

المبحث الثالث: الرحمة في بعث الرسل من جنس البشر.

المبحث الرابع: الرحمة في بعث الرسل مؤيدين بالآيات والبراهين.

المبحث الخامس: الرحمة في إقامة الحجة بالرسل وعدم التعذيب قبل إرسال الرسل وإنزال الكتب.

ثم الخاتمة، ويتلوها فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

المبحث الأول
الرحمة في دلالة العقل على الغيب

وفيه ثلاث مسائل، تدور حول توضيح مفهوم الغيب، والموقف الواجب اتباعه أمام النص، والعلاقة بين العقل والغيب، وبيان الحكمة من الإيمان بالغيب.

المسألة الأولى
تعريف الغيب ومفهومه، ومنزلته من الدين

الغيب في اللغة: مصدر غاب يغيب غيبًا: أي استتر واحتجب، وهو بمعنى اسم الفاعل. قال ابن فارس: الغين والياء والباء أصل صحيح يدل على تستر الشيء عن العيون، من ذلك الغيب: ما غاب، مما لا يعلمه إلا الله(١).

وربما أريد به ما غاب عنك، وعلمه غيرك من الخلق؛ كما يغيب عنك من مطمئن الأرض الذي يغيب فيه داخله(٢).

قال الخليل: وكل شيء غيب عنك شيئًا فهو غيابة(٣)، وقال ابن الأعرابي: والغيب أيضًا ما غاب عن العيون، وإن كان محصلًا في القلوب. ويقال: سمعت صوتًا من وراء الغيب، أي من موضع لا أراه. وقد تكرر في الحديث

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٤٠٣).
(٢) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٨٤).
(٣) العين (٤/ ٤٥٥).

ذكر الغيب، وهو كل ما غاب عن العيون، سواء كان محصلًا في القلوب، أو غير محصل[1]. وجاء تعريف الغيب في المعاجم اللغوية بالشك. ويراد بالشك هنا: أي عكس اليقين، الذي هو المشاهد والمحسوس.

وإذا انتقلنا إلى النصوص الشرعية، فإنه يراد بالغيب: كل ما أخبرت به الرسل مما يتعلق بالإيمان بالله، وجميع أركان الإيمان، وهو ما لا يقع تحت الحواس، ولا تقتضيه بداهة العقول، وإنما يعلم بخبر الأنبيَّاء عليهم السلام[2].

وأما المراد بالغيب الذي مدح الله المؤمنين بالإيمان به، فقد تعددت أقوال العلماء في المراد به وتنوعت، ولا تعارض بين تلك الأقوال وهي من باب اختلاف التنوع لا التضاد، وها هي أقوالهم:

قال ابن عباس: الغيب ما أمرت بالإيمان به فيما غاب عن بصرك من الملائكة والبعث والجنة والنار والصراط والميزان.

وقيل: الغيب: هو الله تعالى، وقيل: القرآن. وقال الحسن: الآخرة. وقال زر بن حبيش وابن جريج: الوحي، وقال ابن كيسان: بالقدر، وقال عبدالرحمن بن يزيد: كنا عند عبدالله بن مسعود فذكرنا أصحاب محمد ﷺ وما سبقوا به، فقال عبدالله: إن أمر محمد كان بينا لمن رآه والذي لا إله غيره ما آمن أحد قط إيمانا أفضل من إيمان بغيب[3].

وعن الربيع بن أنس وأبي العالية: آمنوا بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر، وجنته وناره ولقائه، وآمنوا بالحياة بعد الموت. فهذا كله غيب[4].

وهذه الأقوال السابقة جميعها كما قال ابن عطية لا تتعارض، بل يقع الغيب على جميعها[5].

(١) لسان العرب (١/ ٦٥٤).
(٢) تفسير القاسمي: محاسن التأويل (١/ ٢٤٤).
(٣) تفسير البغوي -إحياء التراث (١/ ٨٤).
(٤) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١/ ٢٣٧ تفسير ابن أبي حاتم -محققا (١/ ٣٦).
(٥) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/٨).

على أن أصل كل غيب هو الإيمان بالله؛ عن عطاء بن أبي رباح: من آمن بالله، فقد آمن بالغيب(١).

ويدخل في الإيمان بالغيب، الإيمان بجميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلة، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفيتها، وما أخبرت به الرسل من ذلك، فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتيقنونها، وإن لم يفهموا كيفيتها.

قال السعدي مبينا منزلة الإيمان بالغيب: حقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر. إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به، لخبر الله وخبر رسوله. فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق مجرد لله ورسله. فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده، أو لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه. بخلاف الزنادقة والمكذبين بالأمور الغيبية، لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ففسدت عقولهم، ومرجت أحلامهم. وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله(٢).

المسألة الثانية
وجوب التسليم للنص وعدم الاعتراض

قال الزهري ملخصًا الموقف مما أخبر به الرسول ﷺ من أمور الغيب:

(١) تفسير ابن أبي حاتم -محققا (١/ ٣٦).
(٢) تفسير السعدي: تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٠).

"من الله الرسالة، ومن الرسول البلاغ، وعلينا التسليم"[١] فالواجب في نصوص الغيب: التسليم والانقياد والإذعان.[٢]

فيجب الإيمان بجمع ما ورد من أمور الغيب (متى صحت أخبارها، ولو لم ندرك كيفيتها؛ فنحن لم نؤت من العلم إلا قليلا، وهناك عالم غيبي لم نطلع عليه ولا على أحواله، والإيمان به من الإيمان بالغيب)[٣].

قال الطحاوي: (ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام).

قال ابن أبي عبد العز: أي لا يثبت إسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين، وينقاد إليها، ولا يعترض عليها ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه.[٤]

ويحرم على المرء أن يطلب معرفة ما حجب عنه من علم الغيب (كأن يريد أن يعلم كيفية الصفات، أو يريد أن يعلم حقائق الآخرة.) لأن الخوض في هذه الأمور الغيبية وإقحام العقل فيما لا يستطيع الوصول إليه، له نتائج وخيمة؛فقد يؤثر على إيمان المرء، وربما أوقعه في الوسوسة المنهي عنها كما قال الطحاوي: (فمن رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان؛ فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوسًا تائهًا، شاكًا زائغًا، لا مؤمنًا مصدقًا، ولا جاحدًا مكذبًا). وذكر شارح الطحاوية ابن أبي العز أمثلة ممن خاض في هذا العلم، وكيف انتهى أمرهم إلى الحيرة والضلال والشك.[٥]

فهذا القصد السيئ وهو: طلبه الوصول لما غُيب عنه حجبه عن صافي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب تفسير قوله تعالى :(يا أيها الرسول بلغ ما أنزل.) صحيح البخاري (٩/ ١٥٤).

(٢) شرح الطحاوية، الراجحي، ص١٣٧.

(٣) توضيح الأحكام من بلوغ المرام (١/ ٣٤٦).

(٤) شرح الطحاوية ت الأرناؤوط (١/ ٢٣١).

(٥) شرح الطحاوية ت الأرناؤوط (١/ ٢٤٣).

المعرفة، وصحيح الاعتقاد، وصحة الإيمان، فصار في إيمانه خلل، وفي تحقيقه للتوحيد ضعف ونقص، وفي إيمانه دخن؛ لأنه طلب شيئًا ممنوعا منه. علاوة على أنه لن يستطيع أن يصل إليه لقصور عقله(٦).

وإذا كان من خاض في المنهي عنه لم يسلم، وحجب عن خالص التوحيد؛ لذا كان (عدم الاعتراض في أمور العقائد والتوحيد على النصوص يُعطى العبد به نور، ويُخلص توحيده، وتصفى معرفته وعلمه، ويصح إيمانه).(٧)

ثم إنه كما سبق (أمور الغيب لا يمكن أن يجري عليها كلمة (لم؟) أبدا، ولا كلمة: (كيف؟) لأن الأمر فوق عقولنا، ولهذا لما سألوا الرسول عن الروح ماذا قال الله لهم؟ قال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾[الإسراء: ٨٥] أمر ما تستطيعون أن تدركوه، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[الإسراء:٨٥] أكثر العلوم فاتتكم وهذا عجب! روحك التي بين جنبيك، التي لا قوام لك إلا بها لا تدري ما هي؟! نحن لا نعلم من الروح، إلا ما جاءت به النصوص في القرآن والسنة، وإلا فلا ندري)(٨).

المسألة الثالثة
العلاقة بين العقل والغيب، وأوجه الرحمة في ذلك

لما كان الإيمان بالغيب مما يتميز به الإنسان عن الحيوان، إذ يشترك معه في المحسوس، ويتميز عنه في غير المحسوس، والإنسان يتميز بالعقل،

(٦) شرح الطحاوية للراجحي (ص: ١٣٩، بترقيم الشاملة آليًا).
(٧) شرح الطحاوية لصالح آل الشيخ: إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل (ص: ١٥٤، بترقيم الشاملة آليًا).
(٨) لقاء الباب المفتوح (١٦٩/ ١٧، بترقيم الشاملة آليًا).

فهذا يشير إلى أن هناك علاقة بين العقل وبين الإيمان بالغيب وضرورة الاستسلام للنص، لأن العقائد مبنية على الغيبيات؛ (والغيبيات لها برهان إجمالي، وهو القرآن والسنة)[١].

والذي دل على صحة الكتاب والسنة هو العقل، فالعقل هو دليل النقل، وأشار شارح الطحاوية إلى المثل (المضروب للنقل مع العقل، وهو: أن العقل مع النقل كالعامي المقلد مع العالم المجتهد، بل هو دون ذلك بكثير، فإن العامي يمكنه أن يصير عالمًا، ولا يمكن للعالم أن يصير نبيًا رسولًا، فإذا عرف العامي المقلد عالمًا، فدل عليه عاميًّا آخر. ثم اختلف المفتي والدال، فإن المستفتي يجب عليه قبول قول المفتي، دون الدال، فلو قال الدال: الصواب معي دون المفتي، لأني أنا الأصل في علمك بأنه مفتٍ، فإذا قدمت قوله على قولي قدحت في الأصل الذي به عرفت أنه مفتٍ، فلزم القدح في فرعه! فيقول له المستفتي: أنت لما شهدت له بأنه مفت، ودللت عليه، شهدت له بوجوب تقليده دونك)[٢].

ثم بيَّن أن من يعترض على النص بناء على عقله المجرد، فهو ليس بمؤمن في الحقيقة؛ فيقول : (وقد علمنا تضمن كل منهما أشياء كثيرة تناقض ما علمناه بعقولنا، ونحن إنما علمنا صدقك بعقولنا، فلو قبلنا جميع ما تقوله مع أن عقولنا تناقض ذلك لكان قدحًا فيما علمنا به صدقك، فنحن نعتقد موجب الأقوال المناقضة لما ظهر من كلامك، وكلامك نعرض عنه، لا نتلقى منه هديا ولا علما، لم يكن مثل هذا الرجل مؤمنا بما جاء به الرسول ﷺ، ولم يرض منه الرسول ﷺ بهذا)[٣].

(١) شرح الطحاوية لصالح آل الشيخ: إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل (ص: ١٥٠، بترقيم الشاملة آليًّا).
(٢) شرح الطحاوية ت الأرناؤوط (١/ ٢٣٢).
(٣) شرح الطحاوية ت الأرناؤوط (١/ ٢٣١).

وأما دعوى معارضة العقل للنقل فهي دعوى غير صحيحة فلا يمكن أن يخالف العقل الصريح نقلًا صحيحًا، لكن إذا جاء من يدعي ذلك فإن كان النقل صحيحا فذلك الذي يدعي أنه معقول ليس عقلًا صريحًا، أو يكون النقل غير صحيح. وفي حال توهم معارضة العقل للنقل فإنه يجب (تقديم النقل، لأن الجمع بين المدلولين جمع بين النقيضين، ورفعهما رفع النقيضين، وتقديم العقل ممتنع، لأن العقل قد دل على صحة السمع، ووجوب قبول ما أخبر به الرسول ﷺ، فلو أبطلنا النقل لكنا قد أبطلنا دلالة العقل، ولو أبطلنا دلالة العقل لم يصلح أن يكون معارضًا للنقل، لأن ما ليس بدليل لا يصلح لمعارضة شيء من الأشياء، فكان تقديم العقل موجبًا عدم تقديمه)(١).

وما جاء في الوحي يعد توضيحًا وبيانًا لأمر لا يستطيع العقل التوصل إليه، (فإذا ورد النص بأمور غيبية، كان هذا بالنسبة للعقل من قبيل تفصيل ما أجمل، لا أكثر، فإذا انضم إلى ذلك شهادة العقل وتسليمه المطلق سلفًا بصدق النص وصحته، لم يبق هنالك أدنى شبهة للتعارض)(٢).

وكان التسليم للنص من أعظم صفات المتقين، بسبب (أن العقول لا تدرك الغيب، ولا تستقل بمعرفة الشرائع؛ لعجزها وقصورها؛ فكما أن سمع الإنسان قاصر، وبصره كليل، وقوته محدودة، فكذلك عقله، فتعين الإيمان بالغيب والتسليم لله -عز وجل-)(٣).

ومن رحمة الله بالبشر أن: (الإنسان -في هذا العصر أكثر العصور تقدما في الكشوف والاختراعات-أعلن عجزه وقصوره عن إدراك أكثر حقائق الكون وكنه طاقاته، حتى تلك الأشياء التي يمارسها ويعيشها يوميًا، إن العقل يجهل نفسه، ويجهل الروح التي تمده بالحياة بأمر

(١) شرح الطحاوية ت الأرناؤوط (١/ ٢٢٨).
(٢) منهج الأشاعرة في العقيدة (ص: ٥١).
(٣) رسائل الشيخ الحمد في العقيدة (٧/ ٣).

الله)(١). فإذا كان الإنسان لم يتوصل إلى معرفة تفاصيل ما في هذا الكون المحسوس من أجرام سماوية على سبيل المثال مع ما وصل إليه من علم ومعرفة وجزمه بوجودها ورؤيته لها؛ فلأن لا يتوصل إلى حقيقة الأمور الغيبية الماضية والمستقبلية من باب أولى.

وتجلت حكمة الله ورحمته بالخلق بإعفائهم من الخوض بالغيب إكراما (لهذا الإنسان، وإشفاقًا عليه، وعلى عقله المحدود، من التشرد والتبدد والتيه، وإشفاقًا عليه بعد ذلك من الضلال والهلاك، وسوء العاقبة، أراحه الله من الخوض في الغيب بعقله؛ فجاءه الوحي يخبره عما فيه صلاحه من أصول العقيدة السليمة، ومسائل الغيب، ورسم له سبيل الخير والسعادة في الدنيا، وأطلق لعقله فيما عدا ذلك الحرية كل الحرية. فقد فتح الإسلام للعقل من مجالات البحث والفكر والتأمل والنظر في ملكوت السماء والأرض، ما يكفي لانشغال العقل، وإشباع رغبة التطلع والإنتاج المفطورة فيه)(٢).

ثم النصوص دالة على ضرورة مراعاة المستوى العقلي للمخاطبين، كما قال عبدالله بن مسعود: «ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة»(٣).

ومن حكم إخفاء الغيب: إظهار المؤمن من غيره، ذلك أن (الإيمان بالغيب هو الإيمان النافع، وأما الإيمان بالشهادة فكل أحد يؤمن يوم القيامة يوم لا ينفع نفسًا إلا إيمانها في الدنيا، فلو خلقوا في دار النعيم لم ينالوا درجة الإيمان بالغيب واللذة والكرامة الحاصلة بذلك لا تحصل بدونه؛ بل كان الحاصل لهم في دار النعيم لذة وكرامة غير هذه)(٤).

(١) نقض أصول العقلانيين، ٣/ ٣٣، بترقيم الشاملة آليًا.
(٢) المدرسة العقلية الحديثة في ضوء العقيدة الإسلامية، بحث مرقوم على الآلة الكاتبة لنيل درجة الماجستير من جامعة الإمام. (ص١٨-٢٢). نقلا عن نقض أصول العقلانيين (٣/ ٣٣).
(٣) صحيح مسلم (١/ ١١).
(٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٤).

أخيرا لما كانت جميع أركان الإيمان من الإيمان بالغيب، فإن الله الرحيم بعباده، الذي وسعت رحمته كل شيء، أقام في هذا الكون الفسيح الحسي المشاهد شواهد ودلائل على عالم الغيب، بعضها أمور محسوسة عن طريق الآلات الحديثة، والأخرى يرى آثارها، وهذا يجعلنا نجزم بوجودها، وروح الانسان التي بين جنبيه كما سبق هي من الأدلة الحسية على ذلك. الكهرباء التي ننعم بآثارها لم نرها. الأصوات والذبذبات والأجسام البعيدة كالنجوم والبالغة الصغر كالفيروسات لا نراها، لكن نجزم بوجودها، لأننا نرى آثارها. فسبحان من وسعت رحمته كل شيء.

المبحث الثاني
الرحمة في مراعاة الفطرة في الحاجة للرسل

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى
أوجه حاجة البشر للرسل

حصر الحليمي أوجه الانتفاع والحاجة للرسل بالأوجه المتعلقة بالدين، وجعلها أربعة، أولها: (أن الخلق جبلوا على النقصان، وقلة الفهم، وعدم الدراية، فهو صلوات الله عليه أورد عليهم وجوه الدلائل ونقحها، وكلما خطر ببالهم شك أو شبهة أزالها، وأجاب عنها. والثاني: أن الخلق وإن كانوا يعلمون أنه لا بد لهم من خدمة مولاهم، ولكنهم ما كانوا عارفين بكيفية تلك الخدمة، فهو شرح تلك الكيفية لهم حتى يقدموا على الخدمة آمنين من الغلط ومن الإقدام على ما لا ينبغي. والثالث: أن الخلق جبلوا على الكسل والغفلة والتواني والملالة فهو يورد عليهم أنواع الترغيبات والترهيبات، حتى إنه كلما عرض لهم كسل أو فتور، نشطهم للطاعة ورغبهم فيها. الرابع: أن أنوار عقول الخلق تجري مجرى أنوار البصر، ومعلوم أن الانتفاع بنور البصر لا يكمل إلا عند سطوع نور الشمس، ونوره عقلي إلهي يجري مجرى

طلوع الشمس، فيقوي العقول بنور عقله، ويظهر لهم من لوائح الغيب ما كان مستترًا عنهم قبل ظهوره، فهذا إشارة حقيقية إلى فوائد أصل البعثة)[1].

على أن الحاجة للرسل فوق ما ذكره الحليمي، فهي حاجة فطرية، والإنسان بفطرته محتاج إلى التدين، كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠] ونصبت «فطرة» على المصدر من معنى قوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾، وذلك أن معنى ذلك: فطر اللّه الناس على ذلك فطرة.[2] وهو فطرة اللّه الذي على الإعداد له فطر البشر لكن تعرضهم العوارض[3].

فحاجة البشرية كافة للرسل أعظم الحاجات، وفي حين يستغني الخلق عن كثير من الضروريات، إلا أنهم لا يستغنون عن هذه الحاجة، وهذه من أعظم المنن، التي امتن اللّه بها على عباده؛ إذ كيف ستكون حياة البشرية بدون رسل يرشدونها ويبينون لها طريقها، وماذا ينتظرها؟

ستكون ظلمات بعضها فوق بعض بل ستعدم حقيقة الحياة، وستكون موتًا في صورة حياة.

يقول ابن تيمية: (والرسالة ضرورية للعباد لا بد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء. والرسالة روح العالم ونوره وحياته. فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ والعبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة؛ وهو من الأموات)[4].

ويشير إلى أن اللّه سمى الرسالة: الروح والحياة، فيقول: (قال اللّه

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب، أو التفسير الكبير (٩/ ٤١٨/ ٤١٩).
(٢) تفسير الطبري: جامع البيان ت شاكر (٢٠/ ٩٧).
(٣) تفسير ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٣٣٦).
(٤) مجموع الفتاوى (١٩/ ٩٣).

تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الإنعام:١٢٢].

فهذا وصف المؤمن كان ميتا في ظلمة الجهل، فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نورًا يمشي به في الناس. وأما الكافر فميت القلب في الظلمات. وسمى الله تعالى رسالته روحًا، والروح إذا عدم فقد فقدت الحياة)[١].

والأوجه التي يتبين بها الحاجة للرسل عند ابن تيمية تنطلق من الرسالة، التي بعثوا بها والتي أمروا بتبليغها؛ فيقول: (فإن الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبعثوا جميعًا بالدعوة إلى الله، وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه)[٢].

وهذه الأصول الثلاثة عليها (مدار الخلق والأمر والسعادة والفلاح موقوفة عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرسل؛ فإن العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها، وإن كان قد يدرك وجه الضرورة إليها)[٣].

فالحاجة إلى الرسالة ليست مقتصرة على صلاح الآخرة فحسب، بل على صلاح الدنيا أيضًا؛ يقول ابن تيمية: (والرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة؛ فإن الإنسان مضطر إلى الشرع؛ فإنه بين حركتين: حركة يجلب بها ما ينفعه؛ وحركة يدفع بها ما يضره. والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٩٤).
(٢) مجموع الفتاوى (١٩/ ٩٥).
(٣) مجموع الفتاوى (١٩/ ٩٦).

وما يضره، والشرع نور الله في أرضه وعدله بين عباده، وحصنه الذي من دخله كان آمنًا)(١).

ويؤكد على أنه (لولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد. فمن أعظم نعم الله على عباده، وأشرف مننه عليهم: أن أرسل إليهم رسله؛ وأنزل عليهم كتبه؛ وبين لهم الصراط المستقيم، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم؛ بل أشر حالًا منها فمن قبل رسالة الله واستقام عليها فهو من خير البرية، ومن ردها وخرج عنها فهو من شر البرية وأسوأ حالًا من الكلب والخنزير والحيوان البهيم)(٢).

وبقاء هذه الحياة الدنيا مرتبط بالرسالة وآثارها، يقول ابن تيمية: (والدنيا كلها ملعونة ملعون ما فيها إلا ما أشرقت عليه شمس الرسالة وأسس بنيانه عليها، ولا بقاء لأهل الأرض إلا ما دامت آثار الرسل موجودة فيهم، فإذا درست آثار الرسل من الأرض وانمحت بالكلية خرب الله العالم العلوي والسفلي وأقام القيامة)(٣).

المسألة الثانية
رحمة الله بالعالمين ببعثة محمد ﷺ

هذا بالنسبة لرحمة الله في بعث الرسل بشكل عام؛ أما رحمته تعالى ببعث محمد، فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] فهو رحمة للبشرية جمعاء: مؤمنها وكافرها، كما قال ابن عباس: هذا عام للبر والفاجر، من آمن بالله واليوم الآخر، كتب له الرحمة

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٩٩).
(٢) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٠٠).
(٣) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٠١).

في الدنيا والآخرة وتمت له، ومن لم يؤمن بالله ورسوله، عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف صرفت عنه العقوبة إلى الموت والقيامة.(١)

وهو القول الذي رجحه الطبري، فقال: وأولى القولين في ذلك بالصواب: القول الذي روي عن ابن عباس، وهو أن الله أرسل نبيه محمداً رحمة لجميع العالم، مؤمنهم وكافرهم. فأما مؤمنهم فإن الله هداه به، وأدخله بالإيمان به، وبالعمل بما جاء من عند الله الجنة. وأما كافرهم فإنه دفع به عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذبة رسلها من قبله.(٢)

وعن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين، قال: «إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة».(٣) في الحديث الآخر: «إنما أنا رحمة مهداة».(٤)

فهو ﷺ كما قال البقاعي: رحمة للعالمين كلهم، أهل السماوات وأهل الأرض من الجن والإنس وغيرهم، طائعهم بالثواب، وعاصيهم بتأخير العقاب، الذي كنا نستأصل به الأمم.(٥)

وأكد على هذا المعنى الشوكاني فقال: والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال والعلل، أي: ما أرسلناك لعلة من العلل إلا لرحمتنا الواسعة، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين. ومعنى كونه رحمة للكفار: أنهم آمنوا به من الخسف والمسخ والاستئصال.(٦)

وذكر الرازي (أنه عليه السلام كان رحمة في الدين وفي الدنيا، أما

(١) تفسير الطبري: جامع البيان ت شاكر (١٨/ ٥٥٢) زاد المسير في علم التفسير (٣/ ٢١٨).
(٢) تفسير الطبري: جامع البيان ت شاكر (١٨/ ٥٥٢).
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٥٥٩).
(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٢٩٨١، وسنده صحيح كما في السلسلة الصحيحة (١/٨٠٣) للألباني رقم: ٤٩٠.
(٥) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢/ ٥٠٩).
(٦) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٠٨)

في الدين فلأنه عليه السلام بعث والناس في جاهلية وضلالة، وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم، لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم، فبعث الله تعالى محمدًا ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب، فدعاهم إلى الحق، وبين لهم سبيل الثواب، وشرع لهم الأحكام، وميز الحلال من الحرام، ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق، فلا يركن إلى التقليد، ولا إلى العناد والاستكبار، وكان التوفيق قرينًا له،وأما في الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ونصروا ببركة دينه)[١].

أما وجه الإحسان في كونه ﷺ مبعوثًا إلى كل العالمين: (كونه داعيًا لهم إلى ما يخلصهم من عقاب الله، ويوصلهم إلى ثواب الله)[٢].

ويذكر الشنقيطي أن بعثة محمد ﷺ كانت رحمة عظمى للمؤمن والكافر، ويشير إلى أن (بعض أهل العلم لهذا مثلًا، قال: لو فجر الله عينًا للخلق غزيرة الماء، سهلة التناول، فسقى الناس زروعهم ومواشيهم بمائها، فتتابعت عليهم النعم بذلك، وبقي أناس مفرطون كسالى عن العمل، فضيعوا نصيبهم من تلك العين. فالعين المفجرة في نفسها رحمة من الله، ونعمة للفريقين. ولكن الكسلان محنة على نفسه، حيث حرمها ما ينفعها)[٣].

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٢/ ١٩٣).
(٢) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٩/ ٤١٨).
(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤/ ٢٥١).

المبحث الثالث
الرحمة في بعث الرسل من جنس البشر

وفيه مسألتان: في الأولى سأناقش طلب الكفار أن يرسل رسولًا من الملائكة، وسأبين السبب في عدم ذلك، وسأذكر حِكَم بعث الرسل من جنس البشر، والمسألة الثانية: سأذكر فيها اتصاف الرسل بصفات الكمال البشري ليسهل ويتيسر اتباع الناس لهم.

المسألة الأولى
مناقشة طلب الكفار أن يبعث اللّٰه رسلًا من الملائكة

كان من أعظم الشبه التي صدت الناس عن اتباع الرسل جهلًا منهم، هي: كونهم بشرا؛ يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإنعام: ٩٤] فهذا اعتراضهم وكان الرد عليهم بقول اللّٰه تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإنعام: ٩٥].

فأجابهم اللّٰه بسنته في بعث رسول من جنس المرسل إليهم، ولو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين، لنزل اللّٰه عليهم من السماء ملكًا رسولًا لأن الملائكة إنما تراهم أمثالهم من الملائكة، ومن خصه اللّٰه من بني آدم

برؤيتها، فأما غيرهم فلا يقدرون على رؤيتها، فكيف يبعث إليهم من الملائكة الرسل، وهم لا يقدرون على رؤيتهم، وهم بهيئاتهم التي خلقهم الله بها، وإنما يرسل إلى البشر الرسول منهم، فلو بعث إليهم ملك لنفرت طباعهم من رؤيته، ولم تحتمله أبصارهم، ولا تجلدت له قلوبهم[١].

وهذا من لطفه تعالى ورحمته بعباده: أن بعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولًا من الملائكة لما استطاعوا مواجهته، ولا الأخذ عنه[٢].

ووجه آخر من وجوه رحمته بهم تعالى أنه لو أنزل ملكًا على ما سألوا، ثم كفروا ولم يؤمنوا، لجاءهم العذاب عاجلًا غير آجل، ولم ينظروا فيؤخروا بالعقوبة مراجعة التوبة، كما فعل بمن قبلهم من الأمم التي سألت الآيات، ثم كفرت بعد مجيئها، من تعجيل النقمة، وترك الإنظار، وذلك أنهم لو آتاهم ملك في صورته لماتوا، ثم لم يؤخروا طرفة عين أو يأتيهم العذاب وتقوم الساعة.[٣] فهذه الأقوال الثلاثة التي قيلت في منع إرسال الرسول الملكي إلى البشر كلها دالة ومتضمنة لرحمة الله بالبشر.

ويرجح ابن عطية القول بأنه لو نزل الملك لماتوا من هول رؤية الملك في صورته، ويؤيد ترجيحه هذا بالآية التي تليها فيقول: إن أهل التأويل مجمعون أن ذلك لأنهم لم يكونوا يطيقون رؤية الملك في صورته، فالأولى في قوله لقضي الأمر أي لماتوا من هول رؤيته، وقوله عز وجل: (ولو جعلناه) الآية المعنى: أنا لو جعلناه ملكًا لجعلناه ولا بد في خلق رجل، لأنهم لا طاقة لهم على رؤية الملك في صورته[٤].

(١) تفسير الطبري: جامع البيان ت شاكر (١٧/ ٥٥٨)، تفسير ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٤٨٦).
(٢) تفسير ابن كثير ت سلامة (٥/ ١٢١).
(٣) تفسير الطبري: جامع البيان ت شاكر (١١/ ٢٦٨).
(٤) تفسير ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٢٧٠).

ويشير الرازي إلى نفس المعنى، وأن (البشر لا يقدر على مخاطبة الملك ومباشرته. وقد كان النبي، ﷺ وهو أقوى الخلق، إذا نزل عليه الملك كرب لذلك، وأخذه البرحاء، وتحدر منه العرق في اليوم الشاتي.)(١).

ويذكر الرازي أن من رحمة الله أنه لم ينزل الملك عليهم، لأنهم (إذا لم يؤمنوا وجب إهلاكهم بعذاب الاستئصال، فإن سنة الله جارية عند ظهور الآية الباهرة، إن لم يؤمنوا جاءهم عذاب الاستئصال، فهاهنا ما أنزل الله تعالى الملك إليهم لئلا يستحقوا هذا العذاب)(٢).

فمن رحمة الله بهذه الأمة أنهم لم ينزل الملائكة كما اقترح الكفار؛ قال صاحب المنار: (فلو نزلت الملائكة عليهم ما كانوا إذ تنزل إلا هالكين لا ينظرون، أي لا يمهلون لأجل أن يؤمنوا. وما كان الله ليهلك هذه الأمة، ولا من أعدهم للهداية من قوم نبي الرحمة، بإجابة اقتراحات أولئك المستكبرين المعاندين منهم)(٣).

ويذكر ابن الجوزي أن الرسل لو كانوا من الملائكة فلا يمكن إظهار معجزة، لأن الملائكة تقوى على قلب الجبال والصخور، لأن المعجزة ما خرقت العادة، وهذه عادة الملائكة، وإنما المعجزات الظاهرة ما ظهرت على يد بشر ضعيف. كذلك الملائكة معصومون، ولهم قوة على العبادة، فلو فرض الله التكاليف على يد الملك الرسول، لقال الناس: الملائكة خلقوا للعبادة، ونحن لا نستطيع ذلك، كذلك لخفي كثير من أحكام الأكل والزواج والمعاملات، لان الملائكة لا تتزاوج ولا تأكل(٤).

فإرسال الرسل من البشر أتم في الحكمة والرحمة، ذلك أن الجنس يسهل عليه الأخذ من جنسه، إضافة إلى تحقق القدوة في صورتها المثلى

(١) التفسير القيم: تفسير القرآن الكريم لابن القيم (ص: ٢٣٩).
(٢) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٢/ ٤٨٧).
(٣) تفسير المنار (٧/ ٢٦٤، ٢٦٣).
(٤) تلبيس إبليس/ ٨٤/ المكتبة التوفيقية.

حين يكون النبي من نفس جنس البشر لا من الملائكة؛ فربما يدعي المرسل لهم أنهم لا يستطيعون أن يأتمروا بأوامره إذ إنه لا يشعر بما يشعرون به(١).

وإذا تبين هذا وأن البشر لا يقوون على رؤية الملائكة، فإن بعث الرسل من البشر من أعظم المنن، وبهذا وصف الله إرساله الرسل من جنس البشر، فمن رحمة الله تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلًا منهم، ليدعو بعضهم بعضًا، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤] ومن رحمته ومنته على عباده أن كان الرسول من جنسهم فكونه من الجنس يوجب الأنس به، وقلة الاستيحاش منه، فيأنسون به بجامع البشرية، ولو كان ملكًا لم يحصل كمال الأنس به لاختلاف الجنس، لسانه ولسانهم واحد، وهذا يوجب حسن التفهيم وقرب الفهم، فيسهل أخذ ما يجب عليهم أخذه عنه، ويسهل عليهم التعلم منه، ويفقهون عنه، ويفهمون كلامه، ولا يحتاجون إلى ترجمان لموافقة لسانه للسانهم، وكونه منهم يعرفونه لا من غيرهم، لئلا يتهموه في النصيحة لهم، إذ قد خبروه وعرفوا صدقه وأمانته، وكذلك الرسل وكانوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة قد خبروا أمره، وعلموا صدقه، فكان ذلك أقرب لهم إلى تصديقه والوثوق به(٢).

ومن تمام نعمته ومنته ورحمته بالأقوام المرسل إليهم أن جعل لغة الرسل هي لغتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم:٦٤] وهذا من لطفه تعالى بخلقه: أنه يرسل إليهم رسلا منهم بلغاتهم، ليفهموا

(١) النبوات، لابن تيمية (٢/ ٦٨٠/ ٦٨١).
(٢) انظر: تفسير الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ٤٣٥) تفسير ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٥٣٧)، تفسير الرازي: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٩/ ٤١٨) (٩/ ٤١٩).

عنهم ما يريدون، وما أرسلوا به إليهم، كما أخرج الإمام أحمد عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: "لم يبعث الله، عز وجل، نبيًّا إلا بلغة قومه"[1].

وذلك ليتمكنوا (من تعلم ما أتى به، بخلاف ما لو كانوا على غير لسانهم، فإنهم يحتاجون إلى أن يتعلموا تلك اللغة التي يتكلم بها، ثم يفهمون عنه، فإذا بين لهم الرسول ما أمروا به، ونهوا عنه وقامت عليهم حجة الله)[2].

المسألة الثانية
رحمة الله بالبشر
بجعل الرسل متصفين بالكمال البشري

ومن رحمة الله بخلقه بعثه للرسل، وهم في ذروة نسب أقوامهم، ليسهل الانقياد لهم، ومنهم محمد ﷺ ذلك (أنه لما كان من أشرفهم كانوا أطوع له، وأقرب إلى تصديقه)[3].

كذلك كان من رحمة الله بالخلق أن رزق الرسل أحسن الأخلاق وأكرمها، ليصبروا على أذى الناس لهم؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] فهو عليه السلام رفيق، رحيم يعز عليه دخول المشقة والمكروه والأذى على أمته، حريص على هداهم وتوبتهم ورجوعهم إلى الحق[4].

(١) أخرجه أحمد في مسنده٣٢٣/٣٥ رقم الحديث :٢١٤١٠، وقال شعيب الأرناؤوط: متنه صحيح، فقد نص القرآن على ذلك في غير آية منها ما في سورة إبراهيم (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) وأما إسناد هذا الحديث فرجاله ثقات رجال الصحيح لكن مجاهدا. وهو ابن جبر لم يسمع من أبي ذر.

(٢) تفسير السعدي: تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٢١).

(٣) فتح القدير للشوكاني (١/ ٤٥٢).

(٤) تفسير الطبري: جامع البيان ت شاكر (١٤/ ٥٨٤).

وذكر الماوردي أن من شرط النبوة (أن يكون مؤهلًا لها لصدق لهجته وظهور فضله وكمال حاله، فإن اعتوره نقص أو ظهر منه كذب؛ لم يجز أن يؤهل للنبوة من عدم آلتها وفقد أمانتها)(١).

وظهر من أسئلة هرقل في الحديث المشهور بُعُد الأنبيَّاء عن الأخلاق الرذيلة، مثل الكذب والغدر، فقد قال: (وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر)(٢).

وإذا تأملنا سيرة الرسول ﷺ وأخلاقه وأقواله وأفعاله، فإننا نجدها من آياته: (وذلك يظهر بتدبر سيرته من حين ولد وإلى أن بعث، ومن حيث بعث إلى أن مات، وتدبر نسبه وبلده وأصله وفصله، فإنه كان من أشرف أهل الأرض نسبًا، من صميم سلالة إبراهيم الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، فلم يأت نبي بعد إبراهيم إلا من ذريته، ونجعل له ابنين: إسماعيل، وإسحاق، وذكر في التوراة هذا وهذا، وبشر في التوراة بما يكون من ولد إسماعيل، ولم يكن في ولد إسماعيل من ظهر فيما بشرت به النبوات، غيره، ودعا إبراهيم لذرية إسماعيل بأن يبعث فيهم رسولًا منهم، ثم من قريش صفوة بني إبراهيم، ثم من بني هاشم صفوة قريش، ومن مكة أم القرى وبلد البيت الذي بناه إبراهيم، ودعا الناس إلى حجه، ولم يزل محجوجًا من عهد إبراهيم، مذكورًا في كتب الأنبيَّاء بأحسن وصف).(٣)

(١) أعلام النبوة، الماوردي ص ٤٠.
(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ٦، ح ٧، الفتح ١/ ٣٢.
(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٥/ ٤٣٧).

المبحث الرابع
الرحمة في بعث الرسل
مؤيدين بالآيات والبراهين

وهذه كغيرها من النعم التي أنعم الله بها على بني آدم، فمن تمام رحمته وحكمته وكرمه أرسل رسله مؤيدين بالآيات والدلائل الدالة على صدق أقوالهم. فإنه تعالى أرسل الرسل حجة على الخلق وأمر باتباعهم وتصديقهم وأرسل معهم ما يعرف به الخلق صدق هؤلاء الرسل) فمن الممتنع أن يجعل مجرد الخبر المحتمل للصدق والكذب دليلًا له، وحجة على الناس)[١]، فإنه سبحانه وتعالى لم يبعث نبيًّا إلا بآية تبين صدقه، إذ تصديقه بما لا يدل على صدقه غير جائز، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد:٢٥]. أي الآيات البينات)، وذلك أن الناس كلما قويت حاجتهم إلى الشيء يسر الله لهم أسبابه، فلما كانت حاجتهم إلى معرفة صدق الرسل عظيمة أقام الله سبحانه من دلائل صدقهم وشواهد نبوتهم ما يظهر لمن تدبر ذلك؛ ولهذا لا يكاد يوجد مسلم إلا قد عرف كثيرًا من آيات النبي ﷺ، وسمعها ونقلها إلى غيره،بخلاف كثير من الأحكام المتواترة المتفق على نقلها عند العلماء[٢].

(١) النبوات، لابن تيمية (٢/ ٦٣٩).
(٢) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية (٦/ ٣٢٧).

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

وتتنوع هذه الدلائل في الوضوح والخفاء، فمنها ما هو ظاهر بين لكل أحد ومنها ما يختص به من عرفه (وما اشتدت الحاجة إليه في الدين والدنيا، فإن الله يجود به على عباده جودًا عامًا ميسرًا)[١].

وتتجلى رحمة الله تعالى في اسم الله الأكرم فإنه أبلغ من الكريم، وهو المحسن غاية الإحسان. ومن إحسانه أنه علم بالقلم، والتعليم بالقلم يتناول علم العبارة والنطق، وعبارة المعاني والعلوم؛ فإذا كان قد علم الإنسان هذه العلوم، فكيف يمتنع عليه أن يعلمه ما يأمره به، وما يخبره به.

وإذا كان تعالى قادرًا على أن يهدي الإنسان الذي كان علقة، ومضغة إلى أنواع العلوم بأنواع من الطرق إنعامًا عليه، ورحمة به، فكيف لا يقدر أن يعرفه صدق من أرسله إليه. وهذا أعظم النعم عليه، والإحسان إليه.

ثم إن من هدى عباده إلى أن يرسلوا رسولا بعلامة، ويعلم المرسل إليهم أنها علامة تدل على صدقه قطعا، فكيف لا يقدر هو أن يرسل رسولا، ويجعل معه علامات يعرف بها عباده أنه قد أرسله. فمن هدى العباد إلى هذا، فهو أقدر على أن يعلمهم صدق رسوله بعلامات يعرفون بها صدقه، وإن لم يكن قبل ذلك قد تقدم بينهم وبينه اتفاق سابق؛ بل هذا من لوازم رحمته تعالى[٢].

ومن رحمة الله بالرسل وأقوامهم أن مهد للرسل نزول الوحي، وقدم بين يدي ذلك مقدمات وإرهاصات ذلك أن الوحي أمر عظيم، ومن ذلك أنه قدم بين يدي مبعثه عليه السلام ولادة يحيى عليه السلام، وبين يدي مولد محمد ﷺ ما جرى لأصحاب الفيل، وقبيل بعثته كان يسمع صوت الأحجار والأشجار وهي تسلم عليه بالنبوة، والرؤيا التي يراها فتقع كفلق الصبح

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية (٥/ ٤٣٥).
(٢) انظر: النبوات، لابن تيمية (٢/ ٦٧٢/ ٦٨٣).

وغير ذلك، وهذا من رحمة الرحيم، لئلا يفجؤه الوحي، وليثبته عند نزول الملك عليه.

المسألة الأولى: الرحمة في تنوع الآيات وعدم اقتصارها على ما سمي بالمعجزات ومناقشة ذلك:

يطلق بعض العلماء على الآيات الدالة على صدق نبوة الأنبيَّاء اسم: المعجزات والسبب: (لأن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها)[1]. والأولى تسميتها بالآيات والبراهين ودلائل النبوة وأعلام النبوة، لأنها أدل على المقصود من لفظ المعجزات، ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجودًا في الكتاب والسنة وإنما فيه لفظ الآية والبينة والبرهان، قال تعالى في قصة موسى عليه السلام ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٢٥] في العصا واليد، وقال تعالى في حق محمد ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا﴾ [النساء :١٧٤] وأما لفظ الآيات فكثير جدًا في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١٢٤] فالآية أو دليل النبوة ينحصر عند المتكلمين -المعتزلة والأشاعرة- في المعجزة. وهو في اللغة: اسم فاعل مأخوذ من العجز وهو ضد القدرة، ونقيض الحزم، وهو الضعف، والهاء فيها للمبالغة[2].

وسميت بهذا الاسم لعجز من يقع عندهم ذلك عن معارضتها، قال القاضي عياض: اعلم أن معنى تسميتنا به الأنبيَّاء معجزة هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها[3].

وأما حدها في الاصطلاح، فقد اختلف فيه، فيرى المعتزلة أنها:

(١) الشفاء، القاضي عياض ٤٩١/١ وينظر: أعلام النبوة، الماوردي ص٤٢، أصول الدين، البغدادي، ص١٧٠، شرح الأصول الخمسة، القاضي عبدالجبار ص٥٦٨.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة عجز ٣٦٩/٥، تاج العروس، الزبيدي، مادة عجز ٤٩/٤، فتح الباري، ابن حجر ٥٨١/٦.

(٣) الشفا، القاضي عياض ٤٩١/١ .

الفعل الخارق للعادة فقط، ثم يلتزمون إنكار الكرامات والسحر فيقولون: السحر كله من باب الشعوذة(١).

وأما الأشاعرة فيضيفون إلى تعريف المعتزلة قيودًا أخرى، فيقولون: هي الفعل الخارق للعادة، المقترن بدعوى النبوة، السالم عن المعارضة، المقرون بالتحدي(٢).

ونوقش هؤلاء من عدة أوجه، أهمها: أن الاستدلال بالمعجزات على صدق الرسل صحيح، ولكن الدليل غير محصور بها فكان خطؤهم هو قصرهم الدليل على المعجزة، وأما تعريفهم لها بأنها الخارق للعادة، فقد ذكر ابن تيمية أن هذا ليس بأمر منضبط، لأن كون الشيء معتادًا مأخوذ من العود، وهذا يختلف باختلاف الأمور، ثم إنه قد يعنى به أنه لم يوجد له نظير في العالم قط، وهذا غير صحيح ذلك أن آيات الأنبيّاء بعضها نظير بعض.

وقد يُعنى به ما خرق عادة أولئك المخاطبين بالنبوة، بحيث لا يوجد فيهم من يقدر على ذلك وهذا -بمجرده- ليس بحجة، فإن أكثر الناس لا يقدرون على الكهانة والسحر، ووجد من ادعى النبوة كاذبًا وكان كاهنًا ساحرًا تساعده الشياطين مثل الأسود العنسي، ولم يكن في المخاطبين بالنبوة من يقدر على ما يقدر عليه، ومع هذا فقد عُرف كذبه من وجوه أخرى(٣).

وأما إنكار المعتزلة للكرامات، وجعلهم السحر كله من باب الشعوذة، فهذا مكابرة للواقع، وإنكار لما علم بالتواتر.

ثم إنه لا يلزم أن يكون دليل النبوة مقترنًا بدعوى النبوة، فهناك أدلة

(١) انظر: المغني، القاضي عبدالجبار ١٥/٢٢٥،١٤٨، ٢٣٣، ٢٥٩، شرح الأصول الخمسة، القاضي عبدالجبار ٥٦٨.
(٢) أصول الدين، البغدادي ص١٧.
(٣) ينظر: النبوات، لابن تيمية (١/ ١٧٣).

وعلامات للنبوة سابقة عليها ولاحقة ومنها البشارات، وما يحدث قبل نبوة الأنبيَّاء بل وقبل وجودهم مثل قصة الفيل، وما يحدث بعد وفاة الأنبيَّاء من نصر الله للدين، واستمراره، هذا كله من دلائل النبوة، وهو غير مقترن بدعوى النبوة[1]. وهذا كله من عموم رحمة الله بالخلق.

أخيرا لا يلزم أن يتحدى النبي ﷺ بكل آية؛ ذلك أن آيات الأنبيَّاء آيات، وإن لم ينطقوا بالتحدي.

ومن رحمته تعالى بخلقه وعلمه بحاجة الخلق إلى الآيات الدالة على صدق الأنبيَّاء أنه أيدهم بها: (وكلما كان الناس إلى الشيء أحوج، كان الرب به أجود)[2].

ومنعت رحمته تعالى وحكمته أن يسوي بين الصادق والكاذب في دعوى النبوة؛ فيؤيد الكاذب من آيات الصدق، بمثل ما يؤيد به الصادق؛ أو أن يرسل رسولًا يأمر الخلق بالإيمان به وطاعته، ولا يجعل لهم طريقًا إلى معرفة صدقه؛ بل هذا كتكليفهم بما لا يقدرون على أن يعلموه. وهذا ممتنع في صفة الرب، وهو منزه عنه سبحانه؛ فإنه الرب الرحيم الذي لا يكلف نفسا إلا وسعها.[3]

المسألة الثانية: تيسير الاطلاع على آثار الأنبيَّاء الدالة على صدقهم:

ومن رحمة الله بالبشر أن جعل الاطلاع على آثار الأنبيَّاء ميسورا فهي (تارة تعلم بمجرد الأخبار المتواترة، وإن لم نشاهد شيئًا من آثارها، وتارة نشاهد بالعيان آثارها الدالة على ما حدث؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥ وَإِنَّهَا

(١) ينظر: الجواب الصحيح، ابن تيمية ٤(/١٢٢).
(٢) النبوات، لابن تيمية (٢/ ٦٨٧).
(٣) انظر: النبوات، لابن تيمية (٢/ ٦٨٧).

﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر:٧٥-٧٨]؛ أي لبطريق موضح، متبين لمن مر به آثارهم. وهذه الأخبار كانت منتشرة متواترة في العالم، وقد علم الناس أنها آيات للأنبيَّاء، وعقوبة لمكذبيهم).[١]

من رحمة الله أنه يسر للبشرية نقل أخبار الأنبيَّاء مع أقوامهم بالتواتر، وهذا العلم (من أظهر العلوم المتواترة وأجلاها، ونقل هذه الأمور أظهر وأوضح من نقل أخبار ملوك الفرس والعرب في جاهليتها. فكل عاقل يعلم أن نقل أخبار الأنبيَّاء وأتباعهم ينقلها من أهل الملل من لا يحصى عدده إلا الله ويدونونها في الكتب)[٢].

كذلك من رحمة الله أنه (أبقى في العالم الآثار الدالة على ما فعله بأنبيَّائه والمؤمنين من الكرامة، وما فعله بمكذبيهم من العقوبة، وذلك أيضًا معلوم بالتواتر كتواتر الطوفان وإغراق فرعون وجنوده. والله تعالى كثيرا ما يذكر ذلك في القرآن كقوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٢-٤٦]

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق:٣٧-٣٦].

(١) النبوات، لابن تيمية (١/ ٥١٤/ ٥١٥)(من ويكيبيديا: ورغم اختلاف القصة في مختلف الديانات والمعتقدات إلا أن جميعها تتفق على حصول طوفان عظيم عم الأرض كلها وأن هناك سفينة أبحرت فوقه ونجاة الناجين الذين كانوا على متنها.

(٢) شرح العقيدة الأصفهانية (ص: ١٥٤).

أخيرا ومما هو من آثار الأنبيَّاء، ومن رحمته تعالى أنه أبقى في الأرض ما يعلم أنه حفظ بأمر الله وهي: (الكعبة فإنها بيت من حجارة بواد غير ذي زرع، ليس عندها أحد يحفظها من عدو، ولا عندها بساتين وأمور يرغب الناس فيها؛ فليس عندها رغبة ولا رهبة. ومع هذا فقد حفظها بالهيبة والعظمة. وجعل فيها من الرغبة يأتيها الناس من أقطار الأرض محبة، وشوقا، من غير باعث دنيوي. وهي على هذه الحال من ألوف من السنين؛ وهذا مما لا يعرف في العالم لبنية غيرها .وهذا مما حير الفلاسفة ونحوهم؛ فإنهم يظنون أن المؤثر في هذا العالم هو حركات الفلك، وأن ما بني وبقي فقد بني بطالع سعيد؛ فحاروا في طالع الكعبة، إذ لم يجدوا في الأشكال الفلكية ما يوجب مثل هذه السعادة، والعزة، والعظمة، والدوام، والقهر، والغلبة)[(١)].

المسألة الثالثة: أحوال الرسل وسيرهم وسنة الله في نصره لهم دليل وبرهان على صدقهم:

كان من رحمة الله بالبشرية وسنته في الأنبيَّاء وأتباعهم والكفار بهم أن الأولين (ينصرهم ويعزهم، ويجعل لهم العاقبة المحمودة، والآخرين يهلكهم ويذلهم، ويجعل لهم العاقبة المذمومة؛ كما فعل بقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وفرعون وقومه؛ وكما فعل بمن كذب محمدًا ﷺ؛ من قومه قريش، ومن سائر العرب، وسائر الأمم غير العرب؛ وكما فعل بمن نصر أنبيَّاءه وأتباعهم.)[(٢)]

ونصر الله للأنبيَّاء وحسن عاقبتهم وأتباعهم وسوء عاقبة مكذبيهم (من أعظم الأدلة والبراهين على صدق الرسل وبرهم، وكذب من خالفهم وفجوره، ثم إنه سبحانه بين أن ذلك يعلم بالبصر أو السمع أو بهما.

(١) النبوات، لابن تيمية (١/ ٥١٠- ٥١٢).
(٢) النبوات، لابن تيمية (٢/ ٩٥٩، ٩٦٠).

فالبصر والمشاهدة لمن رآهم أو رأى آثارهم الدالة عليهم كمن شاهد أصحاب الفيل وما أحاط بهم، ومن شاهد آثارهم بأرض الشام واليمن والحجاز وغير ذلك: كآثار أصحاب الحجر وقوم لوط ونحو ذلك. والسمع فبالأخبار التي تفيد العلم: كتواتر الأخبار بما جرى في قصة موسى وفرعون وغرق فرعون في القلزم، وكذلك تواتر الأخبار بقصة الخليل مع النمرود، وتواتر الأخبار بقصة نوح وإغراق أهل الأرض، وأمثال ذلك من الأخبار المتواترة عند أهل الملل وغير أهل الملل مع أن في بعض قصص من تواترت به هذه الأخبار ما يحصل العلم بخبرهم، واشتراك البصر والسمع كما يشاهد بعض الآثار من تواتر الأخبار)[١].

ومن رحمة الله أن جعل الأدلة على صدق الرسل كثيرة، ومنها: العلم بحال الأنبيَّاء الذي يوجب العلم اليقيني بصدقهم، وذلك من وجوه متعددة (منها: أنهم أخبروا الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أولئك وبقاء العاقبة لهم أخبارًا كثيرة في أمور كثيرة، هي كلها صادقة لم يقع في شيء منها تخلف ولا غلط بخلاف من يخبر به من ليس متبعًا لهم ممن تنزل عليه الشياطين، أو يستدل على ذلك بالأحوال الفلكية وغيره. وهؤلاء لا بد أن يكونوا كثيرًا، بل الغالب من أخبارهم الكذب، وإن صدقوا أحيانًا. ومن ذلك: أن ما أحدثه الله تعالى من نصرهم وإهلاك عدوهم إذا عرف الوجه الذي حصل عليه كحصول الغرق لفرعون وقومه بعد أن دخل البحر خلف موسى عليه السلام وقومه كان هذا مما يورث علما ضروريًا أن الله تعالى أحدث هذا نصرًا لموسى وقومه ونجاة لهم، وعقوبة لفرعون وقومه ونكالاً لهم، وكذلك أمر نوح والخليل عليهما السلام، وكذلك قصة الفيل وغير ذلك).[٢]

(١) شرح العقيدة الأصفهانية (ص: ١٥٣).
(٢) شرح العقيدة الأصفهانية (ص: ١٥٥- ١٥٦).

وكانت قريش تعرف محمدًا، وكانوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة، قد خبروا أمره، وعلموا صدقه، فكان ذلك أقرب لهم إلى تصديقه والوثوق به، ثم أنهم كانوا عالمين بأنه لم يتلمذ لأحد، ولم يقرأ كتابًا ولم يمارس درسا ولا تكرارا، وأنه إلى تمام الأربعين لم ينطق البتة بحديث النبوة والرسالة، ثم إنه بعد الأربعين ادعى الرسالة وظهر على لسانه من العلوم ما لم يظهر على أحد من العالمين، ثم إنه يذكر قصص المتقدمين وأحوال الأنبيَّاء الماضين على الوجه الذي كان موجودًا في كتبهم، فكل من له عقل سليم علم أن هذا لا يتأتى إلا بالوحي السماوي والإلهام الإلهي. وهم بعد ادعاء النبوة عرضوا عليه الأموال الكثيرة والأزواج، ليترك هذه الدعوى فلم يلتفت إلى شيء من ذلك، بل قنع بالفقر وصبر على المشقة، ولما علا أمره وعظم شأنه وأخذ البلاد وعظمت الغنائم لم يغير طريقه في البعد عن الدنيا والدعوة إلى الله، والكاذب إنما يقدم على الكذب ليجد الدنيا، فإذا وجدها تمتع بها وتوسع فيها، فلما لم يفعل شيئًا من ذلك علم أنه كان صادقًا[1].

المسألة الرابعة: رحمة الله بالبشر بحفظ القرآن وكونه آية:

وهو من أعظم الآيات التي أوتيها وأعطيها الأنبيَّاء؛ في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (ما من الأنبيَّاء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلَّي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)[2].

ومن رحمة الله بالبشرية أن بعث محمدًا رسولًا إلى جميع الثقلين، وجعل آيات نبوته ظاهرة معلومة (لكل الخلق الذين بعث إليهم، وقد يكون

(١) انظر: تفسير الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ٤٣٥)، تفسير ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٥٣٧)، تفسير الرازي: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٩/ ٤١٨) (٩/ ٤١٩).

(٢) رواه البخاري في صحيحه ٤١٩٠٥، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، وأول ما أنزل. و٦٢٦٥٤، كتاب الاعتصام، باب قول النبي: ﷺ "بعثت بجوامع الكلم". ورواه مسلم في صحيحه ١١٣٤، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته.

عند هؤلاء من الآيات والبراهين على نبوته، ما ليس عند هؤلاء. وكان يظهر لكل قوم من الآيات النفسية والأفقية ما يبين به أن القرآن حق، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ۝٥٤﴾ [فصلت:٥٢-٥٤]

أخبر سبحانه أنه سيري عباده الآيات في أنفسهم، وفي الآفاق حتى يتبين لهم أن القرآن حق، ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، فإن شهادته وحده كافية دون ما ينتظر من الآيات، وشهادته للقرآن ولمحمد، تكون بأقواله التي أنزلها قبل ذلك على أنبيّائه عن أهل الكتاب. وتكون بأفعاله وهو ما يحدثه من الآيات والبراهين، الدالة على صدق رسله، فإنه صدقهم بها فيما أخبروا به عنه، وشهد لهم بأنهم صادقون.

والقرآن هو قول الله، وفيه شهادة الله بما أخبر به الرسول، وإنزاله على محمد وإتيان محمد به هو آية وبرهان، وذلك من فعل الله؛ إذ كان البشر لا يقدرون على مثله لا يقدر عليه أحد من الأنبيّاء، ولا الأولياء، ولا السحرة، ولا غيرهم. وقد أخبر خبرًا وأكده بالقسم عن جميع الثقلين أنهم إذا اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، بل يعجزون عن ذلك، وهذا فيه آيات لنبوته.

منها إقدامه على هذا الخبر العظيم عن جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة بأنهم لا يفعلون هذا، بل يعجزون عنه. ولا يتصور أن بشرًا يجزم بهذا الخبر، إلا أن يعلم أن هذا مما يعجز عنه الخلق، إذ علم العالم بعجز جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة، هو من أعظم دلائل كونه معجزا،

وكونه آية على نبوته، فهذا من دلائل نبوته في أول الأمر عند من سمع هذا الكلام، وعلم أنه من القرآن الذي أمر ببلاغه إلى جميع الخلق، وهو وحده كاف في العلم بأن القرآن معجز.

وغير ذلك من الدلائل الكثيرة على أنه معجز، مثل عجز جميع الأمم عن معارضته مع كمال الرغبة والحرص على معارضته، وعدم الفعل مع كمال الداعي يستلزم عدم القدرة، فلما كان دواعي العرب وغيرهم على المعارضة تامة، علم عجز جميع الأمم عند معارضته، وهذا برهان ثان يعلم به صدق هذا الخبر، وصدق هذا الخبر آية لنبوته غير العلم بأن القرآن معجز، فإن ذلك آية مستقلة لنبوته، وهي آية ظاهرة باقية إلى آخر الدهر، معلومة لكل أحد، وهي من أعظم الآيات)[١].

(١) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٥/ ٤٠٥ــــ ٤١٠).

المبحث الخامس

الرحمة في إقامة الحجة بالرسل وعدم التعذيب قبل إرسال الرسل وإنزال الكتب.

فطر اللّه تعالى القلوب على توحيده، ونصب في الكون شواهد على ذلك، وأودع في الإنسان عقلا يميز به بين الأمور، فيعرف حسنها من قبحها، إلا أنه لتمام عدله ورحمته وحكمته لم يجعل الحجة إلا بالرسالة التي منَّ اللّه تعالى بها على خلقه. وهذا الأصل دلت عليه النصوص، فإن اللّه لا يعذب إلا من أرسل إليه رسولا تقوم به الحجة عليه.(١)

وأكد اللّه تعالى هذا المعنى في آيات كثيرة، منها قولة تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء:١٥] فأثبت الحجة بالرسل خاصة ونفى العقاب قبل البعثة.

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ [طه:١٣٤].

فدل ذلك على أن المقتضي لعذابهم قائم، ولكن شرط العذاب هو بلوغ الرسالة، ولهذا قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] وفي الصحيحين عن النبيﷺ أنه قال: «ما أحد أحب إليه العذر من اللّه؛ من أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب.(٢)

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية (٢/ ٢٩١).
(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية (٢/ ٣٠٦).

وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.

قال ابن القيم: فهذا صريح بأن الحجة إنما قامت بالرسل، وأنه بعد مجيئهم لا يكون للناس على الله حجة، وهذا يدل على أنه لا يعذبهم قبل مجيء الرسل إليهم، لأن الحجة حينئذ لم تقم عليهم(١).

وقال تعالى ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف:٧٧-٧٨].

والحق هاهنا هو ما بعث به المرسلون باتفاق المفسرين(٢).

فلا يهلك الله قومًا إلا بعد الإعذار إليهم بالرسل، وإقامة الحجة عليهم بالآيات التي تقطع عذرهم؛ قال قتادة: إن الله تبارك وتعالى ليس يعذب أحدًا حتى يسبق إليه من الله خبرًا، أو يأتيه من الله بينة، وليس معذبا أحدًا إلا بذنبه(٣).

فقطع حجة كل مبطل ألحد في توحيده وخالف أمره، بجميع معاني الحجج القاطعة عذره، إعذارًا منه بذلك إليهم، لتكون لله الحجة البالغة عليهم وعلى جميع خلقه.(٤)

وهذا من عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه(٥).

فإرسال الرسل كان إقامة للحجة وقطعا للعذر، وفيه دليل على أن ما

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ٢/٣٩.
(٢) مفتاح دار السعادة ابن القيم ٢ /٥١.
(٣) تفسير الطبري: جامع البيان ت شاكر (١٧/ ٤٠٢).
(٤) تفسير الطبري: جامع البيان ت شاكر (٩/ ٤٠٨).
(٥) تفسير ابن كثير ت سلامة (٥/ ٥٢).

وجب إنما وجب بالسمع لا بالعقل(١).

المسألة الأولى: حكم من لم تقم عليه الحجة:

ومن رحمة الله أن من لم تقم عليه الحجة في الدنيا بالرسالة كالأطفال والمجانين وأهل الفترات: أنهم يمتحنون يوم القيامة كما جاءت به الآثار، فيبعث الله إليهم من يأمرهم بطاعته، فإن أطاعوه استحقوا الثواب، وإن عصوه استحقوا العقاب(٢).

روى الإمام أحمد بسنده (عن الأسود بن سريع، أن نبي الله ﷺ قال: أربعة يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئًا، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة، فأما الأصم فيقول: رب، لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئًا، وأما الأحمق فيقول: رب، لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب، لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئًا، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب، ما أتاني لك رسول، فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، قال: فوالذي نفس محمد بيده، لو دخلوها لكانت عليهم بردًا وسلامًا)(٣).

المسألة الثانية: العذر بالجهل وضرورة بلوغ الحجة:

ومما ألحق بهذا: مسألة العذر بالجهل وبلوغ الحجة بعد بعثة الرسول محمد وهي مسألة شائكة بحسب تعبير الشيخ ابن عثيمين الذي يقول: (مسألة العذر بالجهل مسألة عظيمة شائكة، وهي من أعظم المسائل تحقيقًا وتصويرًا. فمن الناس من أطلق وقال: لا يعذر بالجهل في أصول الدين كالتوحيد، فلو وجدنا مسلمًا في بعض القرى أو البوادي النائية

(١) تفسير البغوي، إحياء التراث (٣/ ١٢٤).
(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية (٢/ ٢٩٨).
(٣) مسند أحمد ط الرسالة (٢٦/ ٢٢٨) رقم الحديث :١٦٣٠١، قال عنه الألباني: صحيح -"الصحيحة" (١٤٣٤).

يعبد قبرًا أو وليًا، ويقول: إنه مسلم، وإنه وجد آباءه على هذا ولم يعلم بأنه شرك فلا يعذر. والصحيح أنه لا يكفر؛ لأن أول شيء جاءت به الرسل هو التوحيد، ومع ذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الأسراء:١٥] فلا بد أن يكون الإنسان ظالما، وإلا فلا يستحق العذاب)[١].

ويذكر أن مرتكب أحد نواقض الإسلام أو تارك أحد أركانه يكفر بشرط أن يبلغه (الحكم على وجه واضح بين، فقد قامت عليه الحجة. فالشرط هو بلوغ الحجة على وجه يتبين به الأمر، فإذا بلغ الإنسان ذلك، فإن إقراره بها ليس بشرط، فيحكم بكفره ولو لم يقر بها)[٢].

ويؤكد ابن تيمية عذر تارك أركان الإسلام عدا الشهادتين في حال لم تبلغه الحجة أو لم تقم عليه الحجة، فيقول: (وأما «الفرائض الأربع» فإذا جحد وجوب شيء منها بعد بلوغ الحجة فهو كافر، وكذلك من جحد تحريم شيء من المحرمات الظاهرة المتواتر تحريمها: كالفواحش والظلم والكذب والخمر، ونحو ذلك. وأما من لم تقم عليه الحجة مثل أن يكون حديث عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة لم تبلغه فيها شرائع الإسلام ونحو ذلك، أو غلط فظن أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستثنون من تحريم الخمر كما غلط في ذلك الذين استتابهم عمر. وأمثال ذلك، فإنهم يستتابون وتقام الحجة عليهم، فإن أصروا كفروا حينئذ، ولا يحكم بكفرهم قبل ذلك؛ كما لم يحكم الصحابة بكفر قدامة بن مظعون. وأصحابه لما غلطوا فيما غلطوا فيه من التأويل)[٣].

المسألة الثالثة: الفرق بين الحكم المطلق والحكم المقيد:

كذلك يشير ابن تيمية إلى أن الأقوال المطلقة في تكفير مرتكب فعل

(١) الشرح الممتع على زاد المستقنع (٦/ ١٩٣).
(٢) الشرح الممتع على زاد المستقنع (٦/ ١٩٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٠٩/ ٦١٠).

معين تترك على إطلاقها، ولا بد فيها من شروط ليحكم بكفر قائلها أو فاعلها؛ فيقول: (فإذا رأيت إمامًا قد غلظ على قائل مقالته أو كفره فيها، فلا يعتبر هذا حكمًا عامًا في كل من قالها، إلا إذا حصل فيه الشرط الذي يستحق به التغليظ عليه والتكفير له؛ فإن من جحد شيئًا من الشرائع الظاهرة وكان حديث العهد بالإسلام، أو ناشئًا ببلد جهل لا يكفر حتى تبلغه الحجة النبوية.)[1] وهذه تعرف بضوابط تكفير المعين.

بل إن الحجة من الممكن ألا تبلغ العلماء فضلًا عن غيرهم، فمن الجائز أن يخطئ إمام ويعذر في خطئه، ويخطئ غيره فلا يعذر (لعدم بلوغ الحجة له؛ فلا يغتفر لمن بلغته الحجة ما اغتفر للأول فلهذا يبدع من بلغته أحاديث عذاب القبر ونحوها إذا أنكر ذلك، ولا تبدع عائشة ونحوها ممن لم يعرف بأن الموتى يسمعون في قبورهم) [2].

وهذا يدل على مراعاة أحوال الناس وما بلغهم من العلم. وهذه المسائل المذكورة كلها تؤكد على عموم رحمة الله بالخلق، وأنه لا يكلفهم ما لا يطيقون، وأنه يراعي أحوالهم، فسبحانه من خالق بر رحيم، وسعت رحمته كل شيء.

(١) مجموع الفتاوى ٦ / ٦١.
(٢) مجموع الفتاوى (٦ / ٦١).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على خاتم الرسل والرسالات، الذي أرسله الرحيم رحمة للبريات؛ وبعد؛

فقد كان من أهم نتائج هذا البحث:

١. يراد بالغيب: كل ما غاب عن العيون ولم يتمكن من الوصول إليه عن طريق الحس، وفي الشرع: كل ما أمر الخلق بالإيمان به وغاب عن العيون، وجميع ما أخبرت به الرسل من الأمور الغيبية الماضية أو المستقبلية، وجميع أركان الإيمان من الإيمان بالغيب، والإيمان بالله هو أصل كل غيب.

٢. أمر الله الإنسان بالإيمان بالغيب، ووهبه نعمة العقل، التي دلته على صدق ما أخبرت به الرسل من أمور غيبية، ووضع له منهجا يتوافق مع عقله، يسلم فيه العقل للنص، وحرم الخوض في الأمور الغيبية بلا علم، وأوجب التسليم بكل ما صح وثبت عن الرسل، وهذا هو الغاية في احترام العقل، إذ إنه هو الذي دل على صدق الرسل؛ فإشفاقًا عليه من الخوض فيما لا يمكن الوصول إليه حرم عليه الخوض في ذلك، لأن أمور الغيب لا تجري عليها

أحكام الحس، ولله تعالى حكم عظيمة في إخفاء الغيب أهمها: تمييز المؤمن من الكافر.

٣. فطر الله الخلق محتاجين لعبادته، ولا طريق لمعرفة ذلك كيفية عبادته إلا عن طريق الرسل؛ لذا حاجتهم للرسل حاجة ضرورية، فلذلك كانت بعثة الرسل أعظم منة امتن الله بها على خلقه، وأما محمد ﷺ فقد كانت بعثته رحمة للعالمين جميعهم: مؤمنهم وكافرهم، فالمؤمنون نالوا بالإيمان به الثواب، والكفار أمنوا به في الدنيا من المسخ والاستئصال.

٤. كان من رحمة الله بخلقه أن بعث الرسل من جنس البشر، وهذا تكريم للبشرية جمعاء، ومع ذلك اعترض الكفار، واقترحوا أن تكون الرسل من الملائكة، وطلبوا إنزالها، ولكن الله لعموم رحمته لم يجبهم إلى طلبهم هذا لرحمته بالبشر، ذلك أنهم لا يستطيعون الأخذ من الملائكة، لأنهم لا يقدرون على رؤيتهم في صورتهم التي خلقهم الله عليها فلو أنزلت عليهم لماتوا من هول رؤيتهم، وكون الرسل من جنسهم يجعلهم يفقهون عنهم، ويفهمون منهم، ويأنسون بهم وتتحقق القدوة بشكل أمثل، أخيرا لو أنزل الله الملائكة ثم لم يؤمنوا لجاءهم العذاب، ولم يمهلوا جريًا على سنة الله تعالى في الآيات المقترحة.

٥. ومن تمام نعمة الله وكمال رحمته بخلقه جعل الرسل يتكلمون بنفس لغة الأقوام المرسل إليهم، ووهبهم أكمل الأخلاق وأحسنها، وبعثهم في ذروة أنساب أقوامهم، ليكون أدعى لقبول الرسالة منهم وتصديقهم.

٦. كان من تمام رحمة الله بخلقه أن بعث الرسل مؤيدين بالآيات

والبراهين، ذلك أن المقام مقام ادعاء دعوى الرسالة والنبوة وهي أعظم دعوى لا يدعيها إلا أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين، ويمتنع في رحمة الله أن يساوي بينهما فلا بد من وجود ما يتبين به صدق الصادق وكذب الكاذب، وهذه الآيات والدلائل ليست على درجة واحدة في الوضوح، بل ربما يتبين لجماعة ما لم يتبين لغيرهم، إلا أنه لا بد للجميع أن يتبين لهم صدق الرسل.

٧. كان من رحمة الله تعدد وتنوع أدلة النبوة، خلافًا لما ذهب إليه المعتزلة والأشاعرة من قصره دليل النبوة على ما أطلق عليه اسم المعجزات، وعرفوها بأنها الأمور الخارقة للعادة، وأضافت الأشاعرة قيودًا أخرى للتعريف، إلا أن اسم الآيات والدلائل والبراهين أدل على المقصود إضافة إلى ورودها في النصوص الشرعية، ولأن من دلائل النبوة ما لا ينطبق عليه التعريف، مثل: تيسيره سبحانه الاطلاع على آثار الأنبيَّاء، ومثل البشارات وبقاء الدين ونصر الأنبيَّاء وغيرها.

٨. كان من رحمة الله أن بعث محمدًا مؤيدا بأعظم آية، وهي القرآن الكريم الذي تكفل الله بحفظه إلى قيام الساعة، وأكد أن جميع الثقلين لن يأتوا بمثل هذا القرآن، وأقدم على هذا الخبر العظيم، وهذا من أعظم دلائل نبوة محمد ﷺ.

٩. كان من رحمة الله بالخلق أنه لم يجعل الحجة إلا بالرسل، فلا يعذب من لم تبلغه دعوة الأنبيَّاء، فلا يهلك الله قومًا إلا بعد إرسال رسول لهم، فتقوم عليهم الحجة. ومن رحمته أن أهل الفترة ومن لم تبلغه دعوة نبي، فإن الله يختبره يوم القيامة ويمتحنه بما يتبين به إيمانه من كفره.

١٠. كان من رحمة الله تعالى أنه يراعي أحوال المكلفين فلا يعذبهم إلا بشرط قيام الحجة وبلوغها لهم، وتفرع عن ذلك مسألة: التفريق بين الحكم بالتكفير المطلق وبين الحكم بالتكفير المقيد، فلا تترك الأقوال التي ذكر فيها التكفير على إطلاقها، بل لا بد من شروط ليحكم بكفر قائليها.

هذه هي أهم نتائج البحث، أما أبرز التوصيات، فهي: ضرورة متابعة البحث في دلائل نبوة محمد ﷺ، وما ظهر من تصديق للأمور الغيبية التي أخبر بها النبي ﷺ في هذا العصر، وتشجيع الدراسات الدالة على سعة رحمة الله تعالى وعمومها. وأسجل شكري هنا لجامعة الملك سعود ممثلة بقسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية على تبنيها هذا المؤتمر.

فسبحان من وسعت رحمته كل شيء، وصلى الله وسلم على المبعوث رحمة للعالمين بالدين الحق المبين.

فهرس المصادر والمراجع

١. أصول الدين: أبو منصور عبدالقاهر بن طاهر البغدادي - دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ -١٩٨١م.

٢. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ) الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر

٣. أعلام النبوة: أبو الحسن علي بن محمد الماوردي - قدم له وشرحه وعلق عليه محمد شريف سكر - دار إحياء العلوم - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٤. تفسير الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة: الثالثة -١٤٠٧هـ

٥. تاج العروس: السيد محمد مرتضى الزبيدي، دار صادر، بيروت.

٦. تفسير البغوي: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، المحقق: عبدالرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي -بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ

٧. تفسير ابن أبي حاتم، لمحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز -المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة- ١٤١٩هـ

٨. تفسير ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، المحقق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى -١٤٢٢هـ.

٩. تفسير ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ -١٩٩٩م.
١٠. تفسير الرازي: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، التفسير الكبير- الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة.
١١. تفسير الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - تأليف: أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر، طبعة ١٣٨٥-١٩٦٦م.
١٢. تفسير السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف: عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.
١٣. تفسير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.
١٤. تفسير القاسمي: محاسن التأويل، حمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى -١٤١٨هـ.
١٥. التفسير القيم: تفسير القرآن الكريم، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، الناشر: دار ومكتبة الهلال - بيروت، الطبعة: الأولى -١٤١٠هـ.
١٦. تفسير المنار، تفسير القرآن الحكيم، المؤلف: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا

علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ) الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠م.

١٧. تلبيس إبليس، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

١٨. توضيح الأحكام من بلوغ المرام، أبو عبدالرحمن عبدالله بن عبدالرحمن بن صالح بن حمد بن محمد بن حمد بن إبراهيم البسام التميمي، الناشر: مكتَبة الأسدي، مكّة المكرّمة، الطبعة: الخامِسَة، ١٤٢٣ هـ -٢٠٠٣م.

١٩. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية، تحقيق: علي بن حسن -عبدالعزيز بن إبراهيم -حمدان بن محمد، الناشر: دار العاصمة، السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

٢٠. رسائل الشيخ محمد بن إبراهيم الحمد في العقيدة، (الكتاب مرقم آليًّا) من المكتبة الشاملة.

٢١. زاد المسير في علم التفسير - لأبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي - المكتب الإسلامي للطباعة والنشر - دمشق -بيروت الطبعة الأولي ١٣٨٥هـ-١٩٦٥.

٢٢. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها المؤلف: أبو عبدالرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة: الأولى، (لمكتبة المعارف)

٢٣. شرح الأصول الخمسة، القاضي عبدالجبار بن أحمد - تعليق أحمد ابن الحسين بن أبي هاشم، حققه وقدم له: عبدالكريم عثمان، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ذو الحجة سنة ١٣٨٤-١٩٦٥م.

٢٤. شرح الطحاوية، صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط -عبدالله بن المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: العاشرة، ١٤١٧هـ -١٩٩٧م.

٢٥. شرح الطحاوية للراجحي، عبدالعزيز بن عبدالله بن عبدالرحمن الراجحي، (الكتاب مرقم آليًّا)، وهو أشرطة مفرغة ضمن الدورة العلمية التي أقيمت بجامع شيخ الإسلام ابن تيمية.

٢٦. شرح الطحاوية لصالح آل الشيخ: إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل، المؤلف: صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، (الكتاب مرقم آليًّا)، دروس مفرغة.

٢٧. شرح العقيدة الأصفهانية، أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المحقق: محمد بن رياض الأحمد، الناشر: المكتبة العصرية - بيروت، الطبعة: الأولى -١٤٢٥هـ.

٢٨. الشفا بتعريف حقوق المصطفى - القاضي عياض بن موسى اليحصبي قدم له: -عبدالوهاب دبس وزيت، عبدالكريم الرفاعي تحقيق محمد أمين قره علي وجماعة مكتبة الفارابي.

٢٩. صحيح مسلم:المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبدالباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي -بيروت.

٣٠. العين: كتاب العين، مؤلف: أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو ابن تميم الفراهيدي البصري، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

٣١. صحيح البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٢. فتح الباري شرح صحيح البخاري، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة -بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبدالباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبدالعزيز بن عبدالله بن باز.

٣٣. فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني اليمني، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب -دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى -١٤١٤ هـ.

٣٤. لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة -١٤١٤ هـ.

٣٥. لقاء الباب المفتوح، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين، لقاءات كان يعقدها الشيخ بمنزله كل خميس. بدأت في أواخر شوال ١٤١٢هـ وانتهت في الخميس ١٤ صفر، عام ١٤٢١هـ- مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية: http://www.islamweb.net.

٣٦. مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني، المحقق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

٣٧. مسند الإمام أحمد.
٣٨. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.
٣٩. مقاييس اللغة: معجم مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، المحقق: عبدالسلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ -١٩٧٩م.
٤٠. منهج الأشاعرة في العقيدة، المؤلف: سفر بن عبدالرحمن الحوالي، الناشر: دار منابر الفكر.
٤١. المغني في أبواب التوحيد والعدل - إملاء القاضي أبي الحسن عبدالجبار بن أحمد، الجزء الخامس عشر: التنبؤات والمعجزات تحقيق: محمود الخضيري - محمود قاسم مراجعة: إبراهيم مدكور - إشراف طه حسين، المؤسسة العصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر - الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٣٨٥-١٩٦٥م.
٤٢. النبوات، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المحقق: عبدالعزيز بن صالح الطويان، الناشر: أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
٤٣. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط ابن علي بن أبي بكر البقاعي، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة
٤٤. نقض أصول العقلانيين، المؤلف: سليمان بن صالح الخراشي، الناشر: دار علوم السنة.

الرحمة في الإسلام
واقعية المفهوم ودفع الشبهات

إعداد:
د. علي مصطفى
كلية الإلهيات، جامعة حران، تركيا

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

فقد تواترت النصوص الشرعية كتابًا وسنة بالإعلاء من شأن خلق الرحمة والترغيب بالاتصاف به لما له من آثار حميدة على النفس والمجتمع، وتكاثرت التطبيقات النبوية لخلق الرحمة في كافة مجالات الحياة بدءًا من حياته الخاصة إلى وظيفته نبيًا ورئيس دولة، حتى غدت الرحمة من أخص سماته ﷺ، فهو نبي الرحمة الذي اتخذ الرحمة شعارًا له من قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء].

مشكلة البحث

إلا أن الطاعنين في الإسلام ينكرون هذه الحقيقة، ويرون أن الرحمة شعار نظري لم يدخل حيز التطبيق في التشريع الإسلامي؛ فيقولون: إن في القرآن وسنة النبي ﷺ وسيرته من الأحداث والأحكام ما يتنافى مع الرحمة، مثل عدد من الحدود الشرعية كحد الحرابة، وحد الزاني المحصن، وحد السارق، ومثل ما فعله النبي ﷺ من القصاص من القاتل بمثل فعله، ومثل تشريع الجهاد العسكري وما في تفاصيله من القتل والأسر والاسترقاق، خصوصًا حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه بقتل رجال بني قريظة جميعًا بعد أسرهم، إلخ.

وقد دفع هذا الهجوم على الإسلام بعض المسلمين إلى إنكار هذه الأحاديث من جهة المتن زاعمين مخالفتها النصوص الثابتة القطعية ثبوتًا ودلالة على مركزية الرحمة في التشريع الإسلامي وأخلاق النبي ﷺ. وذهب آخرون إلى المبالغة في القسوة والانتقام من الكفار اعتمادًا على بعض الأحاديث النبوية ووقائع السيرة. لكن الباحث عن الحقيقة يجد غضاضة في إنكار كل هذه النصوص النبوية الثابتة سندًا بحجة زعم تعارضها مع خلق الرحمة، ويجد غضاضة أخرى في الحط من شأن خلق الرحمة في الإسلام وخلق النبي ﷺ، وتصوير الإسلام بأنه دين القسوة والعنف والقتل.

الدراسات السابقة

ناقش عدد من الباحثين الشبهات حول الرحمة في الإسلام التي يوردها الطاعنون في الإسلام عمومًا أو الطاعنون في السنة خصوصًا في عدد من الدراسات، وقد قدم عدد منها في مؤتمر نبي الرحمة الذي عقدته الجمعية العلمية السعودية لعلوم السنة في الرياض عام ١٤٣١هـ، الموافق ٢٠١٠م، وقد نشرت هذه الأبحاث في تسعة مجلدات، وقد ناقشت الأبحاث الرحمة النبوية، واختص بعضها بمناقشة شبهات المستشرقين حول الرحمة النبوية، ومن الدراسات أيضًا كتاب الرحمة في حياة الرسول ﷺ للدكتور راغب السرجاني، فقد ناقش عددًا من الشبهات في الباب الأخير من كتابه. ولا يزال المجال مفتوحًا للإضافة العلمية إلى ما سطره الباحثون الفضلاء، وأرجو أن يوفق هذا البحث لذلك.

محددات البحث

تركزت مطالب هذا البحث على مناقشة شبهات صنفين من الناس؛ الصنف الأول: غير المسلمين الذين ينكرون الرحمة في الإسلام، والصنف الثاني: المسلمون الذين أنكروا بعض النصوص الشرعية، لأنهم فهموا

منها ما يتنافى مع الرحمة في الإسلام. وقد سلكت سبيل الحجاج العقلي القائم على مرجعية الوحي في ضبط مفهوم الرحمة ومحاكمة شبهاتهم إجمالًا تفصيلًا.

أهداف البحث

لا ريب أن المسلم يحتاج إلى فهم صحيح لخلق الرحمة من خلال كلام النبي ﷺ وفعله أيضًا؛ لأن خير تفسير للنص النظري هو التطبيق العملي عند قائله. فكيف يمكن فهم الرحمة فهمًا يوافق النصوص الشرعية ومقاصدها ويرضي نهم العقل في آن واحد؟ جاء هذا البحث للجواب عن هذين السؤالين.

مناهج البحث

ناسب هذا البحث إعمال المنهج التحليلي والمنهج النقدي في تناول الأفكار والنصوص الخاصة به.

خطة البحث

وقد ارتأيت أن يتركز البحث في مطالب محددة تخدم هذا الهدف من أقصر الطرق، وهي:

المطلب الأول: مفهوم خلق الرحمة.

المطلب الثاني: واقعية مفهوم خلق الرحمة في منظومة الأخلاق الإسلامية.

المطلب الثالث: منزلة خلق الرحمة في الكتاب والسنة.

المطلب الرابع: شبهات منكري الرحمة في الإسلام وجوابها.

الخاتمة: فيها أهم النتائج والتوصيات.

المطلب الأول
مفهوم خلق الرحمة

أولًا: مفهوم الخلق

بما أن الرحمة خلق من الأخلاق الإنسانية فلا بد من الوقوف على مفهوم الأخلاق الإنسانية أولًا، ثم استصحاب هذا المفهوم عندما نتعرض لمفهوم الرحمة؛ إذ أن الجزئي يفهم على ضوء الكلي؛ لأنه متفرع عنه راجع إليه.

وتدور عبارات العلماء في تعريف الخُلُق على أنه طبيعة الإنسان وسجيّته التي تصدر عنها أفعال الإنسان بلا تكلّف[(١)]، قال الجرجاني: "الخُلُق: عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلًا وشرعًا بسهولة سميت الهيئة: خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيئة: خلقًا سيئًا"[(٢)].

فالأخلاق إذن صفات أصيلة في نفس الإنسان مستقرة وليست مؤقتة، وسلوك الإنسان الظاهر هو استجابة للصفة الباطنة المستقرة في النفس.

(١) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة (٢/٢١٤)، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/٧٠)، والسيوطي، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، ص (١٩٧)، وأبو البقاء الكفوي، الكليات، ص (٤٢٩).

(٢) الجرجاني، التعريفات، ص (١٠١).

وبناء على هذا فإن المشاعر المؤقتة التي سرعان ما تزول لا تعد خلقًا[1]، وإنما هي ردات فعل لا تلبث أن تزول، فلا يعرف صاحبها بها ولا تؤثر على سير حياته وطراز سلوكه؛ ويوضحه أن كثيرًا من ضعفاء الإرادة تعتريهم مشاعر تصميم وإصرار استجابة لمؤثر ما لكنهم سرعان ما يخضعون للتخاذل فلا يحركون ساكنًا كما هي عادتهم، فلا يمكن وصفهم بقوة الإرادة لانفعال عارض وإنما يوصفون بضعف الإرادة، لأنه الملازم لهم المؤثر على سلوكهم الظاهر، ولو ضعف قوي الإرادة استجابة لمؤثر ما ثم تمالك نفسه فلا يوصف بضعف الإرادة، لأنه عارض زال، ويوصف بالصفة الملازمة له الظاهرة في سلوكه.

وينبني على تعريف الأخلاق أيضًا نتيجة أخرى لا تقل أهمية، هي أن السلوك الظاهر الذي لم يكن أثرًا لدافعه الباطن المتعلق به عادة لا يسمى خلقًا ولو استمر، وإنما ينسب هذا السلوك الظاهر إلى دافعه النفسي الحقيقي، ولو كان هذا الدافع النفسي منبت العلاقة بالسلوك الظاهر أو مضادًا له؛ فالخلق المستقر في النفس أمر خفي يظهر في السلوك على شكل أقوال وأفعال مناسبة له؛ فإذا التزم الإنسان مكارم الأخلاق في أقواله وأفعاله؛ لأن هذا يحقق له ربحًا ماديًا أو خوفًا من قانون قاسي العقوبة، ثم سلك مسالك الأخلاق المرذولة عندما لم تعد مكارم الأخلاق مربحة أو لم يعد القانون موجودًا، فهذا الإنسان لا يوصف بالخلق الحسن؛ لأن سلوكه الظاهر ليس نابعًا من صفة مستقرة في نفسه، وإنما يوصف بالخلق المذموم؛ لأنه الدافع الحقيقي لسلوكه الظاهر.

وأظن أن هذا التفسير يزيل الحيرة التي تعتري المسلم عندما يقارن المجتمع المسلم مع مجتمعات أخرى تنتشر فيها فلسفات لا تقيم وزنًا للدين ولا ترفع بالقيم الإنسانية رأسًا، ومع هذا تجدهم صادقين في معاملاتهم

(١) انظر: المصدر السابق.

المالية مثلًا، أما في المجتمعات الإسلامية التي تعظم القيم فيقل فيها الصدق في المعاملات المالية كثيرًا. ولا شك أن ظاهرة ضعف الالتزام الديني في نفوس المسلمين سبب أساس في ضعف الالتزام القيمي ومنه قيمة الصدق في المعاملات المالية، أما سر التزام المجتمعات غير الإسلامية بالصدق في المعاملات المالية فلا يعدو السببين اللذين أشرت لهما قبل قليل؛ القانون الرادع والمنفعة المادية، ومن عاش في تلك المجتمعات يدرك هذا تمامًا.

ثانيًا: مفهوم الرحمة

لجأ بعض اللغويين[1] إلى تعريف الرحمة بما يرادفها أو يقاربها من المصطلحات كالعطف والرقة والشفقة والرأفة والإحسان، إلخ، واشتغلوا بالفروق الدقيقة بينها وذكر ما اشتق من الجذر «رحم» من الكلمات والأسماء والصفات. وهذا النهج يهتم ببيان معنى الرحمة كونها سلوكًا إنسانيًا لا يحتاج إلى تكلف شرح؛ فهي ظاهرة مشاهدة لا تخطئها العين ولا يلتبس فيها الفكر.

لكن بما أن الرحمة من الأخلاق لا بد أن يكون تعريفها مشتقًا من تعريف الأخلاق، من حيث الدافع النفسي الباطن والأثر السلوكي الظاهر. وقد نحا هذا النحو بعض العلماء[2] فعرفوا الرحمة بأنها: رقة في القلب تقتضي الإحسان إلى المرحوم ودفع الشر عنه، وعبر بعضهم عن الرحمة بأنها: إرادة الإحسان والخير للآخرين. فالدافع النفسي هو رقة القلب وإرادة الإحسان، أما الأثر السلوكي فهو بذل الإحسان والخير للمرحوم بقول أو فعل.

---

(١) انظر: الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية (١٩٢٩/٥)، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة (٤٩٨/٢)، وابن سيده، الحكم والمحيط الأعظم (٣٣٦/٣)، الأثير (٢١٠/٢).

(٢) انظر: عبدالقاهر الجرجاني، درج الدرر في تفسير الآي والسور (١٠٠/١)، والراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٣٤٧)، والقاضي عياض، مشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢٨٦/١)، وأبو البقاء الكفوي، الكليات، ص (٤٧١)، والتهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (٨٤٧/١).

وهنا فائدة لا بد من التنبه إليها، يغفل عنها من أنكر الرحمة في التشريعات الإسلامية، وهي أن الرحمة بذل الخير والإحسان للمرحوم، وليست مجرد حماية المرحوم من الألم أو المشقة، فالعبرة في النتائج والنهايات، فإذا كانت المشقة العابرة أو الألم القليل سيحقق للمرحوم الخير العظيم ويدفع عنه الشر المستطير فهذه هي الرحمة الحقيقية وما تحمله من المشاق والآلام لا ينافيها.

قال ابن القيم: "ومما ينبغي أن يعلم: أن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها. فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك"[1]. ا. هـ.

وفي الحياة أمثلة لا تحصى لا قِبَلَ لأحد بإنكارها ويمارسها كل أحد؛ كالصبر على آلام العمليّات الجراحية والعلاج المر والمؤلم طلبًا للشفاء، وتأديب الوالدين لأبنائهما طلبًا لاستقامتهم، إلخ. ومن هذا الباب تدخل التشريعات الإسلامية التي ظاهرها الألم والمشقة لكن لها آثارًا حميدة على النفس والمجتمع، فهي لا تتنافى مع الرحمة بتعريفها العلمي.

وبهذا يتبين أن تفسير الرحمة بأنها مجرد حماية المرحوم من مطلق الألم والمشقة تفسير ساذج لا يقول به أحد من أهل العلم، والطاعنون في رحمة الإسلام بسبب المشقة والألم الذي يظهر في تطبيق بعض العقوبات الشرعية هم أنفسهم لا يستطيعون طرد هذا الأصل في مذاهبهم الفكرية وأوضاعهم الحياتية وإلا لفسدت حياتهم ودخلت أفكارهم في اللاعقل؛ فهم واقعون في التناقض لا محالة.

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/ ١٧٤).

المطلب الثاني
واقعية مفهوم الرحمة في منظومة الأخلاق الإسلامية

أولًا: الرحمة في منظومة الأخلاق الإسلامية:

قال ﷺ: «بعثت لأتمم حسن الأخلاق»[1]، فالهدي النبوي منظومة من مكارم الأخلاق، وخلق الرحمة جزء من هذه المنظومة لذلك؛ فعند تناول الرحمة بوصفها خلقًا إسلاميًا لا يجوز أن تدرس بمعزل عن الأخلاق الإسلامية الأخرى التي تكون المنظومة الخلقية في الإسلام، لاسيما تلك الأخلاق التي تتداخل مع خلق الرحمة وتربطها معها علاقات متشعبة لا يمكن أن تفهم إحداها إلا على ضوء الأخرى.

وهذه طبيعة دراسة النظم في كافة المجالات؛ فطبيعة النظام أنه تتداخل مكوناته وتتشعب وظائفها لتشكل علاقات بينية تنتج في النهاية منظومة من التصورات والتشريعات التي تتعاضد من أجل إدارة جانب ما من جميع حيثياته، ولو أردنا الاستفادة من هذا النظام فلا بد من الأخذ به كي لا يتجزأ؛ لأن كل جزء من أجزائه تفتقر إلى الأخرى، وتعجز عن أداء

(١) رواه مالك في الموطأ بلاغًا في كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في حسن الخلق، ص (٩٠٤)، والحديث مسند عن أبي هريرة رضي الله عنه عند أحمد في المسند بلفظ" إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق (٥١٣/١٤)، والحاكم في المستدرك، كتاب آيات النبي ﷺ التي هي دلائل النبوة (٦٧١/٢)، والبيهقي في السنن الكبرى، بلفظ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، جماع أبواب من تجوز شهادته، باب بيان مكارم الأخلاق (٣٢٣/١٠). وقال ابن عبدالبر في التمهيد (٣٣٣/٢٤): «وهذا الحديث يتصل من طرق صحاح عن أبي هريرة وغيره عن النبي ﷺ» ا. هـ.

وظيفتها مجردة عن أجزاء النظام الأخرى؛ وبناء على هذا فإنه لا يمكن الانتفاع بالجزء إلا مع الكل، وإذا فقد النظام بعض أجزائه عجز عن تحقيق هدفه وصارت باقي أجزائه عديمة الفائدة، أو على الأقل تعجز عن تحقيق الهدف من وجودها كما هو لازم.

وبما أن الهدف الأسمى من المنظومة الخلقية في الإسلام تربية الإنسان وتهذيب دوافعه وسلوكه فإن هذا الهدف لا يتحقق إلا إذا تكاملت جميع مكونات هذه المنظومة وتعاضدت في سبيل تحقيق هذا الهدف؛ فلا يجوز أن يقوم النظام الخلقي على خلق الرحمة مثلًا دون النظر إلى خلق الحزم والعدل، ولا يجوز الاعتماد على خلق العزة دون النظر إلى خلق التواضع، وهكذا.

هذا من حيث النظام الخلقي الإسلامي، أما من حيث النفس الإنسانية فهي أيضًا منظومة من الانفعالات التي تضطرم في الوجدان ويظهر أثرها على السلوك في الأقوال والأفعال، ومنظومة الانفعالات هذه تتعاضد لتصبغ شخصية صاحبها في كل جانب انفعالي بصبغة مميزة، وإذا اقتصرنا على بعض الانفعالات دون بعض نخفق في فهم النفس ودوافعها وسلوكها الخلقي الذي سلكته.

ومن أجل ضبط هذه الانفعالات وتوجيهها نحو خيرها وخير مجتمعها لا بد من منظومة خلقية تدرك أسرار النفس ومكامن ضعفها وقوتها، ومن أقدر على إبداع هذه المنظومة الخلقية غير خالق النفس ومبدعها؟! ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك]؟!

ومن أهم ما تتسم به هذه المنظومة الخلقية التي أبدعها الخالق ﷻ الشمول والتكامل والتوازن[1]؛ أما الشمول في الضوابط الخلقية فيتمثل

(١) انظر: سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، ص (٤١) وما بعدها فقد عقد فصلًا لكل خصيصة =

في مراعاة جميع نوازع النفس وانفعالاتها فلا تهمل شيئًا منها، وأما التكامل فإن كل ضابط خلقي يكمل ضابطًا خلقيًا آخر في معالجة انفعالات النفس، وأما التوازن فهي سمة تعطي كل جانب من جوانب النفس حقه ووزنه المناسب بلا إفراط ولا تفريط. وهكذا لا إهمال لبعض حاجات النفس ولا انتقاص منها لحساب جانب آخر، وكل حاجات النفس ملباة بالقدر الذي تستقيم به حياتها.

ثانيًا: واقعية[١] المفهوم:

المفاهيم الفكرية نوعان؛ منها ما هو واقعي؛ يمكن تطبيقه عمليًا في حياة الناس؛ فيتحول إلى أفعال ونظم تضبط حركة الحياة وتوجهها على نحو معين. ومن المفاهيم ما هو خيالي لا يمكن تطبيقه عمليًا، ولا يتصور وجوده نظامًا وتوجيهات تتحرك في حياة الناس فضلًا عن أن تحكم حياتهم.

والمفاهيم المطلقة من النوع الثاني يمكن تصورها في الذهن لا في الخارج[٢]؛ فقد يسبح الإنسان مع خيالاته فيؤسس مفاهيم مطلقة، ولا يقيدها بقيد ما، ولا يصفها بصفة ما، لكنه يعجز عن إيجادها خارج ذهنه أو تطبيقها عمليًا في حياته؛ فالمفاهيم المطلقة المجردة عن القيود لا وجود لها في الواقع؛ إذ لا بد لكل موجود من علاقات تحكمه مع باقي الموجودات، تؤثر عليه فتقيده عندما يتقاطع مع غيره.

ومفهوم الرحمة يخضع لهذا القانون الذي فيه جواب للذين ينكرون رحمة الإسلام ويرفضون وصف النبي ﷺ بأنه نبي الرحمة؛ لمجرد أنهم

= من هذه الخصائص، كونها خصائص عامة للإسلام، وقد استعرتها منه لوصف طبيعة الأخلاق في الإسلام ومنها خلق الرحمة.

(١) انظر: المصدر السابق، ص (١٦٩).

(٢) انظر: ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل (١/ ٣٠١).

يرون أن بعض التشريعات الإسلامية تتنافى مع الرحمة حسب وجهة نظرهم، لوجود القسوة والألم والقتل فيها؛ كرجم الزاني وقطع يد السارق وقتل المرتد إلخ. ويقولون: إن الآيات والأحاديث التي تعظم من شأن خلق الرحمة وتدعو إلى التخلق بها ليست إلا دعاوى وشعارات نظرية لا حقيقة لها مع وجود هذا الكم الهائل من التشريعات المنافية للرحمة.

فالجواب على هذا: أنه على التسليم بوجود القسوة في بعض التشريعات الإسلامية فإنها لا تنفي مطلق الرحمة في التشريع الإسلامي، وإنما تنفي الرحمة المطلقة، والفرق بينهما كبير؛ ودعواكم انتفاء مطلق الرحمة في التشريع الإسلامي مع إقراركم بوجود النصوص التي تعظم شأن الرحمة وتدعو إليها تناقض؛ لأن هذه النصوص تدل على وجود الرحمة في الإسلام لكنها ليست مطلقة وإنما هي رحمة مقيدة بقيود رآها الشارع ضرورية لتكون هذه الرحمة قابلة للتطبيق في حياة الناس.

وبناء عليه فالخلاف بين الإسلام وخصومه ليس في مطلق الرحمة وإنما في وجود الرحمة المطلقة، فهل للرحمة المطلقة وجود في حياة الناس؟ وهل يوجد نظام في الأرض يقوم على الرحمة المطلقة؟ الجواب: لا. وبيانه في وجهين:

الوجه الأول:

تبين أن الرحمة هي إرادة الإحسان وبذل الخير للمرحوم، كما في المطلب الأول، لكن بذل الخير للآخرين قد يلازمه ألم ومشقة كما هو مشاهد، والإعراض عن بذل الخير للآخرين، لأنه يستلزم إيلامه وتحمل المشقة ليس من الرحمة في شيء، وإنما هو خطل في الفكر وضعف في الرأي، لا يقبله المرحوم نفسه، ونحن نشاهد المرضى يقبلون تحمل ألم العلاج مقابل الحصول على الشفاء، ويعدون من يبذل لهم العلاج رحيمًا

على الرغم مما يسببه لهم من الآلام. فالرحمة المطلقة التي لا يلازمها ألم دائم مفهوم لا وجود له في الواقع، فكيف يطلب خصوم الإسلام منه أن يحقق في الوجود مفهومًا نظريًا لا يمكن تحقيقه خارج الذهن.

الوجه الثاني:

لا يوجد نظام في حياة الناس يقوم على المفاهيم المطلقة؛ فجميع النظم القديمة والحديثة فيها تشريعات تضبط الأفكار والمفاهيم والتصرفات وتقيدها؛ فالحريات لها حدود تقف عندها، يعبر عنها ما شاع بين الناس قولهم: تنتهي حريتك عندما تبدأ حرية الآخرين. وحقوق الناس يقابلها واجبات يلتزم الفرد بها، إلخ. والرحمة جزء من هذا النظام البشري؛ رحمة الكبير بالصغير، ورحمة العالم بالجاهل، ورحمة الأبوين بالأبناء، ورحمة القوي بالضعيف. وكل هذا لا يتنافى مع الحزم في تنفيذ القوانين واستيفاء الحقوق والالتزام بالواجبات.

ولو تصورنا النظام القضائي يقوم على الرحمة المطلقة بالمفهوم المغلوط وهو عدم التسبب بأي ألم لأحد مهما فعل، هل يستقيم المجتمع؟! كيف يمكن رد الحق لصاحبه؟ وكيف يمكن ردع الجناة وحماية أرواح الناس وأعراضهم وممتلكاتهم؟

إن الطاعنين في رحمة الإسلام أنفسهم لا يلتزمون الرحمة المطلقة في حياتهم الخاصة ولا في علاقاتهم الاجتماعية، ولا في المناهج والنظم والأفكار التي يتبنونها ويدافعون عنها ويمدحونها على حساب الإسلام، وهذا عين التناقض؛ فكيف يطلبون من الإسلام شيئًا لا يطبقونه على أنفسهم وأفكارهم ومناهجهم؟!

الخلاصة

أن الإسلام ينظر إلى خلق الرحمة نظرة واقعية يمكن تطبيقها في

حياة الناس لتحقق الهدف من وجودها، وتكمن واقعية مفهوم الرحمة في اتساقها مع غيرها من الأخلاق في المنظومة الخلقية الإسلامية؛ من حيث الشمول، والتكامل، والتوازن.

فنجد الإسلام يدعو إلى الرحمة الشاملة لكل مناحي الحياة من علاقة الخالق بالمخلوق وعلاقة الإنسان بنفسه ومحيطه العائلي والاجتماعي، والرحمة بالمذنبين والكفار، حتى تصل إلى الرحمة بالحيوانات.

وتتكامل الرحمة مع غيرها من الأخلاق التي تتقاطع معها في تنظيم علاقات المسلم بغيره؛ فتتكامل الرحمة مع الحزم والعدل في استيفاء الحقوق مثلًا كي يكون لكل مقام مقاله المناسب له.

والتوازن بين هذه الأخلاق لازم كي لا يطغى جانب الرحمة على جانب العدل، أو جانب استيفاء الحق على جانب الرحمة، وهكذا.

المطلب الثالث
منزلة خلق الرحمة في القرآن والسنة

لا يستطيع الباحث في الإسلام أن يفصل بين القرآن والسنة فيقتصر على أحدهما دون الآخر في فهم العقائد أو التشريعات أو الأخلاق؛ فكلاهما وحي من اللّه ﷻ، يمثلان الدين الذي رضيه اللّه ﷻ لنا، ومن أجل تصور أشمل وأدق للمفاهيم لا بد أن يكون هذان المصدران أصلًا يرجع إليهما في تأصيل المفاهيم وتصورها. ومن هذا المنطلق لا بد من كلمة في منزلة الرحمة في القرآن وعلاقتها بمنزلتها في السنة النبوية.

أولًا: منزلة خلق الرحمة في القرآن

ومن أجل الاختصار والتركيز يمكن إبراز أهم الملحوظات الخاصة باهتمام القرآن الكريم بخلق الرحمة كما يلي:

١. في القرآن الكريم (١١٤) سورة منها (١١٣) سورة بدئت بالبسملة التي فيها اسمان من أسماء اللّه ﷻ الرحمن والرحيم، هما اسمان مشتقان من صفة الرحمة؛ فأي معنى يرسخ في قلب المؤمن وهو يفتتح قراءة القرآن دائمًا بذكر اسم اللّه الرحمن الرحيم؟ فالرحمة عنوان الكلام والرحمن اسم للمتكلم، وعلى تالي القرآن أن يستصحب هذا المعنى في كل ما يمر به من مفاهيم وتشريعات.

٢. في القرآن الكريم آية تفيد أن الهدف من بعثة محمد ﷺ رحمة الناس

جميعًا، هذا يشمل المؤمن والكافر، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]. فالرحمة هي عنوان بعثة محمد ﷺ وهدفها وليست مجرد شعار أو دعوى.

٣. ويؤيده قول الله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف:١٥٦]، مما يدل على أن الرحمة عنوان جميع التشريعات والمفاهيم الشرعية التي أنزلها الله سبحانه وتعالى.

٤. وردت كلمة الرحمة ومشتقاتها في القرآن الكريم على سبيل المدح والترغيب (٢٦٨) مرة[1]. وسيطول الأمر لو استخرجنا الكلمات التي بمعنى الرحمة والقريبة منها، أو ضدها التي ذكرت على سبيل الذم. فالرحمة والتحذير من ضدها ماثل أمام المؤمن وهو يقرأ كتاب ربه حيثما قرأ.

٥. إن كثرة ورود مفهوم الرحمة ومشتقاته في القرآن في سياقات كثيرة يدل على كثرة المعاني التي يدل عليها هذا المفهوم، فقد جاءت الرحمة في القرآن دالة على كثير من جوانب الخير في حياة الإنسان؛ كالرزق والنصر والمحبة والمغفرة واللين والتسامح، إلخ، مما يدل على شمول مفهوم الرحمة لجوانب الحياة كلها حسب المفهوم القرآني[2].

ثانيًا: منزلة خلق الرحمة في السنة النبوية

لا تختلف منزلة الرحمة في السنة النبوية عن منزلتها في القرآن؛ فكما أن الرحمة في القرآن عنوانه وسمته العامة كذلك الرحمة في السنة النبوية

(١) انظر: محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وقد استغرق الجذر (رحم) خمس صفحات تقريبًا (٣٠٤-٣٠٩).

(٢) انظر: أبو البقاء الكفوي، الكليات، ص (٤٧٢)، ذكر أربعة عشر معنى للرحمة في القرآن الكريم. وانظر: المعاني الأخرى في: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، تأليف صالح ابن حميد وعبدالرحمن ملوح (٢/٢٠٦٥).

أصل يسم السنة وصاحبها ﷺ بوسم يميزه عن باقي البشر؛ وهذا الاتفاق بين القرآن والسنة في النظر إلى صفة الرحمة مصداق لقول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء].

وفيما يأتي أبرز المظاهر الدالة على منزلة الرحمة في السنة النبوية:

١. توزعت السنة النبوية في عدد كبير من المصنفات التي جمعتها من صحاح وسنن ومسانيد وجوامع وأجزاء، ومن يطالع أبواب الأدب في هذه المصنفات لا تخطئ عينه أحاديث الرحمة القولية والفعلية، ولو أحصينا عدد الأحاديث التي وردت فيها كلمة الرحمة ومشتقاتها في الكتب الستة، ومسند أحمد والدارمي، وموطأ مالك فقط دون غيرها من كتب الحديث لوجدناها (٢٠٨) أحاديث[١]. فكيف لو تتبعنا المعاني الأخرى القريبة من الرحمة كالرأفة والإحسان والعطف إلخ في كافة كتب الحديث، لا شك أن هذا العدد سيزيد كثيرًا. وعلى كل حال فهذا العدد ليس بالقليل، وهو يدل على اهتمام خاص من النبي ﷺ بخلق الرحمة والإعلاء من شأنها.

٢. بعد تصنيف أحاديث الرحمة من حيث الجوانب التي شملتها يتبين أن الرحمة التي دعت إليها السنة النبوية رحمة شاملة لا تختص بجانب دون آخر ولا بإنسان دون آخر، فهناك أحاديث الرحمة بالمسلمين جميعًا وخاصة صغارهم وضعفاؤهم حتى شملت المخطئين منهم، وأحاديث تدل على الرحمة في أداء العبادات والمعاملات، وشملت الرحمة الكفار المستأمنين وأهل الذمة، وشملت الرحمة الكفار المحاربين في جهادهم وحال أسرهم[٢]، ولم تستثن

(١) انظر: فنسك، المعجم المفهرس لألفاظ الحدث النبوي، وقد توزعت أطراف الأحاديث التي فيها كلمة الرحمة ومشتقاتها على ست صفحات تقريبًا (٢/٢٣٥-٢٤١).

(٢) انظر: صالح بن حميد وعبدالرحمن ملوح، موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (٦/٢٠٩٠-٢١٠٠)، سردًا من الأحاديث الخاصة بالرحمة (٥٧) حديثًا بلا تبويب. =

الرحمة الحيوانات فكان لها نصيب من الرحمة النبوية. وهذا يدل بوضوح على أن الرحمة النبوية عنوان الإسلام وأصل تشريعاته وليست مجرد دعوى أو شعار دون مضمون.

٣. هناك مجموعة من الأحاديث تدل على أولوية صفة الرحمة وعمومها، وأنها الصفة الأبرز لله جل جلاله وللنبي ﷺ، وقد اخترت منها ثلاثة أحاديث.

الحديث الأول: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا قَضَى الله الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»(١).
وجه الدلالة من الحديث واضح أن الرحمة والعفو والتسامح مقدم على الغضب والعقوبة وأولى منهما، وهذا عام شامل لجميع جوانب الحياة يشهد له توزع أحاديث الرحمة على جوانب الحياة، المختلفة كما سبقت الإشارة إليه.

الحديث الثاني: قال رسول الله ﷺ: «جَعَلَ الله الرَّحْمَةَ مِئَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الخَلْقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»(٢). إن الرحمة التي أودعها الله جل جلاله في الكائنات الحية في هذه الدنيا على سعتها هي جزء من مئة جزء من الرحمة التي خلقها الله سبحانه وتعالى،

= وانظر: راغب السرجاني، الرحمة في حياة الرسول، ص (٤)، جمع فيه (٢١٧) حديثًا في الرحمة رتبها مبوبة حسب الموضوعات التي عالجتها.

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة مرفوعًا، البخاري، الجامع الصحيح، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾، رقم الحديث (٣١٩٤)، (٤/١٠٦). ومسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله، رقم الحديث (٢٧٥١)، (٤/٢١٠٧).

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة مرفوعًا؛ البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة مئة جزء، رقم الحديث (٦٠٠٠)، (٨/٨). ومسلم في الصحيح، كتاب التوبة، باب سعة رحمة الله، رقم الحديث (٢٧٥٢)، (٤/٢١٠٨).

وإذا كان هذا الجزء بهذه السعة فكيف بتسعة وتسعين جزءًا التي ادخرها اللّه ﷻ لنا في الآخرة؟! إن دلالة هذا الحديث واضحة على عظم سعة رحمة اللّه الذي ارتضى الإسلام دينًا للبشرية، فاستحق هذا الدين أن يكون دين الرحمة.

الحديث الثالث: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً، فَقَالَ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي[1]، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ»[2]. هذه الأسماء الخمسة التي اختارها النبي ﷺ كلها رحمة، فمحمد وأحمد من الحمد والثناء والمدح، ولا يستحقها من خلا قلبه من الرحمة، والرحمة أعظم ما يمدح الإنسان به، وهو الحاشر الذي يحشر عنده الناس يوم القيامة، وما أحسن عاقبة من يحشر عند نبي الرحمة، والمقفي آخر الأنبياء وصاحب خاتم الشرائع، وإذا كان صاحب خاتم الشرائع هو نبي الرحمة فلا بد أن تكون شريعته هي الرحمة بذاتها. ووجه الدالة من الحديث واضح، فالرحمة هي الصفة التي يحب محمد ﷺ أن يمدح بها ويسمى بها.

(١) المقفي هو آخر الأنبياء المتبع لهم. انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (٩٤/٤).
(٢) رواه مسلم في الصحيح عن أبي موسى الأشعري في كتاب الفضائل، باب في أسمائه ﷺ، رقم الحديث (٢٣٥٥)، (١٨٢٨/٤).

المطلب الرابع
شبهات منكري الرحمة في الإسلام وجوابها

بعد الاطلاع على منزلة خلق الرحمة في الكتاب والسنة يتبين الخطأ الكبير الذي وقع فيه منكرو الرحمة في الإسلام عمومًا وفي السنة النبوية خصوصًا، وسبب إنكارهم رحمة الإسلام أنهم وجدوا في تشريعاته رجم الزاني المحصن وقتل المرتد وجلد شارب الخمر، إلخ من التشريعات التي رأوا فيها قسوة وشدة تتنافى مع الرحمة، ورأوا أن نصوص الرحمة في الكتاب والسنة ليست سوى شعارات ودعوى لا حقيقة لها.

وبيان ضعف استدلالهم هذا وبعده عن المنهج العلمي سيكون في مقامين: الأول: أهم الأخطاء المنهجية التي وقع فيها الطاعنون، والثاني: مناقشة نموذجين من الاعتراضات على الرحمة في السنة النبوية.

المقام الأول
من أهم الأخطاء المنهجية التي وقع فيها الطاعنون

أولًا: إن إهمال مئات النصوص الشرعية القولية والفعلية التي ترفع من شأن خلق الرحمة وتطبقها عمليًا في جميع مجالات الحياة بسبب بعض التشريعات التي يرونها منافية للرحمة، فيه ما فيه من عدم الإنصاف،

ويدل على غياب المنهج العلمي في استقراء النصوص واستنطاقها. وعلى فرض صحة فهمهم لبعض التشريعات الإسلامية أنها منافية للرحمة فالصواب أن توصف هذه التشريعات فقط بذلك ولا يجوز أن يوصف دين نص على ركنية خلق الرحمة في تشريعاته في مئات النصوص - بمنافاة الرحمة ومناقضتها بسبب بضعة نصوص جزئية لها ظروفها التشريعية ومسوغاتها الأخلاقية.

ثانيًا: من الملاحظ أن النصوص الشرعية التي اعتمد عليها منكرو رحمة الإسلام على قلتها كلها واردة في سياق نظام العقوبات، وأحكام الجهاد، وهي أحوال استثنائية تمر بالمجتمع المسلم، ولا بد لهذه الأحوال الاستثنائية من أحكام استثنائية لمعالجتها. فالنصوص المتكاثرة في الإسلام تدل على أن الرحمة أصل في التشريعات الناظمة لحياة الناس في أحوالهم الطبيعية، أما في الأحوال الطارئة فلا بد من مستوى معين من القسوة حتى تنضبط أحوال المجتمع. وهذا التفصيل تعمل به جميع الأنظمة في الدول المعاصرة، بلا نكير، بل ويشرعونه في دساتيرهم باسم «قانون الطوارئ»؛ فتحكم الدول المعاصرة شعوبها بالدستور وهو القانون الأساس للدولة، وبالقوانين المنبثقة عنه، أما في الحالات الطارئة التي يتعرض فيها النظام والمجتمع للخطر فإن الدستور نفسه يبيح لرئيس الدولة تعطيل الدستور والعمل بقانون الطوارئ، وهذا القانون عادة ما يتجاوز حقوق الإنسان ويعتدي على حرياته، ويقوم على استبداد الحاكم بالحكم، ومنع المجتمع من المعارضة وتنفيذ أقسى العقوبات بالمخالفين دون النظر إلى حقوق ولا حريات من أجل إنقاذ النظام والخروج من الحالة الاستثنائية إلى الحالة الطبيعية للمجتمع.

فعلى التسليم بوجود قسوة في بعض العقوبات فلتكن مثل قسوة قانون

الطوارئ هذا الذي يعترف به الجميع ولا ينكره أحد، فلماذا ينكرونه على الإسلام؟! علمًا بأن التشريع الإسلامي لا يجيز لأحد أن يعطله مهما كان الحال، وإنما لكل حكم من الأحكام الشرعية كيفيات وشروط لا بد من توافرها لتطبيقه؛ فلا حاجة لقانون طوارئ في الإسلام لمواجهة الحالات الاستثنائية، ولا حاجة للاعتداء على حريات الناس وحقوقهم.

ثالثًا[1]: إن نظام العقوبات في الإسلام قائم على الوقاية أولًا ثم العلاج؛ الوقاية بالقضاء على أسباب الجريمة كي لا يكون أحد معذورًا إذا ارتكبها، ثم تشديد العقوبة على من ارتكبها؛ فشدة العقوبة من أهم أسباب القضاء على الجريمة؛ وهكذا تقل الجريمة إلى مستوياتها الدنيا، فلا يرتكب الجريمة إلا من شذ. وهنا يأتي دور علاج الجريمة بتشديد العقوبة على من ارتكبها لتكون رادعًا وزاجرًا لغيره من أصحاب النفوس الضعيفة، وحفظا لحقوق الناس وأمن المجتمع.

رابعًا: لا أحد ينكر ضرورة العقوبة للمجرمين، والعقوبة لا بد أن تقوم على الشدة والقسوة، فالخلاف إذن بين التشريع الإسلامي والتشريع الوضعي ليس في أصل وجود القسوة وإنما في درجتها ومستوياتها. وعند التطبيق العملي نجد أن مستوى الجريمة قد انخفض بشكل ملحوظ في ظل تطبيق التشريعات الإسلامية لكنه يتزايد في ظل التشريعات الوضعية مما يدل على إخفاق النظريات الوضعية في العقوبة[2].

خامسًا: كل هذا على التسليم بأن الرحمة تعني إبعاد المرحوم عن الألم مطلقًا، وقد تبين في المطلب الأول خطأ هذا المعنى وأن الرحمة إرادة الإحسان للمرحوم ولو تخلله ألم. وأن المفهوم المطلق للرحمة لا وجود له في عالم الواقع. وبهذا يتهاوى الأساس الذي اعتمده منكرو رحمة

(١) انظر: أبو زهرة، العقوبة، ص (٩، ٢٦).
(٢) انظر: أبو زهرة، العقوبة، ص (٢٣).

الإسلام؛ فالشدة التي في بعض العقوبات شدة مسوغة تفضي في النهاية إلى إيصال الخير والإحسان إلى الناس، وهو المفهوم الصحيح للرحمة.

المقام الثاني
مناقشة نموذجين من الاعتراضات على الرحمة في السنة النبوية

ناقش الباحثون كثيرًا من الشبهات التي اعتمد عليها منكرو الرحمة النبوية في دعواهم؛ مثل رجم الزاني المحصن وقطع يد السارق وجلد شارب الخمر، إلخ، فجزاهم الله خيرًا. ولعل الجواب المجمل الذي قدمته في المقام الأول في خمس نقاط يجيب إجمالًا عن هذه الشبهات، إلا أن هناك شبهتين لا يصلح الجواب المجمل عنهما، وقد قرأت ما كتبه الباحثون حولها، لكنني أظن أن هاتين المسألتين لا تزالان في حاجة لمزيد بحث وبيان؛ لذلك أفردتهما في هذا المقام؛ وهما قتل المرتد، وقتل كل قادر على حمل السلاح من بني قريظة.

النموذج الأول
قتل المرتد

نقل غير واحد من علماء المذاهب الأربعة وغيرهم[1] الإجماع على قتل المرتد، ولعل مستند الإجماع صريح حديث النبي ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»[2]، والحديث الآخر: « لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ

(١) انظر: الكاساني، بدائع الصنائع (١٣٤/٧)، ابن عبدالبر، التمهيد (٣٠٦/٥)، النووي، المجموع شرح المهذب (٢٢٨/١٩)، ابن قدامة، المغني (٦/٩).
(٢) رواه البخاري في الصحيح عن ابن عباس مرفوعًا، كتاب استتابة المرتدين، باب حكم المرتد، =

إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ»(١).

وقد طعن غير المسلمين في رحمة الإسلام لهذا السبب(٢)، وأنكر بعض الباحثين المعاصرين من المسلمين(٣) هذا الحد بزعم تعارضه مع الحرية في الإسلام، وقد رد عليهم عدد آخر من الباحثين وناقشوا شبهاتهم كلها في دراساتهم(٤)، وهي كافية للاطمئنان إلى صحة الإجماع وسلامة النصوص الشرعية من المعارضة.

لكن من أين نشأت هذه الشبهة؟ وما الأساس الفكري الذي قامت عليه، وبقي مانعًا من اعتراف هؤلاء الباحثين المسلمين بثبوت حد الردة ومانعًا لغير المسلمين من الاعتراف برحمة الإسلام؟!

لعل منشأ الإشكال عند غير المسلمين أنهم يعدون الإسلام دينًا مثل باقي الأديان كاليهودية والنصرانية، فهو عقيدة ونظام فكري، والأفكار لها طبيعة شخصية لا يجوز لأحد معاقبة الآخر لاختلافه معه، وأي نظام فكري يقوم على قتل المخالف فهو نظام يقوم على العنف والقسوة ويتنافى والتسامح والرحمة.

= رقم الحديث (٦٩٢٢)، (٩/١٥)، وأخرجه الترمذي وأبو داود والنسائي، ينظر تخريجه عند ابن الأثير في: جامع الأصول، الكتاب الثاني في الحدود، الباب الأول: في حد الردة، رقم الحديث (١٨٠١)، (٣/٤٨١).

(١) متفق عليه من حديث عبدالله بن مسعود مرفوعًا، البخاري، الصحيح، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾، رقم الحديث (٦٨٧٨)، (٩/٥)، ومسلم، الصحيح، كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم، رقم الحديث (١٦٧٦)، (٣/١٣٠٢).

(٢) انظر: مدونة نهاية الإسلام، الصفحة الخاصة بالصحابي علي بن أبي طالب ﷺ، ومدونة الحوار المتمدن، مقالة مالك بارودي بتاريخ ٢٠١٣/٣/١٣م بعنوان قتل المرتد في الإسلام، والشبهة يرددها كثير من الطاعنين في الإسلام أو الطاعنين في السنة النبوية.

(٣) من أشهرهم الدكتور طه جابر العلواني، وله كتاب خاص اسمه لا إكراه في الدين؛ إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم.

(٤) مثل: الباحث صالح بن علي العميريني في كتابه الردة بين الحد والحرية، وقد رد فيه على كتاب الدكتور طه جابر العلواني عن حد الردة، وفي الموضوع دراسات أخرى.

والجواب أن هذا التصور عن الإسلام غير صحيح أبدًا؛ لأن الإسلام ليس عقيدة في الضمير وفكرة في النفس فحسب وإنما هو نظام حياة يحكم الفرد والمجتمع ويعالج كل جوانب الحياة بتشريعات تتسم بالشمول لكل نشاطات الإنسان، فهو نظام يحكم الحياة سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وقضائيًا؛ فالإسلام إذن نظام دولة متكامل الأركان يحكم رعيته في جميع جوانب حياتهم، وعلى هذا الأساس أقام النبي ﷺ دولة المدينة وتزعمها بوصفة نبيًا ورئيس دولة، مهمتها الأساسية تطبيق التشريعات النظرية على الرعية في حياتهم. وإن من يقرأ القرآن يعلم تمام العلم أن الآيات القرآنية عالجت الأحوال القضائية والسياسية والاقتصادية مع الأحوال الشخصية والعقدية جنبًا إلى جنب بحيث لا يشعر المسلم بفصل بين هذه وهذه.

ونظام الإسلام يعترف بوجود غير المسلمين تحت سلطانه؛ لذلك شرع الله سبحانه وتعالى لهؤلاء أحكامًا خاصة؛ فنظم حقوقهم وواجباتهم ضمن الولاء التام للهوية الإسلامية للدولة.

فخروج المسلم من الإسلام إلى الكفر هو خروج على هذا النظام، وتمرد على أصوله العقدية وتهديد لسلطان الإسلام الذي يسعى إلى إدخال الناس فيه، وهو وإن كان لا يلزم غير المسلم أن يغير عقيدته الباطنة إلا أنه يلزمه بالخضوع لسلطان الإسلام في نشاطاته الحياتية المتصلة بالمجتمع - إلا إنه لا يسمح لمسلم أن يعلن رفضه للأساس العقدي الذي تقوم عليه؛ ومن هنا كانت الردة عن الإسلام خيانة عظمى توجب القتل، وليست مجرد اختلاف فكري في مسائل نظرية.

وكل دول العالم اليوم عندها فلسفة سياسية تقوم الدولة على أساسها يمثلها الدستور، ولا تسمح هذه الدول لرعاياها أن يكون لهم ولاء خارجي

يتعارض مع نظامها الأساس، والمواطن الذي يجهر بما يناقض قيم الدولة ونظامها الأساس يعد خارجا على الدولة، وتتهمه بالخيانة العظمى وعقوبتها الإعدام في كثير من الدول. فكيف يجوز أن يقتل من يرفض فلسفة بشرية ولا يجوز قتل من يرفض الحق الذي نزل من السماء؟

وههنا أمر آخر، وهو أن كل الأنظمة المعاصرة عندها خطوط حمراء لا تسمح لأحد من رعاياها بتجاوزها، وحرية الفكر لها حدود تقف عندها، فلا توجد دولة في العالم تطلق حرية النقد لكل شيء، ودائمًا هناك محرمات لا يطالها النقد. والفرق بين نظام الإسلام والأنظمة الوضعية ليس في وجود هذه الخطوط الحمراء وإنما في ماهيتها؛ فالخطوط الحمراء في النظام الإسلامي هي أصول الدين الذي تقوم عليه الدولة، أما الخطوط الحمراء في الأنظمة الوضعية فهي الفلسفة البشرية التي تقوم عليها دولهم.

هذا الفهم يرشد إليه نص الحديث الذي يبيح دم المسلم المارق من الدين المفارق للجماعة كما في لفظ البخاري، ولفظ المفارق للجماعة وصف كاشف للمروق من الدين وليس قيدًا له؛ لأن المروق من الدين هو مفارقة للجماعة التي قامت دولتها عليه، فمن مرق من الدين فهو بالضرورة مفارق لجماعة المسلمين وشاق عصا الطاعة لدولتهم وخارج على أصولها معلن كفره بها، فأي دولة تقبل بهذا وتسمح له به؟!

وقد أبعد النجعة بعض الباحثين المسلمين(١) عندما فهم أن وصف مفارقة الجماعة هو قيد للمروق من الدين، أي: أن من مرق من الدين لا يجوز قتله إلا إذا صاحب ردته خروج على جماعة المسلمين، أي: عمل على تقويض الدولة، فأجاز قتل من خرج على الدولة ولم يجز قتل من خرج على الدين الذي هو النظام الأساس للدولة. وهذا الفهم يدل على تغلغل

(١) أشار إليه د. طه جابر العلواني في كتابه لا إكراه في الدين، ص (١٤٩)، وصرح به الدكتور طارق السويدان في قناته على اليوتيوب.

المفهوم العلماني للدين إلى أوساطنا القائم على الفصل بين الدين والدولة بوصف الدين علاقة شخصية بين الإنسان وربه أما الدولة فهي النظام الذي يحكم الحياة الدنيا.

وفي الختام لا بد من استصحاب أصل آخر وتفعيله عند الرد على الشبهات، قوامه أن الإسلام هو الدين الحق الذي رضيه الله للناس إلى يوم القيامة، فلا يجوز مساواته بأي عقيدة أو فلسفة أخرى، فهو فقط الذي يجب أن يسود ويهيمن على باقي الأديان والأفكار والفلسفات، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة:٤٨]. وهذا الأصل يحمينا من الشعور بالتناقض عندما نعمل على نشر الإسلام بين الكفار ونرفض تنصير المسلمين، وعندما نحمي من يسلم من الكفار ونقر بحكم قتل المرتد من المسلمين، وعندما نتزوج من الكتابيات ونرفض أن تتزوج المسلمة من غير المسلم، إلخ.

النموذج الثاني
قتل كل قادر على حمل السلاح من بني قريظة

تؤرخ سورة الأحزاب في القرآن لغزوة الأحزاب؛ حيث تحزبت القبائل العربية واجتمعت في جيش كبير، وسارت لغزو المدينة النبوية والقضاء على الإسلام فيها، فحفر المسلمون خندقًا يحول دون اقتحام المدينة، وكانت قبيلة بني قريظة اليهودية هي الحصن الذي يحمي المدينة من الجهة المقابلة بناء على عهد عقده النبي ﷺ معهم. ولما يئست الأحزاب من اقتحام الخندق اتفقوا مع بني قريظة على نقض عهدهم مع المسلمين بالسماح لهم باقتحام المدينة من جهتهم، وتسامع الناس بهذا الغدر، فأرسل النبي ﷺ الزبير بن

العوام ﵁ ليستطلع الخبر[1]، ولما تأكد الخبر وقع المسلمون في اضطراب شديد، وقد نزل في القرآن وصف حالهم في قول الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب].

وبعد هذه المحنة جاء الفرج ورحل الأحزاب عن المدينة بعد أن أرسل الله عليهم ريحًا وجنودًا لم يروها[2]، وجاء دور محاسبة الخائنين الذين نقضوا عهدهم، فسار النبي ﷺ وأصحابه إليهم وحاصرهم حتى استسلموا، قال أبو سعيد الخدري ﵁: «لَمَّا نَزَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ هُوَ ابْنُ مُعَاذٍ، بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ، فَجَاءَ عَلَى حِمَارٍ، فَلَمَّا دَنَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ. فَجَاءَ، فَجَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ، قَالَ: فَإِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تُقْتَلَ المُقَاتِلَةُ، وَأَنْ تُسْبَى الذُّرِّيَّةُ، قَالَ: لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ المَلِكِ»[3].

وقد جاء تأييد هذا الحكم في القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى

---

(١) انظر: البخاري في الصحيح، كتاب المناقب، باب مناقب الزبير بن العوام، رقم الحديث (٣٧٢٠)، (٢١/٥)، ومسلم في الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل طلحة والزبير، (٢٤١٦)، (١٨٧٩/٤).

(٢) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب].

(٣) متفق عليه، البخاري في الصحيح، كتاب المناقب، باب مناقب سعد بن معاذ ﵁، رقم الحديث (٣٨٠٤)، (٣٥/٥)، ومسلم في الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد، رقم الحديث (١٧٦٨)، (١٣٨٨/٣).

﴿قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب].

وقد استبشع غير المسلمين هذا الحكم وزعموا أنه مجزرة جماعية تدل على شدة القسوة والتشوف إلى سفك الدماء، واستندوا إليه في إنكار الرحمة في الإسلام ونبي الإسلام ﷺ(١). وقد انبرى كثير من الباحثين(٢) إلى تفنيد هذه التهمة وإثبات أن القتل هو العقوبة التي يستحقها الخائنون جزاء وفاقًا وأنها العدل، والعدل لا يتنافى مع الرحمة، ولو كان لهؤلاء الخائنين ما أرادوا ودخلت الأحزاب المدينة لقضوا على الإسلام وأهله ولم يراعوا إلاًّ فيهم ولا ذمة، وقالوا: إن قتل الخائن خاصة وقت الحرب هي العقوبة التي تفعلها الدول المعاصرة ولا أحد ينكر عليها فلماذا الإنكار على النبي ﷺ؟

وهذا الذي قدمه هؤلاء الفضلاء منطقي وصواب من حيث الجملة، لكن يشكل عليه ما ذكره عطية القرظي رضي الله عنه الذي نجا من القتل لصغر سنه قال: «كُنْتُ مِنْ سَبْيِ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَكَانُوا يَنْظُرُونَ، فَمَنْ أَنْبَتَ الشَّعْرَ قُتِلَ، وَمَنْ لَمْ يُنْبِتْ لَمْ يُقْتَلْ، فَكُنْتُ فِيمَنْ لَمْ يُنْبِتْ»(٣). وهذا يدل على أن القتل شمل كل من تجاوز مرحلة الصغر وصار مكلفًا. ولو أردنا تطبيق هذه العقوبة في واقعنا المعاصر فهل نقتل كل من بلغ من سكان الدولة التي نقضت عهدها مع المسلمين في وقت الحرب؟! وبما أن العقوبة هي للخائن فهل كل سكان

(١) هذه الشبهة رددتها كثير من المدونات المعادية للإسلام على شبكة المعلومات الدولية "الإنترنت" انظر: مثلًا: مدونة انتهى الصمت، مقال غزوة بني قريظة أول مذبحة جماعية ارتكبها النبي في الإسلام.

(٢) انظر: على سبيل المثال: راغب السرجاني، الرحمة في حياة الرسول ﷺ، ص (٣٦١).

(٣) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الحدود، باب في الغلام يصيب الحد، رقم الحديث (٤٤٠٤)، (٤/١٤١)، وأخرجه الترمذي وقال حسن صحيح في السنن، أبواب السير، باب ما جاء في النزول على الحكم، رقم الحديث (١٥٨٤)، (٤/١٤٥)، والنسائي في السنن، كتاب الطلاق، باب متى يقع طلاق الصبي، رقم الحديث (٣٤٣٠)، (٦/١٥٥)، وابن ماجه في السنن، كتاب الحدود، باب من لا يجب عليه الحد، رقم الحديث (٢٥٤١)، (٢/٨٤٩)، وهو في مسند أحمد برقم (١٨٧٧٦)، (٣١/٦٧).

هذه الدولة مشارك في الخيانة؟! إذا كان الجواب: لا، فكيف يتفق القرآن والسنة على معاقبة غير المذنب؟! وإذا كان الجواب: نعم، فهذا مخالف للواقع الذي نعيشه؛ فالحكام هم الذين يقررون القرارات الحاسمة في الأمور العسكرية لا الشعوب. هذا هو الإشكال الذي يحتاج إلى تأمل لفهم العقوبة التي نزل إقرارها في القرآن.

من الضروري في فهم الأحداث التاريخية ألا نقع في فخ الإسقاط التاريخي؛ فلا يجوز فهم حدث بمعزل عن ظروفه التاريخية التي أحاطت به أو أن نفهمه حسب مقاييس زمن آخر، والواجب أن نفهم الحدث على ضوء بيئته المحيطة به من حيث الزمان والمكان والإنسان، وهذا المنهج يساعدنا على إدراك حقيقة الحدث بصورته التي وقعت دون تشويش والإفادة منه في معالجة مشكلات الواقع المعاصر دون لبس. وهذا يشبه إلى حد بعيد ما يطلق عليه الأصوليون مصطلح «تحقيق المناط»[1]، والمناط هنا علة حكم القتل، وهي الخيانة، فكيف تحققت علة القتل في كل قادر على حمل السلاح من بني قريظة؟

الناظر في السيرة النبوية يتبين له أن سكان شبه الجزيرة العربية من مسلمين وغير مسلمين لم يعرفوا الجيش النظامي، ولم يعرفوا تقسيم السكان إلى مقاتلين ومدنيين؛ ففي وقت السلم كان كل شخص يعمل ما يحسنه من الأعمال فيعتاش عليها، وإذا جاء وقت الحرب فكل قادر على حمل السلاح جندي في هذا الجيش، فيكون القتال عمله الذي يعتاش عليه. وبنو قريظة هكذا يتحملون جميعًا تبعة الغدر بالمسلمين والتحالف مع الأحزاب، فكان الأسر ثم القتل جزاء وفاقًا لخيانتهم وتحالفهم مع العدو وقت الحرب، واستثني من القتل النساء والأطفال؛ لأنهم لا رأي لهم في الحرب ولا مشاركة في الغدر والخيانة.

(١) انظر: فخر الدين الرازي، المحصول (٥/ ٢٠).

أما في المجتمعات الحديثة فالأمر مختلف تمامًا؛ فقد انقسم المجتمع إلى مدنيين وعسكريين، وتشكلت الجيوش النظامية التي يستمر دورها في السلم والحرب، ويقتصر عملها على الوظائف العسكرية، أما القطاع الأكبر من الشعب فهم مدنيون لا علاقة لهم بالأعمال العسكرية، ولا مشاركة لهم في القرار أو العمل العسكري.

إذا تبين هذا الفارق يسهل علينا تحقيق مناط حكم الله بقتل الخائنين، وأن هذا المناط موجود في رجال بني قريظة وغير موجود في كل الرجال القاطنين في المجتمعات الحديثة، وبناء عليه فإن حكم الله سبحانه وتعالى في بني قريظة ليس مجزرة ولا إبادة جماعية في حق المهزومين عسكريًا، وإنما هي عقوبة عادلة بحق كل من شارك في الخيانة العظمى والغدر بالمسلمين في وقت الحرب.

الخاتمة

في النهاية هاكم أهم النتائج التي خرج بها هذا البحث:

- الرحمة: إرادة الخير للمرحوم والإحسان إليه، وليست مجرد حمايته من الألم أو المشقة، وبذل الخير للناس غالبًا ما يتخلله مشقة وألم بنسبة ما، وهذا لا ينافي الرحمة؛ وبناء عليه فإن بعض التشريعات التي فيها قسوة في نظام العقوبات لا تتنافى مع الرحمة.
- الرحمة المطلقة التي لا يشوبها ألم مفهوم ذهني لا وجود له في الواقع ولا يمكن تطبيقه في المجتمعات الإنسانية.
- الرحمة في منظومة الأخلاق الإسلامية مفهوم واقعي يمكن تطبيقه في واقع الحياة، يتسم بالشمول والتكامل والتوازن مع غيره من المفاهيم القيمية.
- حفلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بالإعلاء من شأن خلق الرحمة في عشرات المواضع في القرآن والسنة، حتى استحقت هذه الصفة أن تكون السمة العامة للتشريع الإسلامي ونظامه الخلقي، وبناء عليه فقد أخطأ منكرو الرحمة في الإسلام عندما أهملوا كل هذه النصوص واعتمدوا على بعض التشريعات في نظام العقوبات التي رأوا فيها قسوة.

- وبناء عليه فإن إنكار مطلق الرحمة في الإسلام خطأ كبير، وإنما اعتراضهم على عدم وجود الرحمة المطلقة في الإسلام، وهو اعتراض باطل؛ لأن الرحمة المطلقة لا وجود لها في الحياة إلا في الذهن فقط. وكل الأنظمة التي تحكم المجتمعات تقيد الرحمة بمقيدات أخرى، فالخلاف إذن ليس على التقييد ذاته وإنما على مدى هذا التقييد وشكله؛ وتقييد البشر ليس أولى بالقبول من تقييد خالق البشر.
- الاعتراض على قتل المرتد عن الإسلام قياسًا على غير المسلم الذي ترك دينه لدين آخر غير الإسلام قياس باطل؛ لأن الإسلام لا يشبه غيره من الأديان والأفكار، فهو الدين الحق الذي رضيه الله نظامًا للحياة وليس مجرد عقيدة في الضمير.
- الاعتراض على قتل كل من حمل السلاح من بني قريظة عقوبة لهم لخيانتهم خطأ، سببه الإسقاط التاريخي، وقياس واقع الجيوش والدول اليوم على واقع شبه الجزيرة العربية قبل أربعة عشر قرنًا.

فهرس المصادر والمراجع

١. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، ت (٧٥١هـ)، تحقيق محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض.

٢. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، علاء الدين بن مسعود، ت (٥٨٧هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٣. تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، إسماعيل بن حماد، ت(٣٩٣هـ)، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

٤. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر، يوسف ابن عبدالله النمري، ت (٤٦٣هـ)، تحقيق مصطفى العلوي ومحمد البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ.

٥. جامع الأصول في أحاديث الرسول، ابن الأثير الجزري، المبارك ابن محمد، ت (٦٠٦هـ)، تحقيق عبدالقادر الأرنؤوط وبشير عيون، مكتبة الحلواني ودار البيان، ط١، ١٣٨٩ه، ١٩٦٩م.

٦. الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه، البخاري، محمد بن إسماعيل، ت (٢٥٦هـ)، تحقيق محمد زهير الناصر، طبعة دار طوق النجاة المصورة عن السلطانية، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي، ط١، ١٤٢٢هـ.

٧. خصائص التصور الإسلامي، سيد قطب، ت (١٩٦٦م)، دار الشروق، القاهرة، ط١٥، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٨. الرحمة في حياة الرسول ﷺ، راغب السرجاني، بحث مقدم لجائزة معالي السيد حسن عباس الشربتلي بإشراف رابطة العالم الإسلامي.

٩. درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم، ت (٧٢٨هـ)، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، ط٢، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.
١٠. درج الدرر في تفسير الآي والسور، عبدالقاهر الجرجاني، ت (٤٧١هـ)، تحقيق طلعت صلاح ومحمد شكور، دار الفكر، الأردن، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
١١. الردة بين الحد والحرية؛ قراءة نقدية في كتاب لا إكراه في الدين، صالح بن علي العميريني، قدم له وأضاف إليه المحدث عبدالله السعد، دار التدمرية، الرياض، ط١، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م.
١٢. السنن الكبرى، البيهقي، أحمد بن الحسين، ت (٤٥٨هـ)، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
١٣. السنن، ابن ماجه، محمد بن يزيد، ت (٢٧٣هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، مكتبة الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
١٤. السنن، أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث، ت (٢٧٥هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط محمد كامل، دار الرسالة العالمية، ط١، دار الرسالة العالمية، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
١٥. السنن، الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، ت (٢٧٩هـ)، تحقيق أحمد شاكر وآخرين، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.
١٦. السنن، النسائي، أحمد بن شعيب، ت (٣٠٣هـ)، تحقيق عبدالفتاح أبي غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
١٧. العقوبة، محمد أبو زهرة، ت (١٩٧٤) م، دار الفكر العربي، القاهرة.
١٨. قناة طارق السويدان على موقع اليوتيوب على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت).

١٩. كتاب التعريفات، الجرجاني، علي بن محمد الشريف، ت (٨١٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
٢٠. كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي، محمد بن علي الفاروقي، ت (١١٥٨هـ)، تحقيق علي دحروج، ترجمة عبدالله الخالدي، مكتبة لبنان، ط١، ١٩٩٦م.
٢١. الكليات، أبو البقاء الكفوي، أيوب بن موسى، ت (١٠٩٤هـ)، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٢٢. لا إكراه في الدين؛ إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم، طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار الشروق الدولية، الولايات المتحدة الامريكية، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.
٢٣. المجموع شرح المهذب، النووي، محيي الدين يحيى بن شرف، ت (٦٧٦ هـ)، دار الفكر.
٢٤. المحصول، فخر الدين الرازي، محمد بن عمر التيمي، ت (٦٠٦هـ)، تحقيق الدكتور طه جابر العلواني، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.
٢٥. المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، علي بن إسماعيل المرسي، ت (٤٥٨هـ)، تحقيق عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ، ٢٠٠٠م.
٢٦. مدونة الحوار المتمدن على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت).
٢٧. مدونة نهاية الإسلام على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت).
٢٨. مدونة نهاية الصمت على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت).
٢٩. المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، محمد بن عبدالله ابن حمدويه، ت (٤٠٥هـ)، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

٣٠. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج، ت (٢٦١هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣١. المسند، أحمد بن محمد بن حنبل، ت (٢٤١هـ)، تحقيق وتخريج مجموعة باحثين بإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

٣٢. مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي عياض اليحصبي السبتي، ت (٥٤٤هـ)، المكتبة العتيقة ودار التراث.

٣٣. المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ونسنك، مكتبة، بريل، ليدن، ١٩٣٦م.

٣٤. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي، دار الحديث، القاهرة.

٣٥. معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، جلال الدين السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر، ت (٩١١هـ)، تحقيق محمد إبراهيم عبادة، دار الآداب، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

٣٦. معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، أحمد بن زكريا، ت (٣٩٥هـ)، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

٣٧. المغني، ابن قدامة المقدسي، موفق الدين عبدالله بن أحمد، ت (٦٢٠هـ)، مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ، ١٩٧٨م.

٣٨. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، حسين بن محمود، ت (٥٠٢هـ)، تحقيق صفوان الداودي، دار القلم والدار الشامية، دمشق بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

٣٩. موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، صالح بن حميد وعبدالرحمن ملوح، دار الوسيلة، جدة.

٤٠. الموطأ، مالك بن أنس الأصبحي، ت (١٧٩هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م.
٤١. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، محمد الجزري، ت (٦٠٦هـ)، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناجي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

الرحمة في الابتلاء بالضراء
في ضوء السنة النبوية

إعداد:
د. خديجة إبراهيم إزعريين
الأستاذة المساعدة بكلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد..

فإن المتأمل في الكون ليدرك أن رحمة الله عامة بجميع خلقه، وتتجلى فيما حباهم به من نعم لا تحصى ولا تعد، حتى خشي جبريل عليه السلام أن يكون لفرعون، وهو من أئمة الكفر، نصيب منها، فعن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: «لَمَّا أَغْرَقَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ قَالَ: آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ. فَقَالَ جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ فَلَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا آخُذُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ فَأَدُسُّهُ فِي فِيهِ، مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ»[1]. وقال الإمام ابن القيم رحمه الله في وصفه لشمول رحمة الله تعالى: «لو تأملت العالم بعين البصيرة لرأيته ممتلئًا بهذه الرحمة الواحدة، كامتلاء البحر بمائه، والجو بهوائه، وما في خلاله من ضد ذلك، فهو مقتضى قوله: «سبقت رحمتي غضبي». فالمسبوق لا بد لاحق وإن أبطأ، وفيه حكمة لا تناقضها الرحمة، فهو أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، فسبحان من أعمى بصيرة من زعم أن رحمة الله مجاز»[2]. فكثير من الناس يغيب عنهم ما في أنواع البلاء التي تصيب

(١) أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة يونس، ٥/ ١٣٨/ رقم ٣١٠٧.
(٢) مختصر الصواعق المرسلة، ص ٣٧١.

الفرد أو الأمة من حكمة ورحمة، ويعتبرون أن كل من أصيب بشيء منها قد حلّ عليه غضب من الله تعالى. وهذا مخالف لما أخبر به سيد الخلق ﷺ حين قال: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(١). فإذا وسعت رحمة الله عز وجل الكفار على كفرهم وتعنتهم، فرحمته سبحانه وتعالى بهذه الأمة، التي جعلها خير الأمم، أعظم وأجلّ.

فأين تتجلى مظاهر الخيرية والرحمة في الابتلاء بالضّراء؟

ذلك ما سأجيب عنه -بإذن الله تعالى- في هذا البحث وفق الخطة التالية:

تمهيد، وفيه تعريف بالألفاظ الواردة في عنوان البحث.

المبحث الأول: الرحمة الربانية في ابتلاء الأمة.

المطلب الأول: الابتلاء بالفتن العامة.

المطلب الثاني: الابتلاء بالجهاد.

المطلب الثالث: الابتلاء بالكوارث.

المبحث الثاني: الرحمة الربانية في ابتلاء الفرد.

المطلب الأول: الابتلاء في النفس والأهل.

المطلب الثاني: الابتلاء في المال.

الخاتمة، وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير ٤/٢٢٩٥/ رقم ٢٩٩٩.

تمهيد

إن الكلام عن الرحمة في الابتلاء بالضّراء في ضوء السنة النبوية يقتضي التعريف بهذه الألفاظ من خلال كتب أهل اللغة وغيرهم، على سبيل الإيجاز، لأن المقام لا يسمح بالاستفاضة.

١. تعريف الرحمة:

قال في الصحاح: «الرَحْمَةُ: الرِّقَّةُ والتعطُّفُ. والمرحمةُ مثلهُ. وقد رَحِمْتُهُ وترَحَّمْتُ عليه. وتراحَمَ القوم: رَحِمَ بعضُهم بعضًا»[١].

وقال ابن القيم: «إن الرحمة صفة تقتضى إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها. فهذه هى الرحمة الحقيقية. فأرحم الناس بك من شق عليك فى إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك»[٢].

٢. تعريف الابتلاء:

قال في اللسان: «بلا: بَلَوْتُ الرجلَ بَلْوًا وبَلاءً وابْتَلَيْته: اخْتَبَرْته، وبَلاهُ يَبْلُوه بَلْوًا إذا جَرَّبَه واخْتَبَره... وابْتَلاه اللَّهُ: امْتَحَنَه، وَالاسْمُ البَلْوَى والبِلْوَةُ والبِلْيَةُ والبَلِيَّةُ والبَلاءُ، وبُلِيَ بالشَّيْءِ بَلاءً وابْتُلِيَ... قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: يُقَالُ مِنَ الْخَيْرِ أَبْلَيْته إبْلاءً، وَمِنَ الشَّرِّ بَلَوْته أَبْلُوه بَلاءً، قَالَ: وَالْمَعْرُوفُ أَن الابْتلاءَ يَكُونُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ مَعًا مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بَيْنَ فِعْلَيْهِمَا؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]»[٣].

(١) الصحاح ٥/١٩٢٩.
(٢) إغاثة اللهفان ٢/ ١٧٤.
(٣) لسان العرب ١٤/ ٨٤.

٣. تعريف الضّراء:

الضّراء مشتقة من: ضرر، قال في اللسان: «قَالَ ابْنُ الأَثير: الضَّراء الْحَالَةُ الَّتِي تَضُرُّ، وَهِيَ نَقِيضُ السَّرَّاء... وقال الْجَوْهَرِيُّ: والبَأْساءُ والضَّراء الشِّدَّةُ»[١]. وقيل: «الضَّراء: النقص في الأموال والأنفس»[٢].

٤. تعريف السنة:

أما لغة: فهي الطريقة المسلوكة، وأصلها من قولهم: سننت الشيء بالمسن، إذا أمررته عليه حتى يؤثر فيه سنًّا أي: طريقًا. قال الخطابي: أصلها الطريقة المحمودة، فإذا أطلقت انصرفت إليها، وقد يستعمل في غيرها مقيدة كقوله: «من سن سنة سيئة» وقيل: هي الطريقة المعتادة، سواء كانت حسنة أو سيئة، كما في الحديث الصحيح: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».

وأما معناها شرعًا: أي: في اصطلاح أهل الشرع، فهي: قول النبي ﷺ وفعله وتقريره، وتطلق بالمعنى العام على الواجب وغيره في عرف أهل اللغة والحديث، وأما في عرف أهل الفقه، فإنما يطلقونها على ما ليس بواجب، وتطلق على ما يقابل البدعة، كقولهم: "فلان من أهل السنة"[٣].

فموضوع بحثي يستند إلى الأحاديث النبوية في إثبات رحمة الله بعباده في ابتلائهم بالضراء، وسأفصل القول فيه في المباحث التالية.

(١) السابق ٤/٤٨٤.
(٢) تاج العروس: ١٢/ ٣٨٥.
(٣) إرشاد الفحول: ١/ ٩٥.

المبحث الأول
الرحمة الربانية في ابتلاء الأمة

إن الابتلاء من نعم الله عز وجل، ودليل محبته لعباده المؤمنين، فعن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»(١). فالله سبحانه وتعالى يقدّر على عباده أمورًا يكرهونها، ليختبر رضاهم، فمن رضي نال من الله عز وجل ما يحبه.

وابتلاء الأمة يكون تارة اختبارًا، وتارة بسبب ما ظهر فيها من فساد، رحمة بها لترجع وتذعن لبارئها، قال ابن القيم: «إن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغيانًا وركونًا إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله والدار الآخرة. فإذا أراد بها ربها ومالكها وراحمها كرامته قيّض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليل الدواء الكريه، ويقطع منه العروق المؤلمة، لاستخراج الأدواء منه، ولو تركه لغلبته الأدواء حتى يكون فيها هلاكه»(٢).

والمتتبع لأحوال الأمة الإسلامية عبر التاريخ، يرى ما أصابها ويصيبها

(١) أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب الزهد، باب ماجاء في الصبر على البلاء، ٤/١٧٩/ رقم ٢٣٩٦. وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه».

(٢) زاد المعاد ٣/١٩٨.

من ابتلاءات، يشق على كثير من الناس إدراك المقصود منها. ومن خلال هذه الأسطر، سأقف على بعض مظاهر الرحمة في ابتلاء الأمة.

المطلب الأول
الابتلاء بالفتن العامة

إن الفتن سنّة من سنن الله عز وجل في خلقه، وهي مقدّرة وواقعة بهذه الأمة لا محالة، فقد أخبر النبي ﷺ، وهو الذي لا ينطق عن الهوى، بما هو كائن منها إلى يوم القيامة، فعن حذيفة بن اليمان قال: «والله إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة، فيما بيني وبين الساعة، وما بي إلا أن يكون رسول الله ﷺ أسرّ إليّ في ذلك شيئًا، لم يحدثه غيري، ولكن رسول الله ﷺ، قال: وهو يحدث مجلسًا أنا فيه عن الفتن، فقال رسول الله ﷺ: وهو يعدّ الفتن: مِنْهُنَّ ثَلَاثٌ لَا يَكَدْنَ يَذَرْنَ شَيْئًا، وَمِنْهُنَّ فِتَنٌ كَرِيَاحِ الصَّيْفِ مِنْهَا صِغَارٌ وَمِنْهَا كِبَارٌ، قال حذيفة: فذهب أولئك الرهط كلهم غيري»[(١)]. وشبهها ﷺ بمواقع القطر من حيث كثرتها وعمومها على مر الأزمان، ومعلوم أن القطر لا يحصيه إلا الذي أنزله، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: «أشرف النبي ﷺ على أطم[(٢)]، من آطام المدينة، فقال: هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟ إِنِّي أَرَى مَوَاقِعَ الفِتَنِ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ القَطْرِ»[(٣)]. وذكر من هولها وشدتها والتباسها على الناس ما قد يكون سببًا في الخروج عن الملة، فعن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «تَكُونُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ فِتَنٌ كَقِطَعِ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة، ٤/ ٢٢١٦/ رقم ٢٨٩١.
(٢) الأطم: بِنَاء مُرْتَفع، والأطم والأجم: الْحصن، وَجمعه: آطام وآجام.(انظر غريب الحديث لابن قتيبة ٢/٢٨٦).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل المدينة، باب آطام المدينة، ٣/ ٢١/ رقم ١٨٧٨.

اللَّيْلِ الْمُظْلِم، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ أَقْوَامٌ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»(١). قال الملا علي القاري: «والظاهر أن المراد بالإصباح والإمساء تقلب الناس فيها وقتًا دون وقت، لا بخصوص الزمانين، فكأنه كناية عن تردد أحوالهم، وتذبذب أقوالهم، وتنوع أفعالهم من عهد ونقض، وأمانة وخيانة، ومعروف ومنكر، وسنة وبدعة، وإيمان وكفر»(٢)

فإذا كان هذا حال الفتن وما فيها من الشدائد، فأين تتجلى الرحمة في الابتلاء بها؟

يمكن الإجابة عن هذا السؤال من وجوه:

أولًا: أنها ليست سببًا في هلاك الأمة جمعاء.

إن من عدل الله عز وجل وحكمته أن جعل هلاك الأمم السابقة التي عتت عن أمر ربها وكفرت بأنعمه، عذابًا وعقابًا لا يبقي ولا يذر، فعذب قوم نوح وفرعون بالغرق، وعاد بالريح، وقارون وقوم لوط بالخسف، وثمود بالصيحة، وأصحاب مدين وأصحاب الفيل بالرجم، إلى غير ذلك من أنواع العذاب.

بل إن من عدله سبحانه وتعالى أن يعاقب العصاة من هذه الأمة بأنواع العذاب الدنيوي، ولن يكون سبحانه وتعالى ظالمًا لهم، غير أن رحمته جل وعلا سبقت غضبه، فخفف عنهم استجابة لدعاء نبيه ﷺ ورحمة بأمته، فعن جابر رضي الله عنه، قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥]، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ، قَالَ: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ

(١) أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب الفتن، باب ما جاء ستكون فتن كقطع الليل المظلم ٤/٥٨/ رقم ٢١٩٧. وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه». وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٢/٤٥٠/ رقم ٨١٠.

(٢) مرقاة المفاتيح ٨/٣٣٩٥.

أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥]، قَالَ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥]، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَذَا أَهْوَنُ -أَوْ هَذَا أَيْسَرُ-»[1].

فقضى الله على هذه الأمة بالفتن والقتال إلى يوم القيامة، وإنما كان هذا أهون، لأن المستعاذ مما قبله هو عذاب الاستئصال بإحدى الخصلتين الأوليين، حتى لا يبقى من الأمة أحد. وما ذاك إلا أن هذه الأمة أفضل الأمم وآخرها، فعصمها الله وحفظها من الهلاك العام، ولم يُسلَّط عدوًا عليها كلها، ولم يأخذها بالسنين أو الغرق، بل جعل ابتلاءها بالفتن الناشئة من داخلها، فعن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا -أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا- حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[2]. وفي حديث سعد بن أبي وقاص: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ، حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا، فَقَالَ ﷺ: «سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ، وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا»[3].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥] الآية، ٦/٥٦/ رقم ٤٦٢٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، ٤/٢٢١٥/ رقم ٢٨٨٩.

(٣) السابق، ٤/٢٢١٦/ رقم ٢٨٩٠.

قال ابن تيمية: «وهذا البأس نوعان، أحدهما: الفتن التي تجري عليهم. والفتنة تَرِدُ على القلوب، فلا تعرف الحقَّ، ولا تقصده، فيؤذي بعضهم بعضًا بالأقوال والأعمال. والثاني: أن يعتدي أهل الباطل منهم على أهل الحقّ منهم، فيكون ذلك محنةً في حقّهم، يُكفّر الله بها سيِّئاتهم، ويرفع بالصبر عليها درجاتهم، وبصبرهم وتقواهم لا يضرّهم كيد الظالمين لهم، بل تكون العاقبة للتقوى، ويكونون من أولياء الله المتقين»(١).

ثانيًا: بيان المخرج منها

حرص النبي ﷺ على تحذير أمته من خطر الفتن التي تنزل بها، وبيَّن لها المخرج منها رحمة بها وخشية أن تهلكها. ومما أرشد إليه ﷺ:

١. الأمر باعتزال الفتن.

إن الله عز وجل قد منَّ على هذه الأمة بأن اختار لها خير خلقه وأرحمهم لتبليغ أمره، فما ترك ﷺ خيرًا يعلمه إلا أخبرها به، ولا شرًا إلا نفّرها منه، ولما كانت التفرقة والاختلاف من أنواع البأس الذي ابتليت به، حذرها من الوقوع فيه، لينجو منه من شاء الله له السلامة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «سَتَكُونُ فِتَنٌ القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، وَمَنْ يُشْرِفْ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ»(٢). وعن محمد بن مسلمة قال: إن رسول الله ﷺ قال: إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ وَفُرْقَةٌ وَاخْتِلَافٌ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَأْتِ بِسَيْفِكَ أُحُدًا، فَاضْرِبْهُ حَتَّى يَنْقَطِعَ، ثُمَّ اجْلِسْ فِي بَيْتِكَ، حَتَّى تَأْتِيَكَ يَدٌ خَاطِئَةٌ، أَوْ مَنِيَّةٌ قَاضِيَةٌ»(٣). وفي حديث كرز الخزاعي، قال: «قَالَ

---

(١) النبوات، ١/ ٤١٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ٤/ ١٩٨/ رقم ٣٦٠١.
(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب التثبت في الفتنة، ٢/ ١٣١٠/ رقم٣٩٦٢. وصححه الألباني بمجموع طرقه في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/ ٣٦٩/ رقم ١٣٨١.

أَعْرَابِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ لِهَذَا الْإِسْلَامِ مِنْ مُنْتَهًى؟ قَالَ: نَعَمْ، مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا مِنْ عَرَبٍ أَوْ عَجَمٍ أَدْخَلَهُ عَلَيْهِمْ. قَالَ: ثُمَّ مَاذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ثُمَّ تَقَعُ فِتَنٌ كَالظُّلَلِ، قَالَ: كَلَّا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَعُودُنَّ فِيهَا أَسَاوِدَ صُبًّا[(١)]، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، فَخَيْرُ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ مُؤْمِنٌ مُعْتَزِلٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَتَّقِي اللَّهَ، وَيَذَرُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ»[(٢)]. فبين النبي ﷺ أن المخرج من الفتن هو اجتناب الدخول فيها، وأن شرها بحسب التعلق بها والتعرض لها والمشاركة فيها، فمن سارع فيها أهلكته، ورتب ﷺ الناس في الخيرية بحسب تعاملهم مع الفتنة، ودلَّ على أن سبيل النجاة منها هو اعتزالها، وهذا ما فهمه كثير من الصحابة رضي الله عنهم ممن اعتزل الفتن، قال ابن تيمية: «والذين رووا هذه الأحاديث من الصحابة مثل سعد بن أبي وقاص وأبي بكرة، وأسامة بن زيد، ومحمد بن مسلمة وأبي هريرة وغيرهم، جعلوا قتال الجمل وصفّين من ذلك، بل جعلوا ذلك أول قتال فتنة كان في الإسلام، وقعدوا عن القتال، وأمروا غيرهم بالقعود عن القتال، كما استفاضت بذلك الآثار عنهم»[(٣)].

٢. وجوب طاعة الإمام:

إن نصوص الشريعة التي نصت على وجوب طاعة الإمام كثيرة وثابتة، منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي، وَإِنَّمَا الإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ، فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَعَدَلَ، فَإِنَّ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرًا، وَإِنْ قَالَ بِغَيْرِهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ مِنْهُ»[(٤)].

(١) قال ابن الأثير في النهاية (٣/٥): "الأساودُ: الحياتُ. والصُّبّ: جمع صَبُوب، عَلَى أَنَّ أَصْلَهُ صُبُبٌ، كرَسُول ورُسُل، ثُمَّ خُفِّف كرُسْل فأدْغِم، وهُوَ غريب مِنْ حَيْثُ الإدْغام. قَالَ النَّضر: إنَّ الأَسْوَدَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْهش ارْتفع ثُمَّ انْصَبَّ عَلَى الملْدُوغ".

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١٣/٢٨٧/ رقم ٥٩٥٦.

(٣) منهاج السنة النبوية ٨/٥٢٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب يقاتل من وراء الإمام ويتقى به، ٤/٥٠/ رقم ٢٩٥٧. وهو عند مسلم مختصرًا (٣/١٤٧١/رقم ١٨٤١)

فطاعة الإمام فيما أمر به من معروف واجبة، والحكمة في الأمر بطاعته المحافظة على اتفاق الكلمة، لما في الافتراق من الفساد، فالإمام يمنع العدو من أذى المسلمين، ويمنع الناس بعضهم من بعض، ويحمي بيضة الإسلام، ويتقيه الناس ويخافون سطوته. ولذلك وقع إجماع جمهور أهل السنة على عدم جواز الخروج على الإمام، لما يترتب عليه من فتنة عظيمة من سفك للدماء وهتك للأعراض وفساد للبلاد. وقد نص النبي ﷺ على أن الناس إن بايعت إمامًا، ثم جاء آخر فبويع له، فإنه يُوجب شق العصا وإراقة دماء المسلمين، فيُقتل الأخير ليستتبّ الأمن، وتتفق كلمة المسلمين على الأول الذي بايعوه. فعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِبَاءَهُ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ، إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللهِ ﷺ: الصَّلَاةَ جَامِعَةً، فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ، وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ، وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ، فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخَرِ»(1).

٣. الصبر على الفتن

إن من أعظم ما يمنُّ الله عز وجل على عباده عصمتهم من الفتن، أو تثبيتهم إذا بالصبر ابتلوا، فعن المقداد بن الأسود، قال: ايم الله، لقد سمعت

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء، الأول فالأول ٣/١٤٧٢/ رقم ١٨٤٤.

رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنِ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنُ، وَلَمَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهًا»[1]. قال الملا علي القاري: «قال ابن الملك: معناه -أي فواها- التلهف، وقد يوضع موضع الإعجاب بالشيء والاستطابة له، أي: ما أحسن وما أطيب صبر من صبر، وقيل: معناه فطوبى له»[2]، فالسعادة الحقيقية جعلها الله سبحانه وتعالى لمن امتحنوا بالفتن، فلم ينغمسوا فيها، وصبروا على ما أصابهم من أذاها.

ثالثًا: أنها رحمة من عذاب الآخرة.

خصّ الله عز وجل هذه الأمة بمزيد من الرحمة وإتمام النعمة، وخفف عنها الإصر والأثقال، مما كانت تؤخذ به الأمم السابقة، من قتل النفس في التوبة وإخراج ربع المال في الزكاة، وغير ذلك. وجعل ما يصيبها من فتن وغيرها في الدنيا صرفًا لعذاب الآخرة، فعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمَّتي هذه أُمَّةٌ مرحُومَةٌ، ليسَ عليها عذابٌ في الآخِرَة، عذابُها في الدُّنيا الفِتَنُ والزَّلازِلُ والقَتل»[3]. واختلف العلماء في مراد النبي ﷺ بقوله: «ليس عليها عذاب في الآخرة» على أقوال، ذكرها صاحب عون المعبود في شرحه لسنن أبي داود، فقال: «أي من عذب منهم لا يعذب مثل عذاب الكفار... وقال صاحب فتح الودود: أي إن الغالب في حق هؤلاء المغفرة. وقال القاري في المرقاة: بل غالب عذابهم أنهم مجزيون بأعمالهم في الدنيا بالمحن والأمراض وأنواع البلايا.. وقيل الحديث خاص بجماعة لم تأت كبيرة، ويمكن أن تكون الإشارة إلى جماعة خاصة من الأمة، وهم المشاهدون من الصحابة، أو المشيئة مقدرة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. وقال المظهر: هذا حديث مشكل لأن

(١) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الفتن، باب في النهي عن السعي في الفتنة ٤/١٠٢/ رقم ٤٢٦٣.
(٢) مرقاة المفاتيح ٨/ ٣٤٠١.
(٣) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الفتن، باب ما يرجى في القتل ٦/ ٣٣٤/ رقم ٤٢٧٨. وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٢/٧٢٤/رقم ٩٥٩.

مفهومه أن لا يعذب أحد من أمته ﷺ سواء فيه من ارتكب الكبائر وغيره، فقد وردت الأحاديث بتعذيب مرتكب الكبيرة، اللهم إلا أن يأوّل بأن المراد بالأمة هنا من اقتدى به ﷺ كما ينبغي، ويمتثل بما أمر الله وينتهي عما نهاه. وقال الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: الحديث وارد في مدح أمته ﷺ واختصاصهم من بين سائر الأمم بعناية الله تعالى ورحمته عليهم، وأنهم إن أصيبوا بمصيبة في الدنيا، حتى الشوكة يشاكها، أن الله يكفر بها في الآخرة ذنبا من ذنوبهم... وتعقيبها بقوله: مرحومة. فإنه يدل على مزيّة تمييزهم بعناية الله تعالى ورحمته...»[1].

وخلاصة كلامهم: أنه يدور حول أمرين: إما تخفيف العذاب عن هذه الأمة في الآخرة، وإما صرفه عنها كليًّا بما يصيبها من الفتن وأنواع البلاء في الدنيا، وفي كل فضل من الله تعالى ومنة على هذه الأمة، ولذلك قال المناوي: «إن شأن الأمم السابقة يجري على طريق العدل وأساس الربوبية، وشأن هذه الأمة يجري على منهج الفضل والألوهية»[2].

المطلب الثاني
الابتلاء بالجهاد في سبيل الله

إن الجهاد في سبيل الله من أعظم العبادات وأشرفها، إذ هو في حد ذاته من نعم الله على عباده، يختص بها من يشاء، وقد ورد في الأحاديث من الفضائل للمجاهد والشهيد ما لم يرد في غيره من العمل الصالح، وما ذاك إلا لما يترتب عليه من مصالح عظيمة من نشر التوحيد وإزالة الفتنة والشرك والظلم.

(١) عون المعبود ١١/٢٤٠ مختصرًا.
(٢) فيض القدير ٢/١٨٥.

وبرغم ما في الجهاد من مشقة من بذل الأرواح والأموال، إلا أن في فرضيته حكمة بالغة لله عز وجل، ورحمة بعباده، تتجلى فيما يمدهم به ﷻ من النعم في الدنيا والآخرة. والمتأمل في مغازي رسول الله ﷺ يدرك من الحكم الربانية العظيمة ما قد يخفى عن كثير من الناس، ولا أدل على ذلك من غزوة أُحُد، التي تجلت فيها رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين، والحكمة البالغة، برغم الهزيمة أمام المشركين، وقد لخصها ابن حجر في قوله: «قال العلماء: وكان في قصة أحد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة... منها: أن عادة الرسل أن تبتلى وتكون لها العاقبة...والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائمًا، دخل في المؤمنين من ليس منهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انكسروا دائما لم يحصل المقصود من البعثة، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب... ومنها: أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضمًا للنفس وكسرًا لشماختها، فلما ابتلي المؤمنون صبروا، وجزع المنافقون. ومنها: أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته، لا تبلغها أعمالهم، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن، ليصلوا إليها. ومنها أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء، فساقها إليهم. ومنها: أنه أراد إهلاك أعدائه، فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك، من كفرهم وبغيهم وطغيانهم في أذى أوليائه، فمحّص بذلك ذنوب المؤمنين، ومحق بذلك الكافرين»[(١)].

ومن مظاهر الرحمة الربانية في الابتلاء بالجهاد:

١. إعانة الله للمجاهد

إن الله عز وجل كتب على نفسه، وهو الحق وقوله الحق، أن يعين كل من خرج مجاهدًا في سبيله، ولم يكِلْه إلى نفسه، فعن أبي هريرة قال: قال

(١) فتح الباري ٧/٣٤٧، مختصرًا.

رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّه عَوْنُهُمْ: المُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّه، وَالمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ العَفَافَ»(١). قال الطيبي: «إنما آثر هذه الصيغة إيذانًا بأن هذه الأمور من الأمور الشاقة، التي تقدح الإنسان وتقصم ظهره، لولا أن الله تعالى يعينه عليها لا يقوم بها»(٢). ومن عون الله عز وجل إمداده الغزاة في سبيله، بالملائكة يقاتلون معهم، فجعل سبحانه وتعالى ذلك لهم بشارة ليزدادوا ثباتًا على لقاء العدو، وسكنًا لقلوبهم من الخوف الذي يطرقها من كثرة عددهم. فعن ابن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب، قال: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِئَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال] فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلَائِكَةِ، قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ: فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ»(٣).

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل الجهاد، باب ما جاء في المجاهد والناكح والمكاتب وعون الله إياهم ٤/١٨٤/ رقم ١٦٥٥. وقال: «هذا حديث حسن».

(٢) الكاشف عن الحقائق والسنن ٧/٢٢٦٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم ٣/١٣٨٣/ رقم ١٧٦٣.

٢. البشارة بالنصر والفتح.

إن النصر والفتح من عند الله عز وجل، فسبحانه يؤيد بنصره من يشاء ويخذل من يشاء، وسنة الله تعالى ماضية في نصر من ينصر دينه، قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد:٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]. ووعد الله هذه الأمة بهذه العاقبة المحمودة في الدنيا، فعن عبدالله بن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّكُمْ مَنْصُورُونَ وَمُصِيبُونَ وَمَفْتُوحٌ لَكُمْ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ وَلْيَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَلْيَنْهَ عَنِ المُنْكَرِ»(١). قال الصنعاني: «فيه البشرى بأن الأمة تنصر على من عاداها، وتصيب من حاربها، وتفتح بلاد من ناداها»(٢). فتكون لها العاقبة، برغم ما قد يصيبها من قرح. بل ستفتح لها مشارق الأرض ومغاربها، وهي بشارة النبي ﷺ لأمته، فعن ثوبان: أن نبي الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى زَوَى لِي الأَرْضَ، حَتَّى رَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَأَعْطَانِي الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ»(٣). وفي حديث جابر بن سمرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «لَتَفْتَحَنَّ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ -أَوْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ- كَنْزَ آلِ كِسْرَى الَّذِي فِي الأَبْيَضِ»(٤).

٣. جعل الله الجهاد سببًا للغنى.

إن الله عز وجل أوجب على نفسه، بفضله وكرمه، لكل من خرج مجاهدًا في سبيله، مخلصًا لله عز وجل، إما أن يرزقه الشهادة وما فيها من فضل، وإما أن يرده لأهله مأجورًا غانمًا بما يفتح عليه من الدنيا، مما يزيل عنه شظف

(١) أخرجه االترمذي في جامعه، أبواب الفتن، باب ٧٠، ٤/ ٩٤/ ٢٢٥٧. وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) التحبير لإيضاح معاني التيسير ١/٣٤٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه بعضهم ببعض ٤/٢٢١٥/ رقم ١٩.

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء ٤/٢٢٣٧/ رقم ٢٩١٩.

عيشه، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِه، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ، وَرِيحُهُ مِسْكٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ، وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ»(١). وفي حديث ابن عمر، عن النبي ﷺ، فيما يحكي عن ربه تبارك وتعالى، قال: «أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي خَرَجَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِي، ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي، ضَمِنْتُ لَهُ أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ، وَإِنْ قَبَضْتُهُ أَنْ أَغْفِرَ لَهُ وَأَرْحَمَهُ، وَأُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ»(٢). وقد عبّر ﷺ عن الله سبحانه وتعالى بتفضله بالثواب بلفظ الضمان ونحوه، مما جرت به عادة المخاطبين فيما تطمئن به نفوسهم. وفي حديث أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «سَافِرُوا تَصِحُّوا، وَاغْزُوا تَسْتَغْنُوا»(٣). فجعل الله سبحانه وتعالى الغزو في سبيله سببًا للغنى، وهذا وعد حق من الله عز وجل، بشر به النبي ﷺ في قوله: «وَأَعْطَانِي الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَض»(٤).

٤. تهوين سكرات الموت على المجاهد

إن للموت سكرات لا يسلم منها أحد من العباد، إلا من تفضّل الله سبحانه وتعالى

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، ٣/١٤٩٥/ رقم ١٨٩٦.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ١٠/ ١٨٦/ رقم ٥٩٧٧.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ١٤/٥٠٧/ رقم ٨٩٤٤. وقال الألباني: «حديث أبي هريرة؛ فله طريقان: الأولى: عن دراج عن ابن حجيرة عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: ... فذكره.أخرجه الإمام أحمد (٢/٣٨٠): حدثنا قتيبة: حدثنا ابن لهيعة. قلت: وهذا إسناد حسن، رجاله كلهم ثقات على ما عرفت من استقامة حديث دراج عن ابن حجيرة في الحديث المتقدم (٣٣٥٠)، وابن لهيعة وإن كان سيئ الحفظ؛ فإنه صحيح الحديث في رواية العبادلة عنه، وألحق بهم قتيبة هذا، وهو ابن سعيد».

(٤) تقدم تخريجه.

عليه بتهوينها. ولما كان المجاهد قد جاد بنفسه في سبيل الله، فإن الله عز وجل قد منَّ عليه بذلك، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ القَتْلِ إِلاَّ كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ القَرْصَةِ»[١]. قال الطيبي: «القرص الأخذ بأطراف الأصابع وأتى بأداة الحصر دفعًا لتوهم من يتصور أن ألمه يفضل على ألمها»[٢].

وقال ابن تيمية: «فإن الخلق لا بد لهم من محيا وممات، ففيه استعمال محياهم ومماتهم في غاية سعادتهم في الدنيا والآخرة، وفي تركه ذهاب السعادتين أو نقصهما. فإن من الناس من يرغب في الأعمال الشديدة في الدين أو الدنيا مع قلة منفعتها، فالجهاد أنفع فيهما من كل عمل شديد، وقد يرغب في ترفيه نفسه حتى يصادفه الموت، فموت الشهيد أيسر من كل ميتة وهي أفضل الميتات»[٣].

المطلب الثالث
الابتلاء بالكوارث

١. الابتلاء بالأوبئة

إن الله عز وجل ابتلى الأمم السابقة بأنواع من الأوبئة عقابًا لها، وكان الطاعون أحدها، فجعله سبحانه وتعالى لهذه الأمة رحمة بفضله ومنته، فعن عائشة رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ، قالت: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الطَّاعُونِ، فَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ عَذَابٌ يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَأَنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ، فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ يُصِيبُهُ

(١) أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل المرابط، ٣/٢٤٢/ رقم ١٦٦٨.
(٢) مرقاة المفاتيح ٦/٢٤٨٣.
(٣) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٣٥٤.

إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ شَهِيدٍ»[1]. وفي حديث أبي عسيب، مولى رسول الله ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ بِالْحُمَّى، وَالطَّاعُونِ، فَأَمْسَكْتُ الْحُمَّى بِالْمَدِينَةِ، وَأَرْسَلْتُ الطَّاعُونَ إِلَى الشَّامِ، فَالطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِأُمَّتِي، وَرَحْمَةٌ، وَرِجْسٌ عَلَى الْكَافِرِ»[2]. وهذا صريح في أن كون الطاعون رحمة إنما هو خاص بالمسلمين، وإذا وقع بالكفار فإنما هو عذاب عليهم يعجل لهم في الدنيا قبل الآخرة. قال القرطبي: «قال العلماء: وهذا الوباء قد يرسله الله نقمة وعقوبة على من يشاء من العصاة من عبيده وكفرتهم، وقد يرسله شهادة ورحمة للصالحين، كما قال معاذ في طاعون عمواس: إنه شهادة ورحمة لكم ودعوة نبيكم، اللهم أعط معاذًا وأهله نصيبهم من رحمتك. فطعن في كفه رضي الله عنه»[3]. وكان النبي ﷺ قد دعا أن يجعل فناء أمته بالطاعون، كما في حديث أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهُمَّ اجْعَلْ فَنَاءَ أُمَّتِي فِي سَبِيلِكَ بِالطَّعْنِ، وَالطَّاعُونِ»[4]. وقال الراغب: «نبّه بالطعن على الشهادة الكبرى وهي القتل في سبيل الله، وبالطاعون على الشهادة الصغرى... قال العلماء: أراد المصطفى ﷺ أن يحصل لأمته أرفع أنواع الشهادة، وهو القتل في سبيل الله بأيدي أعدائهم، إما من الإنس وإما من الجن»[5]. ولذلك ردّ شرحبيل بن حسنة قول عمرو ابن العاص في وصف الطاعون بأنه رجس، فعن أبي منيب أن عمرو بن العاص، قال في الطاعون في آخر خطبة خطب الناس، فقال: «إِنَّ هَذَا رِجْسٌ مِثْلُ السَّيْلِ، مَنْ يَنْكُبْهُ أَخْطَأَهُ، وَمِثْلُ النَّارِ مَنْ يَنْكُبْهَا أَخْطَأَتْهُ، وَمَنْ أَقَامَ أَحْرَقَتْهُ وَآذَتْهُ، فَقَالَ شُرَحْبِيلُ بْنُ حَسَنَةَ: إِنَّ هَذَا رَحْمَةُ رَبِّكُمْ، وَدَعْوَةُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار ٤/ ١٧٥/ رقم ٣٤٧٤.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣٤/ ٣٦٦/ رقم ٢٠٧٦٧. وصحح إسناده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/ ٣٨٨/ رقم ٧٦١.
(٣) تفسير القرطبي ٣/ ٢٣٥.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٢٤/ ٣٧٤/ رقم ١٥٦٠٨. وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢/ ٣١٢، وقال: رواه أحمد والطبراني في «الكبير»، ورجال أحمد ثقات.
(٥) فيض القدير ٢/ ٢١١.

نَبِيِّكُمْ، وَقَبْضُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ»(١). قال أبو قلابة: «قد عرفت الشهادة والرحمة، ولم أعرف ما دعوة نبيكم؟ فسألت عنها فقيل: دعا عليه السلام أن يجعل فناء أمته بالطعن والطاعون، حين دعا ألا يجعل بأس أمته بينهم فمنعها، فدعا بهذا»(٢).

٢. الآيات الكونية

إن الله تعالى جعل الآيات الكونية للدلالة على عظمته وقوته وجبروته، وقدرته على خلقه، وأنزلها سبحانه وتعالى عقابا للأمم السابقة لما عتت عن أمره، فأخذها أخذ عزيز مقتدر، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٢٢]. فسلط على كل أمة صنفاً معيناً أو أكثر من أصناف الهلاك، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت:٤٠].

ومن رحمته سبحانه وتعالى بهذه الأمة أن جعل هذه الآيات سبيلًا للتخويف والإنذار دون العذاب، تذكيرًا للعباد الغافلين وردعا لهم، ليتوبوا إليه، ويستغفروه، ويعبدوه. فعن أبي موسى الأشعري قال: «خَسَفَتِ الشَّمْسُ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَزِعًا، يَخْشَى أَنْ تَكُونَ السَّاعَةُ، فَأَتَى المَسْجِدَ، فَصَلَّى بِأَطْوَلِ قِيَامٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ رَأَيْتُهُ قَطُّ يَفْعَلُهُ، وَقَالَ: هَذِهِ الآيَاتُ الَّتِي يُرْسِلُ اللَّهُ، لاَ تَكُونُ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ»(٣). قال العيني: «والكسوف آية من آيات الله تعالى يخوف الله به عباده، ليتركوا المعاصي ويرجعوا إلى طاعة الله تعالى التي فيها فوزهم»(٤). فالتضرع إلى الله واللجوء والافتقار إليه عند نزول الآيات،

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢٩/ ٢٩٠/ رقم ١٧٧٥٦.
(٢) تفسير القرطبي ٣/٢٣٥.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب الكسوف، باب الذكر في الكسوف ٢/٣٩/ رقم ١٠٥٩.
(٤) عمدة القاري ٥/ ٣٠٠.

سبب لدفع نقم الله عز وجل. ولذلك كان النبي ﷺ حريصًا على توجيه أمته عند نزول آية من الآيات لما ينجيهم منها، فعن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، تُرْسَلُ بِالرَّحْمَةِ، وَتُرْسَلُ بِالْعَذَابِ، فَلَا تَسُبُّوهَا وَقُولُوا: اللهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا»(١).

ولما قضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يهلك بعض عباده بسبب هذه الآيات، فقد منَّ سبحانه وتعالى عليهم بمنزلة الشهداء، فعن عبدالله بن جبر: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَادَ جَبْرًا، فَلَمَّا دَخَلَ سَمِعَ النِّسَاءَ يَبْكِينَ وَيَقُلْنَ: كُنَّا نَحْسَبُ وَفَاتَكَ قَتْلًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ: «وَمَا تَعُدُّونَ الشَّهَادَةَ إِلَّا مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِنَّ شُهَدَاءَكُمْ إِذًا لَقَلِيلٌ، الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَهَادَةٌ، وَالْبَطْنُ شَهَادَةٌ، وَالْحَرَقُ شَهَادَةٌ، وَالْغَرَقُ شَهَادَةٌ، وَالْمَغْمُومُ - يَعْنِي الْهَدِمَ - شَهَادَةٌ، وَالْمَجْنُونُ شَهَادَةٌ، وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ شَهِيدَةٌ»(٢). ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يرون الآيات بركة، فعن علقمة، قال: «زُلْزِلَتْ عَلَى عَهْدِ عَبْدِاللَّهِ، فَقَالَ: إِنَّا كُنَّا نَرَى الْآيَاتِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ بَرَكَاتٍ، وَأَنْتُمْ تَرَوْنَهَا تَخْوِيفًا»(٣).

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يقال إذا هاجت الريح، ٩/ ٣٤٠/ رقم١٠٦٦٩.
(٢) أخرجه النسائي في السنن، كتاب الجهاد، باب من خان غازيًا في أهله، ٦/٥١/ رقم ٣١٩٤.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده ١/ ١٨٢/ رقم ٢٦٤.

المبحث الثاني
الرحمة الربانية في ابتلاء الفرد

اقتضت حكمة الله ﷻ أن يصاب العباد بأنواع من البلاء، فأكملهم إيمانا أشدهم بلاء، فعن سعد بن أبي وقاص قال: قلت: «يَا رَسُولَ اللَّه، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»[1]. ولذا لم يسلم منه سيد الخلق وأحبهم إلى الله عليه أفضل الصلاة والسلام، فابتلي في نفسه وأهله وولده وماله. وأنواع البلاء لا تخرج عن هذه الأربعة، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا يَزَالُ البَلَاءُ بِالمُؤْمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»[2]. قال ابن القيم: «إن البلاء الذي يصيب العبد فى الله لا يخرج عن أربعة أقسام، فإنه: إما أن يكون في نفسه، أو في ماله، أو فى عرضه أو فى أهله ومن يحب. والذى فى نفسه قد يكون بتلفها تارة، وبتألمها بدون التلف، فهذا مجموع ما يبتلى به العبد في الله»[3].

فإذا كانت هذه الأنواع من البلاء قدرًا محتومًا، فما هي أبواب الرحمة التي تفتح للمبتلى؟

(١) أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ٤/ ٦٠١/ رقم ٢٣٩٨.
(٢) السابق ٤/ ٦٠٢/ رقم ٢٣٩٩.
(٣) إغاثة اللهفان ٢/ ١٩٣.

المطلب الأول
الابتلاء في النفس والأهل

أولًا: الابتلاء بالأسقام

إن الله عز وجل قد منَّ على المبتلى بنعم لا تحصى، وحفَّه بلطائف قَدَره، على قَدْر رضاه بما قضى الله تعالى له، لذلك قال رسول الله ﷺ، فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْه»(١). فمن لطائف الله عز وجل بالمبتلى:

١. تكفير الذنوب وتعجيل العقوبة في الدنيا

إن صفة كرم الله تعالى وحلمه تظهر جليًا في تجاوزه عن المسيئين بأدنى الأسباب، وحاجة العبد إلى مكفرات الذنوب أكبر من حاجته إلى الطعام، لما جبلت عليه النفوس من اقتراف المعاصي والآثام، كما في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُم»(٢)(الحديث). فمن عَدْل الله عز وجل أن يصاب العبد بالأسقام بما كسبت يداه، ومن فضله سبحانه وتعالى ورحمته أن جعل هذه الأسقام كفارة له، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ في مَرَضِه، وَهُوَ يُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، وَقُلْتُ: إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، قُلْتُ: إِنَّ ذَاكَ بِأَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: أَجَلْ، مَا مِنْ مُسْلِم يُصِيبُهُ أَذًى إِلَّا حَاتَّ اللَّهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ، كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ»(٣). لذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يستبشرون بالمرض خيرًا، ويدعون لأنفسهم به، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «قَالَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ هَذِهِ الْأَمْرَاضَ الَّتِي تُصِيبُنَا مَا لَنَا بِهَا؟ قَالَ:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، ٧/ ١١٥/ رقم ٥٦٤٥.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم ٤/١٩٩٤/ رقم ٢٥٧٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب شدة المرض، ٧/ ١١٥/ رقم ٥٦٤٧.

كَفَّارَاتٌ. قَالَ أُبَيٌّ: وَإِنْ قَلَّتْ؟ قَالَ: وَإِنْ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا. قَالَ: فَدَعَا أُبَيٌّ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ لَا يُفَارِقَهُ الْوَعْكُ حَتَّى يَمُوتَ فِي أَنْ لَا يَشْغَلَهُ عَنْ حَجٍّ، وَلَا عُمْرَةٍ وَلَا جِهَادٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَا صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فِي جَمَاعَةٍ. فَمَا مَسَّهُ إِنْسَانٌ، إِلَّا وَجَدَ حَرَّهُ حَتَّى مَاتَ»(١). وكان أبو هريرة ﷺ يقول: «مَا من مَرض يُصيبُني أَحبُّ إِليَّ من الحُمَّى؛ لأنَّها تَدخُلُ فِي كُل عُضو مِني، وَإِنَّ اللَّهَ عَز وجَل يُعطي كُل عُضوٍ قِسطَهُ من الأجْرِ»(٢)

ومن عظم لطف الله عز وجل بالعبد والمنّة عليه، أن جعل ابتلاءه بالمكاره تعجيلًا لعقوبته في هذه الدنيا، وهذا أهون عليه من أن يحاسب به في الآخرة، فعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»(٣). ومن كرمه ﷻ وعده أن لا يُثنِّيَ عليه العذاب في الآخرة، فعن عبادة بن الصامت قال: «كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسٍ، فَقَالَ: تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا -قَرَأَ عَلَيْهِمُ الآيَةَ- فَمَنْ وَفَّى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ عَلَيْهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ»(٤).

٢. رفع منزلة العبد

إن غاية ما يرجو العبد المؤمن المنزلة الرفيعة في الجنة، فيسعى جاهدًا مجتهدًا في تحصليها، وقد يقصر به عمله عن إدراكها، فيمنُّ الله عز وجل

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١٧/ ٢٧٦/ رقم ١١١٨٣. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٣٠٢/ رقم ٣٧٩٨: «رواه أحمد وأبو يعلى، ورجاله ثقات».

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ص ٢٥٦ رقم ٥٠٣. وقال ابن حجر في الفتح (١٠/ ١١٠) «بسند صحيح».

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ٤/ ١٧٩/ رقم ٢٣٩٦. وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»

(٤) السابق، أبواب الحدود، باب ما جاء في أن الحدود كفارة لأهلها، ٣/ ٩٧/ رقم١٤٣٩.

عليه بها بما يصيبه من أنواع البلاء، فعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: إِنَّ الرَّجُلَ لَتَكُونَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ الْمَنْزِلَةُ، فَمَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلٍ، فَلَا يَزَالُ اللَّهُ يَبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ إِيَّاهَا»(١). وفي هذا أعظم بشارة لأهل البلاء الصابرين على الضراء والبأساء، فظهرت بذلك الحكمة من إصابة المؤمن بأنها إرادة له بالخير، حتى إن أهل العافية ليغبطونه لما يطلعوا على ما تفضَّل الله ﷻ به عليه من الثواب، فعن جابر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَوَدُّ أَهْلُ العَافِيَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ البَلَاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالمَقَارِيضِ»(٢).

٣. أن الله يجري له عمله

إن من يسر الإسلام أن نزَّل الشارع العاجز عن الطاعة منزلة الفاعل لها، فعن أبي موسى الأشعري ﵁ قال: «قال رسول الله ﷺ: إِذَا مَرِضَ العَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»(٣). قال ابن بطال: «وليس هذا الحديث على العموم، وإنما هو لمن كانت له نوافل وعادة من عمل صالح، فمنعه الله منها بالمرض أو السفر وكانت نيته لو كان صحيحًا أو مقيمًا أن يدوم عليها ولا يقطعها، فإن الله يتفضل عليه بأن يكتب له أجر ثوابها حين حبسه عنها، فأما من لم يكن له تنفل ولا عمل صالح فلا يدخل في معنى الحديث؛ لأنه لم يمنعه مرضه من شيء فكيف يكتب له ما لم يكن يعمله؟»(٤)، وفي هذا مواساة لمن منعه المرض من الطاعات، من أن يتحسر على ما فاته منها، وتهوينًا عليه لما أصابه من مرض أو مانع. وفي الحديث القدسي، عن شداد بن أوس قال: «سمعت

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١٦٩/٧/ رقم ٢٩٠٨. وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٥٩٩)
(٢) أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب الزهد، باب (٥٨)، ٤/ ١٨١/ رقم ٢٤٠٢. وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (١٩٦٠).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة ٤/ ٥٧/ رقم ٢٩٩٦.
(٤) شرح صحيح البخاري ٥/ ١٥٤.

رسول الله ﷺ يقول: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: إِنِّي إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنًا، فَحَمِدَنِي عَلَى مَا ابْتَلَيْتُهُ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا، وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا قَيَّدْتُ عَبْدِي، وَابْتَلَيْتُهُ، فَأَجْرُوا لَهُ كَمَا كُنْتُمْ تُجْرُونَ لَهُ وَهُوَ صَحِيحٌ[1]. قال الغزالي: إنما نال العبد هذه المرتبة لأن كل مؤمن يقدر على الصبر على المحارم، وأما الصبر على البلاء فلا يقدر عليه إلا ببضاعة الصديقين، فإن ذلك شديد على النفس فلما قاسى مرارة الصبر جوزي بها الجزاء الأوفى»[2].

ثانيا: الابتلاء في العرض.

إن من أشد ما يؤذي العبد المؤمن ما يلحقه من أذى في عرضه، والعرض من الكليات الخمس التي جاء الشرع بحفظها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ»[3]. فلذلك نجد أن المنح الربانية من أعظم ما يجازي الله عز وجل به العبد على ما تحمله من أذى. ونذكر منها:

١. محبة الله للمبتلى

إن من أسمى ما يصبو إليه العبد المؤمن، أن يصل إلى محبة الله سبحانه وتعالى، فليست هناك غاية ترجى أفضل من هذه الغاية، لما في محبة الله سبحانه وتعالى للعبد من الفضل والمنَّة، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: ... وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢٨/ ٣٤٣/ رقم ١٧١١٨. وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ١٦١١.

(٢) فيض القدير ٤/ ٤٧٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله ٤/ ١٩٨٦/ رقم ٢٥٦٤.

يَمْشِي بهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِن اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»(١). فإذا أحب الله عبدًا سدده في قوله وعمله، وحفظه في دينه ودنياه، وأعطاه ما سأله، وليس هناك منزلة يصل إليها العبد أفضل من هذه المنزلة.

وقد وسَّع الله عز وجل سبل تحصيل محبته، مثوبة منه تعالى وفضلًا، فجعل ﷻ للصابر على أذى غيره نصيبا منها، فعن مطرف، قال: كان يبلغني، عن أبي ذر حديث فكنت أشتهي لقاءه، فلقيته، فقلت: «يَا أَبَا ذَرٍّ كَانَ يَبْلُغُنِي عَنْكَ حَدِيثٌ، فَكُنْتُ أَشْتَهِي لِقَاءَكَ، فَقَالَ: لِلَّه أَبُوكَ فَقَدْ لَقِيتَنِي فهات، قَالَ: قُلْتُ: حَدِيثًا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَدَّثَكَ قَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ ثَلَاثَةً، وَيُبْغِضُ ثَلَاثَةً، قَالَ: فَلَا أَخَالُنِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ يُحِبُّهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ؟، قَالَ: رَجُلٌ غَزَا فِي سَبِيلِ اللهِ صَابِرًا، مُحْتَسِبًا، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، وَأَنْتُمْ تَجِدُونَهُ عِنْدَكُمْ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ٤﴾ [الصف:٤]، قُلْتُ: وَمَنْ؟ قَالَ: رَجُلٌ كَانَ لَهُ جَارُ سُوءٍ، يُؤْذِيهِ، فَصَبَرَ عَلَى أَذَاهُ، حَتَّى يَكْفِيَهُ اللهُ إِيَّاهُ بِحَيَاة، أَوْ مَوْتٍ»(٢). وعن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»(٣). فلما كانت مخالطة الناس وتحمل أذاهم سواء البدني أو النفسي أو غيره من أعظم أنواع الصبر، حبَا الله ﷻ المبتلى بها بمعيته له، وهي أفضل ما يناله العبد، مع ما وعد الله تعالى الصابرين من أجر بغير حساب.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب التواضع، ٨/١٠٥/ رقم ٦٥٠٢.
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢/ ١٥٢/ رقم ١٦٣٧. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/١٧٠/ رقم ١٣٥٧٣: «وإسناد الطبراني وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح».
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٩/ ٦٤/ رقم ٥٠٢٢.

٢. تهوين المصائب

إن قذف المسلم في عرضه من أكبر الإساءات التي قد تقترف في حقه، لما لها من آثار تؤثر على سائر أسرته. فمن ابتلي بذلك فله في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، في تعامله مع تلك الشائعات التي نالت منه ﷺ، ومن زوجه الطاهرة المطهرة رضي الله عنها. فقد كانت حادثة الإفك ابتلاءً كبيرًا ومحنة عظيمة للنبي ﷺ وزوجه عائشة رضي الله عنها، وكان تأخر الوحي عن النبي ﷺ شهرًا، ذريعة للخائضين في الموضوع لنشره وذيوعه. غير أن ألطاف الله عز وجل كانت حاضرة وجلية، فقد صرف سبحانه وتعالى علم عائشة رضي الله عنها بهذا الأمر طيلة هذه المدة، رحمة بها، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «فَاشْتَكَيْتُ بِهَا شَهْرًا وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ مِنْ قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ، وَيَرِيبُنِي فِي وَجَعِي، أَنِّي لاَ أَرَى مِنَ النَّبِيِّ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَمْرَضُ، إِنَّمَا يَدْخُلُ فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تِيكُمْ»، لاَ أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى نَقَهْتُ»(١). ولم يمر يومان عن علمها بالأمر، حتى كانت البشارة الكبرى ونزلت براءتها قرآنا يتلى إكرامًا لها رضي الله عنها وأرضاها.

والخوض في الأعراض أصبح أمرًا شائعًا بين الناس، لا يتورع عنه إلا من سلمه الله تعالى من هذه الآفة، ولولا لطف الله بعباده بعدم اطلاعهم عما يخاض فيه من الأعراض، لتكدرت النفوس، ولقُطِّعت الأرحام، ولعمَّ الفساد في الأرض.

ثالثا: الابتلاء في الأبناء

إن الأبناء نعمة من نعم الله على خلقه وهبة ربانية، فهم زهرة الحياة الدنيا وزينتها، وقد جبلت النفوس على حبهم، فلا يصبر على فقدهم كثير من الناس، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا ٣/١٧٣/ رقم ٢٦٦١.

عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي. قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ. فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى»(١). فالجزع والوَّجْد من أشد ما يصيب العبد عند فَقْدِ أحد أبنائه، وليس المقصود الحزن الذي لم ينه عنه الشرع، فهذا من الرحمة التي بيَّنَها سيد البشر ﷺ حين مات ابنه إبراهيم، وسأله عبدالرحمن بن عوف، فقال ﷺ: «يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ، ثُمَّ قال: إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ»(٢). فالله سبحانه وتعالى ممتحن عباده ومبتليهم بفقد الأبناء، فمن صبر وأسلم أمره لله تعالى، فإن الله سبحانه وتعالى وعده ببشارات تواسيه وتهون عليه، منها:

١. العوض في الدنيا والآخرة.

إن من أعجل ما يواسي الله به العبد الذي صبر على فراق الولد، ورضي بالقضاء، وأسلم لله تعالى الأمر في الضراء، أن يعوضه خيرا مما أخذ منه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «اشْتَكَى ابْنٌ لِأَبِي طَلْحَةَ، قَالَ: فَمَاتَ، وَأَبُو طَلْحَةَ خَارِجٌ، فَلَمَّا رَأَتِ امْرَأَتُهُ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ هَيَّأَتْ شَيْئًا، وَنَحَّتْهُ فِي جَانِبِ البَيْتِ، فَلَمَّا جَاءَ أَبُو طَلْحَةَ قَالَ: كَيْفَ الغُلاَمُ، قَالَتْ: قَدْ هَدَأَتْ نَفْسُهُ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدِ اسْتَرَاحَ، وَظَنَّ أَبُو طَلْحَةَ أَنَّهَا صَادِقَةٌ، قَالَ: فَبَاتَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ أَعْلَمَتْهُ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ، فَصَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ أَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِمَا كَانَ مِنْهُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُبَارِكَ لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا» قَالَ سُفْيَانُ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: فَرَأَيْتُ لَهُمَا تِسْعَةَ أَوْلاَدٍ كُلُّهُمْ قَدْ قَرَأَ القُرْآنَ»(٣). فإذا كانت هذه منحة عاجلة من الله سبحانه وتعالى تطمئن لها

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور ٢/٧٩/ رقم ١٢٨٣.
(٢) السابق، باب قول النبي ﷺ: «إنا بك لمحزونون»، ٢/ ٨٣/ رقم ١٣٠٣.
(٣) السابق، باب من لم يظهر حزنه عند المصيبة، ٢/ ٨٢/ ١٣٠١.

النفوس، وتجبر بها القلوب المنكسرة، فإن المنحة الأخروية أجلُّ وأعظم، فعن أبي موسى الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ، قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ»[1]. قال المناوي: «موت الأولاد فلذ الأكباد، ومصابهم من أعظم مصاب، وفراقهم يقرع القلوب والأوصال والأعصاب، يا له من صدع لا يشعب، يوهي القوي، ويقوي الوهي، ويوهن العظم، ويعظم الوهن، مر المذاق، صعب لا يطاق، يضيق عنه النطاق، شديد على الإطلاق، لا جرم أن الله تعالى حث فيه على الصبر الجميل، ووعد عليه بالأجر الجزيل، وبنى له في الجنة ذاك البناء الجليل»[2].

٢. النجاة من النار

إن أرجى عمل للعبد في دنياه، عمل ينجيه من النار. فمنَّ الله عز وجل بهذه المنحة العظيمة على من طابت نفسه بعد فَقْد أبنائه، ورضي بقضاء الله وقدره، فعن أبي سعيد رضي الله عنه: «أَنَّ النِّسَاءَ قُلْنَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اجْعَلْ لَنَا يَوْمًا فَوَعَظَهُنَّ، وَقَالَ: أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَ لَهَا ثَلاَثَةٌ مِنَ الوَلَدِ، كَانُوا حِجَابًا مِنَ النَّارِ، قَالَتِ امْرَأَةٌ: وَاثْنَانِ؟ قَالَ: وَاثْنَانِ»[3]. قال ابن بطال: «وقال بعض العلماء: الثلاثة داخلة في حيّز الكثير، وقد يصاب المؤمن فيكون فى إيمانه من القوة ما يصبر للمصيبة، ولا يصبر لتردادها عليه، فلذلك صار من تكررت عليه المصائب فَصَبَر، أَوْلَى بجزيل الثواب، والولد من أجل ما يسر به الإنسان لقد يرضى أن يفديه بنفسه... فلذلك قصد رسول الله إلى أعلى المصائب

(١) أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب الجنائز، باب فضل المصيبة إذا احتسبت، ٢/٣٣٢/ رقم ١٠٢١. وقال: «حديث حسن غريب».
(٢) فيض القدير١/ ٤٤٠.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب فضل من مات له ولد فاحتسب، وقال الله عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥] ٢/٧٣/ رقم ١٢٤٩.

والحض على الصبر عليها... فإذا طابت نفسه على الرضا عن الله في فعله، استكمل جزيل الأجر»[١].

المطلب الثاني
الابتلاء في المال

إن النبي ﷺ لم يخش يوما على أمته الفقر، كما خشي عليها الغنى، فعن عمرو بن عوف، أن رسول الله صلى الله عليه سلم قال، لما جاءه أبو عبيدة بمال البحرين: «فَوَاللَّه مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ»[٢]. بل حبَّذ ﷺ حال أهل الصفة وما كانوا عليه من فقر عما سيصيرون إليه من الغنى، فعن واثلة بن الأسقع قال: «كُنْتُ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُصَلِّينَ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّة، فَأَتَانَا النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ بَعْدِي إِذَا شَبِعْتُمْ مِنْ خُبْزِ الْبُرِّ وَالزَّيْت، وَأَكَلْتُمْ أَلْوَانَ الطَّعَام، وَلَبِسْتُمْ أَنْوَاعَ الثِّيَاب؟ فَأَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ أَمْ ذَاكَ؟ قُلْنَا: أَوْ ذَاكَ، قَالَ: بَلْ أَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ. قَالَ وَاثِلَةُ: فَمَا ذَهَبَتْ بِنَا الْأَيَّامُ حَتَّى شَبِعْنَا مِنْ خُبْزِ الْبُرِّ وَالزَّيْت، وَأَكَلْنَا أَلْوَانَ الطَّعَام، وَلَبِسْنَا أَلْوَانَ الثِّيَابِ، وَرَكِبْنَا الْمَرَاكِبَ»[٣]. فلماذا فضَّل النبي ﷺ الفقر على الغنى، مع ما فيه من ضيق عيش وحاجة؟ وأين تتجلى الرحمة الربانية بالفقراء؟

١. حماية الله للعبد

إن الله عز وجل أعلم بالنفوس وما جبلت عليه من حب الدنيا وزينتها،

(١) شرح صحيح البخاري ٣/ ٣٦٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ٨/ ٩٠/ رقم ٦٤٢٥.
(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١٢/ ٥٢٩/ رقم ٩٨٤٠.

فمن حبه ﷻ لعبده حفظه من أن ينغمس فيها، وأبعده عما يضر منها، فعن قتادة بن النعمان، أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا حَمَاهُ الدُّنْيَا كَمَا يَظَلُّ أَحَدُكُمْ يَحْمِي سَقِيمَهُ الْمَاءَ»[١].وفي رواية لأحمد عن محمود بن لبيد، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا، وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ تَخَافُونَهُ عَلَيْهِ»[٢]. قال المناوي: «أي يمنعه منها ويقيه أن يتلوث بدنسها، كيلا يمرض قلبه بداء حبها وممارستها... فهو إنما يحميه لعاقبة محمودة وأحوال سديدة مسعودة»[٣].

٢. السبق إلى الجنة

ان من فضل الله ونعمته على الفقراء، أن جعل ضيق عيشهم في الدنيا سببًا لسبقهم إلى الجنة، وعاقبة يستبشرون بها، ليرضوا بما آتاهم الله تعالى من فضله، ويحمدوه على جوده وكرمه، «لأنه ﷻ خلق عباده على أوصاف شتى، فمنهم القوي والضعيف والوضيع والشريف، فمن علم من قلبه قوة على حمل أعباء الفقر، الذي هو أشد البلاء، وصبر على تجرع مرارته، أفقره في الدنيا ليرفعه على الأغنياء في العقبى»[٤]. فعن أبي عبدالرحمن الحبلي قال: «جَاءَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ إِلَى عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، وَأَنَا عِنْدَهُ، فَقَالُوا: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ إِنَّا، وَاللَّهِ مَا نَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، لَا نَفَقَةَ، وَلَا دَابَّةَ، وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ لَهُمْ: مَا شِئْتُمْ، إِنْ شِئْتُمْ رَجَعْتُمْ إِلَيْنَا فَأَعْطَيْنَاكُمْ مَا يَسَّرَ اللَّهُ لَكُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ ذَكَرْنَا أَمْرَكُمْ لِلسُّلْطَانِ، وَإِنْ شِئْتُمْ صَبَرْتُمْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: إِنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ يَسْبِقُونَ الْأَغْنِيَاءَ يَوْمَ

(١) أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب الطب، باب ما جاء في الحمية ٣/ ٤٤٩/ رقم ٢٠٣٦.
(٢) أخرجه في مسنده ٣٩/ ٣٣/ رقم ٢٣٦٢٢.
(٣) فيض القدير ٢/ ٢٦٠.
(٤) السابق ٢/ ٢٦٢.

الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ، بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا» قَالُوا: فَإِنَّا نَصْبِرُ، لَا نَسْأَلُ شَيْئًا»[(١)].
قال الملا علي: «المعنى بمقدار أربعين سنة من أعوام الدنيا أو الأخرى، مع احتمال أن يراد بها الكثرة ويختلف باختلاف أحوال الفقراء والأغنياء في الكمية والكيفية المعتبرة، وخلاصته: أن الفقراء في تلك المدة لهم حسن العيش في العقبى مجازاة لما فاتهم من التنعم في الدنيا»[(٢)].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق ٤/٢٢٨٥/ رقم ٣٧.
(٢) مرقاة المفاتيح ٨/ ٣٢٧٦.

خاتمة

إن ما أدرجت في هذا البحث من أدلة حديثية عن رحمة الله في الابتلاء بالضراء، لا يعد إلا غيضًا من فيض، لأن المقام لا يسمح باستقراء كل الأحاديث.

ومن أهم ما خلصت إليه:

- إن المنح الربانية المرافقة لأنواع الابتلاء بالضراء جلية لا تكاد تخفى على أحد، وكلما اشتد البلاء، كلما زادت المنح، سواء الدنيوية أو الأخروية، لتواسي العبد في محنته، فضلًا من الله عز وجل وكرمًا.
- إن كل عقوبة من الله ﷻ عدل في حق من نزلت به، ومع ذلك فإنها لا تخلو من منَّة الله تعالى، إما بتعجيل عقوبة، أو تكفير ذنوب، أو رفع درجات.
- إن كل من يتسخط مما يصيبه من أنواع البلاء، لم يدرك حقيقته، وهو إجحاف في حق خالقه ﷻ المتفضل عليه بأنعمه.

فنحن بأمسِّ الحاجة إلى إحياء المفاهيم الصحيحة للابتلاء بالضراء، وما فيه من فضائل، في ظل ما أصبح يعرفه المجتمع الإسلامي اليوم من

تشبع بالنظرة المادية للحياة. وهذه المهمة منوطة بكل المؤسسات التربوية والاجتماعية والأسرية التي لها الدور الأساس في تنشئة الأجيال.

فهرس المصادر والمراجع

١. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: لمحمد بن حبان بن أحمد ابن حبان البُستي، ترتبه: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه: شعيب الأرناؤوط، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢. الأدب المفرد: لمحمد بن إسماعيل البخاري، حققه: محمد فؤاد عبدالباقي، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩-١٩٨٩م، دار البشائر الإسلامية - بيروت.

٣. إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: لمحمد بن علي الشوكاني، حققه: الشيخ أحمد عزو عناية، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ-١٩٩٩م، دار الكتاب العربي.

٤. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، حققه: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض.

٥. تاج العروس من جواهر القاموس: لمحمّد بن محمّد بن عبدالرزّاق الزَّبيدي، دار الهداية.

٦. التَّحبير لإيضَاح مَعَاني التَّيسير: لمحمد بن إسماعيل الكحلاني ثم الصنعاني، حققه: محَمَّد صُبْحي بن حَسَن حَلّاق، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ-٢٠١٢م، مَكتَبَةُ الرُّشد، الرياض.

٧. الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي، حققه: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤ م، دار الكتب المصرية - القاهرة.

٨. الجامع الكبير: لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك،

أبو عيسى الترمذي، حققه: بشار عواد معروف، طبعة ١٩٩٨ م، دار الغرب الإسلامي - بيروت.

٩. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه: لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، حققه: محمد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، دار طوق النجاة.

١٠. زاد المعاد في هدي خير العباد: لمحمد بن أبي بكر بن أيوب، ابن قيم الجوزية، الطبعة السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١١. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها: لمحمد ناصر الدين الألباني، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض

١٢. السنن: لأبي داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني، حققه: شعَيب الأرناؤوط - محَمَّد كامِل قره، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩ م، دار الرسالة العالمية.

١٣. السنن الكبرى: لأبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي، حققه: حسن عبدالمنعم شلبي، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، مؤسسة الرسالة - بيروت.

١٤. السنن: لأبي عبدالله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني، حققه: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية.

١٥. شرح صحيح البخارى: لعلي بن خلف بن عبدالملك ابن بطال، حققه: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، مكتبة الرشد، الرياض.

١٦. شعب الإيمان: لأحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر البيهقي، حققه: الدكتور عبدالعلي عبدالحميد حامد، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ-

٢٠٠٣م، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض.
١٧. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: لأبي نصر إسماعيل بن حماد الفارابي، حققه: أحمد عبدالغفور عطار، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، دار العلم للملايين -بيروت.
١٨. صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري: لمحمد ناصر الدين الألباني، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، دار الصديق.
١٩. عمدة القاري شرح صحيح البخاري: لمحمود بن أحمد بن موسى بدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٢٠. عون المعبود شرح سنن أبي داود: لمحمد أشرف بن أمير بن علي، العظيم آبادي، الطبعة: الثانية، ١٤١٥ هـ، دار الكتب العلمية -بيروت.
٢١. غريب الحديث، لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، حققه: د. عبدالله الجبوري، الطبعة: الأولى، ١٣٩٧هـ، مطبعة العاني -بغداد.
٢٢. فتح الباري شرح صحيح البخاري: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، طبعة: ١٣٧٩هـ، دار المعرفة -بيروت.
٢٣. فيض القدير شرح الجامع الصغير: لعبد الرؤوف بن تاج العارفين ابن علي المناوي، الطبعة: الأولى، ١٣٥٦هـ، المكتبة التجارية الكبرى- مصر.
٢٤. الكاشف عن حقائق السنن: لشرف الدين الحسين بن عبدالله الطيبي، حققه: د. عبدالحميد، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة - الرياض).
٢٥. لسان العرب: لمحمد بن مكرم بن علي، ابن منظور الأنصاري، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤هـ، دار صادر -بيروت.
٢٦. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، حققه: حسام الدين القدسي، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ،

١٩٩٤م، مكتبة القدسي، القاهرة.
٢٧. مجموع الفتاوى: لأحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني، حققه: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، طبعة: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية.
٢٨. مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: لمحمد بن محمد ابن عبدالكريم، ابن الموصلي، حققه: سيد إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، دار الحديث، القاهرة.
٢٩. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: لعلي بن محمد، أبو الحسن الملا القاري، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، دار الفكر، بيروت- لبنان.
٣٠. المسند: لأبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل، حققه: شعيب الأرناؤوط وآخرون، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، مؤسسة الرسالة - بيروت.
٣١. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ: لمسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري، حققه: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٣٢. المعجم الكبير: لسليمان بن أحمد، أبو القاسم الطبراني، حققه: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، الطبعة الثانية، مكتبة ابن تيمية -القاهرة.
٣٣. المفردات في غريب القرآن: لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، حققه: صفوان عدنان الداوودي، الطبعة: الأولى - ١٤١٢هـ، دار القلم، الدار الشامية -دمشق بيروت.
٣٤. منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية: لأحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني، حققه: محمد رشاد سالم، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٣٥. النبوات: لأحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني، حققه: عبدالعزيز بن صالح الطويان، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م، أضواء السلف، الرياض.

٣٦. النهاية في غريب الحديث والأثر، للمبارك بن محمد ابن الأثير الجزري، حققه: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، المكتبة العلمية -بيروت.

آثار رحمة اللّه
في المرض والموت

إعداد:
د. علي بن سعيد العبيدي
جامعة الملك خالد – أبها

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد

فإن رحمة الله تعالى وسعت كل شيء من العالمين، ولها آثار عظيمة تمتد إلى سائر المخلوقات من عالم الغيب والشهادة، بما في ذلك المرض والموت، والذي كل واحد منهما عنوان للشر، فيما يعتقده بعض الناس، وستبرز تلكم الآثار جلية من خلال نصوص الكتاب والسنة، التي استشهدت بها على مسائل البحث.

وقد كان من أكبر أهداف هذا البحث:

١. إبراز صفة الرحمة الإلهية، فيما هو مظنة الألم للإنسان.

٢. تقرير أن المرض والموت ليسا شرًا محضًا.

٣. تقرير أن المرض والموت قدران نافذان.

٤. تصحيح النظرة السلبية نحو الإصابة بالمرض والموت.

وتظهر أهمية هذا الموضوع، من حيث إنه يبرز جانبًا من جوانب الرحمة الإلهية في قضيتين، هما من أهم القضايا التي شغلت بال الإنسان على مر التاريخ، وذلك من خلال الأدلة الصحيحة والبراهين.

وأما مشكلة البحث:

ففي السؤال الآتي: ما علاقة رحمة الله تعالى بالمرض والموت، وكلاهما ألم؟

وأما منهجه: فوصفي تحليلي.

ويشتمل البحث على مقدمة، ومدخل، ومبحثين، وخاتمة.

المقدمة، وفيها: أهداف البحث، وأهميته، وخطته.

مدخل: الرحمة الإلهية وخلق الشر وإرادته.

المبحث الأول: آثار رحمة الله في المرض، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم المرض.

المطلب الثاني: آثار رحمة الله في التداوي.

المطلب الثالث: آثار رحمة الله في العوض في المرض.

المطلب الرابع: آثار رحمة الله المتعدية في المرض.

المبحث الثاني: آثار رحمة الله في الموت، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم الموت.

المطلب الثاني: آثار رحمة الله في موت المؤمن.

المطلب الثالث: آثار رحمة الله في موت الطفل.

المطلب الرابع: آثار رحمة الله في موت الكافر.

المطلب الخامس: آثار رحمة الله المتعدية في الموت.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

هذا، وقد اعتمدت الكتب الستة في تخريج الأحاديث، مقدمًا ما اتفق عليه الشيخان، ثم ما انفرد به أحدهما، ومكتفيًا بذلك، فإن لم أجده رجعت لبقية الستة، فإن لم أجده رجعت لما توفر من كتب السنة.

وقد التزمت ألا أذكر من الأحاديث إلا ما كان مقبولاً عند النقاد من الصحاح والحسان دون الضعاف، والله أسأل أن ينفع به، وأن يجعله محققًا لأهدافه.

والله الموفق

مدخل
الرحمة الإلهية وخلق الشر وإرادته

أردت من هذا المدخل التنبيه إلى أنه لا تضاد بين اتصاف الرب تعالى بالرحمة، وبين كونه خالقًا للشر ومريدًا له كونًا، أيضًا تقرير أنه لا يوجد شر محض، فإن إرادة الرب تعالى تنقسم إلى قسمين:

إرادة كونية قدرية، وهذه قد تكون محبوبة لله تعالى، وقد تكون غير محبوبة له، ومع ذا فهي نافذة. لا بد أن تقع، ومن ذلك المرض والموت، وغيرهما مما هو شر بمقاييس البشر.

وإلى إرادة دينية شرعية، وهذه محبوبة ومرادة، وقد تقع أو لا تقع؛ لأن المؤثر فيها اختيار العبد.

وهذا يعني أن الشر -والذي هو في هذا البحث: المرض والموت- يقع بإرادة الله الكونية القدرية.

وهو لا ينافي رحمة الله التي وسعت كل شيء؛ لأنه يقع وفق حكمة إلهية منزهة عن العبث، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩)﴾ [الدخان:٣٨-٣٩]، والله تعالى هو الحكيم، الموصوف بالحكمة البالغة في خلقه ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم:٢] الذي يضع الأشياء في مواضعها لغايات محمودة منه تعالى.

وهذه الحكمة قد ندركها ونقف على أسرارها، وقد نجهلها وتخفى علينا ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

وعليه فيجب علينا أن نعتقد أن الله تعالى منزه عن الظلم﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠]، وأن أفعاله كلها خير لا شر فيها البته، وما قد يراه الناس شرًا فهو شر نسبي، بمعنى أنه يتضمن خيرًا قد يخفى على البعض، حتى على المبتلى به كما سيمر.

فالمرض ليس بشر محض، والموت ليس بشر محض؛ بل فيهما من الخير ما يعجز عن أن يحيط به خيال إنسان.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أما الشر المحض الذي لا خير فيه فذاك ليس له حقيقة؛ بل هو العدم المحض، فإن قيل: فإبليس شر محض، والكفر والشرك كذلك، وقد دخلوا في الوجود، فأي خير في إبليس وفي وجود الكفر؟ قيل: في خلق إبليس من الحكم والمصالح والخيرات التي ترتبت على وجوده ما لا يعلمه إلا الله، كما سننبه على بعضه، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يخلقه عبثًا، ولا قصد بخلقه إضرار عباده وهلاكهم، فكم لله في خلقه من حكمة باهرة وحجة قاهرة، وآية ظاهرة، ونعمة سابغة، وهو وإن كان للأديان والإيمان كالسموم للأبدان، ففي إيجاد السموم من المصالح والحكم ما هو خير من تفويتها"(١).

وحتى يتضح الأمر أضرب مثالًا بالبلاء النازل بالأطفال، فإن فيه منافع ذاتية لهم، ومنافع متعدية لوالديهم ولغيرهم، ممن يشهدون البلاء، فالظلم الذي يقع على الطفل ويكون أشده بإزهاق روحه، فظاهره أنه شر محض، لكن الواقع خلاف ذلك تمامًا، ففي حصول هذه المظلمة -رغم قسوتها-

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والحكمة والتعليل (١/١٨٤).

منفعة ذاتية للطفل، من حيث إنه سيكون يوم القيامة من الناجين من النار؛ ومن حيث ما ينال والديه من الأجور مع الصبر والاحتساب، ومنها: الشفاعة لهم بدخول الجنة إن كانوا مسلمين، ومن حيث الآثار الممتدة لغيرهم من عموم المسلمين، الذين يشهدون الحدث، ويعيشونه وفق تعاليم الإسلام لهم فيه، من حيث الاسترجاع، والعظة، ومشاركة المصابين صلاة الجنازة، والتشييع والدفن، والتعزية، ونصرة المظلوم، إلى غير ذلك من المنافع المتعدية.

إذا علم ذلك، فيصح القول: إن الأمراض والآفات وسائر المكاره -التي ظاهرها الشر- مرادة كونًا لا شرعًا، وأنها ليست بشر محض، وأن خلفها غايات وحكم بالغة، كما ستبرزه مطالب هذا البحث، من آثار رحمة الله تعالى في العوض في المرض والموت، وآثار رحمته المتعدية فيهما.

المبحث الأول
آثار رحمة الله في المرض

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول
مفهوم المرض

المرض: السَّقم، والسُّقم[1].

وهو: الوجع[2]، والعلة[3]، والداء[4]، والوصب[5]، وهو الضر[6]، والضراء[7]، والضنى: وهو المرض المُدْنَفِ الذي يلزم صاحبه الفراش، ويضنيه حتى يشرف على الموت، وهو الدنف، والحرض[8].

وتلكم العبارات ورد بعضها في نصوص الوحي، وبعضها استعملته العرب في كلامها، وإن كان لبعضها دلالة أعمق عندهم.

(١) انظر: الصحاح للجوهري (٢٤٣/٤)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٩٦٠/٢).
(٢) انظر: الصحاح (٤٢٩/٤)
(٣) انظر: الصحاح (٥١/٦)، والمخصص(٤٧٢/١).
(٤) انظر: تاج العروس من جواهر القاموس (٣١/١).
(٥) انظر: لسان العرب(٧١٧/١).
(٦) انظر: جمهرة اللغة (٣٨/٢).
(٧) انظر: الكليات (ص٩١٥).
(٨) انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس (٥٧/١).

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

وأصل المرض الضعف كما قال ابن سيده في المخصص[1]، وهو ضدّ الصحّة[2]، وهو ما يعرض للبدن، فيخرجه عن الاعتدال الخاص[3]، أي: عن الصحة.

وإذا كان المرض إحساس بالمنافي، فإن الصحة إحساس بالملائم.. كما ذكر ابن الجوزي[4].

وقد قسم الراغب الأصفهاني المرض إلى قسمين، فقال: «المرض الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان، وذلك ضربان:

الأول: مرض جسمي، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح:١٧]، وقوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ [التوبة:٩١].

والثاني: عبارة عن الرذائل، كالجهل والجبن والبخل والنفاق، وغيرها من الرذائل الخلقية نحو قوله: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠]، ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟﴾ [النور:٥٠]»[5].

ويهمنا النوع الأول، الذي هو موضوع البحث.

والمرض في اصطلاح الفقهاء: «حالة غير طبيعية في بدن الإنسان، تكون بسببها الأفعال الطبيعية والنفسانية والحيوانية غير سليمة»[6]. وهذا يعني أن المرض يؤدي إلى اضطراب الإنسان اضطرابًا عارضًا، أو اضطرابًا مزمنًا، وقد يكون مخوفًا أو غير مخوف.. وهو في النهاية يعيق نشاطه الدنيوي والأخروي بحسبه كما مر.

---

(١) انظر: (ص٤٧٢).
(٢) انظر: جمهرة اللغة (٤١٢/١).
(٣) انظر: التعريفات للجرجاني (ص٢٦٨).
(٤) انظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر (ص٤٥٤).
(٥) مفردات ألفاظ القرآن (٤٦٦/١).
(٦) الموسوعة الفقهية الكويتية (٣٥٠/٣٨).

وأيًّا كان الأمر، فإن آثار رحمة الله تعالى تمتد لتشمل سائر الأمراض الجسدية والنفسية على تفاوت فيما بينها.

المطلب الثاني
آثار رحمة الله في التداوي

التداوي، هو: "استعمال ما يكون به شفاء المرض بإذن الله تعالى، من عقار، أو رقية، أو علاج طبيعي"[(١)].

وفي الموسوعة الطبية الفقهية: "تعاطي الدواء بقصد معالجة المرض، أو الوقاية منه"[(٢)].

والتداوي من آثار رحمة الله تعالى بالإنسان، فإنه عندما قدر عليه المرض شرع له معالجته في الجملة[(٣)]، والتحصن منه بدفعه قبل نزوله ورفعه بعد نزوله، ويكون ذلك بالمباح دون المحرم.

وقد دل على مشروعيته، قوله تعالى في النحل: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل:٦٩].

قال القرطبي بعد ذكره لهذه الآية -في المسألة السابعة-، وفيه: "دليل على جواز التعالج بشرب الدواء، وغير ذلك"[(٤)].

وعن أسامة بن شريك قال: كنت عند النبي ﷺ: وجاءت الأعراب، فقالوا: يا رسول الله، أنتداوى؟ فقال: «نعم، يا عباد الله: تداووا، فإن الله

(١) معجم لغة الفقهاء (١٢٦/١).
(٢) الموسوعة الطبية الفقهية والنوازل العصرية (٩٨/١).
(٣) تنازع الناس في التداوي، قال ابن تيمية: "والتحقيق أن منه ما هو محرم، ومنه ما هو مكروه، ومنه ما هو مباح، ومنه ما هو مستحب، وقد يكون منه ما هو واجب". مجموع الفتاوى (١٢/١٨).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٢٥/١٠).

عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء، غير داء واحد: الهرم»(1).

وفي النهي عن التداوي بالمحرم، قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وعن أبي هريرة قال: «نهى النبي ﷺ عن الدواء الخبيث»(2).

وقد جاءت النصوص المتعلقة بالأمراض في السنة على ثلاثة أضرب، وهي تبرز آثار رحمة الله في الوقاية والتداوي:

الأول: نصوص جاءت بالدلالة على أنواع معينة من الأدوية.

وهي قسمان: رقى وأدعية، ومطعومات ومشروبات.

القسم الأول: الرقى والأدعية.

الرقى والأدعية من آثار رحمة الله في علاج المريض، وهي ما يكون فيها تلاوة لآي من القرآن أو الحديث على المريض، وقد تكون مصحوبة باللمس والنفث، وبأعداد محددة.

قال ابن القيم في بيان فضل الرقية بكلام الله وحصول التأثير به رحمة من الله لعباده: "ومن المعلوم أن بعض الكلام له خواص ومنافع مجربة، فما الظن بكلام رب العالمين؟ الذي فضله على كل كلام كفضل الله على خلقه، الذي هو الشفاء التام، والعصمة النافعة، والنور الهادي، والرحمة العامة، الذي لو أنزل على جبل لتصدع من عظمته وجلالته،

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب: الطب، باب: في الرجل يتداوى (٤/١برقم٣٨٥٧) واللفظ له، والترمذي، كتاب: الطب، باب: ما جاء في الدواء والحث عليه (٤/٣٤٣برقم٢٠٣٨) بنحوه، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه، كتاب: الطب، باب: ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (٤/٤٩٧برقم٣٤٦٣)، وأورده الألباني في مشكاة المصابيح (٢/٥٢٦) وصححه، وانظر: السلسلة الصحيحة (٢/٣٩٤).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب: الطب، باب: الأدوية المكروهة (٢/٣٩٩برقم٣٨٧٠)، والترمذي، كتاب: الطب، باب: ما جاء فيمن قتل نفسه بسم (٤/٣٨٧برقم٢٠٤٥)، وابن ماجه، كتاب: الطب، باب: النهي عن الدواء الخبيث (٤/٥١٣برقم٣٤٥٩)، وأورده الألباني في تحقيقه للمشكاة (٢/٥٢٨) وصححه.

قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء:٨٢]"(١).

وقد حفلت السنة بالكثير من الرقى والأدعية -أضرب لها بمثالين للاختصار- فمن ذلك:

١. ما جاء عن عثمان بن أبي العاص أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعًا يجده في جسده، فقال له رسول الله ﷺ: «ضع يدك على الذي يألم من جسدك، وقل: بسم الله ثلاثًا، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»، قال: ففعلت، فأذهب الله ما كان بي.(٢).

٢. وعن عائشة زوج النبي ﷺ، أنها قالت: كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريل، قال: «بسم الله يبريك، ومن كلّ داء يشفيك، ومن شرّ حاسد إذا حسد، وشرّ كلّ ذي عين»(٣).

القسم الثاني: المطعومات والمشروبات وغيرهما.

وهي مما خلقه الله تعالى للإنسان، ويسر له اكتشافها والوصول إليها، والتداوي بها، رحمة منه تعالى بهم، وقد جاء ذكر أصولها في قوله ﷺ: «الشفاء في ثلاثة: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنا أنهى أمتي عن الكي»(٤).

وهذه الثلاثة بعض ما يتداوى به الناس، وليس المراد حصر التداوي فيها، قال ابن حجر: "ولم يرد النبي ﷺ حصر الشفاء في هذه الثلاثة، فإن الشفاء قد يكون في غيرها، إنما نبه على أصول العلاج"(٥).

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (١٧٧/٤).
(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الطب، باب: استحباب وضع يده على موضع الألم (٢٠/٧برقم٥٨٦٧).
(٣) أخرجه مسلم، كتاب: الطب، باب: الطب والمرضى والرقى (١٣/٧برقم٥٨٢٨).
(٤) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: الشفاء في ثلاث (٢١٥٢/٥برقم٥٣٦٥).
(٥) فتح الباري (١٣٨/١٠).

وقد جاءت السنة بتفصيلات لهذه الثلاث وما يتفرع عنها، -أضرب لها بمثالين للاختصار- فمن ذلك:

١. العسل: فعن أبي سعيد أن رجلًا أتى النبي ﷺ، فقال: «أخي يشتكي بطنه؟ فقال: اسقه عسلًا، ثم أتاه الثانية، فقال: اسقه عسلًا، ثم أتاه الثالثة، فقال: اسقه عسلًا» ثم أتاه فقال: قد فعلت. فقال: «صدق الله، وكذب بطن أخيك، اسقه عسلًا»، فسقاه، فبرأ[١].

٢. الحبة السوداء: قال ﷺ: «الحبة السوداء شفاء من كل داء، إلا السام» قلت: وما السام؟ قال: «الموت»[٢].

وهناك الْكَمْأَة، والْقُسْطَ، والصَّبِر، والْعَجْوَة، والتَّلْبِينَة، والإِثْمِد، وألبان الإبل وأبوالها، وغير ذلك كثير مما صحت به النصوص، وهي تبرز آثار رحمة الله تعالى في التداوي من المرض، وأنه سبحانه وتعالى خلقها لنا، وهدانا للإفادة بها، ويمكن طلبها في مظانها من كتب السنة وغيرها حيث لا يمكن الاستطراد هنا.

الثاني: نصوص جاءت بالتحصن الوقائي.

وهو قسمان: مادي، ومعنوي.

القسم الأول: دلائل رحمة الله في الجانب الوقائي المادي:

اهتم الإسلام بالجانب الوقائي فيما يتعلق بالأمراض بصفة عامة، وبالوبائية منها بصفة خاصة، وهي مما يدل على رحمة الله تعالى بعباده، فقد شرع لهم ونبههم إلى ما يقيهم الابتلاء بالأمراض، ومن مظاهر هذا

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: الدواء بالعسل (٥/٢١٥٢، برقم٥٣٦٠) واللفظ له، ومسلم، كتاب: السلام، باب: التداوي (٤/١٧٣٦برقم٢٢١٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: الحبة السوداء (٥/٢١٥٣برقم٥٣٦٣) واللفظ له، ومسلم، كتاب: السلام، باب: التداوي (٤/١٧٥٣برقم٢٢١٥).

الاهتمام في هذا الجانب:

١. نهيه عن دخول الأرض الموبوءة أو الخروج منها.

وذلك لحصر الوباء فلا تتسع دائرته، وهو ما يعرف في الطب الحديث بالحجر الصحي، قال ﷺ: «الطاعون رجس، أرسل على طائفة من بني إسرائيل أو على من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض، فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فرارًا منه»(١).

ولذا لم يجز بعض العلماء السفر إلى البلدان الموبوءة أو الخروج منها إلا لغرض صحيح.

٢. نهيه المريض أن يقدم على الصحيح.

قال ﷺ: «لا يورد ممرض على مصح»(٢)، وهذا المنع من مظاهر وآثار الرحمة الإلهية، فبه تضيق دائرة المرض المعدي.

٣. أمره بالابتعاد عن بعض أصحاب الأمراض المعدية بأبلغ عبارة.

قال ﷺ: «فر من المجذوم كما تفر من الأسد»(٣)، أخذًا بأسباب الوقاية.

ولما جاء وفد ثقيف لمبايعة النبي ﷺ كان معهم رجل مجذوم، فأرسل إليه النبي ﷺ: «إنّا قد بايعناك فارجع»(٤).

٤. أمره العاطس بأن يضع كفيه على وجهه.

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الأنبياء، باب: أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم (٣/١٢برقم٣٢٨٦) واللفظ له، ومسلم، كتاب: السلام، باب: الطاعون والطيرة... (٤/١٧٣٧برقم٢٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: لا هامة (٥/ ٢١٧٧برقم٤٥٣٧)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: لا عدوى ولا طيرة... (٤/١٧٤٣برقم٢٢٢١) كلاهما بلفظه.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: الجذام (٥/٢١٥٨برقم ٥٣٨٠).

(٤) أخرجه مسلم في الطب، باب: اجتناب المجذوم ونحوه (٧/١٧برقم ٥٩٥٨).

وذلك أن العاطس قد يتطاير من فمه ما يؤذي الجلساء، أو يلوث الهواء، قال ﷺ: «إذا عطس أحدكم فليضع كفيه على وجهه، وليخفض صوته»(١).

وقد شرع الإسلام جملة من الآداب الراقية في التصرفات والأفعال، ويصح أن تكون وسائل وقائية، يقوم بها المرء حال الشرب والبصاق، وقبل تناول الطعام وبعده، ويحترم فيها ما يشترك فيه الناس من المياه والطرق والظل، ويتأكد العمل بها عند ظهور المعديات، لما قد يترتب على التفريط فيها من ضرر ذاتي أو متعدٍّ، وهي من آثار رحمة الله التي علمها عباده.

القسم الثاني: دلائل رحمة الله في الجانب الوقائي المعنوي:

تتمثل في التحصينات الإلهية، التي هي من جزاء الإيمان، وهي كثيرة وميسرة للجميع، فلا تحتاج منا إلى قوى عضلية، ولا إلى ضرائب مالية، وستلاحظ أن منها ما هو استباقي، أي يقال قبل وقوع المكروه لدفعه، ومنها ما يقال بعد وقوعه لرفعه -أضرب لها بمثالين للاختصار- فمن ذلك:

١. التحصن بـ «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء...» صباحًا ومساء ثلاث مرات.

فعن أبان بن عثمان قال: سمعت أبي يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم. ثلاث مرات فيضرّه شيء»، وكان أبان قد أصابه طرف فالج (أي: شلل) فجعل الرجل ينظر إليه، فقال له أبان: ما تنظر إليَّ؟ أما إن الحديث كما حدثتك، ولكني لم أقله يومئذ ليمضي الله عليَّ قدره(٢).

(١) أخرجه الحاكم (٢٩٣/٤برقم٧٦٨٤)، وأورده الألباني في صحيح الجامع (٦٨٥/١) وحسنه.
(٢) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح (٤٨٤/٤برقم٥٠٩٠)، والترمذي، كتاب: الدعوات،=

٢. التحصن بالدعاء لدفع البلاء ورفعه.

الدعاء أمضى سلاح في دفع البلاء قبل نزوله، وفي تخفيفه أو رفعه بعد نزوله؛ لقوله ﷺ «لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل و مما لم ينزل، و إن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة»(١).

قال ابن القيم: "الدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه أو يخففه إذا نزل...»(٢).

٣. التحصن بسؤال العفو والعافية.

قام ﷺ على المنبر يومًا ثم بكى، فقال: «اسألوا الله العفو والعافية؛ فإن أحدًا لم يعط بعد اليقين خيرًا من العافية»(٣).

قال الحكيم: "هذا من جوامع الكلم، إذ ليس شيء مما يعمل للآخرة يتقبل إلا باليقين، وليس شيء من أمر الدنيا يهنأ به صاحبه إلا مع الأمن والصحة وفراغ القلب، فجمع أمر الآخرة كله في كلمة، وأمر الدنيا كله في كلمة"(٤).

والتحصينات غير ما ذكر كثيرة -يمكن طلبها في مظانها- وهي تدل

= باب: الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى (٤٦٥/٥ برقم ٣٣٨٨) واللفظ له، وقال: حديث حسن صحيح غريب، وابن ماجه، كتاب: الدعاء، باب: ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى (٣٥/٥ برقم ٣٨٦٩)، وأورده الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٩٥/١) وصححه.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٦/٣ برقم ٢٤٩٨) بنحوه، والحاكم في المستدرك (٤٩٢/١ برقم ١٨١٣)، واللفظ له، وقال: "حديث صحيح ولم يخرجاه"، وأورده الألباني في صحيح الجامع (١٩٧/٢٨) وحسنه.

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص٢٢).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب: الدعوات، باب: ١٠٦ (٥٥٧/٥ برقم ٣٥٥٨) واللفظ له، وقال: غريب من هذا الوجه عن أبي بكر، وابن ماجه، كتاب: الدعاء، باب: الدعاء بالعفو والعافية (١٩/٥ برقم ٣٨٤٩)، وأورده الألباني صحيح الترغيب في (١٧٦/٣) وقال: حسن صحيح.

(٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير (١٠٦/٤).

في جملتها على آثار رحمة الله فيما شرع لعباده من وسائل الوقاية من الأمراض وغيرها متى التزم الذاكر شروط الإفادة.

الثالث: نصوص جاءت بالنهي عن التداوي بالمحرم.

وهذا من آثار رحمة الله تعالى في تحريم ما به ضرر خالص أو راجح، كون المحرمات قد تزيد المرض، كالرقى والتمائم الشركية، والنجاسات، والخمر.

والأصل في التحريم قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وفي الجملة: «نهى النبي ﷺ عن الدواء الخبيث»[١]، و"هو النجس أو الحرام أو ما يتنفر عنه الطبع، وقد جاء تفسيره في رواية الترمذي بالسم"[٢].

وهناك استثناءات في التداوي بالمحرم، ولشيخ الإسلام كلام نفيس في ذلك فليراجع[٣]، وللعلماء تفصيل في التداوي بالمحرم والنجس والمستخبث منفردًا، وفي حال خلطه بغيره، وفي حال الأكل وحال الدهن ونحوه.

المطلب الثالث
آثار رحمة الله في العوض في المرض

أردت في هذا المطلب إبراز آثار رحمة الله تعالى على المريض عند إصابته بالمرض من خلال نصوص الوحي، وأن المرض وإن كان به ألم، وبه إضعاف أو حبس عن العبادات، وتعطيل عن الكسب والسعي في الأرض،

(١) تقدم تخريجه.
(٢) عون المعبود (١٠/٢٥٢).
(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٢٤/٢٧٠).

إلا أن في أعطاف ذلك من الخير والرحمة بالمبتلى الكثير، قال ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يصب منه»(١).

قال ابن القيم: "الآلام والأمراض والمشاق من أعظم النعم؛ إذ هي أسباب النّعم"(٢).

فالله تعالى قد يصيب العبد بالمرض إما لمحو سيئاته، أو لرفع درجاته، أو لإبداله بصحة هي أفضل مما كان عليه، إلى غير ذلك من المنافع التي تبرز رحمة الله تعالى من خلال المرض، وإلى شيء من البراهين الدالة على العوض في المرض:

١. إن الله يكفر به السيئات.

قال ﷺ: «ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها»(٣)، وعند مسلم: «إلا كتبت له بها درجة، ومحيت عنه خطيئة»(٤)، وشواهد هذه الفقرة من السنة كثيرة جدًا.

٢. إن الله يكتب للمريض أجر ما كان يعمل من الخير، وهو صحيح.

قال ﷺ: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا»(٥).

٣. إن الله يبدل صحة المريض متى حمده ولم يشكه بصحة أفضل.

قال ﷺ: «إذا مرض العبد بعث الله إليه ملكين فيقول: انظرا ماذا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: المرضى، باب: ما جاء في كفارة المرضى (٥/٢١٣٨برقم٥٣٢١).
(٢) شفاء العليل (ص٥٢٥).
(٣) أخرجه البخاري، كتاب: المرضى، باب: أشد الناس بلاء الأنبياء... (٥/٢١٣٩ برقم ٥٣٢٤).
(٤) أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه (٤/١٩٩١ برقم ٢٥٧٢).
(٥) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل (٣/١٠٩٢ برقم ٢٨٣٤).

يقول لعواده، فإن هو إذا دخلوا عليه حمد الله وأثنى عليه رفعا ذلك إلى الله وهو أعلم، فيقول: لعبدي عليَّ إن أنا توفيته أن أدخله الجنة، وإن أنا أشفيته أن أبدله لحمًا خيرًا من لحمه، ودمًا خيرًا من دمه، وأن أكفر عنه سيئاته»(1).

٤. إن الله يضاعف به الأجر.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون، فأخبرني أنه «عذاب يبعثه الله على من يشاء، وأن الله جعله رحمة للمؤمنين، ليس من أحد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابرًا محتسبًا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان مثل أجر شهيد»(2).

٥. إن الله يرفع به المنازل.

قال ﷺ: «إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده»، قال أبو داود: زاد ابن نفيل: «ثم صبره على ذلك»، ثم اتفقا: «حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله تعالى» (3).

٦. إن الله يدخل به الجنة.

عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ، فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي. قال: «إن شئت

(1) أخرجه مالك، كتاب: العين، باب: ما جاء في أجر المريض (٢/٩٢٠برقم١٦٨٢)، والحاكم في المستدرك (١/٣٤٨برقم١٢٩٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والبيهقي في شعب الإيمان (١٢/٣٢٩برقم٩٤٧١) وقال: "وقد روي عنه موصولاً"، وأورده الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/١٨٥) وصححه، وفي السلسلة (١/٢٧٢) وأطال الكلام عليه.

(2) أخرجه البخاري، كتاب: الأنبياء، باب: أم حسبتم... (٣/١٢٨١برقم٣٢٨٧).

(3) أخرجه أبو داود، كتاب: الجنائز، باب: الأمراض المكفرة (٢/٢٠٠برقم٣٠٩٠)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة(٦/٩٨) وصححه.

صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك»، فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف، فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها[1].

وقال ﷺ: «إن الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه، فصبر، عوضته منهما الجنة»[2].

٧. إن الله ينجي به من النار.

فعن أبي هريرة: أن النبي ﷺ عاد مريضًا، فقال له رسول الله: «أبشر، فإن الله عز وجل يقول: هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا لتكون حظه من النار في الآخرة»[3].

فتبين من النصوص السابقة أن الله ما أصاب من عبده أو أخذ منه إلا ليعطيه، وهذا من آثار رحمته تعالى بعباده.

المطلب الرابع
آثار رحمة الله المتعدية في المرض

أردت في هذا المطلب إبراز آثار رحمة الله تعالى التي تنال غير المريض من جراء إصابة المريض بالمرض، سواء كان هذا الغير من أهل المريض وقرابته، أم كان من عموم المسلمين.

وقد حفلت نصوص الوحي بكثير من الأدلة التي تبين سعة رحمة الله بعباده، وعظيم فضله عليهم، إذ جعل الله لهم بكرمه نصيبًا من الثواب

(١) أخرجه البخاري، كتاب: المرضى، باب: فضل من يصرع من الريح (٢١٤٠/٥ برقم ٥٣٢٨) واللفظ له، ومسلم، كتاب: البر والصلة، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه (١٩٩٤/٤ برقم ٢٥٧٦) بمثله.
(٢) أخرجه البخاري، كتاب: المرضى، باب: فضل من ذهب بصره (٢١٤٠/٥ برقم ٥٣٢٩).
(٣) أخرجه الترمذي، كتاب: الطب، باب: ٣٥ (٤١٢/٤برقم٢٠٨٨) نحوه، وابن ماجه، كتاب: الطب، باب: الحمى (٤٢٥/١ برقم ٣٤٧٠) واللفظ له، وأورده الألباني في الصحيحة (٥٦/٢، وصحيح ابن ماجه (٢٥٨/٢) وصححه.

والأجر، وتكفير السيئات والذنوب، كما جعل لهم ألوانًا من الخيرات والعطايا، ومن أمثلة ذلك:

١. إن الله يكفر به الخطايا.

قال ﷺ: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه»(١).

٢. إن الله جعل الملائكة تستغفر لعائد المريض.

فعن علي رضي الله عنه موقوفًا: «ما من رجل يعود مريضا ممسيا إلا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يصبح، وكان له خريف في الجنة، ومن أتاه مصبحًا خرج معه سبعون ألف ملك، يستغفرون له حتى يمسي، وكان له خريف في الجنة»(٢).

٣. إن الله يكتب به السلامة لمن حمده عند رؤية المبتلى بالمرض وغيره.

قال ﷺ: «من رأى مبتلى، فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلًا؛ لم يصبه ذلك البلاء»(٣)، وفي رواية: «عوفي من ذلك البلاء، كائنًا ما كان ما عاش»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: المرضى، باب: ما جاء في كفارة المرضى (١٠٧/١٠ برقم ٥٦٤٢) واللفظ له، ومسلم، كتاب: البر والصلة، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه... (١٩٩١/٤ برقم ٢٥٧٢) نحوه.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب: الجهاد، باب: فضل العيادة على وضوء (٢٠٢/٢ برقم ٣٠٩٨) واللفظ له، والترمذي، كتاب: الجنائز، باب: عيادة المريض (٣٠٠/٣ برقم ٩٦٩) وقال: حسن غريب، وقد روي عن علي من غير وجه منهم من وقفه ولم يرفعه، وابن ماجه، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في عيادة المريض (٤٣٦/٢ برقم ١٤٤٢)، وقال الشيخ الألباني: صحيح موقوف. وزاد في صحيح الترغيب والترهيب (١٩٧/٣) "صحيح، ورواه بنحو هذا أحمد وابن ماجه مرفوعًا".

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا رأى مبتلى(٣٧١/٥ برقم ٣٤٢٢)، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وأورده الألباني في صحيح الترمذي (١٥١/٣) وصححه.

(٤) أخرجه الترمذي كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا رأى مبتلى(٤٩٣/٥برقم٣٤٣١) واللفظ له، وابن ماجه، كتاب: الدعاء، باب: ما يدعو به الرجل إذا سافر (٥٣/٥برقم٣٨٩٢)بلفظ: "كائنا ما كان"، وأورده الألباني في صحيح الترمذي (٤٣١/٧) وحسنه. قلت: ويشهد له الحديث الذي قبله، كما قرره الألباني في الضعيفة (٢٩٥/١٣)، وقال: "... وهو مخرج مع حديث سالم في "الصحيحة" (٦٠٢) تخريجًا علميًا دقيقًا، فليراجعه من شاء".

قال المباركفوري: "من رأى مبتلى في أمر بدني، كبرص وقصر فاحش أو طول مفرط أو عمى أو عرج أو اعوجاج يد ونحوها، أو ديني، بنحو: فسق وظلم وبدعة وكفر وغيرها، فقال: «الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به...» أي فضلني في الدين والدنيا والقلب والقالب إلا عوفي من ذلك البلاء... مدة بقائه في الدنيا"[(١)].

٤. إن الله جعل لزائر المريض من يدعو له بطيب العيش، والمنزلة العظيمة في الجنة.

قال ﷺ: «إذا عاد الرجل أخاه أو زاره قال الله له: طبت وطاب ممشاك، وتبوأت[(٢)] منزلًا في الجنة»[(٣)].

٥. إن الله جعل زائر المريض في جنى الجنة.

قال ﷺ: «المسلم إذا عاد أخاه المسلم لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع»[(٤)].

---

(١) تحفة الأحوذي (٩/٢٧٥).
(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٣/٢٧٤)، وانظر: تفسير غريب ما في الصحيحين (ص٢٠٤).
(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب: الزيارة (١/١٢٦برقم٣٤٥)، وأورده الألباني في صحيح الأدب المفرد (١/١٤٣) وحسنه.
(٤) أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة، باب: فضل عيادة المريض (٨/١٣برقم٦٧١٨).

المبحث الثاني
آثار رحمة الله في الموت

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول
مفهوم الموت

الموت عند أهل اللغة: ذهاب القوة من الشيء.

قال ابن فارس: "الميم والواو والتاء أصل صحيح يدل على ذهاب القوة من الشيء، ومنه الموت خلاف الحياة"(١).

وفي الشرع: مخلوق من المخلوقات، يقابل الحياة، وهو أيضا: مفارقة الروح الجسد، كليًا بالموت أو جزئيًا بالنوم.

والمقصود هنا الكلام عن آثار رحمة الله في الموت، الذي به تفارق الروح الجسد كليًا، والذي يسمى: الحتف، والمنون، وشعوب، والسام، والحمام، والردى، والحين، والثكل، والوفاة، والهلاك(٢)، والذي يسمى أيضًا: الساعة الصغرى، والقيامة الصغرى(٣).

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/٢٨٣).
(٢) انظر: الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة (١/٢٣٢)، ومقاييس اللغة (٢/١٣٥)، وتهذيب اللغة (٤/٢٥٧).
(٣) انظر: إحياء علوم الدين (٤/٦٤)، وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/٤٠٤)، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (٧/١٤١).

هذا هو موضوع البحث، وهو مسبوق بالاحتضار.

والاحتضار، هو الساعة التي يكون فيها العبد في إقبال من الآخرة وإدبار من الدنيا، وهو وقت حضور الموت، وقرب مفارقة الروح البدن، وهو أحد مفردات الإيمان باليوم الآخر التي تسبق الموت، وفيه تكون السكرات، والبشارات، وحضور الملائكة الموكلة باستلام الروح قبل نزعها.

وسيتبين لنا من المطالب القادمة كيف أن آثار رحمة الله تعالى ممتدة إلى كل شيء بما في ذلك الموت -ومقدماته- المفزع للقلوب، والذي به يكون نهاية الأجل.

المطلب الثاني
آثار رحمة الله في موت المؤمن

كما أن آثار رحمة الله تعالى بالمؤمن تجلت عند المرض، فهي كذلك تتجلى عند الموت ومقدماته، التي من أهمها ساعة الاحتضار، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد:٩]، وهذا خاص بالمؤمنين وحدهم، ولهذا كانت مظاهر رحمته بهم عند الموت أكثر من الكافرين.

قال الشيخ العثيمين: "فإذا سألك سائل: هل لله رحمة على الكافر؟ لا تقل: نعم ولا لا، أما بالمعنى العام، فنعم له رحمة، ولولا رحمة الله به لهلك، وأما بالمعنى الخاص فلا، الرحمة الخاصة للمؤمنين فقط، قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]"(١).

(١) مجموع فتاوى العثيمين (١٨/٢٠) نسخة إلكترونية، المكتبة الشاملة.

وإليك جملة من آثار رحمة الله في موت المؤمن، كما دلت عليه النصوص:

١. إن الله جعل كراهة الموت فطرية.

فلا يؤخذ عليها، ذلك إنه لما قال ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت، قال: «ليس ذاك، ولكنّ المؤمن إذا حضره الموت بشّر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بشّر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله وكره الله لقاءه»(١).

والمؤمن غالبًا لا يكره الموت إلا خوفًا من تقصير يؤاخذ به، أو طمعًا في خير يزداد منه، ومثل هذا يعذر صاحبه، بخلاف من كرهه لأجل متع الحياة وإيثارها على نعيم الآخرة فمذموم، قال التبريزي: "من كره الموت إيثارًا للحياة على ما بعد الموت من نعيم الآخرة كان مذمومًا، ومن كرهه خشية أن يفضي إلى المؤاخذة كأن يكون مقصرًا في العمل لم يستعد له بالأهبة بأن يتخلص من التبعات، ويقوم بأمر الله كما يجب، فهو معذور، لكن ينبغي لمن وجد ذلك أن يبادر إلى أخذ الأهبة، حتى إذا حضره الموت لا يكرهه؛ بل يحبه لما يرجو بعده من لقاء الله"(٢).

٢. إن الله جعل الموت عتقًا للمؤمن من سجن الدنيا.

قال ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»(٣)، قال النووي: "معناه: أن كل مؤمن مسجون ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة

(١) أخرجه البخاري، كتاب: بدء الوحي، باب: من أحب لقاء الله (٥/٢٣٨٦برقم٦١٤٢).
(٢) مشكاة المصابيح (٥/٥٨٧).
(٣) أخرجه مسلم، كتاب: الزهد والرقائق (٤/٢٢٧٢برقم٢٩٥٦).

والمكروهة، مكلف بفعل الطاعات الشاقة، فإذا مات استراح من هذا، وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له من النعيم الدائم، والراحة الخالصة من النقصان، وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل في الدنيا مع قلته وتكديره بالمنغصات، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد"(١).

٣. إن الله يغفر ذنوب المؤمن ويحط سيئاته.

قال ﷺ: «ما من نفس تموت، وهي تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، يرجع ذلك إلى قلب مؤمن إلا غفر اللهلها»(٢)، قال ابن القيم: "لشهادة أن لا إله إلا الله عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها؛ لأنها شهادة من عبد موقن بها، عارف بمضمونها"(٣).

٤. إن الله جعل تمني المو تجائزًا في حال دون حال.

فيجوز تمني الموت في حال خوف الفتنة؛ لقوله ﷺ: «اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون»(٤).كما يجوز تمني الموت شهيدًا؛ لحديث: «من سأل الله الشهادة بصدق، بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»(٥).

ولا يجوز تمني الموت في حال الضر؛ لقوله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٤٠٦٨/٩).
(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب: الأدب، باب: فضل لا إله إلا الله (٧١٠/٤برقم٣٧٩٦)، وأورده الألباني صحيح سنن ابن ماجه (٣١٨/٢) وصححه، وفي الصحيحة (٢٧٧/٥).
(٣) الفوائد (ص٥٥).
(٤) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة ص (٣٦٦/٥برقم٣٢٣٥)، وقال: حديث حسن صحيح، وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي (٩٧/٣) وصححه.
(٥) أخرجه مسلم، كتاب: الإمارة، باب: استحباب طلب الشهادة (٤٨/٦برقم٥٠٣٩).

الموت لضر نزل به، فإن كان لا بد متمنيًا للموت، فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»[(١)]، لما في ذلك من منافاة للصبر والرضى بالقدر.

٥. إن اللّه شرع للمؤمن التعوذ من فتنة الموت حال السعة.

لينجو منها ساعة الاحتضار، جاء في الحديث: «وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات»[(٢)]، وفتنة الموت: فتنة الاحتضار أو القبر، وأضيفت إلى الموت لقربها منه[(٣)].

٦. إن اللّه يوفق المؤمن لعمل صالح يقبضه عليه.

قال ﷺ: «إذا أراد اللّه بعبد خيرًا استعمله، فقيل: كيف يستعمله يا رسول اللّه؟! قال: يوفقه لعمل صالح قبل الموت»[(٤)]، وفي حديث آخر: «إذا أراد اللّه بعبد خيرًا عسله، فقيل: وما عسله؟ قال: يفتح له عملًا صالحًا بين يدي موته، حتى يرضى عنه من حوله»، وفي رواية قال: «يفتح له عملًا صالحًا قبل موته، ثم يقبضه عليه»[(٥)].

٧. إن اللّه عدد مواطن الشهادة للمؤمن.

بحيث شملت أصنافًا عدة غير قتيل المعركة، إما لشرف الموطن أو لهوله وشدة ألمه، ومما جاء في ذلك قوله ﷺ: «ما تعدون الشهيد فيكم؟»، قالوا: يا رسول اللّه من قتل في سبيل اللّه فهو شهيد، قال:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الدعوات، باب: الدعاء بالموت والحياة (٢٣٧/٥ برقم ٥٩٩٠) واللفظ له، ومسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: كراهة تمني الموت لضر نزل به(٢٠٦٤/٤ برقم ٢٦٨٠) نحوه.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الدعوات، باب: التعوذ من فتنة المحيا والممات (٢٠٠٦/٥برقم٢٣٤١).

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٨٥/٥)، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (١١٧/٦).

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب: القدر، باب: ما جاء أن اللّه كتب كتابًا لأهل الجنة وأهل النار (٤٥٠/٤ برقم ٢١٤٢)، وقال: حديث حسن صحيح، وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي (٤٤٥/٢) وصححه.

(٥) أخرجه أحمد (١٢٠/٣برقم١٢٢٣٥)، وأورده الألباني في صحيح الجامع الصغير (١١٧/١)، وانظر: الصحيحة (١٨٨/٣).

«إن شهداء أمتي إذًا لقليل»، قالوا: فمن هم يا رسول الله، قال: «من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في البطن فهو شهيد، والغريق شهيد»[1].

وقال ﷺ: «الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله: المطعون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، والحرق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجُمْع[2] شهيد»[3].

وقال ﷺ: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد»[4]، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال ﷺ: «سيّد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»[5].

٨. إن الله جعل ملائكة الرحمة تحضر المؤمن وتبشره بالخير، عكس الكافر.

قال تعالى يصف حال السعداء ومآلهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان الشهداء (٣/١٥٢١برقم١٩١٥).
(٢) أي تموت وفي بطنها ولد. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/١٦٤).
(٣) أخرجه أبو داود، كتاب: الجنائز، باب: في فضل من مات في الطاعون (٣/١٥٦برقم٣١١٣) واللفظ له، والنسائي، كتاب: الجنائز، باب: النهي عن البكاء على الميت (٤/١٣برقم١٨٤٦)، وابن ماجه، كتاب: الجهاد، باب: فضل الشهادة في سبيل الله (٤/٨١برقم٢٧٩٨)، وأورده الألباني في أحكام الجنائز(ص٣٩) وصححه.
(٤) أخرجه الترمذي، كتاب: الديات، باب: ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد(٤/٣٠برقم١٤٢١) واللفظ له، وقال: حديث حسن، والنسائي، كتاب: تحريم الدم، باب: من قتل دون ماله (٧/١١٦برقم٤٠٩٥)، وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/١١٣) وصححه.
(٥) أخرجه الحاكم (٣/٢١٥برقم٤٨٨٤)، وأورده الألباني في صحيح الترغيب والترهيب(٢/٢٨٥) وصححه، وانظر: الصحيحة (١/٣٧٣).

﴿فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت:٣٠-٣٢]، فيبشرون حال احتضارهم بالخيرات وحصول المسرات(١)، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل].

قال ابن كثير: "هذا خبر عن السعداء... أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون، أي: مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة"(٢).

وأما الأشقياء، فقال تعالى يصف حالهم ومآلهم: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان]، «وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار والغضب من الجبار"(٣).

ومما جاء في السنة، قوله ﷺ: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر... و إن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر»(٤).

٩. إن الله جعل توبة المؤمن مقبولة ساعة الاحتضار.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء].

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٣١٤).
(٢) المرجع نفسه (٢/٥٦٢).
(٣) المرجع نفسه (٣/٣١٤).
(٤) أخرجه أحمد (٤/٢٨٧ برقم ١٨٥٥٧)، وأورده الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير (٣/٧) وصححه.

والتوبة من قريب، هي التوبة قبل حضور الموت، أي: قبل الغرغرة(١).

والغرغرة تكون آخر وقت الاحتضار بعد رؤية الملك وانتزاعه الروح، وفي الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(٢)، أي: "ما لم تبلغ روحه حلقومه"(٣).

ويدل على قبول التوبة مطلقًا حال الاحتضار وقبل المعاينة والنزع: ما ثبت في الصحيحين من دعوة النبي ﷺ عمه أبا طالب إلى التوحيد وهو في حال الاحتضار(٤).

ولما ثبت في الصحيحين من دعوته ﷺ للغلام اليهودي -الذي عاده في مرض موته- إلى التوحيد، فأسلم ومات عليه، فكان من الناجين، ومن الصحابة المرضيين(٥). أما ساعة معاينة ملك الموت ونزع الروح فإن التوبة لا تقبل.

١٠. إن الله يعطي المؤمن ظنه الحسن من الرحمة والعفو وغيرهما.

فيتفكر المحتضر في سعة رحمة الله ومغفرته وعفوه؛ لقوله ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل»(٦) ففيه تغليب جانب الرجاء، قال ابن حجر تعليقًا على حديث: «أنا عند ظن عبدي بي»(٧): "وهو كما قال أهل التحقيق مقيد بالمحتضر، ويؤيد ذلك حديث: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»"(٨).

(١) انظر: تفسير روح البيان (٢/١٤٣).
(٢) أخرجه الترمذي، كتاب: الدعوات، باب: فضل التوبة والاستغفار (٥/٥٤٧برقم٣٥٣٧) واللفظ له، وابن ماجه، كتاب: الزهد (٥/٣٢٢ برقم ٤٢٥٣)، وأورده الألباني في صحيح الترمذي (٣/١٧٥) وحسنه.
(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/٦٦٥).
(٤) انظر: صحيح البخاري(١/٤٥٧برقم١٢٩٤).
(٥) انظر: صحيح البخاري (١/٤٥٥برقم١٢٩٠).
(٦) أخرجه مسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الأمر بحسن الظن بالله... (٤/٢٢٠٥ برقم ٢٨٧٧).
(٧) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: يريدون أن يبدلوا كلام الله (٦/٢٧٢٥ برقم ٧٠٦٦)، ومسلم، كتاب: الذكر والدعاء، باب: الحث على ذكر الله (٤/٢٠٦١ برقم ٢٦٧٥) كلاهما بلفظه.
(٨) فتح الباري (١٣/٣٨٥).

ومن إحسان الظن بالله تعالى عند الاحتضار الدعاء بالمغفرة والرحمة تأسيًا بالنبي ﷺ، فإنه كان يقول في ساعة الاحتضار: «اللهم اغفر لي، وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى»(1).

11. إن الله شرع له التعوذ من حضور الشيطان ساعة الاحتضار.

حتى لا يفسد عليه، دل على ذلك ظاهر قوله تعالى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ٩٨﴾ [المؤمنون]، قال الشنقيطي: "والظاهر... أن المعنى: أعوذ بك أن يحضرني الشيطان في أمر من أموري كائنًا ما كان، سواء كان ذلك وقت تلاوة القرآن...أو عند حضور الموت، أو غير ذلك"(2).

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الهدم، وأعوذ بك من التردي، وأعوذ بك من الغرق، والحرق، والهرم، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت...»(3)، وتخبط الشيطان للمحتضر يكون بإفساد دينه أو عقله(4).

12. إن الله شرع تلقين المؤمن عند الاحتضار.

قال ﷺ: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله»(5)، قال النووي: "معناه من حضره الموت، والمراد: ذكروه لا إله إلا الله؛ لتكون آخر كلامه، كما في الحديث: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»"(6).

(1) أخرجه البخاري، كتاب: بدء الوحي، باب: مرض النبي (٤/١٦١٤برقم ٤١٧٦) واللفظ له، ومسلم، كتاب: السلام، باب: استحباب رقية المريض (٤/١٧٢١برقم٢١٩١) بمعناه.

(2) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٥/٣٥٣).

(3) أخرجه النسائي، كتاب: الاستعاذة، باب: الاستعاذة من التردي والهدم (٨/٢٨٣برقم٥٥٣٣)، وأبو داود، كتاب: سجود القرآن، باب: في الاستعاذة (١/٤٨٤برقم١٥٥٢) واللفظ له، وأورده الألباني في صحيح أبي داود (٥/٢٧٤) وصححه.

(4) انظر: التيسير بشرح الجامع الصغير (١/٤٨٨).

(5) أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز، باب: تلقين الميت(٢/٦٣١برقم٩١٧).

(6) شرح النووي على صحيح مسلم (٦/٢١٩).

١٣. إن الله يثبت المؤمنين على التوحيد عند الموت.

قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم]، أي: "كلمة التوحيد، وهي قول: لا إله إلا الله، في الحياة الدنيا يعني قبل الموت وفي الآخرة يعني في القبر، هذا قول أكثر المفسرين"[(١)].

١٤. إن الله لم يسو بين المؤمن والكافر عند الاحتضار، كذا عند قبض الروح وخروجها.

جاء تقسيم الناس عند الاحتضار كما في آخر سورة الواقعة إلى ثلاثة أقسام: مقربين، وأصحاب يمين، ومكذبين ضالين، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾ [الواقعة:٨٨-٩٣].

قال ابن سعدي: "ذكر الله تعالى أحوال الطوائف الثلاث: المقربين، وأصحاب اليمين، والمكذبين الضالين في أول السورة في دار القرار، ثم ذكر أحوالهم في آخرها، عند الاحتضار والموت"[(٢)]، ثم ساق الآيات بتفسيرها.

وعليه فيختلف قبض الأرواح وانتزاعها، وكيفية خروجها، وما ينالها بعد ذلك.

قال ﷺ: «نفس المؤمن تخرج رشحًا، ونفس الكافر تخرج من شدقه كما تخرج نفس الحمار»[(٣)]

(١) معالم التنزيل (٣/٣٣).
(٢) المرجع السابق.
(٣) أخرجه الترمذي، كتاب: الجنائز، باب: التشديد عن الموت (٣/٣٠٩برقم٩٨٠) بأوله، والطبراني في الكبير (٩/٣٥برقم١٠٢٤٦) بلفظه، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (٥/١٥٠) وحسنه.

وقد جاءت السنة بالتفريق بين نزع روح المؤمن، ونزع روح الكافر، وما يعقب ذلك، كما في قوله ﷺ: «... إنّ العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدّنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السّماء بيض الوجوه، كأنّ وجوههم الشّمس، معهم كفن من أكفان الجنّة، وحنوط من حنوط الجنّة، حتّى يجلسوا منه مدّ البصر، ثمّ يجيء ملك الموت عليه السلام حتّى يجلس عند رأسه، فيقول: أيّتها النّفس الطّيّبة، اخرجي إلى مغفرة من اللّه ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السّقاء... وإنّ العبد الكافر، إذا كان في انقطاع من الدّنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السّماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مدّ البصر، ثمّ يجيء ملك الموت، حتّى يجلس عند رأسه، فيقول: أيّتها النّفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من اللّه وغضب، قال: فتفرّق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السّفّود من الصّوف المبلول...»[١].

١٥. إن اللّه يخفف على المؤمن سكرات الموت، وفي شدته على البعض زيادة حسنات أو تكفير سيئات.

سكرات الموت كرباته وغمراته وشدته نتيجة الألم، وهي عامة للمؤمن والكافر، وهي على الكفار والعصاة أشد.

وقد ذكر الحق تعالى السكرات في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ﴾ [ق:١٩]، وهي المرادة بقوله تعالى في الغشي: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [الأحزاب:١٩]، والذي يغشى عليه من الموت، هو المحتضر يغمى عليه لما يعاني من سكرات الموت[٢].

(١) أحمد (٤/٢٨٧برقم١٨٥٥٧)، وأورده الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/٢١٩) وصححه.
(٢) أيسر التفاسير (٣/٢٧٩)، وانظر: بيان المعاني (٦/٢٨)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/٩٣٣).

وفي صحيح البخاري: أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول: إن رسول الله ﷺ كان بين يديه ركوة أو علبة فيها ماء -شك عمر- فجعل يدخل يديه في الماء، فيمسح بهما وجهه، ويقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات» ثم نصب يده، فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قبض، ومالت يده(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة عليها السلام: وا كرب أباه، فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم» (٢)، وهذا دليل على المعاناة والألم عند السكرات.

وقد تقدم ذكر الفرق والاختلاف بين المؤمن والكافر حال الاحتضار والبشارة ونزع الروح، وكون الكافر يكون أكثر ألمًا، وقد وصف القرآن الكريم حال الظالمين في السكرات وشدة الملائكة عليهم، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣]. وإن كانت المعاناة عامة ومتفاوتة المقدار، إلا أن الشهيد يخفف عليه كما دل عليه ظاهر قوله: «الشهيد لا يجد مس القتل إلا كما يجد أحدكم القرصة يقرصها»(٣)، كذا ظاهر قوله: «المؤمن يموت بعرق الجبين»(٤). وشدة الموت لا يستدل بها على نقص المرتبة، قال ابن

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقائق، باب: مرض النبي... (١٦١٢/٤برقم٤١٨٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب: مرض النبي ووفاته (١٦١٩/٤برقم٤١٩٣).

(٣) أخرجه النسائي، كتاب: الجهاد، باب: ما يجد الشهيد من الألم (٣٦/٦برقم٣١٦١) واللفظ له، والترمذي، كتاب: فضائل الجهاد، باب: فضل المرابط (١٩٠/٤برقم١٦٦٨) وقال: "حسن صحيح غريب"، وابن ماجه، كتاب: الجهاد، باب: فضل الشهادة (٨٤/٤برقم٢٨٠٢)، وأورده الألباني في مشكاة المصابيح (٣٧٢/٢) وحسنه، وانظر: السلسلة الصحيحة (٣٤/٣).

(٤) أخرجه النسائي، كتاب: الجنائز، باب: علامات موت المؤمن (٦/٤برقم١٨٢٩) واللفظ له، والترمذي، كتاب: الجنائز، باب: المؤمن يموت بعرق الجبين (٣١٠/٣برقم٩٨٢) وقال: حديث حسن، وابن ماجه، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في المؤمن يؤجر في النزع (٤٤٢/٢برقم١٤٥٢)،

حجر: "شدة الموت لا تدل على نقص في المرتبة؛ بل هي للمؤمن إما زيادة حسنات، وإما تكفير سيئات"[١].

١٦. إن الله شرع دعاء المؤمنين له بالمغفرة إذا قبض، وتأمين الملائكة على ذلك.

قال ﷺ: «إذا حضرتم المريض أو الميت، فقولوا خيرًا، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون»[٢].

١٧. إن الله يقبل شفاعة المصلين فيه.

قال ﷺ: «ما من مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلًا، لا يشركون بالله شيئًا، إلا شفعهم الله فيه»[٣].

١٨. إن الله جعل الشهادة له بالخير موجبة للشفاعة فيه.

الثناء على الميت فيه تزكية يترتب عليها ما يترتب على الشفاعة من نفع للميت بدخول الجنة، أو غفران ما بينه وبين ربه من الذنوب، التي لم يطّلع عليها الشهود، قال رسول الله ﷺ: «أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة».

قال: قلنا: أو ثلاثة، قال: «أو ثلاثة» فقلنا: أو اثنان، قال: «أو اثنان» ثم لم نسأله عن الواحد[٤].

١٩. إن الله يكرمه إن مات في غير بلده.

فعن عبدالله بن عمرو قال: توفي رجل بالمدينة ممن ولد بالمدينة،

وأورده الألباني في المشكاة (٢/٣٧٢) وصححه، وانظر: أحكام الجنائز (ص٣٥).

(١) فتح الباري (١١/٣٦٦).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز، باب: ما يقال عند المريض والميت (٣/٣٨برقم٢١٦٨).

(٣) أخرجه مسلم في الجنائز، باب: من صلى عليه أربعون فشفعوا فيه (٢/٦٥٥برقم٩٤٨).

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز، باب: ثناء الناس على الميت (١/٤٦٠برقم١٣٠٢).

صلى عليه النبي ﷺ، فقال: يا ليته مات في غير مولده، فقال رجل من الناس: ولم يا رسول الله؟ قال: «إن الرجل إذا مات في غير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره في الجنة»[١].

٢٠. إن الله يكرمه بشفاعة النبي محمد ﷺ إن مات في المدينة.

فما من مسلم يموت فيها إلا أدركته شفاعة المصطفى ﷺ، وقد رغب أمته في ذلك، فقال كما في حديث المبحث: «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها، فإني أشفع لمن يموت بها»[٢].

المطلب الثالث
آثار رحمة الله في موت الطفل

في موت الأطفال خلاص لهم من شقاء الدنيا وعذابها، وفكاك من سجنها الضيق إلى سعة الآخرة، والموت بهجة لهم وتحفة، سواء كانوا أطفال مسلمين أم أطفال مشركين، ذلكم أن موتهم قبل سن التكليف علامة على سعادتهم، وكونهم من أهل دار النعيم.

وما قيل من آثار رحمة الله تعالى في موت المؤمن يقال بعضها هنا في موت الأطفال في الجملة.

إلا أني أفردت الأطفال بمطلب مستقل؛ لدخول أطفال المشركين مع أطفال المؤمنين في الحكم دون آبائهم، ولكون آثار الرحمة الإلهية في

(١) أخرجه النسائي، كتاب: الجنائز، باب: الموت بغير مولده (٧/٤ برقم ١٨٣٢) واللفظ له، وابن ماجه، كتاب: الجنائز، باب: فيمن مات غريبًا (٥٣٩/٢ برقم ١٦١٤)، وأورده الألباني في صحيح وضعيف الجامع (٤٤٣/٦) وحسنه.

(٢) أخرجه والترمذي، كتاب: المناقب، باب: فضائل المدينة (٧١٩/٥ برقم ٣٩١٧) واللفظ له، وابن ماجه، كتاب: المناسك، باب: فضل المدينة (١٠٣٩/٢ برقم ٣١١٢)، وأورده الألباني في الصحيحة (٤٢٧/٦) وصححه.

الموت تشملهم معًا، على تمايز فيما بينهم في الدرجة والرتبة.

فقد جعل الله تعالى الجنة مقر الأطفال الذين ماتوا دون سن البلوغ[١]، وهذا من آثار رحمته بغير المكلفين ممن ماتوا على الفطرة، دل على ذلك قوله ﷺ: «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود والوليدة»[٢].

وهذا عام لم يخصه النبي ﷺ بأطفال المؤمنين دون غيرهم.

ومما يشهد له قوله ﷺ: «سألت ربي اللاهين[٣]من ذرية البشر أن لا يعذبهم، فأعطانيهم»[٤].

وأيضًا قوله ﷺ: «أطفال المشركين هم خدم أهل الجنة»[٥].

ومن آثار رحمة الله بالأفراط أن هيَّأ لمن مات منهم حال الرضاعة مرضعًا تتم رضاعه في الجنة؛ لقوله ﷺ: «إن إبراهيم ابني، وإنه مات في الثدي، وإن له ظئرين[٦] يكملان رضاعه في الجنة»[٧].

---

(١) القول بأن أطفال المشركين في الجنة هو الحق الذي تشهد له النصوص، وهو قول ابن عباس. انظر: تفسير القرآن العظيم(٤/٤٧٨)، وهو اختيار الإمام البخاري كما أشار الحافظ في الفتح(٣/٢٩٠)، وابن حزم كما في الفصل (٤/١٢٧، ١٣٥)، والأصول والفروع (٢/٢٨٨)، والقرطبي في التذكرة (ص٥٩٨)، والنووي في شرحه على مسلم (١٦/٢٠٧).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب: الجهاد، باب: فضل الشهادة (٢/٣٢٢برقم٢٥٣٢)، قال ابن حجر في الفتح (٣/٢٩٠): إسناده حسن، وأورده الألباني في صحيح سنن أبي داود(٢/٤٧٩برقم٢٢٠٠) وصححه.

(٣) اللاهين: هم الأطفال. انظر: فتح الباري (٣/٢٩٠).

(٤) أخرجه أبو يعلى(٧/١٣٨برقم٤١٠١، ٤١٠٢)، والطبراني في الأوسط (٦/١١برقم٥٩٥٧)، وأورده الحافظ في الفتح (٣/٢٩٠) وحسن إسناده، والألباني في الصحيحة (٤/٣٨٠) وقال: حسن بمجموع طرقه.

(٥) أخرجه الطيالسي (٩/٢٨٢برقم٢١١)، والطبراني في الكبير (٧/٢٩٥برقم١٦٩٩٣)، وأورده الألباني في صحيح الجامع (١/٣٤١) وصححه، وفي الصحيحة (٣/٢٥٢) وقال: صحيح بمجموع طرقه وشواهده.

(٦) الظئر: المرضعة غير ولدها، ويقع على الذكر والأنثى. النهاية (٣/١٥٤).

(٧) أخرجه مسلم، كتاب: الفضائل، باب: رحمته ﷺ (٤/١٨٠٨برقم٢٣١٦).

المطلب الرابع
آثار رحمة الله في موت الكافر

النصوص الواردة في هذا المطلب قليلة جدًا -بحسب علمي- بخلاف ما جاء فيما يتعلق بالمؤمن، فقد ورد العشرات من النصوص التي تبرز آثار رحمة الله تعالى في موته، والتي تجعله يستشعر عظيم فضل الله عليه، وتوقفه على رحمة الله الخاصة به في موته.. والتي أولاه إياها دون الكافر والفاجر، فيزداد لربه عبودية وشكرًا.

وبتتبع النصوص وجدت نموذجين يبرزان آثار رحمة الله تعالى في موت الكافر.

الأول: النصوص التي أفادت تعجيل حسنات الكافر في دنياه.

قال ﷺ: «إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنةً، يعطى بها في الدنيا، ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر: فيطعم بحسناته ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها»[(١)].

فظاهر الحديث تعجيل ثواب الكافر على أعماله الصالحة في الحياة الدنيا، وهذا يشغل عمره كله، وهذا من عدل الله تعالى ومن آثار رحمته به أنه لا يظلمه مثقال ذرة، وأنه يستوفي كل حسناته إلى أن تفارق روحه جسده.

فالكافر قد يصل الرحم، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الدهر، وهذه حسنات يثاب عليها بالعافية والولد وسائر الأرزاق، وقد يثاب عليها بتخفيف سكرات الموت، وبطيب النفس فيما قبل خروج الروح.

(١) أخرجه مسلم، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: جزاء المؤمن بحسناته... (٢١٦٤/٤برقم٢٨٠٨).

فعن عائشة أم المؤمنين قالت: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة[(١)]، قالت: والله إنها لعندي تحدث معي تضحك ظهرًا وبطنًا، ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسوق، إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله!!

قالت: قلت: ويلك وما لك؟ قالت: أقتل! قالت: قلت: ولم؟ قالت: حدثًا أحدثته، قالت: فانطلق بها، فضربت عنقها!

وكانت عائشة تقول: والله ما أنسى عجبي من طيب نفسها وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تقتل!![(٢)].

والثاني: مشروعية دعوة الكافر حال احتضاره للإسلام.

فإنه لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، وعبدالله بن أبي أمية، فقال النبي ﷺ: «أي عم، قل: لا إله إلا الله، أحاج لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣﴾ [التوبة][(٣)].

وفي قصة الغلام اليهودي الذي كان يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «أسلم»... فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»[(٤)].

---

(١) المرأة القتيل من بني قريظة، وهي التي طرحت الرّحا على خلاد بن سويد فقتلته. انظر: الروض الآنف في شرح غريب السير (٣/٤٤٤).

(٢) أخرجه أحمد(٦/٢٧٧برقم٢٦٣٦٤) واللفظ له، والحاكم (٣/٣٥برقم٤٣٣١)، وقال شعيب في تعليقه على المسند: إسناده حسن.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

ولما سئل النبي ﷺ: أي الناس خير؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله»، قال: فأي الناس شره؟ قال: «من طال عمره وساء عمله»(١)، ولا أسوأ من الكفر! .

ففي موت الكافر رحمة له في عدم الازدياد من سخط الله كلما امتد به العمر.

المطلب الخامس
آثار رحمة الله المتعدية في الموت

المقصود هنا إبراز آثار رحمة الله تعالى التي تمتد، لتشمل غير المبتلى بالموت، فهي ثمرة مبنية على مصاب الغير، وبها يحصل الأجر والخير للآخرين، وقد حفلت نصوص الوحي بالكثير من البراهين على الآثار المتعدية، التي يظفر بها المسلم من جراء المصيبة بفقد ولد أو قريب أو حبيب، متى صبر واحتسب، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة].

قال ابن سعدي في معنى الابتلاء في الأنفس: " أي: ذهاب الأحباب من الأولاد، والأقارب، والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يحبه"(٢).

(١) أخرج الترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في طول العمر للمؤمن (٤/٥٦٦برقم٢٣٣٠)، وقال: حديث حسن صحيح، وأورده الألباني في السلسلة (١٤/٩١٧) وصححه.
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٥٧).

والآن مع جملة من آثار رحمة الله المتعدية في الموت:

١. إن الله يكفر به السيئات.

قال ﷺ: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه»[١]. ومن ذلك ما يصيب أطفالهم، وقد قال ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن في نفسه، وولده، وماله، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة»[٢].

٢. إن الله يرفع به الدرجات.

قال ﷺ: «إن الرجل لتكون له عند الله المنزلة فما يبلغها بعمل، فلا يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها»[٣]، وموت الأحباب من أعظم المصاب.

٣. إن الله يخلف المصاب بخير مما نزل به مع الصبر والاحتساب.

قال ﷺ: «ما من عبد تصيبه مصيبة، فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرًا منها. إلا آجره الله في مصيبته، و أخلف له خيرًا منها»[٤].

٤. إن الله يكرم الحامد الصابر لفقد ولده ببيت الحمد في الجنة.

وهذه فضيلة ورتبة زائدة على مجرد دخول الجنة؛ لقوله ﷺ: «إذا مات ولد الرجل، يقول الله تعالى للملائكة: أقبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: أقبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب: الزهد، باب: ما جاء في الصبر على البلاء (٦٠٢/٤برقم٢٣٩٩)، وقال: حديث حسن صحيح، وأورده الألباني في الصحيحة (٢٢٨٠/٥) وصححه.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٦٩/٧برقم٢٩٠٨) واللفظ له، والحاكم (٤٩٥/١برقم١٢٧٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأورده الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٨١/٣) وقال: حسن صحيح.

(٤) أخرجه مسلم: كتاب: الجنائز، باب: ما يقال عند المصيبة (٦٣١/٢برقم٩١٨).

فماذا قال عبدي؟ قال: حمدك واسترجع. فيقول: ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد»[(١)].

٥. إن اللّه جعل زيارة القبور مذكرة بالموت والآخرة ومرققة للقلوب.

قال ﷺ: : «زوروا القبور تذكركم الموت»[(٢)]، وقال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها، فإنه يرق القلب، وتدمع العين، وتذكر الآخرة، فزوروها، ولا تقولوا هجرًا»[(٣)].

٦. إن اللّه يثيب على التعزية.

قال ﷺ: «ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبة إلا كساه اللّه من حلل الكرامة يوم القيامة»[(٤)].

٧. إن اللّه يثيب من غسل ميتًا وستر عليه، وكفنه، وأجنه.

قال ﷺ: «من غسل ميتا فكتم عليه غفر اللّه له أربعين مرة، ومن كفن ميتًا كساه اللّه من سندس وإستبرق في الجنة، ومن حفر لميت قبرًا فأجنه فيه، أجرى اللّه له من الأجر كأجر مسكن أسكنه إلى يوم القيامة»[(٥)].

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: الجنائز، باب: فضل المصيبة إذا احتسب (٣/٣٤١برقم١٠٢١) وقال: حسن غريب، وأورده الألباني في الصحيحة (٣/٤٨٢) وقال: حسن بمجموع طرقه.

(٢) أخرجه النسائي، كتاب: الجنائز، باب: زيارة قبر المشرك (٧/١٥٨برقم٢٠٠٧) واللفظ له، وابن ماجه، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في زيارة القبور (٢/٥١٢برقم١٥٧٢)، وأورده الألباني في أحكام الجنائز (ص١٨٨) وصححه.

(٣) أخرجه أحمد(٤/٤٧٣برقم١٣٤٨٧)، والحاكم (١/٥٣٢برقم١٣٩٣) واللفظ له، وقال الألباني في أحكام الجنائز (ص١٧٩): "أخرجه الحاكم بسند حسن، وأحمد من طريق أخرى عن أنس، وفيه ضعف".

(٤) أخرجه ابن ماجه: كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في ثواب من عزى مصابًا (٢/٥٣٢برقم١٦٠١)، وأوردة الألباني في الصحيحة (١/٣٧٨) وصححه، وفي الترغيب والترهيب (٣/٢٠٦)، وقال: حسن لغيره.

(٥) أخرجه الحاكم (١/٥٠٥برقم١٣٠٧)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأورده الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/٢٠١) وصححه، وفي الجنائز (ص٥١) ووافق الحاكم والذهبي، وقال: "قد رواه الطبراني في الكبير، بلفظ: " أربعين كبيرة "، وقال =

٨. إن اللّه جعل الأجور العظيمة بشهود الجنازة.

قال رسول اللّه ﷺ: «من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان». قيل: وما القيراطان؟ قال: «مثل الجبلين العظيمين»(١).

٩. إن اللّه جعل الوِلدَان حجابًا لوالديهم من النار.. مع الصبر والاحتساب.

لقوله ﷺ: «ما من امْرَأَيْنِ مسلمين هلك بينهما ولدان أو ثلاثة، فاحتسبا وصبرا، فيريان النار أبدًا»(٢).

١٠. إن اللّه يقبل شفاعة الوِلدَان في والديهم ليدخلوا الجنة.

قال ﷺ: «يقال للولدان يوم القيامة: ادخلوا الجنة» قال: «فيقولون: يا رب، حتى يدخل آباؤنا وأمهاتنا» قال: «فيأتون»، قال: «فيقول اللّه -عز وجل-: ما لي أراهم محبنطئين؟(٣) ادخلوا الجنة» قال: «فيقولون: يا رب آباؤنا، وأمهاتنا» قال: «فيقول: ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم»(٤).

١١. إن اللّه يقبل شفاعة الشهيد لأهل بيته.

قال ﷺ: «للشهيد عند اللّه ست خصال: يغفر له في أول دفعة،

= المنذري (٤/ ١٧١) وتبعه الهيثمي (٣/ ٢١): "رواته محتج بهم في الصحيح"، وقال الحافظ ابن حجر في الدراية(١ ٤٠): " إسناده قوي".

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: من انتظر حتى تدفن (١/٤٤٥برقم١٢٦١) نحوه، ومسلم: كتاب: الجنائز، باب: فضل الصلاة على الجنازة واتباعها (٣/٥١برقم٢٢٣٢) واللفظ له.

(٢) أخرجه أحمد (١٠٨/٨برقم٢١٥٢٣) واللفظ له، وابن حبان، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في الصبر وثواب المرض (٢٠٢/٧برقم٢٩٤٠) وصححه شعيب، والطبراني في الكبير (١٥٥/٢برقم١٦٤٥)، وأورده الألباني في الصحيحة (٣٢٩/٥) وصححه.

(٣) محبنطئين: المحبنطىء -بالهمز وتركه- المتغضب المستبطىء للشيء، وقيل: هو الممتنع امتناع طلبة، لا امتناع إباء. انظر: النهاية (٣٣١/١).

(٤) أخرجه أحمد (٤١٠/٦برقم١٦٩٦٨)، وقال الهيثمي في المجمع (٩٥/٣): "أخرجه أحمد ورجاله ثقات".

ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه»(١).

هذه جملة من النصوص التي تشير إلى بعض من آثار رحمة الله المتعدية، التي تحصل للمسلم بموت الغير.

وفي الجملة، فإن موت الغير يفتح للمسلم أبوابًا كثيرة من الأعمال الصالحة، التي يحبها الله تعالى من عباده ويكافئهم ويثيبهم عليها، مثل: الدعاء، والشكر، والصبر، والاستغفار، والإيثار، والرحمة، والصدقة، وغير ذلك كثير، مما يكون سببًا في زيادة حسناتهم، وحط سيئاتهم، ورفع درجاتهم.

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: الجهاد، باب: في ثواب الشهيد (١٨٧/٤برقم١٦٦٣) واللفظ له، وقال: حديث حسن صحيح غريب، وابن ماجه، كتاب: الجهاد، باب: فضل الشهادة في سبيل الله (٨٢/٤ برقم٢٧٩٩)، وأورده الألباني في الصحيحة (١٦/١٣) وقال: إسناده شامي صحيح.

الخاتمة

وفيها أهم النتائج والتوصيات:

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد انتهيت بعون الله وتوفيقه من إتمام هذا البحث، وفي ختامه أُجمل أهم النتائج التي توصلت إليها في النقاط الآتية:

١. إن في آثار رحمة الله في المرض والموت إثباتًا لكمال صفات الرحمة والعدل والحكمة الإلهية.

٢. إن رحمة الله تعالى قد وسعة كل شيء، وإنها تجلت في المرض والموت من خلال:

- آثارها في العوض في المرض والموت.
- آثارها المتعدية في المرض والموت.

٣. إن الشر في المرض والموت نسبي إضافي وليس بمحض.

٤. إن المرض والموت من الأقدار النافذة.

٥. إن الله سخر لنا من مخلوقاته، وشرع لنا من دينه ما نتداوى به ونتحصن من المرض والموت قبل نهاية الأجل.

٦. إن ما ينال المؤمنين من آثار رحمة الله في المرض والموت أضعاف ما ينال الكافرين.
٧. إن آثار رحمة الله في المرض والموت تمتد مع المؤمن إلى البرزخ فما بعده، بينما الكافر تتوقف وتنقطع بموته.
٨. إن الإنسان قد يدرك طرفًا من حكمة الله في المرض والموت، وقد يجهل ذلك.
٩. إن الجهل بآثار رحمة الله في المرض والموت أحد أسباب سوء الظن بالله تعالى.
١٠. إن الجهل بآثار رحمة الله في المرض والموت قد ينعكس على المتصف به بأمراض نفسية وجسدية.
١١. إن العلم بآثار رحمة الله في المرض والموت مما يزيد الإيمان ويقويه.

توصيات الباحث:

تتلخص في ضرورة الاهتمام بنشر الوعي والثقافة الدينية، التي تبرز آثار رحمة الله تعالى بالناس كافة وبالمؤمنين خاصة مما يصيبهم في هذه الدنيا من آلام المرض والموت، وتأكيد إنها ليست بشر محض، وإن خلفها من الحكم الإلهية ما لا يحيط به فكر.

ويمكن توعية الناس عمليًّا عن طريق الندوات، والمحاضرات، والخطب، والمسابقات، والمؤلفات، ومقاطع الفيديو.

والله أعلم..

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا وحبيبنا وقدوتنا وقرة أعيننا..

محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

فهرس المصادر والمراجع

١. أحكام الجنائز وبدعها: الألباني، ط(١٤١٢هـ) دار المعارف - الرياض.
٢. إحياء علوم الدين: الغزالي، ط/دار المعرفة - بيروت.
٣. الأدب المفرد: البخاري، تحقيق: محمد فؤاد، ط٣ (١٤٠٩هـ) دار البشائر - بيروت.
٤. الأصول والفروع: ابن حزم، تحقيق: عاطف، ط١ (١٩٧٨م) دار النهضة العربية - القاهرة.
٥. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي، ط١ (١٤١٥هـ) دار الفكر - بيروت.
٦. الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة: الجياني، ط١ (١٤١١هـ) دار الجيل - بيروت.
٧. الموسوعة الفقهية الكويتية: (نسخة إلكترونية من الشاملة) وزارة الشؤون والأوقاف الكوينية - الكويت.
٨. أيسر التفاسير: الجزائري، ط٥ (١٤٢٤هـ) مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة.
٩. تاج العروس من جواهر القاموس: الزبيدي، تحقيق: عبدالستار أحمد، ط (١٤١٤هـ) التراث العربي - بيروت.
١٠. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: المباركفوري، ط/دار الكتب العلمية - بيروت
١١. التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: القرطبي، ط١ (١٤١٧هـ) دار البخاري - المدينة.

١٢. بيان المعاني: ملا حويش، ط (١٣٨٢هـ) مطبعة الترقي - دمشق.
١٣. التعريفات: الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط١ (١٤٠٥هـ) دار الكتاب العربي- بيروت.
١٤. تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ط٥ (١٤١٦هـ) مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت.
١٥. تفسير روح البيان: حقي، ط/دار إحياء التراث.
١٦. تفسير غريب القرآن ورغائب الفرقان: النيسابوري، ط١ (١٤١٦هـ) دار الكتب العلمية.
١٧. تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم: ابن أبي نصر، ت: زبيدة، ط١ (١٤١٥هـ) مكتبة السنة - القاهرة.
١٨. تهذيب اللغة: الأزهري، ط١ (٢٠٠١م) دار إحياء التراث العربي - بيروت.
١٩. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ابن سعدي، تحقيق: اللويحق، ط١ (١٤٢٠هـ) مؤسسة الرسالة.
٢٠. التيسير بشرح الجامع الصغير: ط٣ (١٤٠٨هـ) مكتبة الإمام الشافعي - مصر.
٢١. جامع البيان في تأويل القرآن: الطبري، ط١ (١٤١٢هـ) دار الكتب العلمية - بيروت.
٢٢. الجامع الصحيح سنن الترمذي: الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون، ط/دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٢٣. جمهرة اللغة: ابن دريد، تحقيق: رمزي بعلبكي، ط ١ (١٤٠٨هـ) دار العلم للملايين - بيروت.
٢٤. الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: ابن قيم الجوزية، ط (١٤١٨هـ) دار المعرفة.

٢٥. الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ط/دار الفكر – بيروت.
٢٦. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: الآلوسي، ط٤(١٤٠٥هـ) دار إحياء التراث العربي– بيروت.
٢٧. زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن القيم، ط/ مؤسسة الرسالة – بيروت
٢٨. الزاهر في معاني كلمات الناس: الأنباري، ط (١٤١٢هـ) مؤسسة الرسالة – بيروت.
٢٩. سلسلة الأحاديث الصحيحة: الألباني، ط (١٤١٥هـ) مكتبة المعارف – الرياض.
٣٠. سلسلة الأحاديث الضعيفة: الألباني ط١ (١٤١٢هـ) مكتب المعارف– الرياض.
٣١. سنن ابن ماجه: ابن ماجه ط (١٤٠١هـ)، دار الدعوة– استانبول.
٣٢. سنن أبي داود: أبو داود، ط/وزارة الأوقاف المصرية، دار الكتاب العربي– بيروت.
٣٣. سنن الدارمي: الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، ط١ (١٤٠٧هـ) دار الكتاب العربي – بيروت
٣٤. شرح النووي على صحيح مسلم: النووي، ط٢(١٤٩٣هـ) إحياء التراث العربي.
٣٥. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: ابن قيم الجوزية، ط (١٣٩٨هـ) دار المعرفة – بيروت
٣٦. صحيح ابن حبان: تحقيق: شعيب، ط٢ (١٤١٤هـ)، مؤسسة الرسالة– بيروت.
٣٧. صحيح البخاري: البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ط ٤ (١٤١٠هـ) دار ابن كثير، دمشق – بيروت.

٣٨. الصحاح: الجوهري، ط٤/ ١٩٩٠م، دار العلم للملايين – بيروت.
٣٩. صحيح الترغيب والترهيب: الألباني، ط(١٩٨٦م) المكتب الإسلامي- بيروت
٤٠. صحيح الجامع الصغير وزيادته: الألباني، ط٣ (١٤٠٢هـ) المكتب الإسلامي – بيروت.
٤١. صحيح سنن ابن ماجه: الألباني، ط١ (١٤٠٧هـ) المكتب الإسلامي- بيروت.
٤٢. صحيح سنن أبي داود: الألباني، ط (١٤٠٩هـ) المكتب الإسلامي – بيروت.
٤٣. صحيح سنن الترمذي: الألباني، ط١ (١٤٢٠هـ) مكتبة المعارف – الرياض.
٤٤. صحيح مسلم: الإمام مسلم، تحقيق: محمد فؤاد، ط/دار إحياء التراث العربي – بيروت
٤٥. عمدة القاري شرح صحيح البخاري: ط (١٣٩٩هـ) دار الفكر – بيروت.
٤٦. عون المعبود شرح سنن أبي داود: أبو الطيب، ط٢ (١٤١٥هـ) دار الكتب العلمية – بيروت.
٤٧. فتح الباري شرح صحيح البخاري: ابن حجر، ط (١٣٧٩هـ) دار المعرفة – بيروت.
٤٨. الفصل في الملل والأهواء والنحل: ابن حزم، تحقيق: محمد نصر وآخر، ط (١٤٠٥هـ) دار الجيل – بيروت.
٤٩. الفوائد: ابن قيم الجوزية، ط٢ (١٣٩٣هـ) دار الكتب العلمية – بيروت.
٥٠. لسان العرب: ابن منظور، ط١، دار صادر- بيروت.

٥١. صحيح وضعيف الجامع الصغير: الألباني، ط/المكتب الإسلامي.
٥٢. فيض القدير شرح الجامع الصغير: المناوي، ط٢ (١٣٩١هـ) دار المعرفة – بيروت.
٥٣. الكليات: لأبي البقاء، إعداد: عدنان درويش وآخر، ط ٢ (١٤١٣هـ) مؤسسة الرسالة – بيروت.
٥٤. مجموع الفتاوى: ابن تيمية، ط٣ (٢٠٠٥م) دار الوفاء – مكة.
٥٥. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن غالب، ت: عبدالسلام، ط١(١٤١٤هـ) دار الكتب العلمية – بيروت.
٥٦. المخصص: ابن سيده، ط١ (١٤١٧هـ) دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٥٧. المستدرك على الصحيحين: الحاكم، ت: مصطفى عبدالقادر، ط١(١٤١١هـ) دار الكتب العلمية – بيروت.
٥٨. مسند أبي داود الطيالسي: الطيالسي، طبعة دار المعرفة، بيروت – لبنان.
٥٩. مسند أبي يعلى: أحمد بن علي بن المثنى، تحقيق: حسين سليم، ط١ (١٤٠٤ هـ) دار المأمون للتراث– دمشق.
٦٠. مسند الإمام أحمد بن حنبل: أحمد بن حنبل، ط/مؤسسة قرطبة – القاهرة.
٦١. مسند الإمام أحمد: أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب، ط٢(١٤٢٠-١٩٩٩) مؤسسة الرسالة – بيروت.
٦٢. مشكاة المصابيح: التبريزي، تحقيق: الألباني، ط٣ (١٤٠٥هـ) المكتب الإسلامي – بيروت.
٦٣. معالم التنزيل: البغوي، تحقيق: محمد عبدالله وآخرون، ط (١٤٠٩هـ) دار طيبة – الرياض.

٦٤. المعجم الصغير: الطبراني، ط(١٤٠٣هـ) دار الكتب العلمية - بيروت.
٦٥. المعجم الأوسط: الطبراني، تحقيق: طارق عوض الله، ط (١٤١٥هـ) دار الحرمين - القاهرة.
٦٦. المعجم الكبير: الطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد، ط١ (١٤٠٠هـ) مطبعة الوطن العربي - بغداد.
٦٧. معجم لغة الفقهاء: قلعجي، ط٢ (١٤٠٨هـ) دار النفائس - بيروت.
٦٨. معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، ط٢ (١٤٢٠هـ) دار الجيل - بيروت.
٦٩. مفردات ألفاظ القرآن: الراغب، ط٢ (١٤١٨هـ) دار القلم - دمشق.
٧٠. الموسوعة الطبية الفقهية: أحمد كنعان، ط١ (١٤٢٠هـ) دار النفائس- بيروت.
٧١. الموطأ: مالك بن أنس، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، ط٢ (١٤١٣هـ) دار الحديث - القاهرة.
٧٢. نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: ابن الجوزي، ت: محمد كاظم، ط (١٤٠٤هـ) مؤسسة الرسالة- بيروت.
٧٣. النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير، ط (١٩٧٩م) المكتبة العلمية - بيروت.

دلالات في مفهوم الرحمة
بين الإسلام والمسيحية
دراسة مقارنة

إعداد:
د. بدرية بنت محمد عبدالله الفوزان
كلية التربية – قسم الدراسات الإسلامية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آلة وصحبه وسلم، وبعد:

الإنسان أكرم مخلوقات الله قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] ومن تمام التكريم له أرسل الله إليه رسلًا يرشدونه طريق الخير في الدنيا والآخرة، ولكن كثيرًا من البشر زاغوا عن الدين الحق، وانحرفوا عن منهج الصدق، وعلى رأس من انحرف من البشر أهل الكتاب فلقد ضلت منهم العقول والأفهام، وانحرفوا عن دين الحق الذي بينه لهم على ألسطنة رسله الكرام، فامتدت أيديهم إليها بالتحريف والتبديل، بل قد كتبوها بأيديهم ثم نسبوها لله تعالى، وقد عني القرآن الكريم ببيان عقائد أهل الكتاب المحرفة، ودعاهم إلى الدين الحق قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤] وحسبي أن هذا البحث يتناول جانبًا من ذلك الانحراف.

مشكلة البحث:

من القضايا التي ذكرت في القرآن الكريم وفي «الكتاب المقدس» الرحمة موضوع المؤتمر، والتي انحرف أهل الكتاب في بيان دلالاتها في حقهم، والتي هي من شئون دينهم، ومن نعمة الله عز وجل أن سلم القرآن من النقص والتبديل، حتى فيما يتعلق بشؤون بني اسرائيل، ولذلك أعلنها صراحة القرآن الكريم أن بيانه لما اختلف أهل الكتاب إنما هو من مقاصده الأولى، فكانت أهمية هذا الموضوع:

(دلالات في مفهوم الرحمة بين الإسلام والمسيحية -دراسة مقارنة) لتوضيح بعض دلالات الرحمة والمتعلقة بأهل الكتاب التي انحرفوا في مفهومها عن جادة الصواب.

هدف الدراسة:

إبراز دلالات الرحمة في القرآن الكريم لأهل الكتاب، ومقارنتها بمفهوم الرحمة من خلال نصوص الكتاب المقدس.

توضيح دلالات مفهوم الرحمة في الكتاب المقدس، وإبراز الانحراف الواقع فيه.

منهج البحث:

سيكون البحث وفق منهج تحليلي يتمثل في «تفسير، واستنباط» للآيات أو النصوص متمثلًا في:

جمع المادة العلمية من خلال الآيات القرآنية، ومن نصوص الكتاب المقدس لتحديد مفهوم ودلالات الرحمة بأهل الكتاب.

الاستفادة من كلام أهل العلم في شرح نصوص الآيات.

العناية بأقوال أهل العلم في هذا الباب في الرد والشرح.

تقسيم البحث:

سيشمل البحث تمهيد وفصلين:

التمهيد: تعريف بمصطلحات الدراسة (الرحمة، أهل الكتاب، الكتاب المقدس).

الفصل الأول: الرحمة بأهل الكتاب في القرآن الكريم:

المبحث الأول: دلالة الرحمة في قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً﴾ [مريم: ٢١].

المبحث الثاني: دلالة الرحمة في رفع عيسى عليه السلام.

المبحث الثالث: دلالة الرحمة في عودة عيسى عليه السلام. إلى الأرض.

المبحث الرابع: دلالة الرحمة بالمؤمنين من أهل الكتاب من خلال نصوص القرآن الكريم

المبحث الخامس: الرحمة والعدل مع الحواريين.

الفصل الثاني: الرحمة في الكتاب المقدس

المبحث الأول: مفهوم الرحمة في الكتاب المقدس ومظاهرها.

المبحث الثاني: العلاقة بين الخطيئة والرحمة.

المبحث الثالث: العلاقة بين الرحمة والعدل والعقاب.

المبحث الرابع: العلاقة بين الرحمة والتوبة.

الخاتمة والنتائج والتوصيات.

المراجع.

تمهيد
التعريف بمصطلحات الدراسة

المعنى اللغوي للرحمة:

ذكر ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ (رحم) الراء والحاء والميم: أصلٌ واحدٌ؛ يدلُّ على الرِّقَّة والعطف والرأفة، يقال: رَحِمَه ويَرْحَمُه، إذا رَقَّ له وتعطَّفَ عليه، والرَّحِم: عَلاقة القرابة، ثم سمِّيت رَحِمُ الأنثى رَحِمًا من هذا، لأنّ منها ما يكون ما يُرْحَمُ وَيُرَقّ له مِن ولد»[١]، قال تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١].

والرحمة: رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة.

وفي الاصلاح:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من أوصل إليك مصالحك، ودفع المضار عنك، ولو شق عليك في ذلك[٢].

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م، ص ٨٨٤

(٢) انظر: إغاثة اللهفان /ابن القيم، ٢/١٥٧-١٩٦

وقال نبي الرحمة ﷺ: لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد)[1].

وقد أجمع سلف هذه الأمة على وصف الله بأنه «رحيم» وعلى أن من صفاته «الرحمة»، وأثبتوا هذه الصفة، كما أثبتها سبحانه لنفسه وأثبتها له نبيه ﷺ بل قد ثبت أنه جل شأنه هو أرحم الراحمين، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾ [الأعراف:٨١]، فهي صفة من صفات الله، ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد:٢٨].

أهل الكتاب:

هذا المصطلح يطلق على كل من قام دينه في الأصل على كتاب سماوي وإن حرف وبدل بعد[2]؛ وقال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى وكتابهم التوراة، والإنجيل[3]، وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أهل الكتاب اسم يتناول اليهود، والنصارى»[4].

الكتاب المقدس:

هو الكتاب الذي يعتقد اليهود والنصارى أنه وحي من الله وكلمته، ويطلق عليه اسم «بايبل» وإن ذكر «الكتاب المقدس» هو باعتبار الاسم وليس الصفةً، النصارى يقدسون كلا من العهد القديم، والعهد الجديد، ويضمونها في كتاب واحد يطلقون عليه اسم «الكتاب المقدس»[5]، وهذا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبو هريرة ٤/٢١٠٩ حديث رقم (٢٧٥٥)
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان، ٣٨٢/٢
(٣) الأحكام السلطانية، للماوردي، ص١٤٢
(٤) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، ٧٢/٣
(٥) انظر: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، سعود بن عبدالعزيز الخلف، ص ١٩٧

الكتاب المزعوم أنه مقدس ينقسم إلى قسمين رئيسين هما:

الأول: يسمى (العهد القديم أو العتيق) Old Testament ويحتوي على الأسفار المنسوبة إلى موسى والأنبياء من بعده الذين كانوا قبل عيسى عليهما السلام.

الثاني: يسمى (العهد الجديد) New Testament ويحتوي على الأناجيل، وما يتبعها من الأسفار المنسوبة للحواريين وتلامذتهم، وهذا التقسيم والتسمية من النصارى الذين يقدسون العهد القديم والجديد، ومجموعهما هو "الكتاب المقدس" عندهم، ويعتقدونه وحيًا كُتب بإلهام من الروح القدس لمؤلفيها.

والإنجيل عند المسلمين: هو الكتاب الذي أنزله الله تعالى على عيسى عليه السلام هدى ونورًا[1] قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

(١) المرجع السابق، ص١٩٩

الفصل الأول
الرحمة بأهل الكتاب في القرآن الكريم

المبحث الأول
دلالة الرحمة في قوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم: ٢٥]

لغرابة وإعجاز ميلاد عيسى ﷺ فقد عز على فرق من الناس أن تتصوره على طبيعته، وتدرك الحكمة في إبرازه، فجعلت تضفي على عيسى ابن مريم عليه السلام صفات ألوهية، وتعكس الحكمة من خلقه على نحو عجيب، انعكس على عقيدة التوحيد! وتتجلى الرحمة في في خلقه عليه السلام بقوله: ولنجعله آية للناس ورحمة بمن خلال تفاسير العلماء لهذه الآية:

١. رحمة لمن آمن به وصدقه: قال الطبري رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ وكي نجعل الغلام الذي نهبه لك علامة وحجة على خلقي أهبه لك، « وَرَحۡمَةٗ مِّنَّا » يقول: ورحمة منا لك، ولمن آمن به وصدقه أخلقه منك(١).

٢. رحمة من الله أن جعله نبيًا: ذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ أي: دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم الذي نوع في خلقهم، فخلق أباهم آدم عليه السلام

(١) جامع البيان عن تأويل أي القران، الطبري، ٤/٣٠٦

من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى إلا عيسى، فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه فلا إله غيره ولا رب سواه(١).

أما قوله: ﴿وَرَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ [مريم: ٢١] أي: ونجعل هذا الغلام رحمة من الله نبيًا من الأنبياء، يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٥ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥- ٤٦] أي: يدعو إلى عبادة ربه في مهده وكهولته، وظاهر كلام الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه رحمة للخلق، حيث بعثه الله إليهم هاديًا وداعيًا، فرحمة الله بعيسى هو أن اجتباه واصطفاه، واختاره وجعله رسولًا نبيًا وجعله من أولي العزم من الرسل، قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ [مريم: ٢١].

٣. رحمة من الله بأم عيسى مريم عَلَيۡهَا ٱلسَّلَامُ: لا شك في أن هذه الولادة كانت سببًا لذكر مريم بالذكر الحسن، والثناء الجميل، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ﴾ [مريم: ١٦]

٤. رحمة لبني إسرائيل أولًا وللبشرية جميعًا، بإبراز هذا الحادث الذي يقودهم إلى معرفة الله وعبادته وابتغاء رضاه، قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]: تدل على قدرة الله تعالى، وعلى أن الأسباب جميعها، لا تستقل

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٢٠١

بالتأثير، وإنما تأثيرها بتقدير الله، فيرى عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية، لئلا يقفوا مع الأسباب، ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها فكان رحمة، وأكبر نعمه عليهم، أن بعث فيهم رسولا، يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فيؤمنون به، وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة، »وَكَانَ« أي: وجود عيسى عليه السلام على هذه الحالة «أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا» قضاء سابقًا، فلا بد من نفوذ هذا التقدير والقضاء، فنفخ جبريل عليه السلام في جيبها[1].

المبحث الثاني
دلالة الرحمة في رفع عيسى عليه السلام

في كتاب الله قد دلت الآيات على رفع نبي الله عيسى عليه السلام إلى السماء، وبين العلماء أنه رفع بروحه وجسده، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ ﴾ [آل عمران: ٥٥]، قال ابن تيمية رحمه الله: » وأما قوله تعالى: (إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا) هذا دليل على أنه لم يَعْنِ بذلك الموت، إذ لو أراد بذلك الموت، لكان عيسى في ذلك كسائر المؤمنين، فإن الله يقبض أرواحهم، ويعرج بها إلى السماء فعلم أن ليس في ذلك خاصية وكذلك قوله: (ومطهرك من الذين كفروا) لو كان قد فارقت روحه جسده؛ لكان بدنه في الأرض كبدن سائر الأنبياء أو غيره من الأنبياء»[2]. وكذلك ردّ سبحانه على الادعاء بقتله، أو صلبه بقوله: ﴿ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ

(١) تفسير السعدي، ٦/٢٣٤
(٢) مجموع الفتاوى ٤/٣٢٢- ٣٢٣

ﭐلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ قوله: (بل رفعه الله إليه) يُبَيِّن أنه رفع ببدنه وروحه، كما ثبت في الصحيح أنه ينزل ببدنه وروحه، وهذا الرفع حقيقي يفسره ما ثبت عن النبي ﷺ: أن عيسى عليه السلام ينزل آخر الزمان وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال: رسول الله: ﷺ (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد)[1]»، وجمهور النصارى يقرون برفعه لكن بعد الصلب، قال الشوكاني رحمه الله: (وثبت في الأناجيل كلها أن الله سبحانه رفع عيسى عليه السلام بعد الصلب، في زعمهم كما هو محرر هنالك، ولا يخالف في ذلك أحد من النصارى، وذكره القرآن الكريم، والحاصل أن رفعه إلى السماء متفق عليه بين جميع المسلمين، وجميع النصارى، ولم يقع الخلاف بينهم، إلا في كونه رفع قبل الصلب أو بعده)[2].

وتتجلى رحمة الله في رفع عيسى عليه السلام فيما يلي:

١. رحمة بعيسى عليه السلام: حيث أبطل كيد اليهود له، وردهم عنه، وحفظه من مكرهم لحكمة أرادها الله، لذلك ختمت آية الرفع بالمدح قال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ٥٨] والإماتة لا مدح فيها، وهذا رحمة من الله بعيسى عليه السلام بل هي أمر طبيعي لا وجه لتخصيص المدح، فَبَيَنّ أن الرفع وإن كان غير معهود ومتعذر على البشر، فليس عسيرًا على قدرة الله وحكمته، وأي تخصيص للقدرة والحكمة في إماتته موتًا عاديًا.

٢. في رفع عيسى عليه السلام حيًا وإبقاؤه قرونًا رحمة له عليه السلام ونصرًا له من الله أيده به على من كذبه من أهل الكتاب، وذكر ذلك الحق سبحانه بقوله: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ

(١) صحيح البخاري، كتاب أشراط الساعة، حديث رقم ٣٤٤٩، صحيح مسلم، ٢/١٩٣
(٢) إرشاد الثقات، الشوكاني، ص ٥٨

﴿عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾ [النساء:١٥٩]، ومعنى ذلك: أنّ جميعهم يصدِّقون به إذا نزل لقتل الدجّال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنيفيّة، دين عليه السلام وهذا رحمة ونصر من الله له، ولدينه دين الرسل جميعًا.

وذكر أن رجلا قال للحسن: يا أبا سعيد، قول الله عز وجل: (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال: قبل موت عيسى، وإن الله رفع إليه عيسى وهو باعثه قبل يوم القيامة مقامًا يؤمن به البر والفاجر(١)"، أي: مؤمنهم وكافرهم سيعترف ويقر بأنه لم يصلب وهو حي، وهذا رحمة ونصر له من الله، وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنه: «وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته، «قال: لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى ابن مريم، قال: وإن ضُرب بالسيف، يتكلم به. قال: وإن هوى، يتكلم به وهو يَهْوِي»(٢).

المبحث الثالث
دلالة الرحمة في عودة عيسى عليه السلام إلى الأرض

قال الطحاوي رحمه الله: « ونؤمن بأشراط الساعة من خروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء»(٣) وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة في نزول عيسى عليه السلام وتتجلى الرحمة في نزول عيسى عليه السلام فيما يلي:

١. من الرحمة قتله للدجال، وهو كذاب من بني آدم يخرج في آخر الزمان، يدعي أنه نبي، ثم يدعي أنه رب العالمين، ويفتتن به الخلق،

(١) تفسير ابن كثير، ٢/ ٢٣
(٢) جامع البيان، الطبري، ٣/ ٤٥
(٣) العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الطحاوي، ٥٦٤

فكان قتل عيسى عليه السلام له رحمة من الله بالخلق، ويكون بعد ذلك إمام المسلمين في زمانه، ويأخذ بشريعة الله، وأجمع على هذا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون بعده، قال الإمام أحمد رحمه الله: "أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتداء بهم وترك البدع، وكل بدعة فهي ضلالة" ثم ذكر جملة من عقيدة أهل السنة، فقال: "والإيمان كنت جمعت ملحقا خاصًا ببعض الصور وأثبت عددًا من الروابط على الشبكة المعلوماتية لبعض أن المسيح الدجال خارج مكتوب بين عينيه (كافر)، والأحاديث التي جاءت فيه والإيمان بأن ذلك كائن، وأن عيسى ابن مريم عليه السلام ينزل فيقتله بباب لد"[(١)].

٢. من دلائل الرحمة أنه ينزل حكما مقسطا، ويحيي من أمور شرعنا ما هجره الناس، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد)[(٢)]. قال النووي رحمه الله: قوله صلى الله عليه وسلم: «فيكم» أي: في هذه الأمة، وإن كان خطابًا لبعضها ممن لا يدرك نزوله، وقوله صلى الله عليه وسلم: «حكما» أي: ينزل حاكمًا بهذه الشريعة، لا ينزل نبيًا برسالة مستقلة وشريعة ناسخة، بل هو حاكم من حكام هذه الأمة[(٣)].

لذا لا تعارض بين أحاديث نزول عيسى عليه السلام وكون محمد خاتم النبيين، وأنه لا نبي بعده أبدًا؛ وهذا من الرحمة بالأمة المسلمة

(١) طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى، ١/٢٤١- ٢٤٣

(٢) صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: البيوع، باب: قتل الخنزير، (٤/ ٤٨٣)، رقم (٢٢٢٢).
صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: نزول عيسى ابن مريم حكمًا بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، (٢/ ٥٧٩)، رقم (٣٨٢).

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط٢، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، (٢/ ٥٨١).

حتى لا تقع في الشبه أنه نبي، قال ابن حجر عليه السلام: لو تقدم عيسى إمامًا لوقع في النفس إشكال، ولقيل: أتراه تقدم نائبًا أو مبتدئًا شرعًا، فصلى مأمومًا لئلا يتدنس بغبار الشبهة في قوله ﷺ: "لا نبي بعدي»[1]، فرحم الله الأمة من الوقوع في الاختلاف والفرقة بنزوله، لذا ورد أنه يصلي خلف إمام من هذه الأمة -وهو المهدي المنتظر- رحمة من الله بها وتكرمة لها بين الأمم، فقد روي عن جابر بن عبدالله قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة»)[2].

المبحث الرابع
دلالة الرحمة بالمؤمنين من أهل الكتاب
من خلال نصوص القرآن الكريم

الإسلام أعطى كل ذي حق حقه، واعترف للآخرين بما هم عليه من خير، ولم يبخس الناس أشياءهم، فالحق حق، قال تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران]، جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن أهل الكتاب، وبيان أن: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران:١١٠].

قال الطبري رحمه الله: في قوله: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ليسوا سواء

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب وآخرين، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، (٦/ ٥٧٠) بتصرف يسير

(٢) صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ، (٢/ ٥٨٠)، رقم (٣٨٨).

في موقفهم من الإسلام، فبعضهم مؤمن به، مستسلم لما جاء به، وبعضهم معرض عنه، رافض لما جاء به، وقد روي عن ابن عباس ﵄ قوله: لما أسلم عبدالله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد، ومن أسلم من يهود معهم، فآمنوا، وصدقوا، ورغبوا في الإسلام، ورسخوا فيه، قالت: أحبار يهود وأهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد، ولا تبعه إلا أشرارنا ! ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم، وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله: (ليسوا سواء)، وروي عن قتادة، قال: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ﴾ ليس كل القوم هلكى، قد كان لله فيهم بقية[1]. وقد رجح الطبري ﵀ أن قوله: (من أهل الكتاب أمة قائمة) مَدْحٌ لمؤمني أهل الكتاب، ووصف لهم بصفتهم، وهذا من رحمة الله بأهل الكتاب وإنصاف للمؤمنين منهم. [2]

ويتجلى إنصاف القرآن ورحمته بأهل الكتاب فيما يلي:

١. ذكر تأثر بعضهم بالوحي عند سماعه قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾ [المائدة:٨٣] يقول الطبري﵀: « مما عرفوا من الحق »، يقول: فيض دموعهم، لمعرفتهم بأنّ الذي يُتلى عليهم من كتاب الله الذي أنزله إلى رسول الله حقٌّ. [3]

وذكر الطبري ﵀: في سبب نزول الآية، قال: بعث النجاشي إلى النبي ﷺ اثنى عشر رجلًا يسألونه ويأتونه بخبره، فقرأ عليهم رسول ﷺ القرآن، فبكوا، وكان منهم سبعة رهبانٍ وخمسة قسيسين، أو خمسة رهبان، وسبعة قسيسين فأنزل الله فيهم: (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع)[4] يعني: أنهم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/٤٤٠
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/٤٣٥
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/١٣٢
(٤) جامع البيان، الطبري، ٢/١٢٣

عرفوا بعض الحق، وهو القرآن الكريم الذي يصدق كتابهم «التوراة والإنجيل» فتأثروا به رحمة ورقة، قال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: "عرفوا بعض الحق وهو القرآن فأبكاهم الله فكيف لو عرفوا كله»[1]، تأثروا به رحمة منهم لمعرفتهم الحق، والقران أشار لهذه الرحمة لهم وجعلها قرأنا يتلى، لأنه دين الرحمة، وهذا الثناء للمتقدمين منهم فقط".

٢. من الرحمة في القرآن الثناء على بعض النصارى -لا جميعهم-، بوصفهم بالقرب والمودة والرحمة للمسلمين، قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: ٨٢]، قال الطوفي رَحِمَهُ اللَّهُ المراد هنا: «نصارى مخصوصين، النجاشي وأصحابه أهل الحبشة لا جميع النصارى، بدليل وصفهم بأنهم أقرب مودة ورحمة»[2]، وليْس في هذا مدْحٌ لِلنصَارَى بِالْإِيمان بِاللَّه، وَلَا وَعْد لَهمْ بالنجاة مِنَ العذاب، واستحقاق الثواب وإنما فيه أنهم أقرب مودة [3].

٣. من رحمة الإسلام بأهل الكتاب دعوتهم وترغيبهم في الإيمان: قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران:١١٠]، أي: ولو صدق أهل التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى بمحمد ﷺ وما جاءهم به من عند الله؛ لكان خيرًا لهم عند الله في عاجل دنياهم

(١) التفسير الكبير، الرازي، ٥٦/٣
(٢) الإشارات الإلهية، الطوفي، ١٣٥/٢
(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١٠٧/٣-١١١

وآجل آخرتهم،[1] ولذا رغبهم بألوان من المرغبات لعلهم يفيئون إلى الله رحمة منه بهم سبحانه وتعالى ومنها:

أ. من رحمة الإسلام أنه وعد المؤمنين من أهل الكتاب بالجزاء المضاعف قال تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٣-٥٤]، قال ابن جرير رحمه الله: (يعني بذلك تعالى ذكره قومًا من أهل الكتاب آمنوا برسوله وصدقوه، فقال: الذين آتيناهم الكتاب من قبل هذا القرآن هم بهذا القرآن يؤمنون... يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا)[2]، ودل أيضًا على معنى الآية حديث أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال: (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وأدرك النبي ﷺ، فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران.)[3]، وما الترغيب في الأجر العظيم الذي أعده الله تعالى لمن آمن بالرسول ﷺ من أهل الكتاب، والذي يفوق أجر غيرهم، وهذا رحمة وترغيب لهم في الإيمان.

ب. من رحمة الإسلام بهم أن جعل لهم منزلة خاصة في المعاملة والتشريع: وهذه وسيلة ترغيب أخرى لأهل الكتاب في الإسلام وحثهم على اتباعه، ومن الأمثلة على هذه المعاملة إباحة طعام أهل الكتاب والزواج منهم، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ

(١) انظر: جامع البيان الطبري، ٧/١٠٧
(٢) جامع البيان، الطبري، ٢٠/٥٦
(٣) صحيح البخاري (٣/١٠٩٦) وصحيح مسلم (١/١٣٤) واللفظ له

أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة:٥].

ج. من الرحمة إطلاق وصف «أهل الكتاب» [١]، وهذا تزكية لهم عن غيرهم، تجلي رحمة الله عز وجل بهم، ممن لم يرث ما ورثوه من الكتب، ولم يبعث لهم ما بعث من الرسل.

د. من رحمة الله أنه أرشد في القرآن الكريم إلى أمثل الطرق في محاجة أهل الكتاب، ونهى عن مجادلتهم في دينهم إلا بالحسنى؛حتى لا يوغر الصدور ويوقد اللدد والخصومة، بل أمر بالإقناع بأن دين الله واحد قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

المبحث الخامس
دلالة الرحمة بالحواريين
من خلال نصوص القرآن الكريم

الحواريون هم: أصحاب عيسى عليه السلام وأتباعه، سموا حواريين لأنهم أنصاره، [٢] قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ

(١) ورد في القرآن وصف اليهود والنصارى بأهل الكتاب في (٣٢) موضعا، ووصفوا ب(الذين آتيناهم الكتاب، والذين أوتوا الكتاب) (٢٤) موضعًا. انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القران، مادة كتب، ص٥٩٢-٥٩٥

(٢) والحواريون اثنا عشر رجلا وهم: سمعان بطرس، وأخوه أندراوس، ويوحنا بن زبدي، وأخوه يعقوب وهؤلاء كلهم -صيادو سمك- ومتى العشار، وتوما وفيليبس، وبرثولماوس، ويعقوب بن حلفي، ولباوس، وسمعان القانوي، ويهوذا الأسخريوطي.
انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٣/ ٢٦٥.

مَوْتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، كان جواب الحواريين دالًا على أنهم علموا أن نصر عيسى ليس لذاته؛ بل هو نصر لدين الله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما الحواريون فإن الله تعالى ذكرهم في القرآن، ووصفهم بالإسلام، واتباع الرسول وبالإيمان بالله»(١).

وتتجلى الرحمة مع الحواريين فيما يلي:

١. الرحمة بهم بمدحهم وإنصافهم والثناء عليهم وأنهم أتباع عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقت بعثته آمنوا بشرعه، وأقروا بالتوحيد وعبودية عيسى المسيح وأمه لله عز وجل ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣]، فعقيدتهم الإيمان بالإنجيل المنزل الذي لم يحرف، وآمنوا بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قالوا: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: "معناه اجعلنا من أمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أن نكون ممن يشهد على الناس"(٢).

٢. من الرحمة والعدل اعتقاد أنهم من خواص عباد الله؛ تقديرًا لمكانتهم وأنهم أخلص أتباع الأنبياء، خصهم سبحانه بالذكر في القرآن الكريم، آمرًا الأمة بالاقتداء بهم في نصرتهم لنبيهم، وقد سمت مكانتهم حتى سموا بـ«الحواريين» قال: صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مامن نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره)(٣)، وهذا يشمل عموم أتباع الأنبياء ومنهم «الحواريين» أتباع عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) الجواب الصحيح»، ابن تيمية، ٢ /٣٤٨.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي، ١٠٣/٣.
(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد ...، حديث (٥٠).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ۝١٤﴾ [الصف: ١٤]، قال أبو العباس القرافي رَحِمَهُ اللهُ «إن تعظيم الحواريين لا نزاع فيه، وأنهم من خواص عباد الله الذين اتبعوا عيسى عليه السلام ولم يبدلوا، وكانوا معتقدين بظهور نبينا محمد ﷺ آخر الزمان، على ما دلت عليه كتبهم، وإنما كفر وخالف الحادثون بعدهم"[(١)] فكانت رحمة الله للحواريين بنصرهم وتأييده لهم، وثناءه في كتابه على من آمن منهم بعيسى رسول من الله فقط ! قال عبدالرزاق الرسعني عن حذاق العلماء: «والله ما اتبعه من ادعاه ربا»[(٢)]، وفي هذا ثناء على المتبعين لعيسى عليه السلام اعترافًا بنبوته ورسالته، بخلاف من اتخذه من دون الله إلهًا.

(١) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، شهاب الدين القرافي، ص ٧٦.
(٢) رموز الكنوز، عبدالرزاق الرسعني، ١/١٩٦.

الفصل الثاني
مفهوم الرحمة في «الكتاب المقدس»

المبحث الأول
الرحمة في «الكتاب المقدس»

في «الكتاب المقدس» الرحمة صفة من صفات الله، وذكرت هذه الصفة عن الله عدة مرات قال المسيح في عظته على الجبل: «كونوا رحماء كما أن أباكم أيضًا رحيم»[١].

مفهوم الرحمة في «الكتاب المقدس»: هي ألا يعاقبنا الله بحسب استحقاقنا -كبشر- بخطايانا، وأن يباركنا الله بغض النظر عن حقيقة كوننا غير مستحقين لها، فالرحمة هي الخلاص من الدينونة، ويظهر هذا المفهوم من خلال النصوص:

في العهد القديم: هناك اقتناع راسخ على أن الله اختار بني اسرائيل وقت الخروج من مصر، «رحمة» منه، وخصهم بذلك، فقد ورد في سفر الخروج: « إني نظرت إلى مذلة شعبي وسمعت صراخهم وعلمت بكربهم فنزلت لأنقذهم»[٢]، فالله من رحمته لم يحتمل مذلة شعبه المختار.

الرحمة الإلهية: هي قلب «الكتاب المقدس»؛ باعتقاد أهل الكتاب أن

(١) لوقا ٦: ١٦.
(٢) الخروج، ٣/ ٨، ١٦

الله أظهر محبته ورحمته في تجسده وموته -والعياذ بالله- على الصليب، وقيامته ليعطي الحياة الأبدية، لكل من يؤمن به، كما قال يوحنا الرسول: «بهذا قد عرفنا المحبة أن ذاك قد بذل نفسه من أجلنا فيجب علينا أن نبذل نفوسنا من أجل الأخوة»[(١)]، وبكل ثقة وبهذه الطريقة يسألون الله الرحمة!

وتظهر الرحمة باعتقاد أهل الكتاب أنهم، يقرون ويعترفون بالخطأ يقصدون -خطيئة آدم عليه السلام-، وهذه العقيدة بنيت على أسس باطلة عند النصارى وهي:

١. أن آدم عليه السلام لم يتب من ذنبه أو تاب ولم تقبل توبته.

٢. أن الخطيئة لم تقف عند حد آدم، بل انتقلت منه بالوراثة إلى جميع أبنائه ومن هنا أصبحوا مخطئين بطبيعتهم ومحاسبين عن تلك الخطيئة.

٣. لابد من الفداء دفعًا للتعارض بين عدل الله ورحمته.

٤. لابد من تجسد الإله ليكون فداء تكفيرًا بدمه الطاهر لتلك الخطيئة، وهذا هو قلب الرحمة الإلهية.

كما فسر القس -أنطونيوس فكري- معنى هذه الرحمة بقولة « طوبى للرحماء» لأنهم يرحمون المنسحقين من البشر، «كونوا رحماء كما أن أباكم أيضًا رحيم»،[(٢)] والذي لا يرحم أخاه لن يذوق من رحمة الله، والرحمة تشمل الفقراء والمحتاجين، وتشمل الخطأة فلا ندينهم، بل نصلي لأجل توبتهم وخلاصهم، وكما يغير المسيح طبعنا الشرس لطبع وديع، هكذا يغير قساوتنا إلى طبع رحيم، فالرحمة هي الإحساس بالآخر ومشاركته مشاعره، وتسديد احتياجاته»[(٣)].

(١) يوحنا ١٦/٣
(٢) لوقا ٦:٣٦
(٣) شرح الكتاب المقدس - العهد الجديد - القس أنطونيوس فكري «انجيل متى ٥»

أخيرا: أهل الكتاب في مفهوم الرحمة جانبوا الصواب، من وجوه: كيف حملوا أنفسهم خطيئة !؟ وكيف «ابن الله» بزعمهم يفدي نفسه رحمة بهم!؟ مع أن القرآن الكريم وصف رسالة موسى عليه السلام بأنها رحمة، فيما لو أقاموها كما أنزلت: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الاحقاف:١٢-١٣]، بقول الطبري رحمه الله: ومن قبل هذا الكتاب، كتاب موسى، وهو التوراة، إماما لبني إسرائيل يأتمون به، ورحمة لهم أنزلناه عليهم(١).

كما أن آدم عليه السلام بنص القرآن الكريم تاب إلى ربه، وقد قبل الله تعالى منه التوبة، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، مع أن هذه التوبة كانت من قبيل النسيان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، والناسي غير عاص ولا مؤاخذ على ما فعله أثناء النسيان(٢).

المبحث الثاني
العلاقة بين الخطيئة والرحمة

في العهد القديم من «الكتاب المقدس» يحتفظ أهل الكتاب بقناعة أن هناك رحمة إلهية للرب، لا تقاس بأي رحمة بشرية فنجدهم يصفونه: «لأنه يضرب ويشفي، يجرح ويعصب»(٣)

وبمقتضى صفة الرحمة كان على الله أن يغفر السيئات، ولم يكن

(١) جامع البيان، الطبري، ٥٠٣
(٢) طوالع الأنوار، البيضاوي ص٢٠٩
(٣) هوشع، ٦/٢١

هناك طريق إلا بدخول ابن الله «الإنسان» ثم صلبه، ليكفر عن الخطيئة التي ارتكبها أبو البشر «آدم ﷺ، خطيئة لا يمكن غفرانها؛ وجعل العهد الجديد الخلاص من هذه الخطيئة من خلال عيسى المسيح؛ الذي سمُي بهذا الاسم بحسب الاعتقاد النصراني الذي يعني «المخلص»؛ لأنه «يخلص شعبه من الخطايا»(١).

وهذا رمز لصفته الشخصية ولرسالته أيضًا؛ التي تعتبر رسالة مخلصة للبشرية، خلاصًا روحيًا إلهيًا، كما ورد في العهد الجديد ببشارة رؤيا "يوسف النجار" لمريم بمولد نبي الله عيسى ﷺ: "يا يوسف بن داود، لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك، لأن الذي حبل به فيها هو من الروح القدس، فستلد ابنًا وتدعو اسمه يسوع؛لأنه يخلص شعبه من خطاياهم"(٢)، حتى أنهم يستدلون على ذلك ببشارة الملائكة للرعاة بمولده حين قالوا لهم: «أنه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح»(٣).

فيعتقدون أن: هذا مقتضى رحمة الرب بهم، «فدم المسيح على الصليب في القربان المسيحي هو العهد الجديد لخلاص البشر»(٤)، والإنجيل هو دعوة الخلاص والرحمة، والمسيح مات مصلوبًا فداء للبشر رحمه من الله، لذا نقرأ في أسفارهم: « آمن بالرب يسوع المسيح فتخلص أنت وأهل بيتك»(٥) وهذا هو الخلاص الحقيقي.

وهذا باطل من وجوه:

١. جميع الشرائع الإلهية والوضعية قد اتفقت على أنه لا يحمل إنسان وزر غيره، ولا يؤاخذ بريء بذنب مذنب، ورد في سفر التثنية: (لا

(١) انظر: الدفاع عن المسيح يوسف درة الحداد، ص ٢٦١
(٢) انجيل متى ١/٢٠-٢١
(٣) انجيل لوقا، ١١/٢
(٤) تاريخ المسيحية، يوسف حداد، ، ص١٣٩
(٥) سفر أعمال الرسل ٣١:١٦

يقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطيئته يقتل)[١] ومعنى ذلك أن خطيئة آدم لا تتعدى لغيره من ذريته !!

٢. هذه الحقيقة ذكرها القرآن الكريم في كثير من آياته قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، بل أكد القرآن أنها موجودة في كتب الله السابقة قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم:٣٦-٤١].

وأخيرًا نقول: أي محبة ورحمة من إله لا يستطيع تخليصهم من خطيئتهم، بل يعجز عن ذلك فيسلطهم على ابنه الوحيد ! تعالى الله عن ذلك: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:٥]، ذكر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عند تفسيره لهذه الآية تعجبا واستنكارًا: «ما لهؤلاء القائلين هذا القول بالله إنه لا يجوز أن يكون له ولد من علم، فلجهلهم بالله وعظمته قالوا ذلك»[٢].

المبحث الثالث
العلاقة بين الرحمة والعدل والعقاب

عند المسيحيين من صفات الله العدل والرحمة، وبمقتضى صفة العدل كان على الله أن يعاقب ذرية آدم بسبب الخطيئة، وبمقتضى الرحمة كان على الله أن يغفر سيئات البشر، والطريق لذلك هو ابن الله "عيسى عليه السلام" يصلب ظلمًا للتكفير[٣].

(١) سفر التثنية ١٦: ٢٤
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٣٩٤
(٣) انظر: مقارنة الأديان، المسيحية، د/أحمد شلبي، ص ١٥٩

جاء في أنجيل يوحنا أن هذا من مقتضى العدل والرحمة الإلهية، وحب الله للبشرية: «لأنه هكذا أحب العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية؛لأنه لم يرسل ابنه ليدين العالم بل ليخلص العالم»(١).

إذًا: باقتران العدل والرحمة، وبتوسط الابن الوحيد لله، وقبوله التكفير عن خطايا الخلق يظهر ارتباط العدل من الله برحمته من منظور «الكتاب المقدس» ويُرد عليه من وجوه:

١. هذا مخالف «للكتاب المقدس» نفسه، وبتأمل العقوبات التي وردت في الكتاب المقدس سواء كانت لأفراد: كالزاني، القاتل، السارق وغيرها، أو العقوبات التي حلت بشعوب وأقوام: قوم نوح، أهل نينوى، وغيرهم، لم يتعد العقاب إلى أفراد آخرين غير الخاطئين، وذكر ذلك «الكتاب المقدس»: (النفس التي تخطيء هي تموت لا يحمل الابن من إثم الأب ولا يحمل الأب من إثم الابن بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون)، (٢) كما ورد ذلك في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس: (كل واحد سيأخذ أجرته بحسب تعبه)(٣).

٢. إن الله غفر لأهل نينوى، ورفع عنهم العقاب بطريق آخر غير الصلب أو الفداء مثل: الصلاة والتوبة، وقد وردت هذه الوسيلة في الكتاب المقدس: «ليترك الشرير طريقه ورجل الإثم أفكاره وليتب إلى الرب فيرحمه وإلى إلهنا لأنه يكثر الغفران»(٤).

العدالة الإلهية التي وردت في نصوص «الكتاب المقدس» هي

---

(١) إنجيل يوحنا ٣/١٦

(٢) حزقيال ١٨: ٢٠

(٣) رسالة كورنثوس الأولى ٨: ٣

(٤) إشعياء ٥٥: ٧»

أن يتحمل كل إنسان وزره وذنبه، ورد في سفر التثنية: «لا يقتل الآباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطيئته»، وموافقه لصريح القرآن الكريم وقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إخبار عن الواقع يوم القيامة، في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وأنه لا يحمل أحد خطيئة أحد، وهذا من عدله تعالى[١].

٣. ما زعموه من ترك العقاب يؤدي إلى عدم اتصاف الله بالعدالة غير مسلم به، لأنه مخالف ومعارض لأقوال المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ التي تدعو للصفح والعفو والتسامح مثل: (أحبوا أعدائكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم)[٢].

٤. القول بأن الصلب هو رحمة لهم من الله ويحقق العدالة الإلهية مردود؛ لأنه لم يتحقق به -على فرض وقوعه- عدل ولا رحمة، لأن المسيح لم يذنب قط، فتعذيبه بالصلب لا يصدر من عادل رحيم[٣].

المبحث الرابع
العلاقة بين الرحمة والتوبة

للتوبة ارتباط بالرحمة في الكتاب المقدس، وينص عليها كما نص

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/١٥٩

(٢) إنجيل متى٤٤:٥

(٣) انظر: عقيدة الصلب والفداء، محمد رشيد رضا، ص١٩

عليها القرآن الكريم، فنقرأ في الكتاب المقدس: «أَنَا أَنَا هُوَ الْمَاحِي ذُنُوبَكَ لأَجْلِ نَفْسِي، وَخَطَايَاكَ لاَ أَذْكُرُهَا». (١)

كما نقرأ أيضًا قصة «الابن المبذر» في إنجيل لوقا والتي تضرب مثلًا لفرحة الله بتوبة أحد الخاطئين(٢)، في هذه القصة أن الأب (تمثيلًا لله تعالى) هو الذي يضحي بالعجل المسمن، فرحة بعودة ابنه الخاطئ ولا يضحي الأخير بشيء وهو من فرط في جنب أبيه.

كما نقرأ في «الكتاب المقدس»: «اَلنَّفْسُ الَّتِي تُخْطِئُ هِيَ تَموت الابن، لاَ يَحْمِلُ مِنْ إِثْمِ الأَبِ، وَالأَبُ لاَ يَحْمِلُ مِنْ إِثْمِ الابْنِ. بِرُّ الْبَارِّ عَلَيْهِ يَكُونُ، وَشَرُّ الشِّرِّيرِ عَلَيْهِ يَكُونُ، فَإِذَا رَجَعَ الشِّرِّيرُ عَنْ جَمِيعِ خَطَايَاهُ الَّتِي فَعَلَهَا وَحَفِظَ كُلَّ فَرَائِضِي وَفَعَلَ حَقًّا وَعَدْلًا فَحَيَاةً يَحْيَا، لاَ يَمُوت»(٣).

وهنا ينص على التوبة من الذنوب، وتحمل كل إنسان ذنبه كما في القرآن الكريم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، ، وهو موافق لمفهوم الرحمة في القرآن الكريم.

لكن ترد التوبة كمظهر من مظاهر رحمة الرب في «الكتاب المقدس» بطرق أخرى:

في «الكتاب المقدس» ذكر أن:

١. الخلاص من الخطيئة: هو من الرحمة وتكون بالتوبة والإيمان، فنقرأ في إنجيل مرقص: "قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل"(٤)، فجعل الخلاص من الخطيئة بالتوبة والإيمان.

٢. معجزات المسيح في شفاء المرضى سبيلًا للتوبة والخلاص، وهي

(١) إشعياء ٢٥: ٤٣
(٢) انظر: لوقا ١٥: ١١-٢٤ «القصة بأكملها»
(٣) حزقيال ١٨: ٢٠-٢١
(٤) مرقص ١٥/١

كذلك من الرحمة، مثال ذلك قول المسيح للمفلوج: «ولكن لكي تعلموا أن الابن الإنسان سلطانًا على الأرض أن يغفر الخطايا» قال للمفلوج: لك أقول: قم واحمل فراشك واذهب إلى بيتك»[1].

فيكون المسيح باعتقادهم شفى النفوس بالغفران والتوبة رحمة بها، كما شفى الأبدان من الأسقام منة وفضلًا؛ فيكون الإيمان به ومحبته تغفر الخطايا.

٣. مجرد الاعتراف بالذنب، والإقرار به، هو طريق للتوبة رحمة بهم من الله: « فإذا تواضع شعبي الذين دعي اسمي عليهم، وصلوا وطلبوا وجهي، ورجعوا عن طرقهم الردية، فإنني أسمع من السماء وأغفر خطيتهم»[2]، ونقرأ في إنجيل «يوحنا» قوله: وعدنا الله بالغفران: «ان اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل، حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم»[3].

وهذا يتفق مع مفهوم التوبة في القرآن الكريم والسنة، ولكن:

لابد من العمل والإقلاع عن الذنب، ذلك أن كل إنسان سيجازى على ما قدم في الدنيا من خير وشر قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، فالحساب على قدر العمل، وقد أشارت نصوص العهد الجديد لذلك فورد في رسالة بولس لأهل رومية: (ولكنك من أجل قساوتك وقلبك غير التائب تذخر لنفسك غضبًا في يوم الغضب، واستعلان دينونة الله العادلة الذي سيجازي كل واحد حسب أعماله)[4].

(١) مرقص ١: ٢١
(٢) سفر أخبار الأيام الثاني الإصحاح ٧: ١٤
(٣) يوحنا ١١: ٩
(٤) رسالة رومية ٦، ٥: ٢

الخاتمة

بعد هذه الدراسة «دلالات في مفهوم الرحمة بين الإسلام والمسيحية -دراسة مقارنة» والتي تناولت فيها بعض الدلالات على الرحمة بأهل الكتاب من خلال نصوص القرآن الكريم والكتاب المقدس، أخلص لعدد من النتائج:

١. أن القرآن الكريم ببيانه لما اختلف فيه أهل الكتاب، وتصحيحه للعقائد المحرفة والمفاهيم الخاطئة لديهم، قد قرر وأكد صدقه وحفظه من اللّه، وسلامته وموافقته لبراهين العقل وللفطرة السليمة، ولا ينكر ذلك إلا كل معاند جاحد.

٢. أن القرآن سلك في معاملته لأهل الكتاب منهجًا تميز بالحكمة والرحمة لتوضيح مسائل دينهم.

٣. أن أهل الكتاب انحرفوا في مفهوم «الرحمة، والعدل، التوبة» إلى مفهوم منحرف مشرك باللّه عز وجل من خلال مناقضتها لصريح ونصوص « الكتاب المقدس»، ومن ذلك ما جاء في إنجيل متى: (لا تظنوا أني جئت لأبطل الشريعة أو الأنبياء ما جئت لأبطل بل لأكمل، الحق أقول لكم، لن يزول حرف أو نقطة من الشريعة حتى

يتم كل شيء أو تزول السماء والأرض)[١]، وفي سفر التثنية ورد: (لا يقتل الآباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيئته)[٢].

٤. أن تصديق القرآن الكريم لما سبقه من كتب الله تعالى- في بعض القضايا- لا يعني سلامتها من التحريف أو عدم نسخها، وإلا لكان القرآن متناقضًا متضاربًا.

٥. أن القرآن الكريم تعقب عقائد أهل الكتاب الفاسدة وأبطلها وردها، وبينها ورسم الطريق الصحيح للعقيدة الحقة.

٦. أن الإنسان يولد على الفطرة لا على الخطيئة، ولا أحد يتحمل خطيئة أحد -كما أسلفنا- وقد بين عليه الصلاة والسلام: (إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)[٣]، وليس في حمأة خطيئة، ولسنا في حاجة في دين الإسلام إلى من يحمل عن الأمة خطاياها.

التوصيات:

١. أوصي طلاب الجامعات وطلاب الدراسات بالاهتمام بتوسيع دائرة دراسة «مقارنة الأديان» من باب البحث العلمي المنصف، فكل علم يحتاج إلى تبحر وتوسع يدعمه، وكل شبهة فيه تحتاج إلى أدلة تفندها.

٢. لابد من توضيح موقف الإسلام من قضايا الفكر المختلفة،

(١) إنجيل متى، ٥/١٧-١٩

(٢) سفر التثنية ٢١/٢٣

(٣) صحبح مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه، حديث رقم (٢٨٦٥)

وعرضها على جمهور المسلمين وهذا دور الإعلام، وخطباء المساجد، حتى ينشأ جيل لديه حصانة فكرية وثقافة علمية ضد أي شبهه تثار حول دينه أو اعتقاده.

٣. على أهل الكتاب الرجوع للحق، والنظر بعين المنصف وبعين الباحث العلمي الدقيق، في نصوص الكتاب المقدس، والقران الكريم، والتخلي عن العصبية، ويكون الهدف هو الوصول لحق ولا شيء سواه.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس المصادر والمراجع

١. الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، شهاب الدين القرافي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: محمد مجدي الشهاوي ١٤٠٧هـ
٢. إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات، محمد علي الشوكاني، طبعة دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٢٢هـ
٣. الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، اسليمان عبدالقوي لطوفي، تحقيق حسن قطب، سنة النشر ١٤٢٣ه الطبعة ١
٤. الأحكام السلطانية، الماوردي، طبعة مصطفى البابي الحلبي، ، ١٣٩٢هـ.
٥. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقران، محمد المختار الأمين الشنقيطي، مجمع الفقه الإسلامي جدة، كتاب مصور.
٦. إغاثة اللهفان /ابن قيم الجوزية، طبعة دار الكتب العلمية بيروت.
٧. إنجيل متى (إنجيل مقسم بالإصحاحات) مقسم ١- ٢٨ إصحاح، ونسخ الكترونية من الكتاب المقدس
٨. إنجيل لوقا عدد الإصحاحات ٢٤، الكاتب لوقا، يسرد حياة المسيح وأعمال الرسل، النسخ ألكترونية.
٩. إنجيل مرقص، الكاتب مرقص المبشر، عدد الإصححات ١٦، مكان الكتابة مصر، نسخ إلكترونية.
١٠. إنجيل يوحنا، الكاتب البشير يوحنا، رابع أنجيل تشريعي، ونسخته إلكترونية.
١١. طالتحرير والتنوير، محمد الطاهر عاشور، الدار التنوسية للنشر، الطبعة ٣.
١٢. البحر المحيط، أبوحيان، مكتبة النصر الحديثة، الرياض.

١٣. التفسير الكبير" مفاتح الغيب"، فخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.
١٤. تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق سامي- محمد السلامة، طباعة دار طيبة، ١٤٢٠هـ.
١٥. الجامع لأحكام القران، القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم طفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة.
١٦. عقيدة الصلب والفداء، محمد رشيد رضا نشر الفتح للإعلام العربي، ١٤١١هـ.
١٧. العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الطحاوي، حققه د/ عبدالله عبدالمحسن التركي، وشعيب الأرنؤوط.
١٨. جامع البيان، الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ.
١٩. غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، القرضاوي، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ.
٢٠. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، تحقيق: علي بن حسن بن ناصر، عبالعزيز العسكر، وحمدان الحمدان، نشر دار العاصمة
٢١. الحجة في بيان المحجة، أبو القاسم إسماعيل الأصبهاني، تحقيق محمد ربيع مدخلي، دار الراية السعودية ١٤١٩هـ.
٢٢. الدفاع عن المسيح، يوسف درة الحداد، المكتبة البوليسية لبنان، الطبعة ٢، ٢٠١٢م.
٢٣. دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، سعود بن عبدالعزيز الخلف، أضواء السلف، ١٤١٨هـ الطبعة ١.
٢٤. رسالة العبرانيين، كتاب مقدس العهد الجديد، الكاتب بولس، نسخة الكترونية.
٢٥. رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز، عبدالرزاق بن رزق الله

الرسعني الحنبلي، المحقق عبدالملك بن دهيش، مكتبة الأسدي للنشر.

٢٦. سفر أخبار الأيام الثاني الإصحاح، الكتاب المقدس العهد القيم، اصحاحات مقسمة إلى ٣٦ سفر، نسخة ألكترونية

٢٧. سفر التثنية أحد الأسفار الخمسة، ٣٤ أصحاح، نسخة إلكترونية

٢٨. شرح صحيح مسلم، النووي، تحقيق: عادل عبدالموجود وعلي معوض، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط٢، ١٤٢٢هـ/

٢٩. شرح الكتاب المقدس - العهد الجديد - القس أنطونيوس فكري، دار العالمية، القاهرة

٣٠. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب وآخرين، دار الريان للتراث، طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ

٣١. االرسالة التدمرية، ابن تيمية، مكتبة السنة المحمدية، ، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ

٣٢. لسان العرب، ابن منظور، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ

٣٣. لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، للسفاريني، مؤسسة الخافقين، دمشق، ١٤٠٢هـ

٣٤. مقارنة الأديان، المسيحية، د/أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٨م

٣٥. المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ

٣٦. معجم مقاييس اللغة، ابن فارس دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ

٣٧. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، دار الوفاء، الطبعة ٣، ١٤٢٠هـ.

معالم الرحمة
في تنزيل القرآن الكريم

إعداد:
د. أبو أروى رضوان بن إبراهيم لخشين
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
قسنطينة – الجزائر.

المقدمة

الحمد لله المختص باسم الرحمن، أنزل القرآن وجعله رحمتان: رحمة في تنزيله، ورحمة في مضمونه، فقال في محكم تنزيله:(تنزيل من الرحمن الرحيم) نزل به الروح الأمين، على قلب سيد المرسلين، من كان للأنبياء مسك الختام، وللناس رحمة من العليم العلام، عليه أفضل الصلاة والسلام، وبعد:

إن موضوع «الرحمة في الإسلام» لمن المواضيع التي تطرب لها القلوب والأسماع، وتهجم على الخاطر أفكارها، وتستحضر البصائر آثارها، ولكن سرعان ما يدرك الفهيم غفلته، وعجلته، إذ يرى الأيدي تعجز عن التسطير، والأنامل مرفوعة عن أزرار الحاسوب، حيرة، ودهشة، ماذا أكتب؟، ماذا أقول؟ أمر مهول أنت تقف أمام صفات ذي الجلال وآثارها، وأنت تعجز عن تصوُّر بعضها، فضلًا عن استيعابها، فصفات الله من علمه فلا يحاط بها. وتزداد الحيرة إذا كان الكلام في أعظم رحمة، وأعظم منة امتن بها الله على عباده، نعمة: القرآن الكريم، كلامه العظيم.

كيف لا وهو كلام الجليل، كلام من أحاط بكل شيء علمًا، وأتقن كل شيء صنعًا، أعجز كل الألسن بيانًا، وأفحم كل العقول برهانًا، بيَّن فأَعلَم، وشرَّعَ فأحكم، أمر وزجر، ووعظ وذكر، وقضى فقدر، فله الحمد كله، والثناء كله. وربطًا لموضوع المؤتمر (الرحمة) بالقرآن الكريم، رأيت

المناسبة في الكلام على أوجه الرحمة بتنزيله، بعد كثرة ما قيل في بيان أوجه الرحمة في مضمونه، فرأيت الموضوع طريفًا، وثقله خفيفًا، يناسب حالي، حال قليل الباع، مندرس الرباع، فأسرعت مهرولًا إلى كتب علوم القرآن والتفسير، أستجدي منها مادة الموضوع ومباحثه، وفروعه ومسائله، فخرجت منها بجملة من المباحث، عرضت على وفقها الموضوع فكانت على النسق الآتي:

تمهيد: بين يدي المباحث.

المبحث الأول: معالم الرحمة في تنزلات القرآن.

المبحث الثاني: معالم الرحمة في تنجيم القرآن وتفريقه.

المبحث الثالث: معالم الرحمة في المكي والمدني.

المبحث الرابع: معالم الرحمة في أسباب النزول.

المبحث الخامس: معالم الرحمة في المنسوخ والناسخ.

المبحث السادس: معالم الرحمة في نزول الأحرف السبعة.

خاتمة: لأهم النتائج والتوصيات.

وبعدها كشّاف لأهم المصادر والمراجع.

وإذ ترى أيها القارئ ما تقدم فلا أدعى سبقًا في شيء منه قل أو كثر، ففضل السابق على اللاحق معلوم، كما أني أعتذر عن ما اعترى بعض المباحث من الركاكة، والعجلة، والقلة، فأسباب التقصير معلومة، غير أني حاولت الكشف حسب المقدور، ومثلي في مثله من مثلكم معذور، وأسأل الله العفو والمغفرة وهو الغفور، وهذا أوان الشروع في المراد، والحمد لله رب العالمين.

تمهيد
بين يدي المباحث

القرآن الكريم كلام رب العالمين، الرحمن الرحيم، أبان فيه بعضًا من رحمته الواسعة، والعديد من نعمه الواصلة، فلو لم يكن من رحمته إلا ربوبيته لكفى، فكيف وهو الذي اقترن من أسمائه الرحمن بالرحيم، وما اقترنا في آي الذكر الحكيم إلا في المقام العظيم، قال سبحانه في مقام تمجيد وحدانية ألوهيته، قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣]، وقال أيضًا: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ [الحشر:٢٢].

وقال سبحانه في مقام الشروع والابتداء تنويها بشرف ما يُذكر وعظيم منزلته: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ [الفاتحة:٢-٣]، ومن هذا الوجه اقترانهما في البسملة في فاتحة سور القرآن، وفي افتتاح رسالة سليمان، عليه الصلاة وأزكى التسليم: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل:٣٠].

وآخر مواضع ذلك الاقتران العظيم قوله سبحانه: ﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ [فصلت:١-٢]، فناهيك بالتنزيل نعمة، وأعظم به منة، وهو المضاف إلى الرحمن الرحيم، دلالة على «أنه مناط المصالح الدينية والدنيوية»[(١)]، «فإيثاره سبحانه لهاتين الصفتين على غيرهما من الصفات

(١) البيضاوي، «أنوار التنزيل»، (٥/٦٦).

العلية للإيماء إلى أن هذا التنزيل رحمة من اللّه بعباده»[١]، «فهو الذي وسعت رحمته كل شيء، الذي من أعظم رحمته، وأجلها إنزال هذا الكتاب، الذي حصل به من العلم والهدى، والنور والشفاء، والرحمة والخير الكثير، ما هو من أجل نعمه على العباد، وهو الطريق للسعادة في الدارين»[٢].

هو رحمة من اللّه في مضمونه، فقد بيَّنت سُوره وآياته صُنوف رحمته، وأنواعَها، وأجناسَها، وأسبابَها وموانعَها، وأوقاتها وصفات أهلها.

ورحمة منه سبحانه قبل ذلك بتنزيله، فلولا تنزيله لما عرف مضمونه، فلما كان مضمونه رحمة، كان تنزيله رحمة، إلحاقًا للوسائل بالمقاصد في الأحكام، وقد أشارت إلى هذا المعنى آي الذكر العظام، من حيث الاقتران بين الرحمة وبين القرآن وتنزيله، جمعتها هنا لمناسبة المقام:

فوصف اللّه سبحانه القرآن الكريم في آيات عدة بأنه (هدى ورحمة)، قال تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام:١٥٧].

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٥٢، ٢٠٣].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ [يونس:٥٧]. ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١].

وقال أيضًا: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩].

(١) الطاهر ابن عاشور، «التحرير والتنوير»، (٢٣/ ٢٣٠).
(٢) السعدي، «تيسير الكريم»، (٧٤٤). وانظر: «تفسير الفخر» الرازي (٢٧/ ٥٣٧- ٥٣٨)، وروح المعاني» الآلوسي (١٢/ ٣٤٨).

وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [النمل:٧٦-٧٧] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [لقمان:٢-٣] ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الجاثية:٢٠].

فهو «هدى من الضلالة»[1]، و«بيان للحق وفرقان بين الصواب والخطأ»[2]، وهو «رحمة من العذاب»[3]، «لمن عمل به واتبعه»[4]، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام:١٥٥].

وجملة (هدى ورحمة) قرنت بـ (المسلمين، والمؤمنين، والموقنين، والمحسنين)، إشارة إلى:

- أنهم هم الذين يصلون إلى الاهتداء به والرحمة به، وأن من لم يكونوا كذلك فقد حرموا الهدى والرحمة[5].
- واختلافهم في التحقق بذلك بحسب مراتبهم في الدين ومقاماتهم فيه: (إسلامًا، وإيمانًا، ويقينًا، وإحسانًا)[6].

وقال سبحانه مشيرًا إلى ما في تنزيل القرآن من الرحمة بخلقه ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء:٨٢]. ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾

[الإسراء:٨٦-٨٧].

(١) السمرقندي، «بحر العلوم»، (١/٤٩٦).
(٢) الطبري، «جامع البيان»، (١٢/٢٤٣).
(٣) السمرقندي، «بحر العلوم»، (١/٤٩٦).
(٤) الطبري، «جامع البيان»، (١٢/٢٤٣).
(٥) قال ابن القيم: «اليقين هو الإيمان الجازم الذي لا ريب فيه... واليقين أن يقوم الإيمان بها حتى تصير كأنها معاينة للقلب مشاهدة له» «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه»، (٢٠- ٢١)، فاليقين أرفع مراتب الإيمان، ثم هل اليقين هو الإحسان؟ تحتاج إلى تأمل وبحث.
(٦) الطاهر ابن عاشور، «التحرير والتنوير»، (٨-ب/١٥٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص:٤٦] ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [القصص:٨٦] ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةً وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت:٥١] ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكٍّ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ [ص:٨-٩].

وقال جل شأنه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣١]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرًا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾ [الدخان:٣-٦].

وأوضحُ ذلك وأجلاه قولُ ربنا جل في علاه، وتقدس في عالي سماه: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ [فصلت:١-٢] ومزيدًا في توطيد هذا الاقتران، سمى الله سبحانه القرآن رحمة في آي الفرقان، ونص على ذلك أهل التفسير والبيان، كيحيى بن سلام[١]، وأبو هلال العسكري[٢] وغيرهما[٣].

فالقرآن كتاب الرحمة، واسمه الرحمة، منزله ربك ﴿ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الأنعام:١٣٣] على نبي الرحمة، والمرسل بها ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧]، تنزيله رحمة، ومضمونه رحمة.

أوله الرحمة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾

(١) في «التصاريف» (١/١٣٥- ١٣٦).
(٢) في «الوجوه والنظائر» (٢٢٧، ٢٢٨).
(٣) ذكر جمع من أهل العلم كالسخاوي علم الدين، وابن تيمية، والفيروز آبادي، والبليهي، أن القرآن الكريم من أسمائه (الرحمة)، قال البليهي: «سماه رحمة في خمس عشرة آية»، انظر: «جمال القراء» للسخاوي (١/١٨٠)، أسماء القرآن الكريم»، لآدم بومبا، (٢٦ وما بعدها).

[الفاتحة:٢-٣]، وعند خاتمته تتنزل الرحمة «إذا ختم القرآن نزلت الرحمة عند خاتمته»[١]، سماعه سبيل إلى الرحمة: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤﴾ [الأعراف:٢٠٤]، ومجلس قراءته، ومدارسته تغشاه الرحمة: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ... وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ»[٢]،...

هذه العبارات تضمنت إشارات إلى بعض علامات الرحمة في القرآن الكريم ومعالمها، ودلائلها المرشدة إليها، وأماراتها الدالة عليها، ومن هذه الوجهة اخترت لفظة المعالم في عنوان البحث: (معالم الرحمة في تنزيل القرآن)، فالمعالم: جمع «مَعْلَم، -وهو- الأثر... والعَلَمُ أيضًا العلامة، وما يُهتَدى به، ويستدل به»[٣]، وهي «الدلالة والأمارة، ومنه معالم الأرض»[٤] أي: دلائلها وأماراتها، ومنه «معالم الدين، دلائله»[٥].

واستكمالا لمفردات العنوان بيانا، فالقرآن الكريم كلام الله المنزل، أنزل إنزالًا حقيقيًا، وأكد ذلك توكيدًا جليًا فقال ربنا قولًا زكيًا: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦] وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ۝٢٣﴾ [الانسان:٢٣]. فالتنزيل «مصدر من الفعل نزَّلَ، لذا ناسب التأكيد به عليه»[٦]، ثم سُمِّي

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٠٥٤١)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٠٧)، والدارمي في «السنن» (٣٤٨٢)، والبيهقي في «الشعب» (٢٠٧٢)، وابن ضريس في «فضائل القرآن» (٤٩،٨١)، والفريابي في «فضائل القرآن» (٨٧، ٨٨)، وعزاه ابن حجر في «نتائج الأفكار» (١٧٦/٣) لابن أبي داود ولم أجده في المطبوع. وصحح إسناده النووي في «الأذكار» (١١٧)، وابن حجر في «نتائج الأفكار» (١٧٦/٣)، ومحقق سنن الدارمي (٢١٨٤/٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وأحمد (٧٤٢٧)، وغيرهما.

(٣) الحميدي، «تفسير غريب ما في الصحيحين»، (١٣٧/١)، قال ابن فارس في «معجم مقاييس اللغة» (٨٨/٤): «أصل... يدلُّ على أثَرٍ بالشيء يتميَّزُ به عن غيره».

(٤) ابن سيده، «المخصص»، (٢٥٨/١).

(٥) ابن دريد، «جمهرة اللغة»، (٩٤٨/٢).

(٦) الطاهر ابن عاشور، «التحرير والتنوير»، (٧١/١- ٧٢).

القرآن الكريم لذلك تنزيلا[١]، باعتبار أن ألفاظه أنزلت من الله تعالى[٢]، وقد دلت على هذا المعنى كثير من آي الذكر الحكيم منها:

قوله تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه:١-٥]،، وقوله تعالى:﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [السجدة:١-٢]

وقال سبحانه: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾ [يس:١-٥] وقال جل شأنه: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [الزمر:١] ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ [غافر:١-٢] ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ [فصلت:١-٢]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت:٤١-٤٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة:٧٧-٨٠]، ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة:٤٣].

وآخر ذلك آية سورة الشعراء التي استجمعت أركان التنزيل كلها، قال سبحانه:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ

(١) وعلى ذلك جمع من أهل العلم كـ: السخاوي، وابن تيمية، والزركشي، والفيروز آبادي، والسيوطي، وابن عاشور، وصالح البليهي وغيرهم كثير، وقال البليهي: «سمِّي القرآنُ منزلا، وتنزيلا في اثنتين وأربعين آية»، انظر: «جمال القراء» (١/١٧٧) للسخاوي، و«أسماء القرآن الكريم» لآدم بومبا (٢٦ وما بعدها)، وورد في السنة على قلة كما في حديث ابن عباس رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة...» أخرجه البخاري (٥، ٧٠٨٦)، ومسلم (٩٣٦)، وأحمد (٣١٩١).

(٢) يقال هذا لموافقة آي القرآن الكريم، واجتنابًا لما قد توهمه العبارات الأخرى من عقائد منحرفة، كخلق القرآن والكلام النفسي، مما قد يفهم من قول بعضهم: «أن ألفاظه أنزلت من السماء»، قال ابن تيمية رحمه الله: «فعلم أن القرآن العربي منزل من الله، لا من الهواء، ولا من اللوح، ولا من جسم آخر، ولا من جبريل، ولا من محمد، ولا من غيرهما» «بيان تلبيس الجهمية» (٢/٢٥)، والله أعلم.

﴿ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥]، (المُنزِّل، والمُنزَّل، والنازل به، والمنزَّل عليه، والغاية من التنزيل) ويلاحظ في هذه الآيات ما يأتي:

- جميع السور التي ورد فيها ذكر (التنزيل) سور مكية، وفي ذلك وجه من وجوه إثبات كون هذا القرآن من الله سبحانه، بعدما كذب كفار مكة به، وأما أهل المدينة، أهل الإيمان فلم يكونوا في شك من ذلك.
- ورد في الآيات أنه ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فهو تنزيل ابتدأ منه كلامًا ولفظًا، وجاء أنه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فهو منزله، ومدبر أحوال نزوله.
- وتبعًا لهذه النقطة الأخيرة فقد اقترن بذكر التنزيل جملة من أسماء الله تعالى منها:

أنه ﴿مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وهذا يتضمن، قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أنه ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾، و﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، و﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾، و ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، و﴿مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ قال الشنقيطي: «قَدْ دَلَّ اسْتِقْرَاءُ الْقُرْآنِ الْعَظِيم، عَلَى أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلا، إِذَا ذَكَّرَ تَنْزِيلَهُ لِكِتَابِه، أَتْبَعَ ذَلِكَ بِبَعْضِ أَسْمَائِه الْحُسْنَى، الْمُتَضَمِّنَة صِفَاتَهُ الْعُلْيَا ... وَقَدْ تَكَرَّرَ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ، ذِكْرُهُ بَعْضَ أَسْمَائِه وَصِفَاتِه، بَعْدَ ذِكْرِ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ الْعَظِيم،... وَلا يَخْفَى أَنَّ ذِكْرَهُ جَلَّ وَعَلا هَذِه الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى الْعَظِيمَةَ، بَعْدَ ذِكْرِه تَنْزِيلَ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيم، يَدُلُّ بِإِيضَاح، عَلَى عَظَمَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيم، وَجَلَالَة شَأْنِه وَأَهَمِّيَّة نُزُولِه»[1]. ومن تلك الأسماء التي لها علاقة بالرحمة، اسمي الرحمن والرحيم، فتنزيل القرآن له نصيب منهما،

(١) الشنقيطي، «أضواء البيان»، (٦/٣٥١).

واسم الرب لما في معنى الربوبية من الرعاية والإنعام على المربوب بما يصلح حاله.

- دلت آية سورة الشعراء بلفظها على أركان التنزيل، ودلت باللازم منها على أن للتنزيل كيفية عُلم بعضها من نصوص الوحي كما سيأتي.
- أن التنزيل في الآيات السابقة يأتي بمعناه المصدري أي: (الإنزال) وطريقة إنزاله، ويأتي بمعنى المفعول أي: (المنزَّل)[1]، وهو القرآن الكريم، «تسمية للمفعول باسم المصدر»[2].

ومن كل ما تقدم يعلم المقصود من هذا البحث المعنون: (معالم الرحمة في تنزيل القرآن الكريم)، فالقرآن الكريم الذي جعله رب العالمين سبحانه رحمة لعباده، ونعمة من عظيم نعمه، ومنة من جزيل مننه، قد ظهرت علاماتها وأماراتها في عملية تنزيله، من حيث: أحوالُه، وأنواعُه، وكيفيتُه، وأمكنتُه، وأزمنتُه، تلك العلامات والدلائل والأمارات هي ما سيحاول البحث بيانه والكشف عنه.

(١) قال ابن عاشور فاتحة سورة الزمر:«(تَنْزِيلُ) مَصْدَرٌ مُرَادٌ به مَعْنَاهُ الْمَصْدَرِيُّ لا مَعْنَى الْمَفْعُول»(٣١٤/٢٣)، وقال في موضع سور يس: «مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ أُخْبِرَ عَنْهُ بِالْمَصْدَرِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي تَحْقِيقِ كَوْنِه مُنَزَّلا» (٣٤٧/٢٢).

(٢) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى»، (٢٤٨/١٢).

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

المبحث الأول
معالم الرحمة في تنزلات[1] القرآن

وصل القرآن الكريم إلى رسول الله ﷺ وحيًا، وقبل ذلك كانت له أحوال أوضحتها آي التنزيل الحكيم، وهي ما يسمى أيضًا بـ (تنزلات القرآن)، وقد اختلف في عددها، فمنهم من جعلها أربعة[2] تنزلات، ومنهم من جعلها تنزلين اثنين فقط، ومنهم من جعلها ثلاثًا كالآتي:

التنزل الأول:

كون في اللوح في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١-٢٢]، وهي دالة على الوجود الأول للقرآن الكريم في اللوح المحفوظ[3]، وبين ذلك في موضع آخر فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾

(١) عبر بعضهم بـ (وجودات)، وأكثر الكاتبين في هذا الموضوع، يقولون (تنزلات) كـ: السخاوي في «جمال القرء» (١٥٢/١)، والزرقاني في «مناهل العرفان» (٣٩/١)، وصبحي الصالح في «مباحث في علوم القرآن» (٥١)، ومحمد بكر إسماعيل في «دراسات في علوم القرآن» (٢٤)، ومحمد معبد في «نفحات في علوم القرآن» (١٩)، ومحمد الشايع في «نزول القرآن الكريم» (١٣)، ومصطفى ديب البغا في «الواضح في علوم القرآن» (٤٦)، ونور الدين عتر في «علوم القرآن» (٢٦)، ومحمد بازمول في «القراءات وأثرها في التفسير والأحكام» (١٧).

(٢) كمساعد الطيار في «المحرر في علوم القرآن»، (٧٥- ٧٦)، وهو التنزيل السنوي: «ينزل إلى السفرة في ليلة القدر من كل سنة إبان بعثة النبي ﷺ ما سينزل عليه خلال السنة»، ونقل قول مقاتل بن سليمان رحمه الله في تفسيره.

(٣) وهو: (أم الكتاب) في قول جماعة من المفسرين، انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣٠٩/٥)، وتفسير السمرقندي (٥٦٧/٣)، وتفسير ابن أبي زمنين (١١٦/٥)، وعزاه لمجاهد رحمه الله مكي في «الهداية» (٨١٨٨/١٢)، والواحدي في «البسيط» (٣٩٨/٢٣).

﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزخرف:٣-٤]، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: هذا القرآن العربي كائن وموجود في ﴿أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا﴾ أي: اللَّوحِ المَحفُوظِ(١)، وأضاف سبحانه ظرف (لدى) إلى نون عظمته إيذانا باستكمال (أم الكتاب = اللوح) أحوال العظمة، والمنعة، والحفظ المقرر في آية سورة البروج، والمؤكد في آية الواقعة(٢) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ [الواقعة:٧٧- ٧٩]، فالكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ على قول بعض أهل التفسير(٣).

وقد نازع بعضهم في عد وجود القرآن الكريم في اللوح تنزلًا، بحجة أنه: «لم يرد لفظ النزول مقترنًا به قط، وعلى هذا فلا ينبغي أن نسميه نزولًا، أو تنزلًا»(٤)، ورغم عدم اقترانه بلفظ النزول فلا مانع من جعله نزولا أو تنزلا، كما عبر به أكثر الباحثين، فمما لا شك فيه عند أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه فوق جميع خلقه، واللوح المحفوظ أحد مخلوقاته، فلا شك أن الله فوقه، والقرآن الكريم كلام الله وصفته، وبغض النظر عن كيفية إيجاد الله للقرآن في اللوح، فهو وجود في مخلوقٍ اللهُ سبحانه فوقه، ولازم ذلك أن يكون نزولًا وتنزلًا(٥)، والله أعلم.

(١) ابن كثير، «تفسير القرآن العظيم»، (٢١٨/٧)، وعزاه لابن عباس ومجاهد، وكذا قوله تعالى: ﴿أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فسره باللوح جمع من المفسرين: وهو قول ابن عباس وعطاء وعكرمة، كما في «البسيط» للواحدي (٣٨٠/١٢)، وهو قول: «قتادة وابن زيد وابن جريج، وعليه أكثر أهل المعاني، وعامة المفسرين» كما في «الهداية» لمكي (٣٧٥٤/٥)، وعزاه للمفسرين أيضًا ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥٠٠/٢).

(٢) فسورة البروج قبل الواقعة كما هو صريح بعض الروايات، وما تشير إليه أخرى، انظر: «الإتقان» للسيوطي (٤٢/١- ٤٣).

(٣) وقال آخرون هي الصحف التي بأيدي الملائكة على ما في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ۝١٦﴾ [عبس]، وهو اختيار ابن القيم من وجوه عدة عددها في كتابه «التبيان في أقسام القرآن» (٢٢٦)، وقال آخرون: هو المصحف الذي بأيدي المسلمين، وهذا القول أضعفها، والله أعلم.

(٤) أبو شهبة، «المدخل لدراسة القرآن»، (٤٨)، وانظر: «نزول القرآن الكريم» لمحمد عمر حويه (٢٢)، و«نزول القرآن الكريم» للشايع (٢٧).

(٥) وهو المعروف من معنى النزول في اللغة الدال «على هُبوط شيء ووقُوعه»، كما في «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (٣٣٤/٥)، وانظر كلامًا لابن تيمية في «المجموع» (٢٥٧/١٢) في هذا المعنى.

التنزل الثاني:

إنزاله جملة إلى السماء الدنيا، ودليله ظاهر الآيات في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ①﴾ [القدر:١]، ﴿حمٓ ① وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ② إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ③﴾ [الدخان:١-٣]

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ﴾ [البقرة:١٨٥]، فظاهرها دال على أنه أنزل كاملاً، في ليلة القدر المباركة، وهي إحدى ليالي شهر رمضان المبارك، ويدل لذلك ما صح عن ابن عباس[(١)] رضي الله عنهما في قوله: « أنزل الْقُرْآن فِي لَيْلَة الْقدر جملَة وَاحِدَة من الذّكر الَّذِي عِنْد رب الْعِزَّة حَتَّى وضع فِي بَيت الْعِزَّة فِي السَّمَاء الدُّنْيَا »[(٢)]، وهذا لا يمنع أن يكون ابتداء الإنزال المنجم بغار حراء في ليلة القدر[(٣)]، فيتفق في ليلة القدر النزول الجملي، وبداية المفرق، قال علم الدين السخاوي رحمه الله: «وقوله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ①﴾ يشمل الإنزالين»[(٤)].

---

(١) قال ابن تيمية في «المجموع» (١٢/١٢٦): «وغيره من السلف» كسعيد بن جبير، والربيع بن أنس رحمهما الله، انظر: «السنن» لسعيد بن منصور (٢/٢٩٣)، «الدر المنثور» للسيوطي (٧/٣٩٩، ٨/٥٦٧)، وسفيان الثوري كما في «معجم ابن المقرئ» (٣٥٥).

(٢) ورد هذا الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما من عدة طرق، وبألفاظ متقاربة، تشترك في إثبات التنزل الجملي للقرآن الكريم إلى بيت العزة، وقد خرجه بتوسع محمد بازمول في كتابه «القراءات وأثرها ...» (١٩- ٢٢)، وصحح هذا الأثر جمع من الأئمة كـ: الحاكم في «المستدرك» صححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه ابن كثير، والزركشي، والسيوطي، وقال ابن النحاس في «إعراب القرآن»: «وأما الحديث في تنزيل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر فصحيح غير مدفوع عند أهل السّنّة وإنّما يدفعه قوم من أهل الأهواء» (٥/١٦٥).
وابن عباس رضي الله عنهما يخبر عن أمر غيبي لا تبلغه العقول فله حكم الرفع، ومتعلق بالقرآن الكريم، فلا تعلق للإسرائيليات بذلك، وصح عنه في البخاري (٢٥٣٩) عدم الأخذ عنهم في أمور الدين مطلقا، وجعل القرطبي هذا التنزل: «لا خلاف» فيه (٢/٢٩٧).

(٣) قال ابن كثير: «والمشهور أنه بعث عليه السلام في شهر رمضان كما نص على ذلك عبيد بن عمير، ومحمد بن إسحاق، وغيرهما» «السيرة النبوية» (١/٣٩٢). وقال ابن حجر: «وابتداء وحي اليقظة كان في رمضان» «فتح الباري» (١/٣٧)، و(٩/٥٧، ١/٤٣)، واختار صاحب «الرحيق المختوم» (٥٦) – بحثًا وتحقيقًا – أنه في اليوم الحادي والعشرين من رمضان.

(٤) السخاوي، «جمال القراء»، (١/٢٢- ٢٣)، وانظر: «فتح الباري» لابن حجر (٩/٥).

التنزل الثالث:

نزوله مفرقًا ومنجمًا، ودليله في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء:١٠٦]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان:٣٢]، وآيات أخرى يأتي ذكرها في المبحث الآتي.

هذه التنزلات الثلاث، يهمنا منها الأول والثاني، من حيث تلمس معالم الرحمة فيهما، على ضوء ما فيهما من حكم، فمما يذكر لهاذين التنزلين الجُليلين:

أولًا: محض التفضل والإنعام، بالتعليم والإعلام، باستقرار القرآن في سابق علم الرحمن سبحانه، ثم حفظه له مسطورًا في ديوان عظيم، محفوظ كريم، عظيم الخلق، حوى ما جلَّ ودقَّ، فليس إلى هذا من سبيل، إلا بإعلام الجليل.

ثانيًا: لا يخفى على كل عارف ما في ذلك من عظيم مقامات الإيمان، وهو يرى بعين بصيرته تلك العوالم الفوقية، والملكوت العلوي، وما أجراه الله فيه، تمهيدًا لما سينزل إليه من خير دينه ودنياه.

ثالثًا: إن كون القرآن الكريم في اللوح (المحفوظ)، والكتاب (المكنون)، وبيت (العزة)[١]، مؤذن ببالغ حفظ الله تعالى له، وعظيم صيانته، عن كل شيطان مارد، أو جني عفريت، وذلك من عظيم الرحمة والمنة، لما يضفيه على قلب العبد من الطمأنينة المطلقة[٢].

---

(١) ثلاثها من الصفات الدالة على بالغ الصيانة والرعاية والحراسة فـ «إذا كان القرآن في لوح، وكان اللوح محفوظًا، فالقرآن محفوظ أيضًا» «الحجة للقراء السبعة» لأبي علي الفارسي (٧/٦). ومكنون: أي: «مصون عند الله لا يمسه شيء من أذى» «جامع البيان» (١٤٩/٢٣)، والبيت أضيف للعزة لاستكماله معانيها من قوة وشدة وقهر، ورفعة وشرف ومنعة، وما في معناه انظر: «معجم المقاييس» لابن فارس (٣٨/٤).

(٢) علي بن سليمان العبيد، «حفظ القرآن الكريم»، (٩).

رابعًا: أن «في تعدد النزول، وأماكنه مرة في اللوح، وأخرى في بيت العزة، وثالثة على قلب النبي ﷺ: في ذلك التعدد مبالغة في نفي الشك عن القرآن، وزيادة للإيمان، وباعث على الثقة فيه»[1].

خامسًا: وأما إنزاله إلى السماء الدنيا جملة: فـ«في ذلك تكريم بني آدم، وتعظيم شأنهم عند الملائكة، وتعريفهم عناية الله عزّ وجلّ بهم، ورحمته لهم»[2].

سادسًا: و«فيه تفخيم لأمره، وأمر من أنزل عليه، وذلك بإعلام سكان السماوات السبع أن هذا آخر الكتب، المنزل على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قربناه إليهم لننزله عليهم»[3]، وفي ذلك من منة الله على خلقه ولطفه بهم ولهم، ما هو ظاهر.

سابعًا: وفي وقوع هذا التنزيل جملة إكرام وإنعام على نبينا ﷺ وعلى أمته لئلا تعلوها أمة من الأمم في شأن من الشؤون، فجمع لها الإنزال جملة وتفصيلا[4]، جملة كسائر الأمم قبلها، وتفريقًا وتنجيمًا مزيدًا في الاعتناء والامتنان عليها.

ثامنًا: وقوع هذا التنزيل في ليلة القدر المباركة، فيه مزيد امتنان وفضل وإنعام من الرحمن، لما فيه من الاصطفاء بعد الاصطفاء، فقد اصطفى لخير كتبه خير الأوقات والليالي إنزالًا، وخير البشرية إرسالا، قال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾، فـ«عظَّم القرآن من ثلاثة أوجه: أحدها: أن أسند إنزاله إليه وجعله مختصًا به دون غيره،.... والثالث: الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل

(١) الزرقاني، «مناهل العرفان»، (١/٤٢).
(٢) السخاوي، «جمال القراء»، (١/١٥٣).
(٣) أبو شامة، «المرشد الوجيز»، (٢٤) وانظر: «البرهان» للزركشي (١/٢٣٠)، و«الإتقان» للسيوطي (١/١٤٩).
(٤) السخاوي، «جمال القراء»، (١/١٥٤)، أبو شامة، «المرشد الوجيز»، (٢٤). وفيه بحث سيأتي.

فيه»[١]، وقال السعدي: « يقول تعالى مبيناً لفضل القرآن وعلو قدره: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ﴾ وذلك أن الله تعالى، ابتدأ بإنزاله في رمضان في ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمة عامة...»[٢].

تلك بعض ما في ذينك التنزلين من أوجه الرحمات، مما فتح به رب البريات، لنصرف القول بعدها إلى الكلام في ثالثها، في المبحث التالي:

(١) الزمخشري، «الكشاف»، (٤/٧٨٠)، وانظر: «مفاتيح الغيب» للرازي (٣٢/٢٢٨)، و«أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥/٣٢٧).
(٢) عبدالرحمن السعدي، «تيسير الكريم الرحمن»، (٩٣١).

المبحث الثاني
معالم الرحمة في تنجيم القرآن وتفريقه

تنزيل القرآن منجمًا ومفرقًا مقرر في الآيات القرآنية، تصريحًا وإشارة، وقد تقدم ما يدل لذلك صراحة، ونتبعه بما هو إشارة[1]، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].

وقوله تعالى:﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء:١٠٤]وقوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء:١٦٤]، وقوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال:٦٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾ [يونس:١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر:٨٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [النحل:١٠١]، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ [النحل:١١٨]، وغيرها من الآيات، وأما دلائل ذلك من السنة والسيرة النبوية فأكثر من أن تحصر، بل هو مما تجمع عليه أمة الإسلام فضلًا عن علمائها.

(١) قال الرازي في «تفسيره»: تَوْصِيلُ الْقَوْلِ هُوَ إِتْيَانُ بَيَانٍ بَعْدَ بَيَانٍ، وَهُوَ مِنْ وَصْلِ الْبَعْضِ بِالْبَعْضِ، وهذا القول الموصل يتحمل أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا يَتَّصِلُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ...» (٢٤/٦٠٧).

وقد أوضحت آيات القرآن الكريم بعض كيفية هذا التنزيل فقال سبحانه:
﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ
بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى:٥١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾
[الشعراء:١٩٢-١٩٤]، ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا
بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة::٤٠-٤٣].

فالقرآن الكريم وحي رب العالمين، بواسطة جبريل الأمين، على قلب سيد المرسلين، يُوحي الرحمن ما يشاء من وحيه، على ما تقتضيه حكمته وربوبيته، فيحفظه الأمينان بفضل ومنة من الرحمن، ولولا رحمته لما كان لهما ذلك في الإمكان، ثم يتلوه الصادق الأمين، ويَتلُو التلاوة بالتبيين، لتقوم حجة الله على الثقلين.

نزل القرآن منجمًا على الحبيب ﷺ مدة نبوته ورسالته، على اختلاف الأزمان والأحوال، كان نتاج استقصائها، وتتبعها وتأملها، أنواعًا وأفنانًا من علوم القرآن، منها:

(المكي والمدني، الحضري والسفري،...) إلى النوع السادس عشر من أنواع علوم القرآن التي ذكرها السيوطي[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الإتقان»، ومن كل نوع من تلك الأنواع لاحت جلية معالم الرحمة والامتنان، من الرحيم الرحمن، على جيل التنزيل من الأنصار والمهاجرين، وعلى من بعدهم من المسلمين، وهو ما سأحاول تتبعه التالي، في النقاط الآتية:

أولا: إن من عظيم منة الله على نبينا ﷺ أن اصطفاه لنفسه، وجعله

(١) في الإتقان (١/٢٧- ٢٨)، وهي: (النهاري والليلي، الصيفي والشتائي، الفراشي والنومي، الأرضي والسمائي، أول ما نزل وآخر ما نزل، أسباب النزول، ما نزل على لسان بعض الصحابة، ما تكرر نزوله، ما تأخر حكمه عن نزوله وما تأخر نزوله عن حكمه، معرفة ما نزل مفرقًا وما نزل جمعًا، ما نزل مشيعًا وما نزل مفردًا ،ما أنزل منه على بعض الأنبياء وما لم ينزل منه على أحد قبل النبي ﷺ ،في كيفية إنزاله).

من بين سائر البشر رسول وحيه، للعالمين بشيرًا ونذيرًا، وقال سبحانه مبينًا رحمته على نبيه إذ أوحى إليه: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٨٦]، أي: «إلا أن ربك رحمك فأنزل عليك»[١].

ثانيًا: إن ابتداء النزول المفرق ليلةَ القدر المباركة رحمةٌ من الله، ومزيدُ إنعام منه، على ما سبق بيانه آنفا.

ثالثًا: لما كان وحي الله لنبيه بواسطة الرسول الملكي جبريل، كان في ذلك مزيد رحمة وإنعام على نبينا ﷺ وأمته، إذ لم تكن للأمم قبلها مزية فوقها، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مبينًا هذا المعنى: «وَمَنْ قَالَ: إنَّ جبرائيل أَخَذَهُ عَنْ الْكِتَاب، لَمْ يَسْمَعْهُ مِنْ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ مِنْ وُجُوه. مِنْهَا: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ كَتَبَ التَّوْرَاة لِمُوسَى بِيَدِهِ؛ فَبَنُو إسْرَائِيل أَخَذُوا كَلامَهُ مِنْ الْكِتَاب الَّذِي كَتَبَهُ، وَمُحَمَّدٌ عَنْ جِبْرِيلَ عَنْ الْكِتَابِ فَهُمْ أَعْلَى بِدَرَجَةِ»[٢]، وهو لازم باطل، فدل على بطلان الملزوم، فنبينا ﷺ أعلا درجة لما كان وحي الله إليه بواسطة ملك الوحي فقط.

رابعًا: إن في تنزله مفرقًا بعد نزوله جملة مزيد إنعام على نبينا ﷺ وأمته، وتفضيلًا لها على غيرها من الأمم بإنزاله جملة، ورحمة بها في تنزيله منجما[٣].

خامسًا: قد حفظ الله سبحانه السماء الدنيا إذ أوحى إلى خاتم رسله، خاتمة كتبه[٤]، فبعدما كان في السماء الدنيا مقاعد يُقعَد

---

(١) الفراء، معاني القرآن، (٢/٣١٣)، وانظر: «جامع البيان» للطبري (١٩/٦٤٢).
(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (١٥/٢٢٤)، وفي هذا أيضًا إبطال لقول من قال إن ابتداء التنزيل المنجم كان من بيت العزة.
(٣) سواء أكان التنجيم من خصائص هذه الأمة على قول بعضهم، أم كان من خصال الشرائع جميعها.
(٤) علي بن سليمان العبيد، «جمع القرآن الكريم»، (١٠).

فيها لاستراق السمع، جعل الله نجومها شهبًا مرصدةً للشياطين، فقال رب العالمين: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات:٦-١٠]، وهو من مظاهر حفظ الله تعالى لكتابه، التي شملها قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر:٩]، «حَفِظَهُ اللَّهُ مِنْ أَنْ تَزِيدَ فِيهِ الشَّيَاطِينُ بَاطِلًا أَوْ تَنْقُصَ مِنْهُ حَقًّا»[1]، وذا من أعظم رحمات الله على خلقه أن تَولَّى هو سبحانه حفظ كتابه.

سادسًا: ما جاء صريحًا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ﴾ [الفرقان:٣٢] كان إنزاله منجمًا ومفرقًا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ في كل مرة ينزل عليك ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان] وهذا من جميل رحمة الله بعبد ورسوله ﷺ، قال أبو شامة: «فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب، وأشد عناية بالمرسل إليه»[2].

سابعًا: أن في تنجيم القرآن وقراءته ﷺ له على المؤمنين على مكث، مزيدًا من التثبيت لهم على أمور الدين والشريعة، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل:١٠١-١٠٢]

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾، «ليثبِّت الله الذين آمنوا

(١) القرطبي، «الجامع لأحكام القرآن»، (١٠/٥).
(٢) أبو شامة، «المرشد الوجيز»، (٢٨).

على الإيمان بأنه كلامه، وأنهم إذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية الصلاح والحكمة رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم»[(١)]، وليثبتهم «بما فيه من الحجج والآيات»[(٢)]، و«ليحفظ قلوب الذين آمنوا على الإسلام... ولِتَطمئن إليه قلوب الذين آمنوا، وَهُدىً من الضلالة وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ بالجنة»[(٣)]، وكل هذا من صنوف نعمه على عباده، ورحمته بهم.

ثامنًا: إن في تنزيل القرآن الكريم منجمًا ومفرقًا مزيدًا من التواصل بين الرسولين، وهذا مما يُسرُّ به كل واحد منهما، فقد كان كل منهما يشتاق للآخر، حتى قال ﷺ: «ألا تزورنا أكثر مما تزورنا، فنزلت: «﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾ [مريم:٦٤]»[(٤)]، وجاء عنه ﷺ أنه قال لما أبطأ عليه جبريل: «يَا جِبْرِيلُ مَا نَزَلْتَ حَتَّى اشْتَقْتُ إِلَيْكَ، قَالَ -جبريل-: أَنَا كُنْتُ أَشْوَقَ إِلَيْكَ وَلَكِنِّي مَأْمُورٌ»[(٥)]. فقد كان ﷺ يُروي مرة بعد مرة شوقه إلى جبريل بهذا التنزل المتواصل، ولو نزل القرآن جملة لما كان ذلك، وإلى هذا المعنى أشار أبو شامة بقوله: « ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك عليه، وتجديد العهد به، وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة»[(٦)]، فإنه « إِذَا شَاهَدَ جِبْرِيلَ حَالا بَعْدَ حَالٍ يَقْوَى قَلْبُهُ بِمُشَاهَدَتِهِ فَكَانَ أَقْوَى عَلَى

---

(١) البيضاوي، «أنوار التنزيل»، (٣/٢٤٠).
(٢) ()-القرطبي، « الجامع لأحكام القرآن «، (١٠/١٧٧).
(٣) السمرقندي، «بحر العلوم»، (٢/٢٩٢)، وانظر: «التفسير» لابن كثير (٤/٦٠٣).
(٤) أخرجه البخاري (٣٠٦٤، ٤٤٥٤، ٧٠١٧).
(٥) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٨/٢٢٣) من طريق قتادة به، وابن أبي حاتم في «تفسير» (٧/٢٤١٤) من طريق عكرمة، عزاه في «فتح الباري»: لـ «عَبْدِ بْنُ حُمَيْدٍ وبن أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ عِكْرِمَةَ » (٨/٤٢٩)، وكذا في «الدر المنثور» (٥/٥٣٠)، وهو حديث مرسل، وقال ابْن كثير في «تفسيره»: «وَهُوَ غَرِيبٌ» (٩/٢٧٤)، وحسن حكمت بشير طريق قتادة في «الصحيح المسبور» (٣/٣٤٥)، وانظر: «فتح القدير» للشوكاني (٣/٣٤٥).
(٦) أبو شامة، «المرشد الوجيز»، (٢٨).

أَدَاءِ مَا حُمِّلَ، وَعَلَى الصَّبْرِ عَلَى عَوَارِضِ النُّبُوَّةِ وَعَلَى احْتِمَالِهِ أَذِيَّةَ قَوْمِهِ وَعَلَى الْجِهَادِ»[1]. وكذلك كانت حال جبريل عليه السلام ولا شك.

تاسعًا: ويتبع ذلك أن في تفريق نزول القرآن الكريم تفريقًا لما تضمنته آياته من التكاليف والأحكام، قال سبحانه: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء:١٠٦]«لَوْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ جُمْلَةً وَاحِدَةً عَلَى الْخَلْقِ لَنَزَلَتِ الشَّرَائِعُ بِأَسْرِهَا دُفْعَةً وَاحِدَةً عَلَى الْخَلْقِ، فَكَانَ يَثْقُلُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، أَمَّا لَمَّا نَزَلَ مُفَرَّقًا مُنَجَّمًا لَا جَرَمَ نَزَلَتِ التَّكَالِيفُ قَلِيلًا قَلِيلًا فَكَانَ تَحَمُّلُهَا أَسْهَلَ»[2]، وهو من عظيم رحمة الله بخلقه ولطفه ورأفته بهم.

عاشرًا: إن في تفريق آي الذكر تنزيلًا لتيسير حفْظه على الأمة، وهو من معاني الآية السابقة، خاصة على قراءة من قرأ ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾[3]، «ولا شك أن تفريق النص الذي يراد حفظه يُيَسر الأمر على من يريد أن يحفظه»[4]، فقد أنزل الله القرآن على نبيه ﷺ مفرقًا ليقرأه على المؤمنين على مَهَل وترسل، ولـ«تكون ألفاظه ومعانيه أثبت في نفوس السامعين»[5]، فسبحان من شمل تنزيله للقرآن مفرقًا كل هذه الرحمات، والحكم والنعم والمسرات.

(١) الرازي، «مفاتيح الغيب»، (٢٤/٤٥٧).
(٢) الرازي، «مفاتيح الغيب»، (٢٤/٤٥٧).
(٣) قال ابن جني: هي «قراءة علي وابن عباس وابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهم والشعبي والحسن بخلاف وأبي رجاء وقتادة وحميد وعمرو بن فائد وعمر بن ذر وأبي عمرو بخلاف» «المحتسب في القراءات الشواذ» (٢/٢٣)، وانظر: «الجامع» للقرطبي (١٠/٣٣٩)، و«القراءات الشاذة وتوجيهها» لعبد الفتاح القاضي (٥٤٩).
(٤) غانم قدوري، «محاضرات في علوم القرآن»، (٣٣)، وهل من ذلك تيسير حفظه على النبي ﷺ كما ذكره بعضهم كـ: أبي شامة في «المرشد» (٢٨)، والزمخشري في «الكشاف» (٣/٢٨٣)، وغيرهما؟ الظاهر عدم ذلك فقد صرح القرآن أن حفظ الوحي مكفول للنبي ﷺ قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ [الأعلى]، و(لا) هنا نافية، بمعنى أنك تحفظه ولن تنساه، وليس أدل على ذلك أيضًا من حفظ آدم للأسماء كلها التي علمه الله إياها دفعة واحدة، والله أعلم.
(٥) الطاهر ابن عاشور، «التحرير والتنوير»، (١٥/٢٣١)، وانظر: «أضواء البيان» للشنقيطي (٣/١٨٨).

المبحث الثالث
معالم الرحمة في المكي والمدني

نـزول القـرآن منجمًا، واستمرار الوحي الرباني بحسب الوقائع والأحوال، ثم بداية الدعوة بمكة، وانتشارها في البلدان، وكذا الهجرة وما نتج عنها من استقرار الكيان الإسلامي بالمدينة، كل ذلك كان سببًا في تنوع مواضع نزول القرآن الكريم وموضوعاته[1]، فأما مواضيعه فأكثر من أن تعد أفرادها، وأما أنواعها فهي: (عقيدة وشريعة وقصص).

فأما مواضعه فكان منه المكي والمدني، السفري والحضري، النهاري والليلي، الصيفي والشتائي، الفراشي والنومي، الأرضي والسمائي، أول ما نزل وآخر ما نزل، ويجمعها جميعًا (علم المكي والمدني)[2].

علم مكي القرآن ومدنيه من العلوم الجليلة، والمعارف النبيلة، ذو أهمية بالغة لِمُعاني معاني التنزيل، وضـرورة لازمـة لمستنبط أحكام القرآن بالنظر والتأويل، ولذا كان كلام أهل العلم في بيان فائدته غير قليل.

تضمنت مباحثه أفنانًا وارفة، ووفى بمعارف واسعة وفاء: «جعل بحوثه أشتاتًا وألوانًا، فهو في آن واحد ترتيب رباني، وتحديد مكاني، وتبويب

(١) انظر: «المعجزة الكبرى» لأبي زهرة، (١٩).
(٢) انظر: «الإتقان» السيوطي، (١/٢٨).

موضوعي، ويقين شخصي»[١]. وقد عُلم لدى الدارسين أن في تحديد معنى المكي والمدني اصطلاحات ثلاثة، لها باطن، وظاهر:

ظاهرها اختلاف في العبارة والاعتبار، بين مكان النزول وزمانه وتوجه الخطاب، وهي اتفاق على التدقيق والتحقيق[٢].

وباطنها الرحمة الإلهية الواصلة للعبيد، والمتواصلة على استمرار الزمان القريب والبعيد، باطنها الرعاية الربانية بما أنزله روحًا وأمرًا، بمكة والمدينة قبل الهجرة، وبعدها دينًا وشرعًا، نهيًا وأمـرًا، رحمة امتزجت بحكمة فأخرجت في مخاض عسير أحوال المسلمين من ضيق وذل وشقاء وابتلاء إلى فسحة دين وعزة ونقاء وارتقاء، يصحبهم في هذا وذاك قرآن مكة والمدينة بخصائص معلومة فيهما.

تلك الخصائص التي يلحظ فيها الناظر مزيد الاعتناء الرباني، والعطاء الإلهي المعين على نوائب الزمان، والقامع للأعداء في كل مكان، ففي ظل السيطرة القرشية الظالمة المعاندة، يأتي القرآن المكي قوي البيان والعبارات، قصير المقاطع والآيات، واصلًا بإيجازه إلى المسامع النافرات، شديد الزجر لتكذيبهم، قوي التحدي لفصاحتهم، دامغًا لاعتراضهم، بالغ الحجة ناصع المحجة، تصحيحٌ للعقيدة، ورسمٌ لمعالم الشريعة، إلجاء لصحيح العقول إلى الحق، بقص القصص الصدق، داعيًا إلى المكارم والفضائل، وجميل الخصال والشمائل.

ليأتي بعده القرآن المدني، غير بعيد الخصائص عنه، وغلب عليه إطناب آياته بلاغة، إيضاحًا وبيانًا للأحكام الشرعية، والأحوال التعبدية،

(١) صبحي الصالح، «مباحث في علوم القرآن»، (١٦٧).

(٢) قال مساعد الطيار: «والمقصود هنا التنبيه على أنه لا تعارض بين مذهب السلف في التعبير عن النُّزول بالمكان، وما ذهب إليه المتأخرون من العلماء من أن ما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني؛ لأن السلف كانوا يعتنون بذكر المكان، ويعملون بالزمان في تطبيقاتهم التفسيرية» «المحرر في علوم القرآن» (١٠٥).

والحدود الردعية، حث على دعوة الناس باللسان والسنان، وأيد المؤمنين على أهل الكتابين والمنافقين، فعرَّف منهم الأقوال والأفعال، وفضح منهم كل حال، ثم يكون به حسن الختام، إيذانًا باكتمال الدين على التمام، لجميع الأزمان، وكافة الأنام.

فأين عين البصيرة عن تلك الرحمات؟

ففي قصر آيات المكي رحمة لما في ذلك من يسر قراءة، وسهولة حفظ، وقوة إعجاز، وفصاحة إيجاز(١).

وفي طول آيات المدني مثلها، وقوة تأصيل، واستطراد تفصيل، إطناب وإسهاب، تلذذًا وأجرًا بآي الكتاب.

وفي هذه وتلك أمثالهما، برسم سبيل الدعوة إلى الله تعالى التي: «تحتاج إلى نهج خاص في أسلوبها إزاء كل فساد في العقيدة، والتشريع والخلق والسلوك، ولا تفرض تكاليفها إلا بعد تكوين النواة الصالحة لها، وتربية اللبنات التي تأخذ على عاتقها القيام بها، ولا تسن أسسها التشريعية، ونظمها الاجتماعية إلا بعد طهارة القلب، وتحديد الغاية حتى تكون الحياة على هدًى من الله وبصيرة»(٢)، وإلى هذا المعنى تشير السيدة عائشة رضي الله عنها حين قالت: «... إنما نزل أوّل ما نزل منه -أي: من القرآن- سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ٤٦﴾ [القمر:٤٦] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»(٣). أشارت إلى الرحمة الربانية،

(١) محمد بكر إسماعيل، «دراسات في علوم القرآن»، (/٤٩- ٥٠).
(٢) مناع القطان، «مباحث في علوم القرآن»، (٤٩)، أشار إلى هذا المعنى أيضًا من التدرج في الدعوة: الزرقاني في «مناهل العرفان» (١/١٦٧)، وأبو شهبة في «مدخل لدراسة القرآن» (٢١٩).
(٣) أخرجه البخاري (٤٧٠٧، ٤٥٩٥)، وغيره.

و«الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام... »[1]. فمكي القرآن ومدنيه «يهدي سير النبي ﷺ وأصحابه خُطوة خطوة نحو.. الهدف، وهو يحوطهم كل لحظة بالعناية الإلهية المناسبة، فهو يعزز جهودهم، ويقوي إرادتهم، حتى تكلل ذلك الكفاح بالنصر المبين، فالحركة التاريخية والاجتماعية والروحية التي نهض بأعبائها الإسلام لا سر لها إلا في هذا التنجيم»[2].

ومن توابع موضوع المكي والمدني، معرفة أول ما نزل، وآخره، وما انطوى تحتهما من معالم للرحمة، وهما وجهة ما يأتي من كلام:

فأما أول ما نزل[3] على نبينا محمد ﷺ يوم حراء فقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق:١-٥]، وفي هذا الاستفتاح الإلهي براعة استهلال[4]، لتلك الصلة العظيمة بين الأرض والسماء، و«إشادة بالقلم وخطره، وبالعلم ومنزلته في بناء الشعوب والأمم، فما أصدقها من طلائع تجعل العلم والمعرفة من أخص خصائص الإنسان»[5]، فبه أرشد من العمى، ومن الضلالة هدى.

كما تجسد فيها «تصوير حي لأضخم حدث في تاريخ البشر شهدت به الإنسانية نفسها تولد ميلاد جديد يصلها بالسماء وأسرارها ولا يلصقها بالأرض وأوحالها، فيوجه المقطع الأول من هذه السورة محمد رسول الله

---

(١) ابن حجر، «فتح الباري»، (٩/٤٠).
(٢) غانم قدوري، «محاضرات في علوم القرآن»، (٣٣).
(٣) وهو قول الجمهور، ويكاد يكون إجماعًا، انظر: «الإتقان» للسيوطي (٩١/١)، و«المحرر» لمساعد الطيار (٧٩- ٨٢).
(٤) الطاهر بن عاشور، «التحرير والتنوير»، (٤٣٥/٣٠).
(٥) أبو شهبة، «السيرة النبوية «، (٢٦٠/١). و«علوم القرآن» للعتر (٣٦)، و«تيسير التفسير» لإبراهيم القطان (٤٤١/٣).

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

إلى الاتصال بالملأ الأعلى والقراءة باسم الله، فمنه المنشأ وإليه المصير، وهو الذي كرم الإنسان بتعليمه أسرار الوجود، وتمكينه من استعمال «القلم» رمز العلم والتعليم،...»[١]، «فلله الحمد والمنة، الذي أنعم على عباده بهذه النعم التي لا يقدرون لها على جزاء ولا شكور»[٢].

وأما آخر ما نزل[٣] فقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة:٢٨١]، وفيها من براعة الاختتام، أبلغه وأتمه، رحم الجليل سبحانه عباده فذكرهم بتقواه، وحثهم على العمل بما يرضاه، وأعد لهم الجزاء الأوفى، ووعدهم المغفرة وعدم الظلم ووعده مُوفَّى.

رحمهم بتاء الخطاب تذكيرًا، ورحمهم بياء الالتفات توقيرًا، به ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ «رفقًا من الله سبحانه بصالحي عباده المطيعين لأمره. وذلك أن العود إلى الله للحساب أعظم ما يخوِّفه ويُتوعَّدُ به العباد، فإذا قرئ: ﴿تُرْجَعُونَ﴾... فقد خوطبوا بأمر عظيم...، فكأنه تعالى انحرف عنهم بذكر الرجعة فقال: ﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾[٤]، جميعًا، أبرار وفجارًا.

تلك بعض جوانب الرحمة في المكي والمدني من القرآن وتوابعهما، والمتأمل ممن فتح الله عليه يُكشف له ما هو أكثر، وفوق كل ذي علم عليم.

---

(١) صبحي الصالح، «مباحث في علوم القرآن»، (١٨٦).
(٢) السعدي، «تيسير الكريم»، (١٨٦).
(٣) على الراجح في المسألة قال القرطبي هذا القول: « أَعْرَفُ وَأَكْثَرُ وَأَصَحُّ وَأَشْهَرُ » "الجامع لأحكام القرآن" (٣/٣٧٥)، وانظر: "فتح الباري" لابن حجر (٨/٢٠٥)، و"الإتقان" للسيوطي (١/١٠١- ١٠٢).
(٤) ابن جني، «المحتسب»، (١/١٤٥)، وانظر: «المحرر» لابن عطية (١/٣٧٨)، و«الجامع» للقرطبي (٣/٣٧٦).

المبحث الرابع
معالم الرحمة في أسباب النزول

ووجه ارتباطه بما قبله أن تنزل القرآن الكريم جملة ومنجمًا، مكيًا ومدنيًا، لم يكن إلا لهداية الناس إلى الحق والصراط المستقيم، وزادت آيات على هذا السبب العام بسبب خاص مرتبط بها دون غيرها، وهذا السبب الخاص هو الذي يبحثه العلماء تحت مبحث «أسباب النزول»، وعليه فآي القرآن قسمان:

الأول: ما نزل من الله ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة، وإنما هو مرتبط بالسبب العام وهو هداية الناس، وهذا القسم هو أكثر آيات القرآن الكريم.

الثاني: قسم نزل مرتبطًا بسبب من الأسباب الخاصة يسميه العلماء «سبب نزول الآية»، وآيات هذا القسم هي الأقل[1]. جملة تلك الأسباب الخاصة هي ما اصطلح على تسميته «سبب النزول أو سبب التنزيل»: «وهو ما نزلت الآية أو الآيات تتحدث عنه أيام وقوعه»[2]، ونحو ذلك. وهذه الأسباب في الحقيقة: «ما هي

(١) فهد الرومي، «دراسات في علوم القرآن»، (١٣٥). وانظر: «الإتقان» للسيوطي (١٠٧/١)، «الفوز الكبير» للدهلوي (٣١).

(٢) وهو ما اختير تعريفا لسبب النزول، انظر: »الإتقان» للسيوطي(١١٦/١)، وأما علم أسباب النزول فهو العلم المهتم بهذه المسائل.

إلا مناسبات لا أسباب حقيقة، وإن سميت أسبابًا على طريقة التسامح والتجاوز»[١]، فليس نزول القرآن الكريم متوقفا على وجود تلك الحوادث، وإنما جعلها الله واقعة قدرا، وأنزل القرآن الكريم إثرها بيانًا لشرعه، وإنفاذا لحكمه، على مقتضى حكمته حالًا ومآلًا، ولذلك المعنى أيضًا اتفقت كلمة أهل العلم: «على أن ما يدل عليه الكلام القرآني، هو الذي يؤخذ به، على ما في دلالته من عموم واتساع،... وهو معنى قول علماء أصول الفقه: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»[٢].

ومن ذينك القسمين نتلمس بعض معالم رحمة الله بخلقه في تنزيل القرآن، وأسبابه، فلئن كان تنزيل آي الذكر الحكيم ابتداء من غير سبب قد ظهرت فيه معالم رحمة الله بخلقه في هدايتهم، وعنايته بهم، توجيها وإرشادًا، عقيدة، وشريعة، وآدابًا، وقصصًا، ووعدًا، ووعيدًا. فإن معالم رحمته ومزيد عنايته في ما نزل بسبب أشد ظهورا، وأكثر وضوحًا، بل هو الحال الذي تقصر عنه عبارات الفصيح تصويرًا لتلك العناية الفائقة من الرحمن سبحانه بعباده، حين تسير أحداث البشرية على ما يوافق سابق قضاء الله وقدره، فتأتي آيات الذكر توضح شرعه ومرضاته، في حكمة بالغة، ومقاصد باهرة، رحمة بعد رحمة، عامة فخاصة، خاصة فأخص، ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البقرة:١٠٥].

تلك الأسباب التي ترى فيها البصائر الحية متابعة الله تعالى حياة خلقه وعباده، وتغيرها، وإنعامه سبحانه عليهم بما يهديهم إلى سبيله القويم، وصراطه المستقيم، وبما يصحح لهم العقائد والأحوال، الظاهرة

(١) محمد الفاضل بن عاشور، «التفسير ورجاله»، (١٥)، وغانم قدوري، «محاضرات في علوم القرآن»، (٢١١)، إذ الأسباب في تعريفها: ما يُوجد المسبَّب، سواء أكان السبب تاما أو غير تام، انظر: «التعريفات» للشريف الجرجاني (٦٩).

(٢) محمد الفاضل بن عاشور، «التفسير ورجاله»، (١٥).

والباطنة، من الأقوال والأفعال، فاستحضار العبد نظر الله إليه، ومراقبته له، ومتابعته أحواله من المقامات التي تطرب لها قلوب المقربين، وتخشع لها قلوب أصحاب اليمين، وتخضع لها رقاب المكذبين.

تلك الأسباب التي على اختلاف ما ينزل إثرها من آي الذكر الحكيم تملأ قلوب المؤمنين يقينًا باستشعار رقابة الله لهم، ويحس منها الكفار لوعة مما أدركوا من قدرة الله عليهم، وإحاطته بهم، وفي ذلك من الزجر لهؤلاء، والرأفة بأولئك ما يعجز عن إدراك كنهه كل حكيم، فهو به تلك، ﴿تنزيل من الرحمن الرحيم﴾.

الأسباب التي أوضحت لمن نزلت الآيات فيهم مدى رعاية الله سبحانه لهم، ورحمته بهم، وهو يسوقهم إلى العمل قدرًا، ويبينه لهم شرعًا وأمرًا، ثم يتوب عليهم ويمحو عنهم وزرًا، تلك التي أعلت مقام الصادقين تخليدًا لأسمائهم، وإشادة بأعمالهم، ونشرًا لفضلهم. بل لقد وافق الرب الجليل بعضهم حتى أنزل الآيات على ألفاظ مقالهم[1]، فياالهول المقام لمن تأمله، وما أعظم إحسان الجليل عليهم لمن تدبره، أن يوافق السيد العظيم المستوي على عرشه فوق خلقه، أن يوافق قول أحد عبيده الضعفاء كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا، إنه لإحسان عظيم من السيد، رحمة وامتنانًا، وإنه لمقام كريم لذلك العبد الضعيف، خشوعًا واستبشارًا ويقينًا.

تلك الأسباب التي تحمل في طياتها ما يرسخ في النفوس عقيدة التوحيد، وانفراد الله القدير بالملك والتدبير، كيف لا وهم يرون أفضل الخلق رسول الهدي ﷺ يقف عن كل حديث، يقف عن أي: تقدم بين يدي الله الواحد القهار، وهو ينتظر حكمه تعالى فيما يعتريه من أسئلة وأحوال، قد اشتد على المؤمنين في بعضها الحال، وقد علم الله لهم بما يُنَزِّل يُسر المآل.

(١) وبوب عليها السيوطي بقوله: « فيما أنزل من القرآن على لسان بعض الصحابة » "الإتقان" (١٢٧/١).

ثم إن في ارتباط نزول الآيات بمناسبة معينة، حكمة تشريعية، وتربوية عظيمة، تجعل من الحكم الذي تتضمنه تلك الآيات تجربة واقعية، وتطبيقًا عمليًا في المجتمع، يتم تحت نظر النبي ﷺ وتوجيهه، ويدرك حكمة التشريع الذي تتضمنه تلك الآيات كل من كان شاهدًا وقت نزولها، وكل من وقف على تلك المناسبة وعرف قصتها، فنزول الحكم وقت الحاجة إليه يكون أبعد أثرًا في نفوس المخاطبين، ويكونون أكثر استجابة له[١]، وأكثر استحضارًا له متى تشابه الحال، وأسير عليهم حفظًا متى تشابهت الألفاظ، وأكثر تمرسًا وإدراكًا لمعاني العبارات، متى زاغت عنها الأعين الناظرات[٢].

كما أن في إدراك حكمة الله سبحانه في شريعته المستفاد من أسباب النزول، في ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن، أما المؤمن فيزداد إيمانًا على إيمانه، ويحرص كل الحرص على تنفيذ أحكام الله والعمل بكتابه لما يتجلى له من المصالح والمزايا التي نيطت بهذه الأحكام ومن أجلها جاء هذا التنزيل. وأما الكافر فتسوقه تلك الحكم الباهرة إلى الإيمان إن كان منصفًا حين يعلم أن هذا التشريع الإسلامي قام على رعاية مصالح الإنسان لا على الاستبداد والتحكم والطغيان خصوصًا إذا لاحظ سير ذلك التشريع وتدرجه في موضوع واحد[٣].

ومن فروع باب أسباب النزول المهمة فرعان، أنبه على بعض معالم الرحمة فيهما:

فأما أولهما: فهو (تعدد الآيات النازلة، واتحاد السبب)[٤]، وفي ذلك

(١) ()-غانم قدوري، «محاضرات في علوم القرآن»، (٣٦)، ومناع القطان، «مباحث في علوم القرآن»، (٧٥).
(٢) ()-الزرقاني، «مناهل العرفان»، (١/٩٥).
(٣) الزرقاني، «مناهل العرفان»، (١/٩١).
(٤) السيوطي، «الإتقان»، (١/١٢٤).

من الفضل ومزيد الرحمة والامتنان ما هو ظاهر للعيان، فما من شك أن كل آية نزلت قد زفت للمؤمنين ألوان البشائر، تلاوة وترتيلًا، تدبرًا وتأملًا، حُكمًا وتشريعًا، امتثالًا وانقيادًا، اغتنامًا وأجرًا، كما أن فيه من الإقناع وظهور الحجج المتعددة، وتمام البيان ما هو ظاهر، ترتقي به قلوب المؤمنين في معارج الهدى والإيمان، وأما غيرهم فزادتهم رجسا إلى رجسهم.

وأما ثانيهما: فهو (ما تكرر نزوله)[1]، وفي هذا التكرر مزيد إنعام وفضل وإحسان، من الرب الرحمن، كيف لا فهو أعظم دلالة على عظمة ما نزل وتكرر، لئلا تغفل عنه القلوب، والأبصار، فيترقبوا غيره تنزيلًا، وهو بين أيديهم واضحًا دليلًا، كيف لا وهو من أوضح تجليات رحمة المنعم إذ يُذكِّر عباده ما ينفعهم، وينزل عليهم ما نزل فيستقر به حفظهم، وتتمكن به في الاستنباط ملكاتهم، وهم يرون اتفاق الأحكام في اختلاف الأحوال والأيام، وهو ما يوضح لهم الِحكم الربانية، والمقاصد الدينية.

وينبه أخيرًا إلى أن مما تتنازعه مباحث الموضوع، ذكر أول ما نزل من القرآن، وآخر ما نزل منه، ومعالم الرحمة فيهما، فقرابتهما بمبحث أسباب النزول وأحواله كأبناء العمومة، وقرابة أول ما نزل من القرآن المكي، وقرابة آخر ما نزل من القرآن المدني قرابة ظاهرة معلومة، ولمقام ذلك التنازع قدمت ذكرهما في المبحث السابق، (معالم الرحمة في المكي والمدني)، على اعتبار أن أول ما نزل من القرآن الكريم لم يكن له سبب خاص، وكذا آخر ما نزل منه على الأرجح كما تقدم.

(١) عند من أجاز ذلك من أهل العلم، كابن الحصار، والزركشي، والسيوطي، انظر: «الإتقان» (١/١٣٠)، وهو من المسائل الجديرة بالبحث والتمحيص، لارتباطها بجملة من العلوم الأخرى، كالمتشابه اللفظي للقرآن، وعلم القراءات، وأسباب النزول.

المبحث الخامس
معالم الرحمة في المنسوخ والناسخ[1]

يهتم علماء القرآن[2] بتقديم الناسخ الذي استقر حكمه شرعًا، أما بحثنا فنظره إليهما من حيث التنزيل، فسبق المنسوخ لا يحتاج إلى دليل، أنزلهما اللّه لحكمة، وضمَّنهما معالم الرحمة، ومع اختلاف الأئمة في هذا المبحث طويلًا تفريعًا وتأصيلًا، فقد اتفقوا على أصله لدلالة النصوص الشرعية عليه، ومما جاء فيه من آي التنزيل الحكيم، قول الرحمن الرحيم: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة:١٠٦]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل:١٠١-١٠٢].

وبعيدًا عن الاختلافات الواسعة في باب الناسخ والمنسوخ، نقصر

---

(١) كلاهما من مادة (نسخ) وهي في اللغة لمعنى: النقل والإزالة والتغيير، قال ابن فارس: «أصلٌ واحد، إلاّ أنّه مختلفٌ في قياسِه. قال قوم: قياسُه رفْعُ شيءٍ وإثباتُ غيرِه مكانَه. وقال آخرون: قياسُه تحويلُ شيءٍ إلى شيءٍ» «معجم المقاييس» (٥/٤٢٤)، وانظر: «القاموس» (٢٦١)، ويطلق الناسخ اسم الفاعل على الشارع، والنص الناسخ، والحكم الناسخ، وأما المنسوخ اسم المعول فواحد، وفي اصطلاح أهل العلم النسخ هو: « رفع الحكم الثابت بخطاب متقدم بخطاب متأخر عنه » "المهذب في علم أصول الفقه" لعبد الكريم النملة (٢/٥٣٠)، وانظر أيضًا:

(٢) مبحث النسخ من المباحث المشتركة بين علوم القرآن الكريم، وعلم أصول الفقه، وهو في الثاني أوسع لاعتنائه بالنسخ في نصوص السنة النبوية، ولمقام هذا التداخل اكتسى هذا البحث صعوبة أخرى في تعدد مصادره ومظانه، وكثرة مادته، ولذا اقتصرت فيه على ما تضمنته كتب علوم القرآن غالبًا.

الكلام هنا على ما يناسب المقام، إشارة إلى أوجه رحمة الله بخلقه في تنزيله الناسخ عقب المنسوخ، وقد أشار علماؤنا إلى بعض ذلك ضمن أوجه الحكمة من النسخ عمومًا، وخصوصًا، وهو ما سنشير إليه فيما يأتي مع شيء من الزيادة، فأقول:

قد نبه الأئمة رحمهم الله على مدى الرحمة الإلهية البارزة في نسخ الله تعالى الأحكام بعضها ببعض، ولهم في ذلك أقوال مأثورة، منها: قول الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت ٢٠٤هـ) في «الرسالة»: «وأنزل عليهم الكتاب تِبْياناً لكل شيء، وهُدًى ورحمةً، وفرض فيه فرائض أثبتها، وأُخْرَى نسَخَها، رحمةً لِخَلْقه، بالتخفيف عنهم، وبالتوسعة عليهم، زيادة فيما ابتدأهم به مِن نِعَمه. وأثابَهم على الانتهاء إلى ما أثبت عليهم: جَنَّتَه، والنجاة من عذابه؛ فعَمَّتْهم رحمتُه فيما أثبت ونسخ، فله الحمد على نعمه»[١]، وقال السخاوي (ت ٦٤٣هـ): «وحكمة النسخ اللطف بالعباد وحملهم على ما فيه إصلاح لهم»[٢]، فالنسخ ليس عبثًا من الله بل هو الحكمة منه سبحانه المنطوية على: «إِرَادَةَ الصَّلاحِ لِلْعِبَادِ وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ الْعَاقِبَةَ فِي ذَلِكَ وَعَلِمَ وَقْتَ الْأَمْرِ بِهِ -المنسوخ- أَنَّهُ سَيَنْسَخُهُ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ»[٣]. ثم قد تناول علماؤنا هذا المبحث درسًا من جهات أهمها:

أولًا: من حيث النصوص الشرعية، وأيها ينسخ الآخر.

ثانيًا: من حيث الحكم والتلاوة للنصين المنسوخ والناسخ، بقاء وعدما.

ثالثًا: من حيث حكم البدل ثقلًا وخفة، مقارنة بالمنسوخ.

رابعًا: من حيث البدل في النسخ، وجودًا على ما هو الأكثر، وعدمًا على ما هو النادر.

(١) الشافعي، «الرسالة»، (١٠٦)، وانظر أيضًا: «قلائد المرجان» لمرعي بن يوسف الكرمي (١٩).
(٢) السخاوي، «جمال القراء»، (١/٣٣٥).
(٣) ابن النحاس، «الناسخ والمنسوخ»، (١/٦٢).

ضمن هذه النقاط الأربعة تكلم علماؤنا في موضوع حِكَم النسخ، منهم: الفيروز آبادي في «بصائر ذوي التمييز»[١]، والزركشي في «البرهان»[٢]، والسيوطي في «الإتقان»[٣]، واستجمع كل ذلك الزرقاني في «مناهل العرفان»، بتفصيل وطول بيان، وباستثناء النقطة الأولى، أعرض فيما يلي ما ذكره علماؤنا من حكم النسخ، ومعالم رحمة الله بخلقه فيه، مع شيء من الاختصار، وابتداء بالأخيرة منها، لفًا ونشرًا معكوسًا أقول:

أولًا: إن النسخ إلى غير بدل رحمة من الله في ابتلاء خلقه، واختبار امتثالهم، زيادة في الحسنات، ورفعًا للدرجات، مع ما في النسخ من تخفيف، وإنقاص للتكاليف[٤]. وأما ما كان نسخًا إلى بدل فذلك الذي كثرت أفراده في القرآن الكريم، وفيه من وجوه الرحمة ودلائلها، ما في النقطتين الآتيتين أكشف عنها.

ثانيًا: أجاب هبة الله بن سلامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ٤١٠هـ) عن سؤال في آية سورة البقرة ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾، وضمَّن جوابه بيان الحكمة المتعلقة بالناسخ والمنسوخ من حيث ثقل الحكم وخفته، فقال: «فَالْجَوَاب أَن معنى: ﴿بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ أَي: أَنْفَع مِنهَا، لأَن النَّاسِخ لا يَخْلُو من إحدى النعمتين: إِمَّا أَن يكون أثقل فِي الحكم فَيكون أوفر فِي الْأجر، وَإِمَّا أَن يكون أخف فِي الحكم فَيكون أيسر فِي الْعَمَل»[٥]، وفي كل منهما رحمة من الله بخلقه واضحة المعالم، وصور الزرقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ تلك الحكم والرحمات في أسلوب بديع، مضيفًا للوجه الذي يتساوى في المنسوخ وبدلُه حكمًا، في كلام أنقله بحروفه، قال:

---

(١) «بصائر ذوي التمييز»، (١/١٢١).
(٢) «البرهان»، (٢/٣٧، ٣٩).
(٣) «الإتقان»، (٣/٦٧، ٧٧، ٨١).
(٤) انظر: «مناهل العرفان» للزرقاني (٢/١٧٢).
(٥) هبة الله بن سلامة، «الناسخ والمنسوخ»، (٢٨).

«من هنا جاءت الشريعة إلى الناس تمشي على مهل متألِّفة لهم متلطِّفة في دعوتهم متدرِّجة بهم إلى الكمال رُويدًا رويدًا، صاعدة بهم في مدارج الرقي شيئًا فشيئًا، منتهزة فرصة الألف والمران والأحداث الجادة عليهم، لتسير بهم من الأسهل إلى السهل، ومن السهل إلى الصعب، ومن الصعب إلى الأصعب، حتى تم الأمر ونجح الإسلام نجاحًا لم يعرف مثله، في سرعته وامتزاج النفوس به ونهضة البشرية بسببه!. تلك الحكمة على هذا الوجه تتجلى فيما إذا كان الحكم الناسخ أصعب من المنسوخ، كموقف الإسلام في سموه ونبله من مشكلة الخمر في عرب الجاهلية بالأمس.

أما الحكمة في نسخ الحكم الأصعب بما هو أسهل منه، فالتخفيف على الناس ترفيهًا عنهم، وإظهارًا لفضل الله عليهم، ورحمته بهم، وفي ذلك إغراء لهم على المبالغة في شكره، وتمجيده، وتحبيب لهم فيه، وفي دينه.

وأما الحكمة في نسخ الحكم بمساويه في صعوبته، أو سهولته فالابتلاء، والاختبار ليظهر المؤمن فيفوز، والمنافق فيهلك، ليميز الخبيث من الطيب.»[(١)].

ثالثًا: تلك العلاقة الرابطة بين حكم النص وتلاوته، بقاء وعدمًا، وهي التي جعل العلماء قسمتها على ثلاثة أضرب[(٢)]: ما نُسِخ تلاوة وحكمًا، ما نُسِخ تلاوة وبقي حكمه، وعكسه ما نُسِخ حكمًا وبقي تلاوة.

فأما أولها: فكان بلا ريب رحمة بالناس، ورفقا بهم في إصلاح

---

(١) الزرقاني، «مناهل العرفان»، (١٥٣/٢)، وانظر: «الناسخ والمنسوخ» لابن حزم (٨)، و«المصفى» لابن الجوزي (١٢).

(٢) انظر: «البرهان» للزركشي (٣٥/٢)، و«الإتقان» للسيوطي (٧٠/٣)، وهي على هذا الترتيب التصاعدي من حيث كثرتها، فأولها أقلها، وآخرها أكثرها وهذا الضرب هو الذي في الكتب المؤلفة في هذا العلم، قال السيوطي: «وهو على الحقيقة قليل جدا وإن أكثر الناس من تعداد الآيات فيه» «الإتقان» (٧١/٣).

أحوالهم بالتدرج في تكليفهم، فلما انتهى أمده، وتحققت غايته، رفع الحكم والتلاوة ليحل محلهما غيره من الأحكام بعدما تهيأت النفوس، وأقبلت القلوب على شرع علام الغيوب.

وأما ثانيهما: وهو نسخ التلاوة دون الحكم، ففيه من أوجه الرحمة والحكمة ما تتضمنه سائر أفعال الله تعالى، الفتَّاح بالعلم على مَن عَلمها، وليس جَهلُها نافيًا لوجودها[1]، ومما ظهر لي:

- بيان كمال قدرة الله تعالى، وتمام أمره فهو الذي يُبقى ما يشاء ويَرفع ما يريد، وفي رَفع ما رُفع تذكير للعبيد ببقاء ما بقي، فيُعتنَى به تلاوة وحفظًا، قبل أن يأذن الله برفع جميعه آخر الزمان، فالقرآن كلام الله منه بدأ وإليه يعود، وذاك البيان تضمن تعريفًا للعباد بصفات الله وأفعاله، فكفى به منة ورحمة، أن يتفضل المجيد بتعريف نفسه للعبيد.

- أن في ذلك اختبارًا وابتلاء[2]، فما أعظمها من رحمة لمن نجح حين اختُبِر، وحين الابتلاء صبر، وهل في الابتلاء والاختبار إلا رفع الدرجات، ومزيد الحسنات، وتلك بعض وجوه الرحمات، وهل كان إعمال الناسخ وإهمال المنسوخ، إلا في جيل الرسوخ، جيل القرآن والتنزيل، فكان عليهم بالمنسوخ الابتلاء، وبقي لهم ولنا بالناسخ كل صفاء، رحمتان لهم واحدة لمن جاء بعدهم، ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البقرة:١٠٥].

وأما الثالث من الأقسام، وهو أكثرها فهو يكشف سياسة الإسلام الرشيدة الحكيمة «للناس حتى يشهدوا أنه هو الدين الحق، وأن نبيه نبي

(١) الزرقاني، «مناهل العرفان»، (٢/١٧٠- ١٧١).
(٢) الزركشي، «البرهان»، (٢/٣٧)، وهو مضمون ما نقله عن ابن عقيل صاحب «الفنون» جوابًا عن حكمة هذا النوع من النسخ.

الصدق، وأن الله هو الحق المبين العليم، الحكيم الرحمن الرحيم، يضاف إلى ذلك ما يكتسبونه من الثواب على هذه التلاوة، ومن الاستمتاع بما حوته تلك الآيات المنسوخة من بلاغة، ومن قيام معجزات بيانية، أو علمية أو سياسية بها»[1]، يضاف إلى أوجه الرحمة والحكمة تلك «أَنَّ الْقُرْآنَ كَمَا يُتْلَى لِيُعْرَفَ الْحُكْمُ مِنْهُ، وَالْعَمَلُ بِهِ، يُتْلَى لِكَوْنِهِ كَلامَ اللَّه تَعَالَى فَيُثَابُ عَلَيْهِ فَتُرِكَتِ التِّلاوَةُ لِهَذِهِ الْحِكْمَةِ»[2]، زيادة إلى ذلك «أَنَّ النَّسْخَ غَالِبًا يَكُونُ لِلتَّخْفِيفِ فَأُبْقِيَتِ التِّلَاوَةُ تَذْكِيرًا بِالنِّعْمَةِ وَرَفْعِ الْمَشَقَّةِ»[3].

وإذ أكتفي -على استحياء- في هذا المبحث الطويل بما تقدم من كلمات قليلات، أتمم ذلك بتنبيهين:

أولهما: لقد جعل رب العالمين الإسلام الدين القويم، مهيمنًا على الأديان جميعها، وناسخًا لشرائعها، فكان التنزيل كتاب الإسلام، رحمة لجميع الأنام، منزلًا على سيد المرسلين، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧]. وقد أخذ بعض المفسرين[4] هذا المعنى الحق العجاب من قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾ [الرعد:٣٩].

ثانيهما: أن ما يُذكر من أوجه رحمة وحِكم لأنواع النسخ، إنما هي على الإجمال، وتحت كل آية ناسخة ومنسوخة تنطوي حكم ورحمات خاصة بها، لا تطيق العقول إدراكها إحاطة، وتعجز الفصاحة عن تصويرها كاملة، فهي من علم الله الجليل، فأنى الإحاطة به للعقل العليل، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾ [طه:١١٠].

---

(١) الزرقاني، «مناهل العرفان»، (١٥٣/٢).
(٢) الزركشي، «البرهان»، (٣٩/٢).
(٣) الزركشي، «البرهان»، (٣٩/٢). وانظر: «الإتقان» للسيوطي (٧٧/٣- ٧٨).
(٤) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٦٦٤/٤)، و«مناهل العرفان» للزرقاني (١٤٤/٢، ١٥٢).

المبحث السادس
معالم الرحمة في الأحرف السبعة

وسبب إيراده ضمن مباحث هذه الورقة البحثية، ما جاء صريحًا عن المصطفى ﷺ حين قال لقراءة كل من عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم رضي الله عنهما: «هكذا أنزلت»[(١)]، أو «كذلك أنزلت»[(٢)]. فمرد التغاير فيها إلى التنزيل[(٣)]، فليس هو على البحث بدخيل، قال ابن قتيبة رحمه الله (ت ٢٧٦هـ): «وكل هذه الحروف كلام الله تعالى نزل به الروح الأمين على رسوله عليه السلام، وذلك أنه كان يعارضه في كل شهر من شهور رمضان بما اجتمع عنده من القرآن، فيحدث الله إليه من ذلك ما يشاء، وينسخ ما يشاء»[(٤)].

ومعلوم لدى الدارسين أن مبحث الأحرف السبعة «مبحث طريف وشائق، غير أنه مخيف وشائك»[(٥)]، ومع تواتر النصوص النبوية في معنى الأحرف السبعة، فقد اختلف في تحديد معناها اختلافًا قل نظيره، ومن بين تلك الاختلافات، وددت إخراج معالم الرحمة خالصات سائغات،

(١) أخرجه البخاري (٢٢٨٧، ٤٧٥٤، ٦٥٣٧)، ومسلم (٨١٨)، وغيرهما
(٢) أخرجه البخاري (٤٧٠٦، ٧١١١)، وغيره.
(٣) هل هو مطرد في الاختلاف جميعه، اختلف في ذلك، وأولى الأقوال بالقبول ما ذهب إليه السمرقندي رحمه الله في «بستان العارفين» (٣٢٧)، القائلِ بالتفريق بين القراءات التي تغايرهما له أثر في المعنى والتفسير كـ: (ملك، ومالك، ويَطْهُرن ويطَّهَّرنّ)، وبين التي تغايرها تغاير لغات فقط كـ: (البُيوت، البيوت)، وانظر لهذه المسألة: «البرهان» للزركشي (١/٣٢٦)، و«القراءات القرآنية» لعبد الحليم قابه (٤٧– ٤٨).
(٤) ابن قتيبة، «تأويل مشكل القرآن»، (٣٢).
(٥) الزرقاني، «مناهل العرفان»، (١/١١٦).

اعتمادًا على الأحاديث النبويات الصحيحات، وما نص عليه الأئمة الهداة، فمما صح في باب الأحرف السبعة:

ما جاء في حديث عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم رضي الله عنهما، وقول النبي ﷺ لهما: «إنَّ هذا القرآن أُنْزل على سبعة أحرف فاقرءُوا ما تَيَسَّر منه»[1]، أي: من هذا القرآن المنزل على سبعة أحرف، فإنه لم يكن كذلك إلا تيسيرًا.

يوضح ذلك ما جاء في حديث أبي بن كعب رضي الله عنه لما ترافع مع من خالفاه في القراءة، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن ربي أرسل إلي أن اقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هوِّن على أمتي»[2]، وفي رواية: «خفف عن أمتي»[3]، ففي زيادة الأحرف مزيد تهوين وتيسير وتخفيف على الأمة المحمدية، وفي ذلك من الرحمة الإلهية بهذا التنزيل للأحرف ما هو ظاهر، ووجه هذا الطلب للتخفيف، وسببه بينته الروايات الأخرى، وجاء فيها قوله ﷺ: «إن أمتي لا تطيق ذلك»[4]، وفي رواية: «لا تستطيع ذلك»[5]، إن كُلِّفت بقراءة القرآن على حرف وحرفين، ولم تطق أمته ﷺ ذلك لما كان مبعوثًا إلى الناس جميعًا إلى: «أمة أميين منهم: العجوز، والشيخ الكبير، والغلام، والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتابًا قط»[6].

إن وضوح هذه النصوص النبوية في بيان معالم الرحمة في تنزيل الأحرف السبعة[7] لن يثنينا عن استعراض كلام بعض أهل العلم توضيحًا لمقصود المبحث، فمن ذلك:

(١) أخرجه البخاري (٢٢٨٧) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٨١٨).
(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٦)، وأحمد في «المسند» (٢١١٧١) وغيرهما.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١/٣٧).
(٤) أخرجه مسلم (١٨٥٦)، وأحمد في «المسند» (٢١١٧٢)، وأبو داود في «السنن» (١٤٧٨)، وغيرهم.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١/٣٨).
(٦) أخرجه الترمذي في «جامعه» (٢٩٤٤)، وأحمد في «المسند» (٢١٢٠٤)، وغيرهم.
(٧) عبدالعزيز القاري، «حديث الأحرف السبعة»، (٨١).

قول ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ (ت ٢٧٦هـ): «...وييسّر على عباده ما يشاء. فكان من تيسيره أن أَمره بأن يُقرىء كل قوم بلغتهم، وما جرت عليه عادتهم فالهذليّ يقرأ ... والأسديّ يقرأ :... والتّميميّ يهمز. والقرشيّ لا يهمز... ولو أن كل فريق من هؤلاء، أمر أن يزول عن لغته، وما جرى عليه اعتياده طفلًا وناشئًا وكهلًا- لاشتد ذلك عليه، وعظمت المحنة فيه، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة، وتذليل للّسان، وقطع للعادة. فأراد اللّه، برحمته ولطفه، أن يجعل لهم متّسعًا في اللغات، ومتصرّفًا في الحركات، كتيسيره عليهم في الدّين»[(١)].

قول أبي عمرو الداني رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٤٤٤هـ): « وَأما وجه إِنْزَال الْقُرْآن هَذِه السَّبْعَة أحرف وَمَا الَّذِي أَرَادَ تبَارك اسْمه بذلك فَإِنَّهُ إِنَّمَا أنزل علينا توسعة من الله تَعَالَى على عباده وَرَحْمَة لَهُم وتخفيفًا عَنْهُم عِنْد سُؤال النَّبِي ﷺ إِيَّاه لَهُم ومراجعته لَهُ فِيهِ لعلمه ﷺ بِمَا هم عَلَيْهِ من اخْتِلَاف اللُّغَات واستصعاب مُفَارقَة كل فريق مِنْهُم الطَّبْع وَالْعَادَة فِي الْكَلَام إِلَى غَيره فَخفف تَعَالَى عَنْهُم وَسَهل عَلَيْهِم بِأَن أقرهم على مألوف طبعهم وعادتهم فِي كَلَامهم»[(٢)].

وثمة كلام كثير لغيرهما من الأئمة كالطحاوي (ت ٣٢١هـ) في «شرح مشكل الآثار»[(٣)]، وأبي شامة (ت٦٦٥ هـ) في «المرشد»[(٤)]، والزركشي (ت٧٩٤ هـ) في «البرهان»[(٥)]، وغيرهم. خلاصتها أن مبحث الأحرف السبعة «يرينا مظهرًا من مظاهر رحمة اللّه، وتخفيفه على عباده، وتيسيره لكتابه على كافة القبائل العربية بل على جميع شعوب الأمة الإسلامية

(١) ابن قتيبة، «تأويل مشكل القرآن»، (٣٢).
(٢) الداني، «الأحرف السبعة»، (٣١).
(٣) «شرح مشكل الآثار»، (١٢٤/٨).
(٤) «المرشد الوجيز»، (٩٠).
(٥) «البرهان»، (٢٢٧/١).

من كل جيل وقبيل، حتى ينطقوا به لينة ألسنتهم سهلة لهجاتهم برغم ما بينهم من اختلاف في اللغات، وتنوع في الخصائص والميزات»[١].

كانت تلك الأحرف كفيلة بتحقيق مقصودها من التيسير على الأمة يومها، ورحمة من الباري سبحانه عليها بها، مع ما حملته من فوائد وعوائد لمن بعدها، فقد كانت مع اقترانها بغيرها من ظروف الزمان والمكان، ورعاية الحال والمآل سببًا في ظهور رحمات أخرى، وفوائد تترى، فامتزاج الأحرف السبعة مع العرضة الأخيرة، وسير الجميع مع عوامل الزمان والمكان، وتغير أحوال من جاء بعد زمن التنزيل، اقتضى جمع القرآن الكريم زمن عثمان رضي الله عنه مقتصرًا على بعض تلك الأحرف، ومع امتداد الزمان، وميل النفوس للاقتصار، استقر الأمر على ما كان للعشرة القراء من الاختيار، وحملت تلك القراءات في طياتها عبقًا من رحمات الباري المتجددة على أمة الإسلام عبر تعاقب الأيام، فهاهي القراءات القرآنية تُفجِّر للباحثين ينابيع العلم، وروافد الفقه، يهزون أصلها فكرًا، فتسَّاقط عليهم أنواع العلوم لغة وفقها، ثمرًا جنيًا، تنوع في الألفاظ والمباني، واتساع في المدارك والمعاني، في انضمام وائتلاف، وتنوع في الاختلاف، ترينا في ملامحها معالم رحمة منزلها، مستوجبة بكل حرف منها مزيد حمد وشكر له عليها.

(١) الزرقاني، «مناهل العرفان»، (١١٦/١).

الخاتمة

أهم النتائج والتوصيات، أجعلها في نقاط مختصرة كالآتي:

الكلام في موضوع تنزيل القرآن الكريم لا ينفك بحال عن مسألة كلام الله تعالى والخلاف فيها، فمن الضروري بالباحث أن يعلم هذه المسألة علمًا دقيقًا ليحسن التفريع فيها، فربما يغفل الذهن في التفريع فيخالف التأصيل.

إن الكلام في موضوعات القرآن الكريم وتنزيله كلام في أمور الغيب، فلا يقال فيها إلا ما دلت عليه نصوص الوحي، وما وراء ذلك إلا القول على الله بلا علم.

يلحظ المتأمل لأحوال نزول القرآن الكريم اختصاص جيل التنزيل بمزيد الرحمة والعناية في كل فرع من فروع البحث، ومباحثه الدالة على الرحمة في تنزيل القرآن كـ: المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، والأحرف السبعة، ونحوها.

إن المتأمل والمتصفح لبعض كتب علوم القرآن يلحظ فيها جفاف العبارات، وخلوها عن ربط تلك العلوم بالجانب التربوي الروحي، الذي

يرقق القلوب، ويشعرها بربانية القرآن الكريم، وأن مصدره الإله العظيم الجليل.

ومن التوصيات المقترحة أن توضع دراسة لجملة من المسائل:

كمسألة تنجيم القرآن، واستجماع الآيات الدالة إشارة عليه صراحة وإشارة، وما يتبعه من مسائل.

ومسألة تكرر نزول الآيات القرآنية.

وكذا بعض مسائل تنزيل القرآن الكريم، ومن الذي أنزل القرآن من اللوح إلى بيت العزة؟ هل هو جبريل؟، أو الملائكة المطهرون؟.

وهل ترتيب آيات الذكر متفق بين اللوح وبيت العزة والمصاحف؟.

وهل صحيح أن ما في بيت العزة يوافق رسمه ما مصاحفنا؟.

كلها مسائل تحتاج إلى بسط وبيان، ولا أدعي عدم توفر ذلك غير أني لم أقف على ما تعلق به بحثًا وتمحيصًا.

هذا آخر ما رأيت تسطيرًا، ويعلم الله أني لم أرتضه تحبيرًا وتحريرًا، لاشتغال المحل والبال، بحركات العلة وعدم المناسبة والاستعجال، وعدم تيسُّر بعض الحال، والله المسؤول وهو ذو الرحمة، أن يرحم عبدًا أراد إرشادًا وإظهارًا لبعض صنوف رحماته الكثيرات، ونعمه السابغات، وآلائه الواصلات، فاللهم صلنا بك وبالقرآن الكريم تنزيلك، وبمحمد نبيك، وارحمنا برحمتك، إنك جواد كريم، والحمد لله أولًا وآخرًا، مُسرًّا وجاهرًا.

فهرس المصادر والمراجع

- **كتب التفسير وعلوم القرآن:**

١. آدم بومبا، «أسماء القرآن الكريم»، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ط١، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

٢. الآلوسي، «روح المعاني»، ت علي عطية، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ.

٣. البيضاوي، «أنوار التنزيل»، ت المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٨ هـ.

٤. ابن جني، «المحتسب في القراءات الشواذ»، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٥. ابن الجوزي، «زاد المسير»، ت عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٢٢هـ.

٦. حكمت بشير، «الصحيح المسبور»، دار المآثر المدينة النبوية، ط١، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٧. ابن أبي حاتم، «التفسير»، ت أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط٣، ١٤١٩هـ.

٨. الدهلوي، «الفوز الكبير»، عَرَّبَه سلمان النَّدوي، دار الصحوة القاهرة، ط٢، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.

٩. الداني، «الأحرف السبعة»، ت عبدالمهيمن طحان، مكتبة المنارة مكة، ط١، ١٤٠٨هـ.

١٠. الرازي، «مفاتيح الغيب»، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠ هـ.

١١. الزجاج، "معاني القرآن"، ت عبدالجليل عبده شلبي، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

١٢. الزرقاني، «مناهل العرفان»، ت فواز زمرلي، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
١٣. الزركشي، «البرهان»، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، ١٣٩١م.
١٤. الزمخشري، "الكشاف"، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤٠٧هـ.
١٥. ابن أبي زمنين، "تفسير القرآن"، ت حسين بن عكاشة ومحمد الكنز، الفاروق الحديثة، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
١٦. السخاوي، "جمال القراء"، ت مروان العطيَّة ومحسن خرابة، دار المأمون للتراث، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
١٧. السعدي، "تيسير الكريم الرحمن"، ت اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م.
١٨. السمرقندي، "بحر العلوم"،.
١٩. السيوطي، «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»، دار الفكر.
٢٠. السيوطي، «الإتقان»، ت محمد أبو الفضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ -١٩٧٤م.
٢١. الشنقيطي، "أضواء البيان"، دار الفكر، ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥م.
٢٢. أبو شهبة، "المدخل لدراسة القرآن الكريم"، مكتبه السنة القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.
٢٣. الشوكاني، "فتح القدير"، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ط١، ١٤١٤هـ.
٢٤. أبو شامة، «المرشد الوجيز»، ت قولاج، دار صادر، ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م.
٢٥. صبحي الصالح، «مباحث في علوم القرآن»، دار العلم للملايين، ط٢٤، ٢٠٠٠م.
٢٦. ابن ضريس، "فضائل القرآن"، ت غزوة بدير، دار الفكر، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م.

٢٧. الطبري، "جامع البيان"، ت أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
٢٨. الطاهر ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، الدار التونسية للنشر تونس، ١٩٨٤ هـ.
٢٩. عبد الحليم قابه، "القراءات القرآنية"، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٩م.
٣٠. عبد العزيز القاري، "حديث الأحرف السبعة"، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٣٢هـ- ٢٠٠٢م.
٣١. عبد الفتاح القاضي، "القراءات الشاذة وتوجيهها"، دار السلام، ط٢، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
٣٢. أبو عبيد، «فضائل القرآن»، ت مروان عطية وآخرون، دار ابن كثير، ط٢، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
٣٣. ابن عطية، «المحرر الوجيز»، ت عبدالسلام عبدالشافي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.
٣٤. علي العبيد، "حفظ القرآن الكريم"، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
٣٥. أبو علي الفارسي "الحجة للقراء السبعة"، ت قهوجي وجويجابي، دار المأمون، ط٢، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.
٣٦. غانم قدوري، "محاضرات في علوم القرآن"، دار عمار، ط١، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.
٣٧. الفراء، "معاني القرآن"، ت أحمد النجاتي ومحمد النجار وعبد الفتاح الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، ط١.
٣٨. الفريابي، "فضائل القرآن"، ت يوسف جبريل، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.
٣٩. فهد الرومي، "دراسات في علوم القرآن"، ط١٢، ١٤٢٤هـ -

٢٠٠٣م.
٤٠. الفيروز آبادي، "بصائر ذوي التمييز"، ت محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة.
٤١. ابن قتيبة، "تأويل مشكل القرآن"، ت إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية.
٤٢. القرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ت البر دوني وأطفيش، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤ م.
٤٣. ابن القيم، "التبيان في أقسام القرآن"، ت محمد حامد الفقي، دار المعرفة.
٤٤. ابن كثير، "تفسير القرآن"، ت سامي سلامة، دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
٤٥. محمد أبو زهرة، "المعجزة الكبرى"، دار الفكر العربي.
٤٦. محمد بكر إسماعيل، دراسات في علوم القرآن، دار المنار، ط٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
٤٧. محمد بازمول، «القراءات وأثرها في التفسير والأحكام».
٤٨. محمد الشايع، "نزول القرآن الكريم"، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
٤٩. محمد عمر حويه، "نزول القرآن الكريم"، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
٥٠. محمد الفاضل بن عاشور، "التفسير ورجاله"، مجمع البحوث الإسلامية، ط٢، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
٥١. محمد معبد، "نفحات في علوم القرآن"، دار السلام، ط٢، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
٥٢. مرعي بن يوسف الكرمي، "قلائد المرجان"، ت سامي عطا حسن، دار القرآن الكريم الكويت.

٥٣. مساعد الطيار، "المحرر في علوم القرآن".
٥٤. مكي بن أبي طالب، «الهداية في بلوغ النهاية»، جامعة الشارقة، ط١، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.
٥٥. مناع القطان، "مباحث في علوم القرآن"، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
٥٦. ابن النحاس، «إعراب القرآن»، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ.
٥٧. ابن النحاس، «الناسخ والمنسوخ»، ت محمد عبدالسلام، مكتبة الفلاح الكويت، ط١، ١٤٠٨هـ.
٥٨. نور الدين عتر، "علوم القرآن"، مطبعة الصباح، ط١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.
٥٩. هبة الله بن سلامة، "الناسخ والمنسوخ"، ت زهير الشاويش ومحمد كنعان، المكتب الإسلامي،ط١، ١٤٠٤هـ.
٦٠. أبو هلال العسكري، "الوجوه والنظائر"،ت محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية،القاهرة، ط١،١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
٦١. الواحدي، "البسيط"، عمادة البحث العلمي جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٣٠هـ.
٦٢. يحيى بن سلام، "التصاريف"، ت هند شلبي، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٩ م.
٦٣. كتب السنة وعلومها، واللغة وأخرى:
٦٤. أحمد بن حنبل، «المسند»،ت شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون،مؤسسة الرسالة،ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.
٦٥. البخاري، "الجامع الصحيح"، ت مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، ط٣، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
٦٦. البيهقي،»شعب الإيمان»، ت عبدالعلي حامد، مكتبة الرشد، الدار السلفية ط١، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

٦٧. الترمذي، "الجامع"، ت بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨م.
٦٨. ابن تيمية، "بيان تلبيس الجهمية"، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط١، ١٤٢٦هـ.
٦٩. ابن تيمية، "مجموع الفتاوى"، ت المحقق: عبدالرحمن قاسم، مجمع الملك فهد، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.
٧٠. ابن حجر، "فتح الباري"، إ محب الدين الخطيب، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ.
٧١. ابن حجر، "نتائج الأفكار"، حمدي السلفي، دار ابن كثير، ط٢، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.
٧٢. الحميدي، "تفسير غريب ما في الصحيحين"، ت زبيدة محمد، مكتبة السنة، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
٧٣. الدارمي، «السنن»، ت حسين سليم أسد، دار المغني للنشر والتوزيع السعودية، ط١، ١٤١٢هـ- ٢٠٠٠م.
٧٤. ابن دريد، «جمهرة اللغة»، ت رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٨٧م.
٧٥. أبو داود، "السنن"، ت شعَيب الأرنؤوط ومحَمَّد كامِل، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
٧٦. سعيد بن منصور، "السنن"،ت سعد آل حميد، دار الصميعي، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
٧٧. ابن سيده، "المحكم"، ت عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
٧٨. الشريف الجرجاني، "التعريفات"، إ مصطفى أبو يعقوب، مؤسسة الحسنى المغرب، ط١، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.
٧٩. أبو شهبة، "السيرة النبوية"، دار القلم دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ.

٨٠. الشافعي، "الرسالة"، ت أحمد شاكر، مكتبه الحلبي، ط١، ١٣٥٨هـ- ١٩٤٠م.

٨١. ابن أبي شيبة، «المصنف»، ت كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٠٩هـ.

٨٢. الطحاوي، «شرح مشكل الآثار»، ت شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة،ط١، ١٤١٥ هـ- ١٤٩٤م.

٨٣. عبد الكريم النملة، "المهذب في أصول الفقه المقارن"، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٨٤. ابن فارس، "معجم مقاييس اللغة"، ت عبدالسلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

٨٥. الفيروز آبادي، "القاموس المحيط"، ت مركز الرسالة....، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.

٨٦. ابن القيم، "رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه"، ت المديفر، دار عالم الفوائد.

٨٧. ابن كثير، "السيرة النبوية من البداية والنهاية"، مصطفى عبدالواحد، دار المعرفة، ١٣٩٥هـ- ١٩٧٦م.

٨٨. المباركفوري، "الرحيق المختوم"، دار الهلال.

٨٩. مسلم، «الجامع الصحيح»، إ محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي.

ملاءمة التكاليف الشرعية للمكلف وأوجه الرحمة فيها

إعداد:
د. يحيى مقبل الصباحي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
جامعة صنعاء
كلية التربية والآداب والعلوم – مأرب

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، نحمده تعالى، ونستعينه، ونستهديه، ونتوكل عليه ونؤمن به، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ونشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

خلق الله الإنسان في الحياة خليفة في أرضه ابتلاء وامتحانًا، فأرسل الرسل وأنزل الكتب للدلالة على الخير والهداية إلى أقوم السبل، وبيان المنهج الذي يصلحه ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك] رحمة منه ولطفًا، ثم جعل له حرية الاختيار ليشكر أم يكفر ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾ [الإنسان:٣].

لذا شُرعت التكاليف الشرعية رحمة به في الدنيا ونجاة وفوزًا في الأخرى، فراعت تكوينه الجسدي والنفسي والعقلي، كما راعت تقلبات الزمان وتغير الأحوال، كل ذلك تحقيقًا لمصلحته في الدارين ورفعًا للحرج قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج:٧٨].

وأريد اليسر مقصدا شرعيًا، وركيزة أساسية للتكليف ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة:١٨٥] فالإنسان ليس جسدًا فحسب، بل روح تسري تبحث عن هدايتها لينعم الجسد بنورها.

وانطلاقًا من أنوار الهداية الربانية الشاملة للرحمة العالمية الشاملة، سيتناول البحث الرحمة في التكاليف الشريعة، وملاءمتها لقدرة المكلف من خلال مخطط البحث التالي:

الهدف العام للبحث:

يهدف إلى بيان صور الرحمة من خلال التكاليف الشرعية، وملاءمتها للمكلف في كل أحواله.

الأهداف الجزئية:

١. معرفة سمات التكاليف الشرعية وأوجه الرحمة بالمكلف.

٢. التعرف بشكل مجمل على مقاصد التكاليف وكيف تتحقق الرحمة من خلالها.

٣. بيان أثر أداء المكلف للتكاليف بعيدا عن الحرج والعنت.

مشكلة البحث:

يناقش البحث علاقة التكاليف بالرحمة بالمكلفين، إذ إن المفهوم العام بأن التكليف مشقة وعسر، ويحاول الإجابة على السؤال التالي:

كيف بنى الإسلام التكاليف الشرعية؟ وكيف وجدت صور الرحمة من خلالها ؟

منهجية البحث:

١. اعتمدت الدراسة في منهجها على المنهج الوصفي والتحليلي،

من خلال تعريفها بالتكاليف الشرعية ومقاصدها وبيان درجاتها وسماتها البارزة، ومن ثم تحليل أوجه الرحمة من خلال الأوصاف والشروط المتعلقة بأداء التكاليف، وبيان منهج الشارع الحكيم في تكليفه المكلفين.

٢. تناول البحث أبعاد التكاليف الشرعية وغاياتها بصورة مجملة لا أحكامها، بما يتناسب مع أهداف المؤتمر.

٣. ابتعد البحث عن الخوض في التفاصيل الفقهية، وكذا المقارنة بين الأقوال والآراء مراعاة لموضوع المؤتمر، وعدم الاستغراق في أمور ليس محلها هنا.

الدراسات السابقة:

هناك الكثير من الكتابات سواء كانت بحوثاً علمية أو كتابات عادية، لكن بإحدى الصور الثلاث:

١. كتابات حول التيسير ورفع الحرج بالمكلف.

٢. ذكر الرحمة في أثناء الكتابة ضمن البحوث التي تدور حول الشريعة، والإسلام ونحوها بشكل عام.

٣. بحوث حول الرحمة في شخصية النبي ﷺ ذكرت فيه ضمنًا الرحمة بالمكلفين.

وكل ما سبق جهود استفاد منها الباحث، نسأل الله أن يكتب أجر الجميع، أما ما يميز البحث المقدم على ما سبق:

١. التركيز على الرحمة كغاية ومقصد للشارع.

٢. إبراز أن التكليف في أصله رحمه ابتداء ودوامًا.

٣. الدمج بين رحمة التكاليف الشرعية كأوامر ونواهي للشارع تراعي المكلف، ومقصد وغاية للتكليف نفسه.

مخطط البحث:

اقتضت طبيعة الموضوع تقسيمه إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة وتفصيلها كالتالي:

المبحث الأول: مفهوم التكاليف الشرعية وسماتها، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم التكاليف الشرعية.

المطلب الثاني: سمات التكاليف الشرعية.

المطلب الثالث: الاستطاعة وأوجه الرحمة.

المبحث الثاني: التكاليف مقاصدها وتفاوت درجاتها، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التكاليف مقاصدها وآثارها على المكلف.

المطلب الثاني: تفاوت درجات التكاليف.

المطلب الثالث: مآلات التكاليف الشرعية وأوجه الرحمة فيها.

الخاتمة: وتشمل أهم نتائج البحث والتوصيات.

المبحث الأول
مفهوم التكاليف الشرعية وسماتها

مما ينبغي الإشارة إليه تعدد مفهوم التكاليف ودلالتها في كتب اللغة والمعاجم، وتنوع مفهوم المصطلح حسب الفنون المختلفة التي تناولته، ولذا سيركز البحث بشكل مختصر على المفهوم بما يؤدي الغرض المطلوب من البحث المقدم، مبينًا السمات التي تميزت بها التكاليف الشرعية عن غيرها من التكاليف الأخرى والتي يتعامل معها الإنسان في حياته اليومية، ليدرك المكلف رحمة اللّه من خلال هذه التكاليف، وسيتناول المبحث ما سبق من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول
مفهوم التكاليف الشرعية

التكليف لغة: مصدر كلّف. يقال: كلفه تكليفاً أي: أمره بما يشق عليه، وتكلفت الشيء تجشمته، ويقال: حملت الشيء تَكِّلفةً، إذا لم تطقه إلا تكلفاً والكلفة: ما يتكلفه من نائبة أو حق، وكلفه أمراً: إذا أوجبه عليه أو فرض عليه عملاً ذا مشقة[١].

---

(١) الجوهري: الصحاح، دار إحياء التراث العربي. بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، ٣/ ١١٧٧. الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، دار النشر: دار الهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين، مادة كلف. =

وفي اصطلاح العلماء: طلب الشارع ما فيه كلفة من فعل أو ترك بطريق الحكم، وهو الخطاب المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير(١).

إذاً: فالتكليف إلزام ما فيه كلفة على المخاطب، إذ التكليف استدعاء حصول الفعل على قصد الامتثال، سواء كان الفعل طلباً أو نهياً.

إطلاق لفظ التكاليف على الأحكام الشرعية:

جُبل الإنسان على حب الشهوات والملاذ الفانية كما قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران:١٤] والأحكام الشرعية فيها نوع من المشقة على النفس، خلافًا لمن يتتبع متع الحياة والركون إلى الراحة والاسترخاء خصوصًا في بداية سيرها إلى الله، وهذه المشاق منها ما هو عادي ملازم للحياة لا ينفك عن التكليف كمشقة البرد في الوضوء والغسل، ومشقة الصوم في شدة الحر وطول النهار، ومشقة السفر التي لا انفكاك للحج والجهاد عنها، ومشقة ألم الحدود ورجم الزناة ونحو ذلك.

أما المشقة التي تتجاوز الحدود العادية والطاقة البشرية السوية، كالتي تؤدي إلى هلاك المكلف أو ضياع إحدى الضرورات الخمس، فنحو هذه المشقات إنما هي مرفوعة عن الأمة، ولم يكلفنا الله بها، بل هي موجبة للرخصة.

= وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – الكويت–الموسوعة الفقهية، دار السلاسل – الكويت الطبعة الثانية، ١٣/٢٤٨.

(١) ينظر: السبكي تاج الدين: جمع الجوامع في أصول الفقه ، المحقق: عبدالمنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، سنة النشر: ١٤٢٤هـ–٢٠٠٣م، ١/١٧١. الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ–١٩٩٩م ص٦. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية–الكويت: المصدر السابق ١٣/٢٤٨. هيتو: الوجيز في أصول التشريع، مؤسسة الرسالة، بيروت ط٢ ص٩٩.

أما المشاق العادية قد يستشعرها من هو في بداية الطريق إلى الله، أولم يجد به السير، أما من اعتاد السير في دروب الهداية، وتوغلت نفسه بأنوار التكاليف الربانية، ستكون التكاليف والمشاق المصاحبة معها قرة للعيون وراحة للنفوس، ومن تأمل قوله ﷺ: «أرحنا بها يا بلال»[1] علم مقصود ذلك.

فتكاليف الشرع محبوبة للمؤمن، إذ بها يتغلب على هوى النفس ويسعى في تزكيتها، ويمتثل أوامر خالقه ومعبوده، مستشعرًا بأن طريق الجنة محفوف بالمكاره كما قال ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[2].

وعليه: فإطلاق اللفظ من باب بيان امتثال المكلف للقيام بالتكليف طاعة ورجاء ما عند الله، والثواب والأجر ليس مترتب على شدة التعب، بل على إحسان العمل وتأديته كما أمر الله، بل لو وجدت المشقة تكون معتادة قدر وسع المكلف[3].

ولذا: (فنفس الإيمان بالله وعبادته ومحبته وإجلاله هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه كما عليه أهل الإيمان، وكما دل عليه القرآن، لا كما يقول من يعتقد من أهل الكلام ونحوهم، إن عبادته تكليف ومشقة، وخلاف مقصود القلب لمجرد الامتحان والاختبار، أو لأجل التعويض بالأجرة كما يقوله المعتزلة وغيرهم، فإنه وإن كان في الأعمال الصالحة ما هو على خلاف هوى النفس، والله سبحانه وتعالى يأجر العبد على الأعمال المأمور

(١) سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار النشر: دار الفكر، بيروت كتاب الأدب- باب في صلاة العَتَمَة، ٢٩٦/٤ رقم الحديث٤٩٨٥. صححه الشيخ الألباني، كما في صحيح الجامع ١٣٠٧/٢ رقم (٧٨٩٢).

(٢) صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢١٧٤/٤)، رقم الحديث ٢٨٢٢.

(٣) المنياوي، محمود بن محمد، الشرح الكبير لمختصر الأصول من علم الأصول، المكتبة الشاملة، مصر ط ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، ص٩٠.

بها مع المشقة كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾ [التوبة:١٢٠] وقال ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «أجرك على قدر نصبك»[١] فليس ذلك هو المقصود الأول بالأمر الشرعي وإنما وقع ضمنًا وتبعًا لأسباب[٢].

ورغم اختلاف أهل العلم[٣] بقدر المشقة والثواب المترتب عليها بقدر اتفاقهم على أن أفضل الأعمال ما كان في مكانه وبشرطه، و أنه لا قبول بغير الإخلاص والمتابعة للنبي ﷺ ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومما ينبغي أن يعرف أن الله ليس رضاه، أو محبته في مجرد عذاب النفس، وحملها على المشاق حتى يكون العمل كلما كان أشق كان أفضل)[٤].

وقال العز بن عبدالسلام: (قد علمنا من موارد الشرع ومصادره، أن مطلوب الشرع إنما هو مصالح العباد في دينهم ودنياهم، وليست المشقة مصلحة، بل الأمر بما يستلزم المشقة بمثابة أمر الطبيب المريض باستعمال الدواء المرّ البشع، فإنه ليس غرضه إلا الشفاء)[٥]. ومما يدل على صحة تسمية أوامر الشرع تكليفًا قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] تدل على امتناع التكليف بما خرج عن الوسع والطاقة، وتدل على صحة التكليف بما يدخل تحت الوسع والقدرة.

---

(١) الحاكم: المستدرك على الصحيحين، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١١هـ-١٩٩٠م، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا. ٤٧٢/١ (وقال صحيح على شرطهما)، وصححه الألباني، صحيح الترغيب والترهيب: مكتَبة المَعارف للنَشْر والتوزيْع، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ١٣/٢رقم الحديث ١١١٦.

(٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، دار الكتب العلمية، ط٢، ٢٥/١.

(٣) منهم من يعتبر المشقة رافعة في قيمة الأعمال، وهو قول القرافي في الفروق ٢٣٥/٢. والسيوطي في الأشباه والنظائر ص٢٦٨. ومنهم من قال: إن الأجر على قدر المنفعة من العمل، وبه قال العز بن عبدالسلام وابن تيمية، والشاطبي وغيرهم.

(٤) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ص٢٥.

(٥) العز بن عبدالسلام: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت. ٣١/١.

المطلب الثاني
سمات التكاليف الشرعية وأوجه الرحمة فيها

للتكاليف الشرعية سمات تتميز بها عن غيرها من القوانين والأنظمة، إذ أنها تهدف إلى إيجاد الفرد المستخلف، القادر على القيام بالأمانة الموكلة إليه، مراعاة لحاله ووضعه، ولعل أبرز هذه السمات ما يلي:

أولًا: ارتباطها بالغايات

ما يميز أي: عمل أو تكليف ليس صورته أو مظهره، بل الغاية التي يريد تحقيقها، والمقصد الذي سيوصل صاحبه إليه، فليس الغاية من التشريع هو صورة الفعل فقط، فنجد قبول التكاليف من قبل الشارع مرتبطاً بغاياتها ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] ففي الصلاة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥] وفي الصوم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة] وبعد أن بين سبيل الخير ونهى عن سبل الغواية ختم ببيان الغاية ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

فالتكاليف الشرعية: انطلاقة إيمانية تشمل الحياة كلّها. تبني في الإنسان قيم الاستخلاف في الأرض، والوعي بقضايا الحياة المختلفة.

فتثمر التكاليف ثمرتها وتحقق غايتها، إذا صدق المكلف في أدائها، وتمثلت سلوكًا عمليًا في حياته، يقول الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فالصّلاة والصّيام والزّكاة والحجّ، وما أشبه هذه الطّاعات من تعاليم الإسلام، هي مدارج الكمال المنشود، وروافد التّطهّر الّذي يصون الحياة ويعلي شأنها، ولهذه السّجايا الكريمة الّتي ترتبط بها أو تنشأ عنها أعطيت منزلة كبيرة

في دين اللّه، فإذا لم يستفد المرء منها ما يزكّي قلبه وينقّي لبه، ويهذّب باللّه وبالنّاس صلته فقد هوى)[١].

والتكليف الذي لا يؤدي غايته ولا يحقق مقصده ليس لصورته قيمة في ميزان الشرع، بل صاحبه مذموم وإن أداه، قال تعالى ذامًا عددًا من المكلفين بسبب عدم تحقق مقاصد التكليف: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾﴾ [الماعون:٤-٦].

وقال ﷺ: «من لم يدع قول الزور، والعمل به فليس للّه حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[٢].

وقال في الحج: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة].

ومن هنا ندرك أن قيمة التكليف يتحدد بتحقيق غايته ومقصده وإلا فلا قيمة له، قال تعالى مبينًا عاقبة الأعمال التي لم تحقق غايتها: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان]وقوله ﷺ: «أتدرون من المفلس؟: «المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذاً، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من سيئاتهم وخطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»[٣].

(١) محمد الغزالي: خلق المسلم، دار الكتب الإسلامية، عابدين، مصر الطبعة التاسعة١٤٠٣هـ-١٩٨٣م. ص٥.

(٢) صحيح البخاري: تحقيق، محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ، في الصوم: باب من لم يدع قول الزور، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ٢٦/٣ رقم الحديث١٩٠٣.

(٣) صحيح مسلم، باب تحريم الظلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ١٩٩٧/٤ رقم الحديث٢٥٨١.

ثانيًا: السهولة واليسر

اليُسْر مقصد من مقاصد الإسلام الكبرى وغاية من غاياته، جعله الله منطلقًا لكل التكاليف الشرعية أمرًا ونهيًا، وأمرنا أن نلتزمه في فهمنا للدين والعمل به والدعوة إليه قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥] قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿يُرِيدُ﴾ أي: يحب؛ فالإرادة شرعية؛ والمعنى: يحب لكم اليسر؛ وليست الإرادة الكونية؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لو أراد بنا اليسر كوناً ما تعسرت الأمور على أحد أبداً؛ فتعين أن يكون المراد بالإرادة هنا الشرعية؛ ولهذا لا تجد -والحمد لله- في هذه الشريعة عسراً أبداً)[١] شرعت أحكامه لتعتنقها البشرية بعيدًا عن العنت والمشقة، قال ﷺ: «إن خير دينكم أَيْسره، إن خير دينكم أَيْسره، إن خير دينكم أَيْسره»[٢] وفي لفظٍ: «إنكم أمة أُريد بكم اليُسْر» [٣]، ولذا نجدها تتماشى مع الطبيعة البشرية التي تنفر من الصعب، وتمل من كثرة العمل، فنجد تنوعها زمانًا وشخصًا، وذلك بسبب ما فطرت عليه النفس البشرية من الضعف، وما ركب فيها من الملل والتقلب قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾ [النساء] فإذا كان الله تعالى قد يسر وسهل العمل بما أنزل من أمر ونهي ؛ فكذلك يجب أن نمارسه فهمًا ودعوة وفتيا .

ثالثًا: مرونة التكاليف:

أرسل الله محمدًا ﷺ للناس كافة مكانًا وزمانًا ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨] واقتضت حكمته أن تكون شريعته صالحة مصلحة لأحوالهم، حسب حاجاتهم وقدراتهم، فتتنزل

---

(١) محمد بن صالح العثيمين، تفسير القرآن الكريم، دار ابن الجوزي، السعودية، ط ١، ١٤٢٣ه، ٢٧١/٤.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث - القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ -١٩٩٥م. ٣/ ٤٧٩ . وصححه الألباني برقم (٣٣٠٩) في صحيح الجامع.

(٣) المصدر السابق. وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح١/٩٤.

عليهم التكاليف مفصلة تفصيلًا كل بما يناسبه والأحوال التي تعيشها المجتمعات المختلفة، وذلك بما اشتملت عليه من التيسير ورفع الحرج ومراعاة أحوال الناس وعاداتهم وأعرافهم، فأنشأت الشريعة التكاليف في باب العبادات بما يناسب القدرات وتراعي ظروف الزمان والمكان.

كما وضعت التشريعات في المعاملات أسساً عامة للمحافظة على مصلحة الفرد، ورحمة به وبالمجتمع من حوله، فتركت الشريعة للناس إنشاء صور البيوع، مع حماية إقامة العدل والقسط، ومنع أسباب التشاحن والتباغض(١).

فالتكاليف الشرعية قائمة على مراعاة قدرة المكلف وحاجته، ولا شك بأن حاجات المكلفين تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة، فهل معنى ذلك أن التشريعات الإسلامية تتغير تبعاً لتغير الحاجات؟ الجواب على ذلك: لا، فالذي يتغير هو تنزيلها على المكلف بحسب حاله وحاجته، فالتكاليف الشرعية حقيقة واحدة، ولكن لها صور متعددة الأشكال، ذلك أن حكمة الله تعالى اقتضت تفاوت الناس في الفهوم والمدارك والقدرات، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام:١٦٥] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة:٤٨] فغاية الشريعة رحمتها بالمكلف يسرًا وسهولة، ومراعاة لأحواله.

إن منهج الرحمة من خلال السمات السابقة منهج متكامل، يُعنى بالحياة من جميع جوانبها، مما يضمن له الشمول والبقاء، وتبرز أوجه الرحمة في التالي:

(١) ينظر: فتحي عثمان، الفكر الإسلامي والتطور، مطابع دار القلم- القاهرة ص/٦٨، عباس العقاد: صور من سماحة الإسلام ص/٧٩.

١. سهولة الفهم والإدراك: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [القمر] يقول الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومنها أن تكون التكاليف الاعتقادية والعملية مما يسع الأمي تعقلها ليسعه الدخول تحت حكمها، أما الاعتقادية فأن تكون من القرب للفهم والسهولة على العقل بحيث يشترك فيها الجمهور، من كان منهم ثاقب الفهم، أو بليداً، فإنها لو كانت مما لا يدركه إلا الخواص لم تكن الشريعة عامه، ولم تكن أمية، وقد ثبت كونها كذلك)(١).

وانطلاقًا من يسره وسماحته، ورحمته بالمكلف انتشر الإسلام في أوساط المدعوين لما لمسوه من الرحمة عملاً وأثراً: (فمن أسباب انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، أنه دين بسيط، سهل القواعد والأصول، لا يحوج المتدين به بعد الإيمان بالوحدانية وفرائض العبادة إلى شيء من الغوامض التي يدين بها أتباع العقائد الأخرى، ولا يفقهون ما فحواها)(٢).

فلو جُعل الإسلام رموزًا لا يفهمه إلا نخبة من الناس لخرج عن الرحمة التي أنزل بها، وأرسل بها سيد الأولين والآخرين ﷺ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧]، فالتكاليف يفقهها كل أحد، ويطلع عليها ويعرفها بيسر وسهولة، بل كان الأعرابي يقدم على النبي ﷺ فيتعلم منه أمور الإسلام وفرائضه في مدة زمنية محدودة، ثم ينطلق إلى قومه مبشرًا وداعيًا(٣).

٢. من تتبع أبواب الفقه الإسلامي وجد أن التكاليف لا تلقى هكذا،

(١) الشاطبي: الموافقات، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م (١٤١/٢).
(٢) عباس العقاد: الإسلام في القرن العشرين، نهضة مصر للنشر والتوزيع، ص١٩-٢٠.
(٣) ينظر: صحيح مسلم، الأعرابي وسؤاله عن الإسلام ١/٤٠-٤٤ ورقم الأحاديث ١١-١٥.

بل سيجد شروط القيام بها، والأعذار المسقطة، والموانع من القيام بالعمل سواء كانت داخلية أو خارجية، وأعذاراً أخرى خارجة عن قدرة المكلف كالجهل بالتحريم، ويترتب على ذلك رحمة الشارع به من حيث عدم إقامة الحدود عليه، ومنه سقوط العبادات وسائر حقوق الله تعالى السابقة على الإسلام، فلا يطالب بقضائها حتى على قول من يرى أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، ترغيباً لهم في الإسلام، و لئلا تكون مشقة القضاء حائلاً بينهم وبين الإسلام(١).

٣. التخفيف على الناس: كالنهي عن الإطالة في الصلاة قال ﷺ: «يا أيها الناس إن منكم منفرين، فمن أمَّ الناس فليتجوز»(٢).

وفي قوله ﷺ: «أفتان أنت يا معاذ»(٣) قال الإمام النووي رحمه الله: (أي: منفر عن الدين وصادّ عنه»(٤).

ومن ذلكم ما رواه أَبو مَسْعُود الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ فَقَالَ: إِنِّي لَأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلَاةِ الصُّبحِ مِنْ أَجلِ فُلَانٍ، مِمَّا يُطِيلُ بِنَا فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ غَضِبَ فِي مَوْعِظَةٍ قَطُّ أَشَدَّ مِمَّا غَضِبَ يَوْمَئِذٍ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ أَمَّ النَّاسَ، فَلْيُوجِزْ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِ الْكَبِيرَ، وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ»(٥) وكان ﷺ، يدخل في الصلاة ليطيل فيسمع بكاء الصبي فيخفف رفقًا بأمه(٦)،

---

(١) ينظر: القرافي: أنوار البروق في أنواء الفروق، عالم الكتب (٣/١٨٤-١٨٥) ويُلحق به حديث العهد بالتوبة، ينظر: العيني عمدة القاري ٢/٤٧.

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأولاً أو جاهلاً (٧/٩٧) ومسلم، كتاب الصلاة باب القراءة في العشاء ١/٣٣٩.

(٣) رواه البخاري، كتاب الأذان باب من شكا إمامه إذا طول (١/١٧٢). ومسلم، كتاب الصلاة باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام ١/٣٤٠.

(٤) النووي:، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار المعرفة؛ بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٤م. ٤/١٨٢.

(٥) صحيح مسلم ١/٣٤٠ رقم الحديث٤٦٦.

(٦) صحيح البخاري ١/١٤٣ رقم الحديث٧٠٧.

وقال ﷺ: «إنّ الدّين يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادّ الدّين أَحَدٌ إلّا غَلَبَهُ»(١) وعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ، قَالَ: «بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»(٢) إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة والحاصل أن الله سبحانه وتعالى جعل هذه الأمة في دينها اليسر رحمة ولطفًا، ومن هذه الرحمة قوله ﷺ لعمران بن حصين رضي الله عنه، وقد كانت به بواسير: «صَلِّ قَائِمًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ» (٣) ورأى ﷺ، رجلًا واقفًا في الشمس فقال: من هذا قالوا: يا رسول الله هذا أبو إسرائيل نذر أن يصوم، وأن لا يستظل، ولا يركب فقال: «مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّمْ، وَلْيَسْتَظِلَّ، وَلْيَقْعُدْ، وَلْيُتِمَّ صَوْمَه»(٤).

٤. قطع الأعذار الموجبة لترك الأعمال: كما أرسل الله الرسل لئلا يكون للناس على الله حجة بعد ذلك، فكذلك شرع الأحكام سهلة ميسرة، لئلا يكون لأحد عذر في ترك العمل بمقتضى أحكام الشريعة.

قال الشاطبي رحمه الله: (وأما الثاني فإن المكلف بأعمال ووظائف شرعية لا بد له منها، ولا محيص له عنها، يقوم فيها بحق ربه تعالى، فإذا أوغل في عمل شاق فربما قطعه عن غيره، ولا سيما حقوق الغير التي تتعلق به، فتكون عبادته أو عمله الداخل فيه قاطعاً عما كلفه الله به، فيقصر فيه فيكون بذلك ملوماً غير معذور، إذ المراد منه القيام بجميعها على وجه لا يخل بواحدة منها، ولا بحال من أحواله فيها... فإذا ظهرت علة النهي عن الإيغال في العمل، وأنه

(١) المصدر السابق ١٦/١ رقم الحديث٣٩.
(٢) صحيح مسلم ١٣٥٨/٣ رقم الحديث١٧٣٢.
(٣) صحيح البخاري ٤٨/٢ رقم الحديث١١١٧.
(٤) المصدر السابق ١٤٣/٨ رقم الحديث٦٧٠٤.

يسبب تعطيل الوظائف، كما أنه يسبب الكسل، والترك، ويبغض العبادة فإذا وجدت العلة، أو كانت متوقعة نُهي عن ذلك)[١].

٥. إبعاد الملل: وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ بقوله: «خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا»[٢]، إن من الغايات من ممارسة العبادة؛ إقبال المسلم عليها عن حب لها، واشتياق إليها، فلا يعتريه ملل أو سأم في بدء أدائها، ولا في أثنائها، وفي هذا يقول الشاطبي رحمه الله: (إن الله وضع هذه الشريعة المباركة حنيفية سمحة، سهلة، حفظ فيها على الخلق قلوبهم، وحببها لهم بذلك، فلو عملوا على خلاف السماح والسهولة لدخل عليهم فيما كلفوا به ما لا تخلص به أعمالهم)[٣] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (قوله: باب ما يكره من التشديد في العبادة)، قال ابن بطال: (إنما يكره ذلك خشية الملال المفضي إلى ترك العبادة)[٤] والملال: استثقال الشيء ونفور النفوس عنه بعد محبته[٥].

والغاية من هذا كله الامتثال للطاعة وتمكين المكلف من أداء العبادة والاستجابة لربه في كل الظروف والأحوال.

المطلب الثالث
الاستطاعة وأوجه الرحمة

من أبرز سمات ومعالم الرحمة الربانية بالمكلف أنه ربط القيام بالتكاليف

(١) الشاطبي: الموافقات (٢/٢٤٧-٢٥٠ بتصرف.
(٢) رواه مسلم كتاب الصيام، باب صيام النبي ﷺ ٢/٨١١.
(٣) الشاطبي: الموافقات ٢/٢٣٣.
(٤) ابن حجر: فتح الباري. القاهرة، دار الحديث ط١٩٩٨م، ٣/٤٤.
(٥) ينظر: المصدر السابق ١/١١٧.

أداء وتحملًا بالاستطاعة قال الرّاغبُ: الاستطاعَةُ عندَ المُحَقّقينَ: اسمٌ للمعاني التي بها يَتَمَكّنُ الإنسانُ ممّا يُريدُه من إحداثِ الفعلِ وهي أَربعَةُ أَشياءَ: بِنْيَةٌ مَخصوصَةٌ للفاعِلِ وتَصَوُّرٌ للفعْلِ ومادّةٌ قابِلَةٌ لتأْثيرِهِ وآلَةٌ إنْ كانَ الفِعْلُ آلِيّاً كالكتابَةِ فإنّ الكاتبَ يحتاجُ إلى هذه الأَربعَةِ في إيجادِه للكتابَةِ ولذلكَ يُقال: فلانٌ غيرُ مُستَطيعٍ للكتابَةِ: إذا فقدَ واحِداً من هذه الأَربَعَةِ فصاعِداً ويُضادُّهُ العَجْزُ وهو أَن لَا يَجِدَ أَحَدَ هذه الأَربعة فصاعداً ومَتى وَجَدَ هذه الأَربعةَ كلّها فمُستطيعٌ مُطلَقاً ومتى فقدَها فعاجِزٌ مُطلَقاً، ومتى وجَدَ بعضَها دونَ بعضٍ فمُستَطيعٌ من وَجهٍ عاجِزٌ من وَجهٍ ولأَنْ يُوصَفَ بالعجزِ أَولَى[(١)].

والوسع والطاقة والتمكن والإمكان بمعنى الاستطاعة. فشمول الاستطاعة تشمل الزمان والمكان والقدرة على أداء التكليف بصورته الأصلية، أو الصور البديلة باستكمال الشروط وانتفاء الموانع.

ولبيان أوجه الرحمة في شرط الاستطاعة سنجد التالي:

١. ربط الشارع القيام بالتكاليف بتوفرها، قال إمام الحرمين في البرهان: يكلف المتمكن ويقع التكليف بالممكن[(٢)]. (قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن:١٦] ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق:٧] وقال تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٦] ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه خطبنا رسول الله ﷺ: «فقال أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله

(١) الراغب الأصفهاني: المفردات غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ، ص٤٣٠.

(٢) الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين البرهان في أصول الفقه، تحقيق: صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م. ١٦/١.

فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ لو قلت: نعم لوجبت ولما استطعتم ثم قال: ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»[١].

٢. الاستطاعة مناط التكليف بالتكاليف الشرعية بعد العقل والعلم، فالعاقل العالم بالحكم الشرعي لا يجب عليه إلا إذا كان مستطيعًا قادرًا عليه كقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧] فليس كل عالم بتكليف يجب عليه أداؤه إلا المستطيع، ومنه قاعدة (لا واجب مع العجز ولا محرم مع الضرورة)[٢] وأوضح ابن تيمية رحمه الله هذا المعنى بقوله: (وإذا تبين هذا فمن ترك بعض الإيمان الواجب لعجزه عنه أو لعدم تمكنه من العلم مثل ألا تبلغه الرسالة، أو لعدم تمكنه من العمل، لم يكن مأمورًا بما يعجز عنه، ولم يكن ذلك من الإيمان والدين الواجب في حقه، وإن كان من الدين والإيمان الواجب في الأصل بمنزلة صلاة المريض والخائف والمستحاضة وسائر أهل الأعذار الذين يعجزون عن إتمام الصلاة، فإن صلاتهم صحيحة بحسب ما قدروا عليه، وبه أمروا إذ ذاك)[٣].

وفي الحديث الصحيح قال النبي ﷺ: «يا أيها الناس خذوا من الأعمال ما تطيقون»[٤].

إذ إن الاستطاعة شرط تنزيل الأحكام، تتنوع درجاتها بتنوع أحوال المكلفين زمانًا ومكانًا.

(١) صحيح مسلم ٢/٩٧٥رقم الحديث١٣٣٧.
(٢) ينظر: ابن القيم: إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار النشر: دار الجيل – بيروت – ١٩٧٣، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد. ٣/ ٢٢٧. وينظر: محمد عثمان شبير؛ القواعد الكلية والضوابط الفقهية في الشريعة الإسلامية،، دار النفائس، عمّان الأردن، ط ٢، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م ص٢٢٤.
(٣) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، بدون تاريخ، ط: الثانية، ١٢/ ٣٢٣.
(٤) صحيح البخاري٣/٣٩.

٣. يبدأ الإسلام مع المكلف من حيث حالته، وينزل عليه من الأحكام ما يتناسب مع استطاعته ومرحلته وحالته.. وهذه الأحكام تعتبر حدود تكليفه، أو غاية تكليفه، فإذا ارتقى بها وقويت استطاعته نـزّل عليه من الأحكام ما يتناسب معها وهكذا.. لذا نجد أسباب النزول، جاءت تعالج القضايا المختلفة بحسب أحوال من نزل عليهم الحكم، فهي استجابة لحالة يعاني منها فرد أو جماعة، ليكون أنموذجاً يجرد من الزمان والمكان ويولد في كل زمان ومكان، ذلك أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما يقول علماء الأصول.

فأسباب النزول لا تخرج عن كونها وسائل معينة لكيفية تنزيل النص على الواقع ومعالجة مشكلاته.

ومن هنا أدرك الشارع أبعاد الاستطاعة قبل تحديد مدى التكليف وتنزيل الحكم على محله، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة فمما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: «بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله هلكت! قال: مالَكَ ؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم، فقال رسول الله ﷺ: (هل تجد رقبة تعتقها ؟ قال: لا (وفي رواية قال: ما أملك رقبة غيرها، وضرب على صفحة رقبته) قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ قال: لا، (وفي رواية: هل أصبت الذي أصبت إلا من الصيام ؟) فقال: هل تجد إطعام ستين مسكيناً ؟ قال: لا، (وفي رواية قال: والذي بعثك بالحق ما لنا طعام)، قال: فمكث النبي ﷺ، فبينما نحن على ذلك أُتي النبيَّ ﷺ بعرق فيها تمر، قال: أين السائل ؟ قال: أنا، قال: خذ هذا فتصدق به، فقال الرجل: على أفقر مني يا رسول الله، فوالله ما بين لابتيها

-يريد الحرتين- أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: أطعمه أهلك»[1].

فلنلحظ الرحمة من بداية الحكم فقد تنوع الحكم وتدرج، متنقلاً من التعرف على حالة الاستطاعة إلى حالة أخرى، حتى استقر بأن يأخذ الكفارة من وقع في الخطأ، وأطعم أهله منها، وهو الذي كان مطالبًا بإخراجها.

ثم نلحظ الأسلوب النبوي في التعامل، ومبلغ رحمة الشارع في التعامل مع المعصية التي ارتكبها المكلف (فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه).

لقد راعى الإسلام المكلف وقدراته منذ نزول ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق]، ونمى معه إلى الوصول إلى اكتمال التنزيل، فراعت النصوص الشرعية جوانب الحياة بكل تقلباتها، عجزًا وقدرة وضعفًا وقوة ومن ثم تنوعت التكاليف وتعددت درجاتها، تتوزع بحسب حالة المكلفين عزيمة ورخصة، وعلى هذا فكل حالة تكليفها يتناسب مع قدرتها واستطاعتها.

٤. التكاليف الشرعية متوافقة مع الطبيعة التكوينية للإنسان: فالذي خلق الإنسان والظروف والزمان أعلم بقدرات الإنسان وحاجاته الأصلية ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك] فالتكليف الشرعي ابتداءً، بمراتبه وخطابه، إنما يقع ضمن الوسع والإمكان البشري، فلا يمكن أن يتجاوز حدود الطاقة البشرية بظروفها المتنوعة، وحالتها المتقلبة، من أدنى مراتب الحكم الشرعي الندب والاستحباب إلى أعلى مراتبه الفرض والواجب.

(١) المصدر السابق، كتاب الصيام ٣/ ٣٢ رقم الحديث١٩٣٦.

ذلك أن أحكام الشريعة متناسبة مع طبيعة البشر وحالاتهم المتقلبة المتغيرة، والذي يؤكد على أن الأحكام الشرعية أو التكليف ابتداءً متوافق مع كينونة الإنسان وقدراته، إلى جانب الأدلة النظرية والبراهين العقلية، فهذه الأحكام تمثلت وتجسدت في أنموذج بشري، وتحققت من خلالها التجربة الأولى في التطبيق فجنت البشرية من خلالها الحياة الطيبة المستقرة، والنصر والتمكين، وانتشر الإسلام في أرجاء المعمورة رحمة ولطفًا وسعة وتمكينًا.

٥. التكليف الشرعي يتغير شكل أدائه أو صورته بحسب الاستطاعة لكل مكلف، لتغير أحواله وتقلبه في الحياة بين محطات الابتلاء بالشدة والرخاء، والعسر واليسر، والصحة والمرض، والوجود والعدم، فما هو مطلوب من الواجد للماء غير ما هو مطلوب من العادم له، وكذا ما هو مطلوب من مَن يعش في حالة الأمن غير من هو في حالة الخوف، وكذا ما هو مطلوب من مَن يتنعم بالصحة والعافية غير من حاصرته الأمراض وأقعدته الأسقام،.. فأقدار التدين والابتلاءات لا تتجمد على حالة واحدة، ولا تتوقف عند حدٍ معين.

المبحث الثاني
التكاليف مقاصدها وتفاوت درجاتها

تدور التكاليف الشرعية بين الأمر والنهي على اختلاف درجاتها وتفاوت مراتبها، والأصل فيها قوله ﷺ: «ما نهيتكم عنه، فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم»[1].

وتهدف إلى الرحمة بالمكلف من خلال اتباع قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال:٢٩] والسعادة بالحياة الطيبة التي يحياها المؤمن من خلال القيام بالأوامر واجتناب النواهي ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

ولملاءمة حال المكلف وتغير الملابسات والظروف من حوله يتطلب الوعي إلى أهمية الواقع لاستكشاف كنه الخطاب و فقه تنزيله، ولهذا قال الشاطبي: (فيزن بميزان نظره ويهتدى لما هو اللائق والأحرى في كل تصرف آخذا ما بين الأدلة الشرعية والمحاسن العادية كالعدل والإحسان والوفاء

(١) صحيح مسلم، باب وجوب اتباعه ﷺ ٤/ ١٨٣٠ رقم الحديث١٣٣٧.

بالعهد وإنفاق عفو المال وأشباه ذلك...، فالحاصل أن العموم إنما يعتبر بالاستعمال ووجوه الاستعمال كثيرة لكن ضابطها هو مقتضيات الأحوال التي هي ملاك البيان)[1]. أما بخصوص المفاهيم المطلقة فيقول الشاطبي: الذي أثارها لأول مرة أن حقيقتها تتحدد بالواقع و ملابساته، فقال بأنها إذا أتت على العموم والإطلاق في كل شيء وعلى كل حال لكن بحسب كل مقام وعلى ما تعطيه شواهد الأحوال في كل موضع، لا على وزان واحد ولا حكم واحد. وهذا منه، الى أن مقياسها يتحدد بالواقع، كما أشار إلى تغيرها بحسب الظروف وبحسب متعلقها فقال: فقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠] ليس الإحسان فيه مأمورًا به أمرًا جازمًا في كل شيء، ولا غير جازم في كل شيء بل ينقسم بحسب المناطات[2].

المطلب الأول
مقاصد التكاليف وآثارها على المكلف

غاية التكاليف الشرعية تهذيب الإنسان، وتهيئته للقيام بالاستخلاف في الأرض، وتحقيق مصلحته في العاجل والآجل، فأمرهم (بتحصيل مصالح إجابته وطاعته، ودرء مفاسد معصيته ومخالفته؛ إحسانًا منه إليهم، وإنعامًا عليهم؛ لأنه غني عن طاعتهم وعبادتهم. فعرفهم ما فيه رشدهم ومصالحهم ليفعلوه؛ وما فيه غيهم ومفاسدهم ليجتنبوه، وأخبرهم أن الشيطان لهم عدو ليجتنبوه ويعادوه ويخالفوه، فرتب مصالح الدارين على طاعته واجتناب معصيته)[3].

(١) الشاطبي: الموافقات ٣/١٣٨.
(٢) الشاطبي: الموافقات ٣/٣٩٥ و ما بعدها بتصرف.
(٣) العز بن عبدالسلام: قواعد الأحكام في مصالح الأنام ص٣.

فحافظت على القيم وبنت روح المسؤولية لدى المكلف حتى لا تكون حياته عبثا (فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه وظله في أرضه وحكمته الدالّة عليه وعلى صدق رسوله)[١].

ولذا سنجد النصوص الشرعية تعلل الأحكام، وتركز على غاية التكليف قبل أن تركز على صورته ومظهره، رحمة بالمكلف وسعيًا لتحقيق سعادته في الدارين، ولعل أبرز صور الرحمة في هذا ما يلي:

دوام الصلة بالله: فالارتباط الدائم بالله نعمة ومنة كبيرة من الله، فأبرز عنوان الارتباط هو القيام بما أمره الله أن يقوم به، والاستمرار على الطاعة إلى النهاية وإن كانت قليلة، قال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»[٢].

١. فإن الدوام على الأعمال الصالحة مقصد من مقاصد الشريعة، وهدف من أهدافها العامة، يدل على ذلك مجمل التكاليف الشرعية، فالأعمال فيها مقسمة إلى فرائض ونوافل كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»[٣]، والفرائض مقسمة على الزمن، بما يجعل العبد دائم الصلة بربه،

(١) ابن القيم: اعلام الموقعين ٣/ ١١.
(٢) صحيح البخاري، بَابُ الجُلُوسِ عَلَى الحَصِيرِ وَنَحْوِهِ ٧/ ١٥٥رقم الحديث٥٨٦١.
(٣) المصدر السابق، كتاب الرقاق، باب التواضع ٧/ ١٩٠.

فلليوم فرائض، وللأسبوع فريضة، وللسنة فرائض، وللعمر فرائض. فمن التزم تلك الفرائض فهو مداوم على طاعة الله جل جلاله.

فأي رحمة أبعد من هذا أن يظل الفرد متصلًا بربه، يستمد منه العون، ويطلب منه السداد، محفوظ من الشرور والآثام، قريب من بيده الأمر والنهي، مفتحة له أبواب العبودية لرب الأرض والسموات.

٢. تعقيب التكاليف ببيان مقاصدها وثمارها على المكلف: فالله تعالى لا يشرع إلا لحكمة، واقتضت حكمته ومشيئته أن يجعل أحكام الشريعة معللة، ومبنية على حكم ومقاصد (ولهذا شاءت قدرة الحكيم أن لا يجعل شرعه بعيدًا عما فطره في عقول البشر من اكتشاف العلاقات بين الأشياء وأسبابها، أو التشابه بين الأمور ونظائرها، لتقوم الحجة على العقل بالنص، وليتمكن العقل من إدراك حكمة النص والمقايسة عليه بعد بذل الجهد ضمن ما شرعه الله)[١].

فعلل الأحكام هذه ستقود بالضرورة إلى تحقيق مصالح الناس، والقول بالتعليل يفتح أيضًا بابا واسعًا للاجتهاد وفق ما شرعه الله حتى تبقى الشريعة حية مستمرة ومحيطة بكل مسائل الناس عندما تتوسع أمور عيشهم وتكثر مسائلهم.

وفي القول أيضًا بتعليل الأحكام منع لتجاوز البشر لحكم الله التي ارتضى لعباده، حيث تبقى دائرة اجتهادهم رهينة الأحكام المستنبطة من الشريعة[٢].

فتعليل الأحكام في الشريعة إنما وجدت لبيان الحكم والمصالح للمكلف فيعبد الله حبًا وطاعة، ورغبة ورهبة على وعي وبصيرة، قال ابن القيم

(١) عادل الشويخ، تعليل الأحكام في الشريعة الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ-٢٠٠٠م. ص٧-٨
(٢) ينظر: المصدر السابق، خاتمة الكتاب بتصرف.

رَحِمَهُ اللَّهُ: (لقد ذكر النبي ﷺ، علل الأحكام، والأوصاف المؤثرة فيها، ليدل على ارتباطها بها)[1].

ويقول أيضًا: (القرآن وسنة رسول الله ﷺ، مملوءان من تعليل الأحكام بالحكم والمصالح، وتعليل الخلق بهما، والتنبيه على وجوه الحكم التي لأجلها شرع تلك الأحكام ولأجلها خلق تلك الأعيان، ولو كان هذا في القرآن والسنة في نحو مائة موضع أو مائتين لسقناها، ولكنه يزيد على ألف موضع بطرق متنوعة)[2].

بالإضافة إلى هذه فقد نقل كثير من العلماء الإجماع على أن أحكام الله تعالى معللة بمصالح العباد[3].

قال الآمدي: (الأحكام إنما شرعت لمقاصد العباد، أما أنها مشروعة لمقاصد وحكم فيدل عليه الإجماع والمعقول، وأما الإجماع فهو أن أئمة الفقه مجمعة على أن أحكام الله لا تخلو عن حكمة مقصودة)[4].

وهذه الحكم والمقاصد تؤثر في حياة المكلف الخاصة وتعامله مع غيره، فكلما أديت التكاليف بانضباط وانتظام، تحققت مقاصدها، ولمست ثمارها في دنيا الناس على المستوى الفردي والجماعي، وكلما تملصت المجتمعات والأفراد رأينا العكس وساد الضنك قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤].

إذ أن روح التكليف هو الغاية والمقصد، فإذا لم يتحقق فلا خير في جسد بلا روح وزرع بلا ثمر.

---

(١) ابن القيم: إعلام الموقعين، ١/ ١٩٨.
(٢) ابن القيم: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت. ص ٤٠٨.
(٣) ينظر: الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام ٣/٢٨٥، الشاطبي: المصدر السابق ٢/١٢٦، الدهلوي: حجة الله البالغة ١/٦. الشلبي: تعليل الأحكام ص ٩٦.
(٤) الآمدي: المصدر السابق ٣/٢٨٥.

وهذا يستدعي من المكلف العناية بالتكاليف والالتزام بأدائها كما طلبها الشرع، في كل مرتبة من مراتبها، ليجني ثمارها في الدنيا والآخرة.

المطلب الثاني
تفاوت درجات التكاليف

من رحمة الله بالمكلف أن الأوامر والنواهي الشرعية، ليست على درجة واحدة، وليست في الأهمية سواء: «فإن الأوامر المتعلقة بالأمور الضرورية ليست كالأوامر المتعلقة بالأمور الحاجية، ولا التحسينية، ولا الأمور المكملة للضروريات كالضروريات، بل بينهما تفاوت معلوم، بل الأمور الضرورية ليست في الطلب على وزان واحد.

ونتيجة لهذا التفاوت، يجب على المكلف في نفسه، وعلى المجتهد في اجتهاده، أن يراعي هذا الترتيب، وهذا التفاوت، في فهم الأوامر والنواهي الشرعية، فينزل كل شيء منزلته، ويقدم ما حقه التقديم، وتأخير ما حقه التأخير، وإعطاء الأولوية في القيام بالتكاليف بحسب درجاتها ومكانتها ووقتها.

وأما إذا أهملنا هذا النظر -وقد اعتبره الشارع- فإننا سنقع في أغلاط جسيمة، وحرج كبير، فضلا عن مخالفة هدي الشارع بإهمال مفاضلته وترتيبه، فليست الأوامر الشرعية بنفس الدرجة وتعطي نفس الحكم، وكذلك الشأن في النواهي. وحتى بالنسبة للأوامر التي تفيد الوجوب، والنواهي التي تفيد التحريم، ليست على درجة واحدة. فالواجبات الشرعية درجات، والمحرمات كذلك[1].

(١) الشاطبي: الموافقات ٣/ ٢٠٩، وانظر أيضًا في نفس المعنى ص١٥٣ و٢٥٥. بتصرف.

وقد استصحب الشاطبي تفاوت درجات التكاليف الشرعية، وهو يعالج موضوع البدع في كتابه الاعتصام، حيث قال: (إن المعاصي منها صغائر ومنها كبائر، ويعرف ذلك بكونها واقعة في الضروريات أو الحاجيات أو التكميليات. فإذا كانت في الضروريات فهي أعظم الكبائر، وإن وقعت في التحسينات فهي أدنى رتبة بلا إشكال. وإن وقعت في الحاجيات فمتوسطة بين الرتبتين. ثم إن كل رتبة من هذه الرتب لها مكمل، ولا يمكن في المكمل أن يكون في رتبة المكمل. فإن المكمل مع المكمل في نسبة الوسيلة مع القصد. ولا تبلغ الوسيلة رتبة المقصد، فقد ظهر تفاوت رتب المعاصي والمخالفات)(١).

وبناء على هذا التفاوت في المصالح والمفاسد، وفي التكاليف الشرعية -تبعًا لذلك- يقرر أن: (الفعل يعتبر شرعًا بما يكون عنه من المصالح أو المفاسد. وقد بين الشرع ذلك، وميز بين ما يعظم من الأفعال مصلحته فجعله ركنًا، أو مفسدته فجعله كبيرة. وبين ما ليس كذلك سماه في المصالح إحسانًا، وفي المفاسد صغيرة)(٢).

ونتيجة لهذا التفاوت ندرك وجوه الرحمة في ذلك، والتي من أبرزها:

١. ترتب الأجر على حسن العمل لا مشقته وكثرته:

رتب الله الأجر على حسن العمل لا كثرته أو مشقته قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢].

وباستقراء الأدلة الشرعية فإن الشارع لم يقصد إلى التكاليف بالمشاق والعنت، لقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧] وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا

(١) الشاطبي: الاعتصام٢/٣٨.
(٢) الشاطبي: الموافقات، ١/ ٢١٣، ينظر ايضًا: ٢/ ٢٩٩.

حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة:٢٨٦] وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥] وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء:٢٨] وقوله ﷺ: «إني بُعثت بحنيفيّةٍ سمحة»[١] قال ابن القيم: (جمع بين كونها حنيفية وكونها سمحة، فهي حنيفية في التوحيد سمحة في الأخلاق، وضد الأمرين: الشرك، وتحريم الحلال، وهما قرينتان وهما اللذان عابهما اللّه تعالى في كتابه على المشركين)[٢]، وقول عائشة رضي الله عنها «ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً»[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (قول بعض الناس: الثواب على قدر المشقة ليس بمستقيم على الإطلاق، كما يستدل به طوائف على أنواع من الرهبانيات والعبادات المبتدعة، التي لم يشرعها اللّه ورسوله، من جنس تحريمات المشركين وغيرهم ما أحل اللّه من الطيبات، ومثل التعمق و التنطع الذي ذمه النبي ﷺ حيث قال: «هلك المتنطعون»[٤]، وقال: «لو مدّ لي الشهر لواصلت وصالاً يدع المتعمقون تعمقهم»[٥]، مثل الجوع أو العطش المفرط الذي يضر العقل والجسم، ويمنع أداء واجب أو مستحبات أنفع منه، وكذلك الاحتفاء والتعري والمشي الذي يضر الإنسان بلا فائدة، مثل حديث أبي إسرائيل الذي نذر أن يصوم وأن يقوم قائماً ولا يجلس ولا يستظل ولا يتكلم،

(١) أخرجه الإمام أحمد (رقم ٢٤٨٥٥)، من حديث عائشة، بإسناد حسن. وله شاهدٌ من حديث ابن عباس: أخرجه البخاري معلّقاً في صحيحه - كتاب الإيمان، باب (٢٩): الدين يسر - (١٢)، ووصله هو في الأدب المفرد (رقم ٢٨٧)، والإمام أحمد (رقم ٢١٠٧)، وانظر: تغليق التعليق لابن حجر ٢|٤١ - ٤٢.

(٢) ابن القيم: إغاثة اللهفان ١/ ١٥٨.

(٣) صحيح البخاري ٤/١٨٩ رقم الحديث٣٥٦٠.

(٤) صحيح مسلم ٤/٢٠٥٥رقم الحديث٢٦٧٠.

(٥) صحيح البخاري ٩/٨٥ رقم الحديث٧٢٤١.

فقال النبي ﷺ: «مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه»[1].

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فأما كونه مشقاً فليس سبباً لفضل العمل ورجحانه، ولكن قد يكون العمل الفاضل مشقّاً ففضله لمعنى غير مشقته، والصبر عليه مع المشقة يزيد ثوابه وأجره، فيزداد الثواب بالمشقة. . فكثيراً ما يكثر الثواب على قدر المشقة والتعب، لا لأن التعب والمشقة مقصود من العمل، ولكن لأن العمل مستلزم للمشقة والتعب، هذا في شرعنا الذي رفعت عنا فيه الآصار والأغلال، ولم يجعل علينا فيه حرج، ولا أريد بنا فيه العسر)[2].

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إذا كان قصد المكلف إيقاع المشقة فقد خالف قصد الشارع، من حيث إن الشارع لا يقصد بالتكليف نفس المشقة، وكل قصد يخالف قصد الشارع باطل، فالقصد إلى المشقة باطل، فهو إذاً من قبيل ما ينهى عنه، وما ينهى عنه لا ثواب فيه، بل فيه الإثم إن ارتفع النهي إلى درجة التحريم، فطلب الأجر بقصد الدخول في المشقة قصد مناقض)[3].

ونهيه عن التشديد -أي: النبي ﷺ- شهير في الشريعة، بحيث صار أصلاً قطعياً، فإذا لم يكن من قصد الشارع التشديد على النفس، كان قصد المكلف إليه مضاداً لما قصد الشارع من التخفيف المعلوم المقطوع به، فإذا خالف قصده قصد الشارع بطل ولم يصح[4].

ونتيجة لهذا التفاوت بين التكاليف وأحوال المكلفين شرعت الرخص رحمة بالمكلف، إذ لو قصد الشارع التكليف بالمشقة لما حصلت، و لو قصدت المشقة في كل مرة وداوم عليها المكلف، لوجدت مشقة غير

(١) سبق تخريجه.
(٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١٠/ ٦٢٢ - ٦٢٣.
(٣) الشاطبي: الموافقات ٢/ ١٢٩.
(٤) المصدر السابق ٢/ ١٣٣.

معتادة وحرج كبير، ممّا يفضي إلى ترك العبادة بالكلية والانقطاع عنها، فشرع الله جل وعلا لنا الرفق والأخذ من الأعمال بما لا يحصِّل مللاً، ونبّه النبي ﷺ على ذلك فقال: «القصد القصد تبلغوا»(١).

٢. ترتيب الأولويات في القيام بالتكاليف: فوضع كل شيء في مرتبته، والقيام بكل عمل في وقته، وإعطاء كل تكليف وزنه الذي أعطاه الشرع، فلا يرفع الواجب المخير إلى منزلة الواجب المعين، أو المندوب إلى منزلة الواجب، بل يوضع كل شيء في موضعه الذي شرع له، ومن ذلك ما سلكه النبي ﷺ في ترتيبه للأولويات، كما أورده البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما «أن النبيَّ ﷺ بعَثَ مُعاذًا رضي الله عنه إلى اليمنِ، فقال: ادعُهم إلى شهادةِ أن لا إلهَ إلا اللّهُ وأني رسولُ اللّه، فإن هم أطاعوا لذلك، فأَعْلِمْهم أن اللّهَ قد افتَرَضَ عليهم خمس صلوات في كلِّ يوم وليلةٍ، فإن هم أطاعوا لذلك، فأَعْلِمْهم أن اللّهَ افتَرَضَ عليهم صدقةً في أموالِهم، تُؤخَذُ من أغنيائِهم وتُرَدُّ على فقرائِهم»(٢)، قال ابن حجر رحمه الله: (بدأ ﷺ بالأهم فالأهم، وذلك من التلطف في الخطاب؛ لأنه لو طالبهم بالجميع في أول مرة لم يأمن من النفرة)(٣).

٣. التوازن في أداء التكاليف حسب درجاتها ووقت أدائها، وحال المكلف، إذ هو أساس التعبد وميدان الفلاح في الدنيا والآخرة، ويتضح هذا التوازن في قصة أبي الدرداء رضي الله عنه، عندما أراد السير على أسلوب خاص في العبادة، أوقع الحرج بنفسه، وحرم أهله من حقوقهم، وتشدد في غير موضعه، فزجره سلمان رضي الله عنه وأقره النبي ﷺ، فقد: آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ

(١) صحيح البخاري٨/٩٨رقم الحديث٦٣٦٤.
(٢) المصدر السابق٩/١١٤ رقم الحديث٧٣٧١.
(٣) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣/٣٥٩.

أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ؟ قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ: سَلْمَانُ قُمِ الآنَ، فَصَلَّيَا فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَ سَلْمَانُ»[1].

فالشارع فاضل بين التكاليف بما ينسجم ومصلحة المكلف، ووازن بين حاجات الإنسان الجسدية والمعنوية، وبين القيم المادية والقيم الروحية.

وبين النبي ﷺ هذا المعنى بقوله: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا»[2].

ومن خلال هذا التوازن، وهدي الإسلام القائم على الرحمة واليسر، نستطيع القول: إن الإسلام لم يحرم شيئًا يحتاج إليه الإنسان في واقع حياته، كما لم يبح له شيئًا يضره في الواقع، كما قدر الظروف التي تعترض حياة الإنسان، وتضغط عليه، وراعاها زمانًا وشخصًا ومكانًا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة]، وقد اعتبر الشارع الحكيم الرحيم مجموعة من الأمور سببًا في التيسير والتخفيف على الإنسان منها (المرض - الخطأ - النسيان - الإكراه).

فالتكاليف الشرعية منظومة من القيم متكاملة متناسقة لا يمكن

(١) صحيح البخاري ٣/٣٨رقم الحديث ١٩٦٨.
(٢) صحيح البخاري، باب الدين يسر، ١/١٦رقم الحديث٣٩. .

أن تتناقض مع بعضها، أو تحمل العنت للمكلف، جاءت خدمة للإنسان وصيانة لحقوقه ومصالحه في الدارين.

المطلب الثالث
مآلات التكاليف الشرعية وأوجه الرحمة فيها

من أهم ما يتعيّن على المكلف، وخصوصًا من يتصدر للفتيا، إدراك وفهم قواعد الشريعة الكلية، ومقاصد التشريع وغاياته التي يتوقف عليها تنزيل الأحكام بدون إفراط أو تفريط، فمن تصدر للفتيا، وأغفل هذا الباب أوقع الناس في الحرج المرفوع شرعًا، وليس من الفقه في الدين الجمود على ما كتبه السابقون، مراعاة لوقائع معينة، أو أعراف، ومن ثم تنزيل تلك الأحكام على وقائع غيرِ تلك الوقائع، وأعرافٍ وعوائدَ تغيرت واختلفت.

قال القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فمهما تجدد في العرف اعتبره، ومهما سقط أسقطه، ولا تجمد على المسطور في الكتب طول عمرك... والجمود على المنقولات أبداً ضلال في الدين وجهل بمقاصد علماء المسلمين والسلف الماضين، وعلى هذه القاعدة تتخرج أيمان الطلاق والعتاق وصيغ الصرائح والكنايات، فقد يصير الصريح كناية يفتقر إلى النية)[(١)]
وتتبين أوجه الرحمة من خلال النظر في مآلات التكاليف فيما يلي:

١. النظر في مآلات الأحكام الشرعية يساعد في فهم تنزيل الأحكام، ويجنب المكلف كثيرا من الحرج، وكذا المجتمع من حوله، فعن جابر ابن عبدالله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «خرجنا في سفر، فأصاب رجلاً منا حجرٌ

---

(١) القرافي: أنوار البروق في أنواء الفروق ٢/ ٢٢٩.

فَشَجَّهُ في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟! فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء! فاغتسل فمات. فلما قدمنا على النبي ﷺ أُخْبِرَ بذلك، فقال: قتلوه قتلهم الله! ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء الْعِيِّ السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمّم ويعصر أو يعصب -شَكَّ موسى- على جرحه خِرْقَةً ثم يمسح عليها، ويغسل سائر جسده»[(١)].

ففي هذا الموقف النبوي يرشد النبي ﷺ أصحابه إلى أداة مهمة من أدوات التعلم؛ ألا وهي سؤال أهل العلم.

إذ أن الجمود يورث المشقة والعنت بالمكلف، قال الإمام الخطابي: (في هذا الحديث من العلم: أنه عابهم بالفتوى بغير علم، وألحق بهم الوعيد بأن دعا عليهم، وجعلهم في الإثم قتلة له)[(٢)].

فالنظر إلى مآلات الفعل يورث الرحمة بالمكلف، وعدم تكليفه بما لا يطاق، أو بما يؤدي إلى إتلاف نفسه كما في الحديث السابق.

وهذا النظر قائم على مراعاة أحوال المكلف، فلا يجوز للمفتي أن يغفل عنه، ولأهمية هذا الموضوع، ترجم الإمام البخاري في صحيحه[(٣)] باب: (من ترك بعض الاختيار؛ مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه، فيقعوا في أشد منه)، ثم أورد حديث مختصراً بلفظ «يا عائشة! لولا قومك حديث عهدُهم، قال ابن الزبير: بكفر، لنقضت الكعبة، فجعلت لها بابين؛ باب يدخل الناس، وباب يخرجون»[(٤)].

(١) رواه ابن ماجه في سننه في كتاب الطهارة وسننها ، وحسنه العلامة محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله في صحيح سنن ابن ماجه برقم ٤٦٤ وفي صحيح أبي داود ٣٦٤.
(٢) محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبدالرحمن، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي: عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الثانية، ١٤١٥هـ، ١/٣٦٧.
(٣) كتاب العلم، (٤٨).
(٤) صحيح البخاري ١/٣٧ رقم الحديث١٢٦.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَفِي هَذَا الْحَدِيث دَلِيل لِقَوَاعِد مِنْ الأَحْكَام مِنْهَا: إِذَا تَعَارَضَتْ الْمَصَالِح، أَوْ تَعَارَضَتْ مَصْلَحَة وَمَفْسَدَة وَتَعَذَّرَ الْجَمْع بَيْن فِعْل الْمَصْلَحَة وَتَرْك الْمَفْسَدَة بُدِئَ بِالأَهَمِّ؛ لأَنَّ النَّبِيّ ﷺ، أَخْبَرَ أَنَّ نَقْض الْكَعْبَة وَرَدَّهَا إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ قَوَاعِد إِبْرَاهِيم ﷺ مَصْلَحَة، وَلَكِنْ تُعَارِضهُ مَفْسَدَة أَعْظَم مِنْهُ، وَهِيَ خَوْف فِتْنَة بَعْض مَنْ أَسْلَمَ قَرِيبًا، وَذَلِكَ لِمَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَهُ مِنْ فَضْل الْكَعْبَة، فَيَرَوْنَ تَغْيِيرهَا عَظِيمًا، فَتَرَكَهَا ﷺ. وَمِنْهَا فِكْر وَلِي الأَمْر فِي مَصَالِح رَعِيَّته، وَاجْتِنَابه مَا يَخَاف مِنْهُ تَوَلُّد ضَرَر عَلَيْهِمْ فِي دِين أَوْ دُنْيَا، إِلاَّ الأُمُور الشَّرْعِيَّة؛ كَأَخْذِ الزَّكَاة، وَإِقَامَة الْحُدُود، وَنَحْو ذَلِكَ)[1].

٢. إباحة بعض المحرمات بناء على النظر في المآلات: كجواز الأكل والشرب مما حرمته الشريعة كالميتة والخمر إذا اضطر الإنسان إلى أكلها أو شربها، لعدم وجود غيرها، وخاف الهلاك على نفسه، فإنه يتناول القدر الذي يدفع به الضرر والهلاك قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٩] وكالنطق بكلمة الكفر ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل]، وهذا الأمر مبني على مراعاة مآلات الأفعال؛ فإن المفسدة بهلاك النفس أعظم من المفسدة بأكل المحرم أو شربه، والمصلحة بحفظ النفس أعظم منها بترك أكل المحرم وشربه. وهكذا سائر الأفعال والأقوال كل مؤداها رحمة الشارع بالعباد وغايتها الامتثال والطاعة.

(١) النووي: شرح صحيح مسلم (٥/٢٢٢).

الخاتمة

وختامًا: نحمد الله أولاً وآخراً، على تيسيره وعونه، فهو صاحب الفضل والجود والكرم، كما نلخص أهم نتائج البحث وتوصياته فيما يلي:

أولًا: النتائج:

١. شرعت التكاليف الشرعية رحمة بالمكلف فراعت تكوينه الجسدي والنفسي والعقلي، كما راعت تقلبات الزمان وتغير الأحوال، وبنت في المكلف قيم الاستخلاف في الأرض والوعي بقضايا الحياة المختلفة.

٢. اليُسْر مقصد من مقاصد الإسلام الكبرى وغاية من غاياته، جعله الله منطلقًا لكل التكاليف الشرعية أمرًا ونهيًا، وأمرنا التزامه في فهمنا للدين والعمل به والدعوة إليه.

٣. التنوع في التكاليف الشرعية زمانًا وشخصًا، يتماشى مع الطبيعة البشرية التي تنفر من الصعب، وتمل من كثرة العمل، وذلك بسبب ما فطرت عليه النفس البشرية من الضعف، وما رُكب فيها من الملل والتقلب.

٤. إن مراعاة النصوص الشرعية لجوانب الحياة بكل تقلباتها، تمثلت بتنوع التكاليف وتعدد درجاتها، بحسب حالة المكلفين.

٥. الوعي بالواقع، وفقه تنزيل النص، واستكشاف كنه الخطاب، أسس لإدراك مقاصد الشريعة، ومعرفة غايات تكاليفها.

٦. إن تعليل الأحكام، وذكر الغايات من الخطاب الشرعي، تُعد من أبرز الدوافع للعمل، والامتثال لنيل الرحمة في الدنيا والآخرة.

٧. من أهم ما يتعيّن على المكلف، خصوصًا من يتصدر للفتيا، إدراك وفهم قواعد الشريعة الكلية، ومقاصد التشريع وغاياته التي يتوقف عليها تنزيل الأحكام.

ثانيا: التوصيات:

في ضوء مضامين البحث ونتائجه يوصي الباحث بما يلي:

١. ضرورة إيلاء قضية الفتوى الاهتمام البالغ خصوصًا في هذا العصر، من خلال تأهيل العلماء ببرامج توعوية حول المستجدات وفقه التنزيل.

٢. تفعيل دور المجامع الفقهية، ومراكز الأبحاث الشرعية في بحث القضايا العصرية، والنوازل الفقهية.

٣. تأهيل الأئمة والدعاة (الوعاظ -الخطباء) من خلال إقامة الدورات والندوات، وإكسابهم المعارف اللازمة في التعامل مع الناس، ومراعاة أحوالهم المختلفة.

٤. رصد الشبهات المثارة حول التكاليف الشرعية، والرد عليها من قبل العلماء المتخصصين بصورة تُبين فيها مقاصد التشريع ومصلحة المكلف، وترجمتها إلى اللغات العالمية الحية.

٥. إعادة النظر في صياغة المناهج التعليمية في مراحل التعليم المختلفة، خصوصًا فيما يتعلق بالأحكام الشرعية، وإبراز الحكم الشرعي مع مقاصد التشريع وحكمه.

والحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع:

١. ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ، مجموع الفتاوى، دار الكتب العلمية، ط٢.

٢. ابن حجر؛ أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار الحديث القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

٣. ابن القيم؛ أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار النشر: دار الجيل – بيروت – ١٩٧٣م، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد.

٤. أبو داود؛ سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، سنن أبي داود، دار النشر: دار الفكر، بيروت – تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد.

٥. أحمد بن حنبل: المسند تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث – القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.

٦. الألباني ؛محمد ناصر الدين، صحيح الترغيب والترهيب: مكتَبة المَعارف لِلنَشْرِ والتوزيْع، الرياض – المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.

٧. الآمدي؛ أبو الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت- دمشق- المحقق: عبدالرزاق عفيفي.

٨. الحاكم ؛محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١١هـ – ١٩٩٠م، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا.

٩. البخاري؛ محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، صحيح البخاري، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق، محمد زهير ابن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
١٠. الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، الصحاح، دار إحياء التراث العربي. بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، .
١١. الزبيدي؛ محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار النشر: دار الهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين.
١٢. الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين، البرهان في أصول الفقه، تحقيق: صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.
١٣. السبكي، عبدالوهاب بن علي السبكي تاج الدين، جمع الجوامع في أصول الفقه ، المحقق: عبدالمنعم خليل إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية، سنة النشر: ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.
١٤. السيوطي؛ عبدالرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر: الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.
١٥. الشاه ولي الله الدهلوي ؛ أحمد بن عبدالرحيم بن الشهيد وجيه الدين بن معظم بن منصور، حجة الله البالغة، المحقق: السيد سابق، الناشر: دار الجيل، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.
١٦. شلبي: محمد مصطفى، تعليل الأحكام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

١٧. الشاطبي؛ إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي، الموافقات في أصول الفقه، الناشر: دار ابن عفان الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان.

١٨. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

١٩. عادل الشويخ، تعليل الأحكام في الشريعة الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٢٠. عباس العقاد، صور من سماحة الإسلام: الإسلام في القرن العشرين، نهضة مصر للنشر والتوزيع.

٢١. العز بن عبدالسلام،، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت

٢٢. فتحي عثمان، الفكر الإسلامي والتطور، مطابع دار القلم ـ القاهرة.

٢٣. محمد بن صالح العثيمين، تفسير القرآن الكريم، دار ابن الجوزي، السعودية، ط ١، ١٤٢٣هـ.

٢٤. محمد عثمان شبير؛ القواعد الكلية والضوابط الفقهية في الشريعة الإسلامية،، دار النفائس، عمّان الأردن، ط ٢، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م .

٢٥. محمد الغزالي: خلق المسلم، دار الكتب الإسلامية، عابدين، مصر الطبعة التاسعة١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٢٦. المنياوي، محمود بن محمد، الشرح الكبير لمختصر الأصول من علم الأصول، المكتبة الشاملة، مصر ط ١٤٣٢هـ -٢٠١١م.

٢٧. هيتو، محمد حسن، الوجيز في أصول التشريع، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الثانية١٩٨٤م.

٢٨. مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٢٩. النووي؛ يحيى بن شرف بن مري النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار المعرفة؛ بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.
٣٠. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – الكويت–الموسوعة الفقهية، دار السلاسل – الكويت، الطبعة الثانية.

فهرس البحوث

- **بحث: أسباب الرحمة وأثرها في إصلاح الفرد والمجتمع من خلال آيات القرآن الكريم.**

د. خالد أحمد بركات.

المقدمة ٧
التمهيد ١١
المبحث الأول: الإيمان ١٤
المبحث الثاني: التقوى ٢٠
المبحث الثالث: القرآن الكريم وصلته بالرحمة ٢٣
المبحث الرابع: الدعاء ٢٦
المبحث الخامس: الاستغفار ٣١
المبحث السادس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٣٣
المبحث السابع: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأثرهما في إصلاح الفرد والمجتمع ٣٦
المبحث الثامن: طاعة الله ورسوله ﷺ وأثرها في إصلاح الفرد والمجتمع ٣٩
المبحث التاسع: الهجرة في سبيل الله وأثرها في إصلاح الفرد والمجتمع .. ٤١
المبحث العاشر: الجهاد في سبيل الله ٤٣
الخاتمة ٥٢

- **بحث: رحمة الرحمن الرحيم معناها وآثارها.**

د. منيرة العقلا.

المقدمة ٥٩

المبحث الأول: اسما الله الرحمن الرحيم ٦٣
المطلب الأول: معنى الرحمن، والرحيم ٦٣
المطلب الثاني: الفرق بين الرحمن والرحيم ٦٤
المطلب الثالث: أسماء الله الحسنى المتعلقة والمقترنة بهاذين الاسمين ٦٦
المطلب الرابع: إثبات صفة الرحمة للّه ٧١
المبحث الثاني: أنواع الرحمة ٧٤
المبحث الثالث: آثار رحمة اللّه سبحانه ٧٦
المطلب الأول: آثار رحمة اللّه سبحانه في الخلق ٧٨
المطلب الثاني: آثار رحمة اللّه سبحانه في الشرع ٧٨
المبحث الرابع: ثمار الإيمان برحمة اللّه ٨١
الخاتمة ٨٦

- **بحث: حديث «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ» وقفات إيمانية**

أ. د. إبراهيم بن حماد الريس

المقدمة ٩٣
المبحث الأول: تخريج الحديث وذكر بعض ألفاظه ورواياته، وفوائده ٩٨
المبحث الثاني: بيان سعة رحمة اللّه مع ذكر بعض النصوص الواردة
في معنى الحديث ١٠٦
المبحث الثالث: الأثر الإيماني لحديث «المائة رحمة» في قلوب
العباد وعلى أعمالهم ١٠٩
الخاتمة ١١٤

- **بحث: معالم الرحمة في عقيدة الإيمان باليوم الآخر.**

د. عبدالسلام محسن يوسف

المقدمة ١٢١
الفصل الأول: منهج القرآن في إثبات يوم القيامة والاستدلال عليه ..١٢٨
الفصل الثاني: كيفية الحساب يوم القيامة ٢٣٤
الفصل الثالث: أثر العقيدة في سلوك الأفراد والجماعات ١٤٦
الخاتمة ٢٥٢

- **بحث: نقد المفاهيم الخلاصيَّة النَّصرانيّة من خلال حقائق الرحمة في الإسلام**

د. محمد بودبان

المقدمة ١٦١
المبحث الأوَّل: ضبط المفاهيم الخلاصيّة في النَّصرانيَّة ١٦٥
المطلب الأوَّل: المكوِّنات العقديَّة للتدبير الخلاصي في النَّصرانيَّة ١٦٥
المطلب الثاني: صياغة النَّصارى لمراحل التدبير الخلاصي ١٧٥
المبحث الثاني: مكانة الرحمة من المخطط الخلاصي النَّصراني ..١٧٩
المطلب الأوّل: مفهوم الرَّحمة عند النَّصارى ١٧٩
المطلب الثاني: علاقة الرحمة بمكوِّنات التدبير الخلاصي
عند النّصارى ١٨١
المبحث الثالث: النقد الإسلامي للخلاص النَّصراني من خلال الرحمة ١٨٦
المطلب الأوَّل: بيان معالم الرحمة الإلهيَّة في الإسلام، وتناسق
معانيها المبثوثة في الشريعة ١٨٦

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

المطلب الثاني: بيان اضطراب التبرير بالرحمة في كامل محطّات
التدبير الخلاصي النّصراني ١٩٥
الخاتمة ٢٠٣

- **بحث أوجه الرحمة المتعلقة بالغيبيات - النبوات أنموذجا.**

د: سارة بنت فراج بن علي العقلاء.

المقدمة ٢١٣
المبحث الأول: الرحمة في دلالة العقل على الغيب ٢١٥
المبحث الثاني: الرحمة في مراعاة الفطرة في الحاجة للرسل ٢٢٤
المبحث الثالث: الرحمة في بعث الرسل من جنس البشر ٢٣٠
المبحث الرابع: الرحمة في بعث الرسل مؤيدين بالآيات والبراهين ... ٢٢٦
المبحث الخامس: الرحمة في إقامة الحجة بالرسل وعدم التعذيب
قبل إرسال الرسل وإنزال الكتب ٢٤٧
الخاتمة ٢٥٢

- **بحث: الرحمة في الإسلام واقعية المفهوم ودفع الشبهات.**

د. علي مصطفى.

المقدمة ٢٦٥
المطلب الأول: مفهوم خلق الرحمة ٢٦٨
المطلب الثاني: واقعية مفهوم خلق الرحمة في منظومة الأخلاق
الإسلامية ٢٧٢

المطلب الثالث: منزلة خلق الرحمة في الكتاب والسنة ٢٧٨
المطلب الرابع: شبهات منكري الرحمة في الإسلام وجوابها ٢٨٣
الخاتمة ٢٩٥

- **بحث: الرحمة في الابتلاء بالضراء في ضوء السنة النبوية.**

د. خديجة إبراهيم إزعريين.

المقدمة ٣٠٥
التمهيد،: التعريف بالألفاظ الواردة في عنوان البحث ٣٠٧
المبحث الأول:الرحمة الربانية في ابتلاء الأمة ٣٠٩
المطلب الأول: الابتلاء بالفتن العامة ٣١٠
المطلب الثاني: الابتلاء بالجهاد ٣١٧
المطلب الثالث: الابتلاء بالكوارث ٣٢٢
المبحث الثاني: الرحمة الربانية في ابتلاء الفرد ٣٢٦
المطلب الأول: الابتلاء في النفس والأهل ٣٢٧
المطلب الثاني: الابتلاء في المال ٣٣٥
الخاتمة ٣٣٨

بحث: آثار رحمة الله في المرض والموت.

د. علي بن سعيد العبيدي.

المقدمة ٣٤٧

مدخل : الرحمة الإلهية وخلق الشر وإرادته ٣٥٠
المبحث الأول : آثار رحمة الله في المرض ٣٥٣
المطلب الأول : مفهوم المرض ٣٥٣
المطلب الثاني : آثار رحمة الله في التداوي ٣٥٥
المطلب الثالث : آثار رحمة الله في العوض في المرض ٣٦٢
المطلب الرابع : آثار رحمة الله المتعدية في المرض ٣٦٥
المبحث الثاني : آثار رحمة الله في الموت ٣٦٨
المطلب الأول : مفهوم الموت ٣٦٨
المطلب الثاني : آثار رحمة الله في موت المؤمن ٣٦٩
المطلب الثالث : آثار رحمة الله في موت الطفل ٣٨١
المطلب الرابع : آثار رحمة الله في موت الكافر ٣٨٣
المطلب الخامس : آثار رحمة الله المتعدية في الموت ٣٨٥
الخاتمة ٣٩٠

- **بحث: دلالات في مفهوم الرحمة بين الإسلام والمسيحية -دراسة مقارنة.**

د. بدرية بنت محمد عبدالله الفوزان.

المقدمة ٤٠١
التمهيد : تعريف بمصطلحات الدراسة ٤٠٤
الفصل الأول: الرحمة بأهل الكتاب في القران الكريم ٤٠٧
المبحث الأول: دلالة الرحمة في قوله تعالى: (ولنجعله آية
للناس ورحمة) ٤٠٧

المبحث الثاني: دلالة الرحمة في رفع عيسى عليه السلام ٤٠٩
المبحث الثالث: دلالة الرحمة في عودة عيسى عليه السلام إلى الأرض ... ٤١١
المبحث الرابع: دلالة الرحمة بالمؤمنين من أهل الكتاب من
خلال نصوص القران الكريم ٤١٣
المبحث الخامس: الرحمة والعدل مع الحواريين ٤١٧
الفصل الثاني: الرحمة في الكتاب المقدس ٤٢٠
المبحث الأول: مفهوم الرحمة في الكتاب المقدس ومظاهرها ... ٤٢٠
المبحث الثاني: العلاقة بين الخطيئة والرحمة ٤٢٢
المبحث الثالث: العلاقة بين الرحمة والعدل والعقاب ٤٢٤
المبحث الرابع: العلاقة بين الرحمة والتوبة ٤٢٦
الخاتمة ٤٢٩

- **بحث: معالم الرحمة في تنزيل القرآن الكريم.**

د. أبو أروى رضوان بن إبراهيم لخشين

المقدمة ٤٣٧
التمهيد: بين يدي المباحث ٤٣٩
المبحث الأول: معالم الرحمة في تنزلات القرآن ٤٤٧
المبحث الثاني: معالم الرحمة في تنجيم القرآن وتفريقه ٤٥٣
المبحث الثالث: معالم الرحمة في المكي والمدني ٤٥٩
المبحث الرابع: معالم الرحمة في أسباب النزول ٤٦٤
المبحث الخامس: معالم الرحمة في المنسوخ والناسخ ٤٦٩
المبحث السادس: معالم الرحمة في نزول الأحرف السبعة ٤٧٥

الخاتمة ٤٩٧

- **بحث: ملاءمة التكاليف الشرعية للمكلف وأوجه الرحمة فيها.**

د. يحيى مقبل الصباحي

المقدمة ٤٩١
المبحث الأول: مفهوم التكاليف الشرعية وسماتها ٤٩٥
المطلب الأول: مفهوم التكاليف الشرعية ٤٩٥
المطلب الثاني: سمات التكاليف الشرعية ٤٩٩
المطلب الثالث: الاستطاعة وأوجه الرحمة ٥٠٦
المبحث الثاني: التكاليف مقاصدها وتفاوت درجاتها ٥١٢
المطلب الأول: التكاليف مقاصدها وآثارها على المكلف ٥١٣
المطلب الثاني: تفاوت درجات التكاليف ٥١٧
المطلب الثالث: مآلات التكاليف الشرعية وأوجه الرحمة فيها . ٥٢٣
الخاتمة ٥٢٦